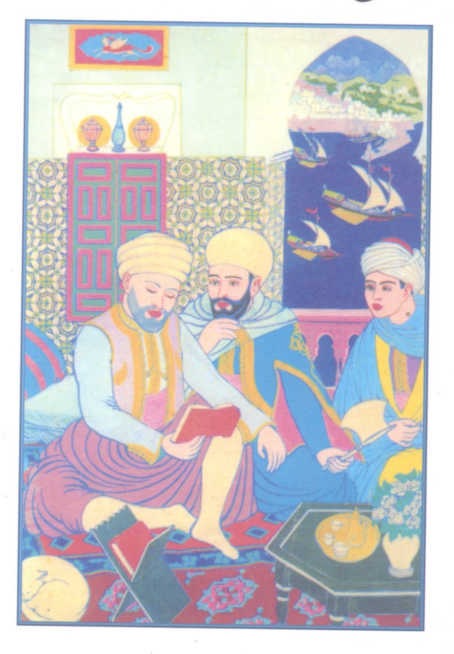
كمال بوشامة

الجزائر
أرض عقيدة وثقافة





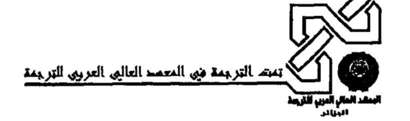


كمال بوشامة



الجزائر
أرض عقيدة وثقافة

ترجمة: محمد المعراجي





صنف : 4/265
– الإيداع القانوني : 5113/2007
– ردمك : 978-9961-65-148-3

www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com

الإهـداء

إلى كل أولئك العظماء الذين نسيناهم

تمهيد

ليس من باب المصادفة أن أكتب هذا الكتاب عن الشخصيات المتميِّزة في الإسلام وفي الثقافة في بلادنا..

إن الأحداث المأساوية التي عاشها شعبنا تظهر لنا إلى أيّ درجة لم يفُهم الدين والثقافة، سواء في داخل البلاد أو خارجها، وإلى أي حدّ يغذي عدم الفهم هذا، الإشاعات والأكاذيب والافتراءات، للإِساءة إلينا، وتذكيرنا بتلك المقولة المهينة، التي كانت ترمي إلى تحريف التاريخ وتشويه ماضينا: ″إن هذا الجنس ليست له أي خصوصية إيجابية″.

إن الذين يروّجون للأفكار الخطيرة جداً، التي أكل الدهر عليها وشرب، مكررين بصوت عالٍ الصيغ الاستعمارية التي كانوا يصفوننا بها، على أننا شعب ″قاصر وبدائي وعاجز، وهو صالح فقط لرعاية لطيفة وأبوية″، يلتحقون بدون شك بكل الذين يواجهون الإسلام والثقافة صراحة، لأنهم يقومون بحرب صليبية جديدة، وهدفهم في ذلك أن يبرهنوا على ′عجزنا الفطري، وهم بذلك يدعمون المقولة التي مفادها أن ″شخصية الجزائري سلبية″، والتي ما انفكت الوسائط الغربية وأعداء الثورة الجزائرية يروّجون لها.

إن هذا الكتاب يطمح إلى أن يشرح الموضوع من ناحيتين: الأولى أن الإسلام والثقافة كانا بالنسبة لنا نحن الجزائريين، منذ القدم، وبرغم تدافع الأحداث، وسيلتين سمحتا لنا بإنتاج حضارتنا الخاصة، ودعم روح الكفاح والمقاومة عندنا، كما سمحتا من ناحية

ثانية لشبابنا بالوصول إلى معرفة مستنيرة لماضيهم، وأن يعرفوا أن رجالاً – وليس "مرابطين" مثلما ورد في المعنى الاستعماري – قد أعطوا التاريخ، بإيمانهم الصلب، وباطلاعهم الواسع، وبجرأتهم وتضحياتهم، اندفاعاً لا يُهْزَم.

الكاتب

مقدمة

"لقد كان الخطر داهماً، وأوشك الوادي المنتفخ إلى حد الانفلاق أن يكتسح الحدائق والمدينة، وربما سيحمل في سيلانه المتهيّج الديار والنخيل.. صار النهر الغضبان يضرب جدران سياج الحدائق وجدران القصر، التي بدأت تتفتت تحت سطوة المياه، سيدي عبد العزيز لم يتردد، فبعد أن وجهّ إلى الله دعاء تقياً، تمدد على بطنه في الوادي وفتح فمه، واندفعت المياه بصخب كبير في فمه وضاعت وهي تدور، وما هي إلا دقائق حتى تم ابتلاع وادي مزي، وراح بنو الأغواط يحمدون وليهم على نجاتهم من الكارثة المحققة"، هذا ما كتبه الكولونيل *C. Trumelet*.

يا لها من أسطورة جميلة لو نسبت إلى بطل أسطوري، عوض أن تسند إلى ذلك الرجل الصالح سيدي عبد العزيز الحاج (القرن السابع عشر)، وهو ولي من أولياء الله، من ضمن العديد من أولياء الجزائر الذين كانوا رجالاً عظاماً في مجال العلوم والآداب، واشتهروا كعلماء أعلام، لكونهم أنجزوا –على أتم وجه– عملاً كان يتطلب في الوقت نفسه مهارة عالية وورع المتقين وحماسة الدعاة؛ يدعمهم في كل ذلك تدريب مفرط على حياة الزهد.

إن فرنسا الاستعمارية قد شجعت على الالتجاء إلى الأسطورة في الجزائر.. وبصفة مقصودة، فإنها اصطنعت كثيراً من القصص، قصصاً عديدة وغير معقولة ومخيفة، جعلتها نبراساً لا بد منه، حتى لا تسير على غير هدىً كالأعمى، مجانبة في غالب الأحيان الطريق الصحيح

نفسه، ذلك الطريق الذي يفترض به أن يوصلها بسرعة إلى احتلال كل البلاد. كان ذلك، حسب مصطفى لشرف، وجهاً آخر، وجه الرومانسية الحربية، ألم يؤكد ذلك فولتير من جهته، بقناعة تامة حين قال:

"ليس ثمة من شيء، بما فيه الأساطير، إلا ويسمح لنا بالتعرف على أخلاق شعب ما".

في الواقع، وعَبْرَ هواجس تعمّد تضخيمها، فقد كان يتحلى ببعض من الحياء كي لا يدفع بالأمر إلى أقصاه، فعمد بدلاً من ذلك، إلى الإفصاح عن نواياه بخاتمة ضمنّها اعترافه بأن مسعاه كان إراحة ضمير المستعمِر، فقال: "لننقل مطامعنا التوسعية إلى حيزّ التطبيق".

وهكذا، فإنه كان على فرنسا أن تخلق العذر الذي تبرر به جهلها المزعوم لدِيننا، فيما كانت تدرك تماماً أن العمل الذي أقدمت عليه وسط الشعوب الغارقة في جهلها، في غالب الأحيان، فضلاً عن وقوعها ضحية التطير، إنما هو عمل تخريبي، عندما ادعت – من خلال نظرة إلى أهل البلاد الأصليين تحط من قدرهم، مستقوية في ذلك بأسباب وجيهة – أن "مسالك الإسلام صعبة ومزروعة بالمنعرجات".

لا نتوقف طويلاً عند هذا العذر، الذي كانت الغاية الوحيدة منه إسدال ستار من الغموض على التاريخ، بغية إخضاعنا لسيطرة أشد وطأة، غير أننا نصر برغم ذلك على أن الاستعمار كان يتصدى لما اعتبره "الداء الذي لا بدّ من اجتثاثه من جذوره"، ومن بين إجراءاته الطارئة، كان عليه أن يتصدى لرجال العقيدة، علماً أنه يدرك أنهم يحتفظون، سواء كانوا أمواتاً أو أحياء، بتأثير جمّ على الجماهير، ولهذا فإن الاستعمار كان يركب لهم أوصافاً مزرية، بغية الحط من عظيم جلالهم، وإدامة فكرة المرابطية، بتشجيعها.

نعم، أمّا المرابطية فلنا فيها كلام، إن هذه العبارة غالباً ما تم الحط من قدرها، علماً أن المستعمرين يدركون حق الإدراك، أن العبارة مشتقة من "مرابطون"، وهي كناية الأسرة البربرية الصنهاجية المالكة، التي أسسها عبدالله بن ياسين، الذي أسس "رباطه"، بين السنغال والنيجر، وخلفه فيما بعد يوسف بن تاشفين، الذي وَضَعَ أُسُسَ العاصمة مراكش (في سنة 1061)، وجعل منها قاعدة صلبة لتوجيه العمليات العسكرية عبر إفريقيا الشمالية وأسبانيا الأندلسية، مع أن تلك الأسرة المالكة من المرابطين ضمت في صفوفها رجال عقيدة، عمدوا إلى نشر أفكار دينية، إضافة إلى تطبيق تعاليم الإسلام، والتقيد بها تقيداً صارماً، عبر المغرب العربي قاطبة، وكان أميرهم شخصاً تقياً شديد التقوى، لم يكونوا علماء دين متشددين، ولا شخصيات تؤثر البهلوانيات الفكرية المثيرة للسخرية، كما ذهب الاستعمار إلى تصويرهم، لقد اقتضى الأمر منا هذا التوضيح.

ألم يُسَمِّ هذا الاستعمار، المتغطرس في مخادعته ومكره وسوء نيته، الشيطانَ في القرون الوسطى وحمار جان دو لافونتان بـ "أليبوران"، ملمّحاً بذلك تلميحاً واضحاً ومباشراً إلى البيروني، نصير الرياضيات والطب والتاريخ وعلم الأقوام والفلسفة واللسانيات، باعتباره درس اليونانية بالهند في زمن محمود الغزنوي؟ ألم يركب الاستعمار من عندياته هؤلاء "المرابطين"، من أمثال "سيدي بوحميّر".. وآخرين غيره؟

يحكى في هذا المجال أن مُعَمِّراً من الأقوياء دفن حماره، وبنى له قبة ليحرس له محاصيله. إن الفلاحين الجهلاء المنخدعين انطلت عليهم الحيلة، وصاروا يجلّون هذا الولي الجديد، ألم يشجع العادات والتقاليد

الوثنية المنشأ في الغالب لتحتل مكاناً بارزاً في المجتمع، وتنصّب طقوساً دينية فترمز، مع الأسف، خطأ إلى جزء لا يستهان به من ثقافتنا الشعبية؟ ألم يشتغل مع "ضعاف العقول" من عندنا ليكثر من هؤلاء "المرابطين"، الذين أقاموا قببهم على ربانا لمراقبة انتشار الآثار الفتاكة للسم، الذي كان ينفثه وسط قبائل عديمة الحماية فوق ذلك، لأنه لم يكن للحركة الوطنية حضور آنذاك؟ ألم يدفع السخرية في كوميديا هزلية، إلى حدّ جعل بعض المعتقدات، مثل القدرة على إزالة مرض ما، معتقدات مقبولة عند الناس؟ ثُم ألم نر، حسب ما روى العديد من الزوار، وتبعاً للشهادات السّاذجة، أخصائيين في علم أمراض النساء يعالجون العجز الجنسي والعقم، وأخصائيين في علم الأمراض العقلية يطردون الجنّي الشرير، وأخصائيين آخرين في أمراض الجلد أو في أمراض المعدة، كل هؤلاء يستقرون في العديد من جهات البلاد؟

إن نص العقيد تروملي، المذكور أعلاه، بليغ للغاية، حيث إن هذا الضابط السامي في الجيش يعترف – دونما خجل – بالدسائس القذرة التي كان يحيكها، بصفته مستعمراً، ضد سكان بسطاء ومسالمين، إذ كان يقول:

"إن لم نكن مسلحين بهذا النبراس الضروري، وبخاصة في بلاد الإسلام، فإن كل شيء يصير مسدوداً أمامنا، وسنمشي متلمّسين دربنا كالعميان، وفي غالب الأحيان نجانب الطريق الصحيح نفسه، لأن مسالك الإسلام صعبة ومزروعة بالمنعرجات، هناك خريطة يجدر بنا دراستها، ونكرر هذا، تلك الخريطة هي الأسطورة".

وفي مكان آخر، يفصح أكثر في كلامه، عندما يتحدث عن موضوع الاستخبار، وكيف يكون عسيراً أو يسيراً، فقد كتب:

"بالتأكيد، إن صعوبة استنطاق مسلم، وبخاصة في بعض الجوانب من شأن دينه ومعتقده وأوليائه (...)، أقل قدراً مما لو كان المستنطِق من فئة مخزن أو قائد؛ وبعبارة مختصرة، لو كان قوياً بحيث يتحكم بمصلحة المستنطَق ومصيره؛ إلا أنه مع ذلك لا بد من تقديم الدليل للمستجوَب أن ليس من مصلحته محاولة غش وتضليل العالم بأمور الدين الراغب في سبر مكنوناته الخفية، أو أن يأتي على نهاية الستار الذي يحجب المعرفة بها عن البسطاء من الناس".

هذه المهمة الميكيافلية، التي اضطلع بها الاستعمار ليذل عبرها الشعب، ويبقيه غارقاً في الجهل، سعياً منه لإحكام سيطرته عليه، لم تختلف عن المهمة الأخرى تلك الأكثر فتكاً والأخطر، التي يقصد بها الإساءة إلى رجال ذوي شأن أكبر، إنهم المحاربون من أجل الحرية، الذين رفضوا التسليم باغتصاب ترابهم الوطني، وباضطهاد السكان.. والحاج المقراني، ذلك البطل، بطل انتفاضة سنة 1871، لم يسلم من عواقب تلك المهمة: لقد تمّ تقديمه مع مقاتليه الأشاوس – وهم الذين ألحقوا بالجنرالات الفرنسيين الهزائم النكراء – على أنهم قطّاع طرق مشؤومون يشبهون الحشاشين (الشرقيين)؛ وهؤلاء قد تم تناولهم كذلك بالتحقير طعناً بصورتهم، وحطاً من قدرهم في أعين المؤمنين.. إن مؤرخاً للاستعمار كان يكتب بدون تحفظ، وهو موجه جيداً في ذلك:

"إن آل المقراني خاصة، وهم سادة المجانة، كانوا لا يكرهون حرب الغنائم والقطعان والغزوات، يعني السرقة الظريفة، وعندما يكونون في حاجة إلى غنم، يجمعون أهلهم وكل الذين يحبون المغامرات والبارود والذين يعيشون بذلك.. فمعهم كان المغامرون

دائماً متأكدين من عدم الرجوع بخفي حنين، هذا ما كان يحبه أولئك المحاربون من أجل الغنيمة، والذين كانوا دائماً في البلاد العربية يكرهون العمليات الخالية من الفائدة".

إن هذه القصص المضحكة كانت تعطي تبريراً خيرياً للفتح، وهذا "أحد الستائر لإخفاء سياسة أكثر نفعية"، وتؤكد لنا اليوم من ناحية أخرى، كما يوضح ذلك محمد بوسلامة في "صور من الجزائر، فيما كتبه عن الاحتلال من 1830 إلى 1850" أن هناك فرقا جديا "بين الرؤية الأدبية والواقع الذي كان متماشياً مع ما كان في استطاعتنا أن ننتظره من ذلك الأدب، الذي كان يعكس بدايات الاحتلال، إن ذلك الأدب كان محصوراً في سياق سياسي وتاريخي دقيق: تبرير الاحتلال والتوسع الاستعماري وإضفاء الشرعية عليهما".

وهكذا، فإن العربي والإسلام والمحارب والمتدين، كل هؤلاء تمت الإساءة إليهم، والتقليل من قيمتهم، واستصغارهم، وتزييف صورتهم، والتعتيم عليها، وحتى توسيخها. علماً بأن هذه العناصر كلها كانت الأصل في العديد من الأحداث، المتباعد بعضها عن بعض من حيث الزمن، ولكنها تشترك كلها في الدفاع عن الجماهير وفي تربيتها وتكوينها طبقاً لمبادئ الأخلاق الإسلامية، والتكفل بمصيرهم وتحريرهم من المضطهدين، وكذلك تنظيمهم مع احترام التقاليد الموروثة. إن بعض الكتاب الأوروبيين في وصفهم للأهالي، وعلى وجه الخصوص "المحمديين" – كما يسموننا إلى اليوم – كانوا لا يبخلون علينا بالصفات التي توحي بالرذيلة والاختلال العقلي والفظاظة والتعصب والوحشية الفطرية المنبعثة من ذلك الجنس المنحط، أو بعبارة أخرى: ذلك الشيء المستَعمَر، الذي يصير بعد

تفسير هزلي وغير معقول، متوحشاً، فـ "لويس بُوتي" Louis Petit وهو يتحدث عن الخلوة عند الطرقية يقول:

"صحيح أننا نخرج منها مختلي العقول، أو نحو ذلك، ولكن المسلمين يتركون المختلين عقلياً يسيحون، ويقدسونهم كالأولياء: يظنون بأن الله يسكن في تلك الأدمغة التي هجرها التفكير وتركها فارغة".

إن العربي كان يتم تقديمه على أنه إنسان وحشي وسادي من قبل الغربيين، الذين كانوا "نازلين في قلب الخرافة، وتاركين العنان لخيالهم وهو يحلم عبر أقلام القصاصين المتحمسين في المناطق البعيدة التي لا تسكنها إلا الحيوانات الضارية، ولا يعيش فيها إلا الرجال المتوحشون". ألم يفتخروا، كما فعل ذلك أحد المستشرقين، الذي سمّى نفسه بذلك، وهو ليبون روش، الذي ذكره "بوسلامة"، والذي يصف مشهداً فيه رعاة من الأهالي اتهموا بالسرقة والقتل: "من بين الإجابات التي أعطاها أَحَدُ الرعاة، نسوق لكم جواباً يصف تعصب العربي الجاهل:

– لماذا قتلت هذا الرجل؟

– هذا ليس رجلاً، إنه مسيحي."

إن قصصاً مثل هذه لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ولا تصدّق، لأسباب كثيرة، كانت تحكى في تلك الفترة الدقيقة بالضبط، ليبينوا أن الإسلام لا يتضمن إلا المظاهر السلبية مع الأسف، ومن ضمنها التعصب والعنف والوحشية، أضف إلى هذا أن هؤلاء الكتاب كانوا يتركون خيالهم يسبح، فيصفوننا على أننا أشخاص متكاسلون ومتهاونون، نتذوق الحلم والتأمل واللذات والميل إلى الشهوات

والإيمان بالقضاء والقدر.. ثم ليغرقونا أكثر، فإنهم كانوا يصفوننا بالمناهضين للمسيحية. إن أحد كتّابنا، وهو السيد "م.أ. لطفي"، في كتابه "أدب واستعمار"، يعتبر أن هذه الكتابات المقلدة "ليست إلا مظاهر مختلفة لحقيقة واحدة: العنصرية". ونضيف من ناحيتنا أن هذا الكره الموجه للإسلام ليس إلاّ خلاصة لتيار فكري، ضرب جذوره في الحروب الصليبية، التي ما زالت متواصلة عبر القرون.

وبالفعل، فإن الدين الإسلامي ليس متوحشاً ولا استبدادياً، وأنه لا يعيش بالوهم وأضغاث الأحلام والاستسلام والخضوع، الإسلام ليس المشرق ولا متناهيه، كما يقدمه باسكال في مكتوبه السخري، وليس كذلك "الألف ليلة وليلة"، كما كان يصفه المتخصصون في القصص والخرافات، وهو ليس شهرزاد وأبا نواس والدراويش السياح ومبتلعي السيوف أدْرِي مَنْ الذي يُشْفِي مِنَ العقم والجنون.

وهكذا، إذن، فإننا نقترح عليكم في هذا الكتاب الذي نريده مصلحاً أن نشرح أن الإسلام في بلادنا كان دائماً مطبقاً بكيفية صحيحة في أبسط عباداته وأصفاها؛ قبل أن يأتي المنافقون لتوسيخه، بحجة واهية، لوصولية متفاقمة ومتشددة، سنقول بكل إخلاص كيف كنا في جزائر مطمئنة روحياً، ومتوجهة نحو الإيمان، تحت قيادة رجال متقين؛ كانوا يعطون تجنيدَ المؤمنين حول الأعمال الصالحة، وتحسيسهم بها؛ قيمة كبيرة، وكانوا "بفضل تفكيرهم يزرعون في هذه الأراضي الشاسعة البذرة التي سمحت لازدهار الفكر، وتحسين كيفية إدراك الحاضر والمستقبل". سنقول ماذا حمل الإسلام إلى بلادنا منذ الاتصالات الأولى مع حاكم مصر عبد الله بن سعد، المُعَيّن من قبل

الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة 27 للهجرة، ثم الاتصال مع عقبة بن نافع سنوات بعد ذلك في عام 45 للهجرة.

فعند القيام بهذا العمل، سنرى قبل كل شيء – لفهم الموضوع فهماً جيداً – المواقف الغامضة للذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين متحمسين، وهي مواقف مضحكة تبرهن على ضيق أفق الناس المنحاز، الذي يؤكد إيماننا بأن الإسلام، حتّى لو كان يواجه، أحياناً، مشكلات ناتجة عن الممارسات التي تجاوزها الزمن، وعن التناقضات المصطنعة من أشياء مختلفة، يبقى تلك القلعة التي تنكسر على أسوارها كل محاولات الاستنقاص والحملات القذرة ذات الأحكام المسبقة المتدفقة، خوفاً من التعصب أو "كراهية الغير تحت راية الحرب المقدسة"، لأنه – أعني الإسلام – وبكل بساطة رمز للترفع والاندفاع والتقدم، قبل دراسة مختلف مراحل تطوره في الأرض الجزائرية، وقبل التعرف على مختلف الدعاة الذين نشروه وقوّوا ممارسته، وكذلك أهم الطرق التي دعمته، قبل كل هذا نستطيع التأكيد أن الإسلام إذا لم يعرف الخذلان الذي عرفه في أماكن أخرى، فإن الفضل في ذلك يرجع أكثر ما يرجع إلى أولئك السكان الهادئين والوديعين، الذين قبلوه وتبنوه بدون أي تردد، ووظفوا أنفسهم بصفة كاملة في نشره ونشر ثقافته.

إن الشبان سيعرفون عبر هذا الكتاب أن الإسلام قد استعمل كحافز في بلادنا ليؤكد وحدتنا، ويدعم علاقاتنا مع العالم الإسلامي، فقد سمح لمتدينينا المخلصين تحت قيادة أجدادنا – الذين لم يكونوا الغولْواَ (Gaulois) – أن يبلغونا سنّة قوية وممارسات سليمة. في هذا الكتاب سنبذل جهدنا لتقديم مجموعة من المعلومات ستعطي الشباب

نظرة – ولو أنها متواضعة – عن مقاربة أكثر صحة عن الإسلام في تطوره التاريخي والثقافي منذ عقبة بن نافع الفهري، سنتناول ذلك عبر مختلف تصورات هؤلاء وأولئك، ولكن كذلك عبر مختلف أبعاده الدينية والخلقية والثقافية والاجتماعية، سنذكر رجال العقيدة الذين كانوا يضعون مثلهم الأعلى في ديمومة حياة بسيطة في مجتمع أخوي، الشيء الذي ترك أثراً طيباً في المجتمع الجزائري، إلاّ أنه سيتحتم علينا أن ندحض في بداية هذا الكتاب ونعلق على تلك النظرة الغربية للإسلام المبنية عموماً على الأحكام المسبقة، عوضاً عن معرفة حقيقة الشيء الذي يجعلها تهمل المعطيات الإيجابية للثقافة الإسلامية، وأخيراً نعطي بعض الشروح عن تلك الظلامية المنسوبة إلى بعض المنظمات الدينية و"صورها التعويضية التي تتشوه وتستنقص".

سيعرف الشبان أخيراً أن الإسلام الحقيقي لم يأت إلى بلادنا – كما حاول البعض أن يجعلنا نعتقد ذلك – مع مجيء هذه الحملة ذات الحيوية الروحية أو "تهافت الأصولية والعدوانية من أصحاب السلفية الجديدة"، ولكنه هنا، بين ظهرانينا، منذ قرون عبر الحِكَمِ المتميزة لأجدادنا، أولئك الدعاة إلى التدين الحماسي، وإلى الإيمان الذي لا يتزعزع وإلى الثقافة الواسعة وإلى الممارسات البسيطة وإلى التسامح الذي أتى بثماره، وهذا هو الموضوع الأساسي لتحليلنا.

الكتـاب الأول

الوجوه الشهيرة في الإسلام

والثقافة الجزائريـة

الفصل الأول

الإسلام والمسلمون والغرب

"عندما ننظر حولنا، بدون انحياز وبدون عاطفة في الديار الإسلامية، وعندما نسأل التاريخ أو ندرس كتب علماء الإسلام، يظهر لنا بسرعة أن الصفة السائدة في الدين الإسلامي ليست عدم التسامح ولا التعصب".

إن كاتب هذه الكلمات الطيبة في سنة 1884، كان حينئذ نائب رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية، وكان يدعي لويس رين (Louis Rinn). وهكذا، عندما نقرأ عبارات حازمة من هذا الطراز، وعندما نحلل النتائج النزيهة لهذا الرأي الذي يتماشى بما فيه الكفاية مع روح الإسلام، يسهل علينا الفهم أن ما يبرز جلياً في ديننا هو الحماسة في الاعتقاد، وقوّة الإيمان والبحث عن الحقيقة، عوض التديّن الضيق، المنحصر في العبادات اليومية واحترام الأعراف التقليدية. إن هذه الشهادات تدعمنا، وفي نفس الوقت تبعدنا عن الصور التي حرّفها التعصّب، وشوهها سوء النية المتولدة عن التعطش إلى الهيمنة. ومن المفيد، عندما نكتب، أن نضع نصب أعيننا فكرة القيام بعمل تربوي وعمل عدلي، يتضمن إعادة الاعتبار وتأسيس الحقيقة لأننا نتوجه إلى جمهور واسع.

الإسلام دين رجعي حسب الغرب

كان بعض المستشرقين في الماضي، وغيرهم من الباحثين في الفضاء الواسع لديننا، يميلون إلى اتهامنا بصفة اعتباطية بأننا أمّة ما زالت تعيش "في عهد الخلط والالتباس بين صلاحيات السلطة الروحية والسلطة الزمنية (المدنية)"، إن الإسلام والمسلمين في نظرهم لم يتطوّروا منذ الوحي الذي نزل على سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم، لقد بقي المسلمون في ممارساتهم وجهلهم الفادح، وعندما أرادوا التطور والنهوض تجمعوا في قوات دينية، وهي تلك الدول في قلب الدول التي كانت هي الروح ذاتها لحركة الوحدة الإسلامية.

وبالعكس، فبالنسبة لأنصار الاستعمار الذين هم حادّون في كلامهم، فإن دراسة الممارسة الدينية للمجموعات الإسلامية التي كانت تحت رعايتهم، إن لم نقل النفوس، في البلدان الإفريقية الشمالية التي فتحوها، وفي البلدان التي كان عليهم أن يرسخوا فيها حاجات سياستهم وتجارتهم والحاجات الحضارية، فقد كان هذا في نظرهم يكتسي أهمية رئيسية، وهكذا فإن المدرسة الاستعمارية بدأت عمليتها للتزوير والتلفيق في تكوين الشبان الجزائريين والشبان الآخرين، بتعليم لا يليق بأمة مثل فرنسا على وجه الخصوص، وبأوروبا عموماً، إن فرانسيس موهيم، وهو صحافي بلجيكي، قال في إحدى شهاداته:

"ألاحظ أن أساتذتي، خلال الست سنوات من الدراسة الجامعية "اليومانيتيه"، أعطوني صورة خاطئة عن الإسلام والعالم الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية، سواء كان ذلك في دروس التاريخ،أو في الدين، أو في الأدب أو في الأخلاق، فالحضارة العربية الإسلامية كانت دائماً تعْرَض على أنها متخلفة وغير متسامحة ومنحطة. وفي الحالة الملموسة للجزائر، فإنها لم توجد قط..".

إن الدكتور فانون كان يشرح من ناحيته:

"أن الاستعمار لا يكتفي بفرض قانونه على الحاضر والمستقبل للبلد المسيطر عليه... إذ إنه بنوع من المنطق الفاسد يلتفت إلى ماضي الشعب المضطهَد فيشوهه ويزيفه ويقوضه"، ولاكتساب هذه القوة للنفوذ التي بدونها يصعب عليهم كل شيء، أكّد العقيد تروملي في "الجزائر الخرافية" ما يلي:

"يجب علينا قبل كل شيء أن ندرس الأشياء المخفية والممارسات السرية للمجموعات التي يمكن أن نلتقي بها في طريقنا المظلمة الساكنة والخرساء".

وبالفعل، إن الأسطورة هي تاريخ الشعوب التي ليس لها تاريخ مكتوب. ولكن تروملي، كاتب الاستعمار، قد أخطأ كثيراً، لأن تاريخ الجزائر يرجع إلى آلاف السنين، تملؤه الملاحم المجيدة والكفاح العنيد من أجل العدل والحرية.

وفي مكان آخر من الكتاب نفسه، فإن هذا العضو من جمعية أهل الآداب وجمعية التاريخ الجزائرية، وكذلك جمعية علم الآثار والإحصائيات لـ "لادروم" – يا لها من عناوين شريفة ومسؤوليات حاسمة – ينتقص رجال الإسلام الصالحين، ويرجعهم إلى مستوى البهائم القذرة، إلى المتوحشين المتعطشين إلى المجازر وإلى الدم، وعندما يريد أن يكون رحيماً معهم وودوداً، فإنه يقارنهم بالمشعوذين أو بهاليل الأسواق أو مازوشيين استعراضيين، فقد كتب يقول:

"في بلد الآفاق اللامتناهية، يحب الأولياء الخيل والحرب والمعارك الهوجاء، إنهم يحبّون ضربات الرماح الجميلة التي تفتح جروحاً واسعة يتدفق منها دمٌ أسود، وكأنه أمواج متوثبة، إنهم يحبّون

ضربات السيف العجيبة التي تدخل نصالها في أعماق المحاربين إلى غاية الكليتين، إنهم صانعو معجزات على ظهر الفرس الذي يسخن قلبه إلى درجة حرارة عالية في جمهورية الرمال (...) سنرى كذلك أولياء زاهدين وآخرين منتشين يتجاوز تقشفهم وحرمانهم والتعذيب الذي يفرضونه على أنفسهم لتجريدها من المادية وترويض البشرة ليقترب أكثر من الله، يتجاوز كل الحماقات الصوفية وكل الهيجان السامي لمن اعتزل في ثابا (عاصمة مصر القديمة)".

إن هؤلاء الرجال، الذين وصفهم الكاتب، والذين هم في الغالب يتمتعون بأقصى درجات الذكاء، حتى لا نقول إنهم أصلاً رجال علم وأدب ودكاترة ذوو شهرة واسعة، هم في الوقت نفسه رجال للصلاة والتدين الوهاج، فقد وصفهم على أنهم متعصبون ومتشبثون بالنثر السوقي المبتذل، يا له من خطاب غير لائق! ويا له من كره لرجال صالحين كرّسوا أنفسهم للعبادة وهم مرتبطون بالله! ويا لها من وقاحة تجاه دين يعلّم الأخوّة والتسامح والبحث عن الشروط الأكثر ملاءمة لإنجاز أعمال تتطلب العلم والمهارة.

إن هؤلاء الكتّاب الذين اتفقوا في زمن بعض الكتب الهجائية على تسمية أنفسهم بالمستشرقين المجرّبين، لم يفهموا شيئاً عن الإسلام وعن العربي بصفة عامة، لأنهم لم يدرسوهما أبداً في أعماقهما وفي أخلاقهما الفاضلة، ولأنهم لم يذهبوا أبداً إلى أعماق الأشياء ليقولوا بنزاهة، بدون تحيّز فيما يتعلق بالإسلام على وجه التحديد لأحتى ولو أنه دين لا يمارسونه – كل ما يتضمنه هذا الدين من عظمة، خصوصاً عند العرب الأقحاح، الذين كانوا هم الأصل لهذه الحضارة الكبيرة؛ والذين نجد عندهم الميزة الحقيقية للعبقرية الفردية والفكر الفلسفي، إنهم بالتأكيد لم يعمقوا أبحاثهم ليكتشفوا "تلك الفترات الكبرى للفكر

التي ولدت في خليط لا يصدق من عدم الإيمان وجرأة الفكر ومن الفكر غالباً". إنهم لم يقوموا أصلاً بدراسات، فقد كانوا بسطاء، وعلمونا، وكأنهم يريدون إقناعنا، أن "الأهالي عاجزون ذهنياً عن التفكير وعن التركيب ليتقبلوا العلوم". وقد قال أ. غيرنييه (E.Guernier) ذلك بكل وضوح في كتابه "عن بلاد البربر والإسلام وفرنسا"، عندما أكد وبدون أي حرج أن:

"كل شعوب ما وراء البحار، التي هي تحت هيمنة فرنسا، لها حضارات خاصة وبدرجات متفاوتة، ربما معارف محدودة وتصورات مبتكرة، إلى درجة أن ترسانتنا في المذاهب الرياضية والتشريعية والطبية والفنية والأخلاقية تتأقلم بصعوبة مع التراكمات العقلية المتواجدة قبلها".

وقد كان كلام رينان كان أخطر من هذا، وغير مختلف كثيراً عن كلام جول فيري، ذلك المرشد المحترم والمحبوب من طرف مجموع العلمانيين، والمحبين للفرنسية، وخاصة من هم عندنا، ذلك الـ"جول فيري"، الذي أكد بصفة قاطعة تأييده في سياسته الاستعمارية "حق الأجناس المتفوقة"، وهو يتحدث تماماً كما فعل ذلك رينان، يا لها من مصادفة بريئة! وبالفعل فإن رينان كان يؤكد من ناحيته أن:

" كل شخص – له حظ من علوم زمننا هذا – يرى بوضوح الدونية الحالية للبلدان المسلمة، وانحطاط الدول التي يحكمها الإسلام، وعدم الكفاءة الذهنية للأجناس التي تعتمد على هذا الدين في ثقافتها وتربيتها"، ويواصل نقده اللاذع ضد الإسلام في أسلوب أقرب إلى الشتم منه إلى الأكاديمية، ويقول دون أن تحمرّ وجنتاه في مدرج من صرح المعرفة السربوني:

"فبالنسبة للعقل البشري، إن الفكر الإسلامي لم يكن إلاّ.. مضراً؛ فقد جعل من البلدان التي فتحها ميداناً مغلقاً على الثقافة العقلية للذهن".

وكأنه لم يكن راضياً عن مدى طعنه في الإسلام، وليغرس المسمار بصفة أعمق، فإنه لم يتردد في أن ينعت التفوق اليهودي المسيحي بتصوير كاذب، وبلغة ضبابية تخلط الأذهان، عندما رفض أن يكون للحضارة الإسلامية أيّ إسهام في التراث الثقافي والعلمي في البلدان الإسلامية. ويؤكد بصفة جازمة أن: "هذا البناء البديع هو عمل المسيحيين واليهود.. وبعض المسلمين الثائرين داخلياً ضد دينهم".

إن قرينه هنري مارتان، كتب في تاريخ فرنسا الشعبية وانطباعاته عن معركة بواتيي:

"كان مصير العالم هو الذي تقرر، لو انهزم الفرانك لصارت وقتها الأرض في قبضة محمد.. وعليه، فإن مستقبل العالم وأوروبا قد يضيع، لأن النشاط الذي يدفع الرجال نحو التقدم لم يكن في عبقرية المسلمين، إن عبقريتهم تنحصر في الفكرة المتكوّنة لديهم عن الله، إن ربّ المسلمين بعد أن خلق العالم، ذهب ليرتاح في وحدته وفي سكونه، وبالتالي فإنه لا يحث الرجال على التقدم".

إن هذا إنما هو وقاحة وإهانة، خاصةً عندما يأتينا من قبل المروّجين الممثلين للثقافة الاستعمارية؛ وهي ثقافة لا تأخذ في الحسبان أيّ موضوعية تاريخية، وأقل من ذلك فإنها لا تستجيب لأي نزاهة عقلية، وهكذا فإن استحقاقات هذه الثقافة العالمية موزعة بين بلدان الغرب حسب هؤلاء الناس ذوي الأقلام الخطيرة واللاذعة؛ وأن العالم الإسلامي حسبهم يجب عليه أن يتألم من مركب النقص الذي

يقضي بأنه لم يقدم أيّ شيء للتاريخ القديم والمعاصر، وأن يعيش الحرمان على أنه لم يكن مثل أوروبا مهد العالمية والتقدم. ألم يسمع رينان ومارتان وغيرهما عن.. ابن سينا والخوارزمي والرازي وابن رشد والبتاني، إن لم نذكر إلاّ هؤلاء فمن الوفرة الوافرة من العلماء الذين جعلوا العلم توأماً للدين؟

إن بول كراوس أو لويس غاردي أو أندريه ميكال أو موريس بوكايْ، هؤلاء يعرفون فيما يخصهم ما ترك علماؤنا في إطار الاكتشافات والأبحاث التي تمت في الجامعات الإسلامية، إن شهاداتهم تكفي وزيادة اليوم، لنعرف أن علماءنا أحبّوا دائماً التقدم، ولنأخذ اثنين من الأربعة: أندريه ميكال وموريس بوكايْ ونستمع جيداً إلى ما يقولان:

الأول: "الانحطاط؟ ولنعلم قبل كل شيء أن الثقافة التي قيل إنها تموت، فإنها في الغرب على الأقل، في صحة جيدة... ولكن ولْنَعُدْ إلى سرير موت هذه الحضارة في القرن الرابع عشر فإنها ولدت عظيمين: ابن خلدون وأفكاره حول التاريخ التي صارت ملكاً للتراث العالمي وابن بطوطة، الذي كانت جريدة سفره تسجل المنفَى المتواصل الذي انتشر على ثلاثين سنة ومائة وعشرين ألف كيلومتر".

والثاني: "كم لنا من ديون تجاه الثقافة العربية في الرياضيات وعلم الفلك والفيزياء والجيولوجيا وعلم النبات والطب.. إلخ؟ إن العلم قد اتخذ صفة عالمية لأول مرة في الجامعات الإسلامية في القرون الوسطى".

ولنواصل في ذكر التصريحات المعادية، التي تعبّر عن الكره والحقد تجاه الإسلام، منذ الأسقف الأكبر لافيجري وزبانيته، إلى المعمرين الذين جاءوا والشراسة تحدوهم لسلب أراضي الجزائريين، إذ لم يتم التوقف عن ترداد العبارات المتهكمة:

"كل الناس يتفقون على الاعتراف بأن مبادئ المسيحية هي في كل الحالات مفضلة على المبادئ الموهنة واللاأخلاقية والمتوحشة للقرآن".

إن الجنرال دو بورمون، صانع الحزن الشهير، كان يقول لجنوده الذين كانوا يخربون ويدمرون البلاد:

"لقد تواصلتم مع الصليبيين.. إنها معاينة حزينة من أناس ادعوا أنهم جاءوا لـ"يحضّرونا" وأكثر من ذلك ليوطِّنوا السلم، وهم "صناع سلم"، كانوا يجدون دائماً لدى أبناء دينهم آذاناً صاغية أكثر من اللاّزم.

إن ليبون غالبار، وهو شبه مؤرخ للاستعمار، كان يكتب في سنة 1844: "ومن ناحية أخرى، فإن الفكر الإسلامي، في فشله الذريع، لم يكن في مقدوره أن يولد أي شيء، فكان لا بد من شعب جديد، مركّب بقوة وتسوده أفكار كريمة ومبادئ إنسانية كبيرة لإخراج إفريقيا من الوضعية الجاهلة التي غمستها فيها عشرون قرناً من الاضطهاد والحروب والكفاحات والاجتياحات، التي تفصلنا عن ذلك العهد الجميل والمزدهر الذي رأيناه تحت الرعاية الرومانية، حيث أخذت حيزاً كبيراً في الحركة العامة للحضارة".

يا لها من مهمة شريفة وشهمة موكلة إلى فرنسا الاستعمارية! فهل كانت تفكر أن الجزائر ربما تكون عاجزة عن القيام بعمل مثل هذا لتأتي أخيراً وبروح إنسانية لتعلمنا قوانينها الجيّدة وأن تعيد حياتنا على أرضنا وتوسيع الحضارة التي خلفتها روما في السابق وبكيفية "لامعة".

أمّا فيما يخص عامل قسنطينة في ذلك الوقت، فقد كان يتكلّم هكذا في خطاب ألقاه في الخروب سنة 1925 :

"اعلَمُوا أن كل دم المسلمين لا يساوي قطرة واحدة من دم فرنسي واحد".

كل هذا يعبر عن أن الكره والعصبية يتصرفان في زمن ونمط كره الأجانب والتمييز العنصري للاستعمار الفرنسي، مع الأسف إن هذه العنصرية وهذا الحقد مازالا إلى غاية اليوم مستمرين، ويتصرفان على وَقْعِ التخيلات والأوهام الغربية التي تشكلها الوسائط الإعلامية، مع شيء من الهيستيريا، بالفعل إن الصورة التي تملكها أوروبا عن المسلم مجحفة في حق جماعتنا، ولنر ما يقوله "معاصر"، جون مونلو، في كتابه الذي نشر في سنة 1964:

"إن رجال بربريا (ويقصد البربر) قد تخلفوا عن الزمن الضروري للطاقة اللازمة، أو القدرة على التأقلم والتنظيم، أو إرادة التجديد خارج التقاليد، التي إن لم تجدّد تصبح رتيبة وتلقى في نوع من التنازل الحقيقي عن سلطتهم التقريرية من أنفسهم ومن زمانهم، ويبدو هكذا أن التاريخ يرمي إلى التخلف بعض الحضارات الشرقية الحالمة والمدارية اللاّمبالية، إن بعض المظاهر من الصيرورة التاريخية للبلدان العربية والمعربة وحتى المستسلمة يظهر أنها تدخل في هذا المقاس من حضارة الفوضى".

يا له من "تاريخ استعماري" .. دائماً في اتجاه واحد! بالفعل، نحس جيداً أنه اعتبر دائماً العربي، وخاصة المسلم، على أنه شخص قاصر وبدائي وعاجز وغير مؤهل للاعتبار، والأسوأ من هذا فإنه كان لا يبخل "بالصيغ الجيدة" لتوصيفنا، إن شهادة الكاتب "محجوب بن تبرية" جديرة بالاعتناء:

"وفي الحين، فإن المسلم، وفي خلط غريب لا يسمن، يدخل في خانة من يستطيع بطبيعته القتل. إن هذه الكيفية للإدراك ليست بالطبع

خالية من أفكار سياسية مسبقة، إنه سيّئ القبول في الغرب، باعتبار ثقافته، ويكون غير مقبول أكثر عندما يصنف ضمن المجرمين المحتملين".

اللحية المتشعثة والشعر الكثيف والقميص والبنطال، ومن يؤخذ مصادفة في أماكن مظلمة أو سيئة السمعة، هذه هي —حسب الكاتب المذكور أعلاه – العناصر التي تميز نموذج المسلم، وعندما لا يوجد المسلم المثالي بعد بحث لامندوحة من ورائه، فقد يتوصلون إلى اصطناعه، والحجة، مرة أخرى، ألم تقم التلفزة الفرنسية في سنة 1998، وخلال مناقشة حول الإسلام، بمعالجة الصور، فأضافت لِحىً مزيفة لمن تم استجوابهم؟

رد فعل متوازن للمسلمين

ومع هذا، فإن المسلمين الكرام الحقيقيين لم يبقوا بكماً، إن أصواتهم ارتفعت ضد الاتهامات التي وجهت للإسلام وضد الهيمنة الغربية التي ما زلنا إلى حد الآن ضحاياها بدون استثناء، إن المدافعين عن الإسلام أجابوا من كانوا دائماً يحاولون استنقاصنا: "توقفوا عن هِجائِكُمْ المتغطرس! توقفوا عن إهانتنا بالصيغ القاتلة كما فعل ذلك صليبيوكم "الشرفاء"، الذين كانوا يتبجحون بشجب عدم استقرار السلطة وغياب النفوذ المعنوي والجلال الحقيقي في المجتمع الإسلامي..! يا له من نبل في الفكر عندما يأتي ذلك من أناس استرسلوا ضد الإسلام في صليبيات تشبه المغامرات والغزوات من طرف المرتزقة!".

ولم يكن للمدافعين عنا أيّ مركب، بالعكس فإنهم كانوا مرتاحين جداً لإبراز قيم ديننا الذي بقي هو الوحيد الذي يعامل بظلم

إلى يومنا هذا في مستوى الامتداح الكفاحي؛ عوضاً عن مستوى المودة المفتوحة، فقد كانوا مرتاحين، خاصّة وأنهم يعرفون القيم الإنسانية والمناقب البشرية للإسلام الذي تم تزييف تاريخه في كل المستويات التعليمية في البلدان الغربية. فعلى سبيل المثال وإلى غاية اليوم ما زال الملايين من الشبان الأوروبيين يعانون من أكاذيب معلميهم، إن هذه الوضعية قد تتواصل مدّة أطول، لأن الكثير من المصالح في الوقت الراهن ما زال يتحد ضدّ معرفة الحقائق الابتدائية وخاصّة ضد تعليمها، ولكن عندما يقرر الغربيون إعادة كتابة التاريخ فإنه سيوضح لهم الكثير من الأشياء، لأن التاريخ الحقيقي لا يستطيع أن يسكت عن الانجازات الكبرى للإسلام، كما أنه لا يستطيع أن يخفي السلوكيات التي إن وجدت تحت سماوات أخرى وباسم دين ما، لم يكن لها الحظ أن تسجّل في جدول المراجع.

ولنفكر قليلاً.. هل ينسى التاريخ الكوني الذي سيكتب بنظافة التنديد مثلاً بتلك "الحملة الصليبية التي جندت الأطفال" سنة 1212؟ إن هؤلاء الأطفال خدعهم المتدينون الذين كانوا ذاهبين إلى تخليص "القدس" من قبضة "الكفار"، والذين تم بيعهم في مصر على أساس أنهم عبيد؟.. وهل ينسى ذلك التاريخ أن يحكي في التفاصيل الحملة الصليبية الأخرى التي عبأت الرعاة في سنة 1250 بقيادة مريض آخر، نبيّ المجر؟ هل سيستمر في إخفاء التوحش والهمجية التي اشتهر بها بعض القديسين من رجال الكنيسة الشديدة المسيحية عندما كانت تصنع محارق التفتيش، وعندما قاموا بالمذابح ضد مسلمي أسبانيا وطردهم من منازلهم في الوقت الذي لم تسمح الديانات الإبراهيمية بالعنف؟ وفي انتظار أن تصحح هذه الحقيقة التاريخية، فإن أصواتاً ارتفعت لتقول بشاعة رفضها للنسيان الذي نسج حول

الأحداث المؤلمة، ولنا مثال في ذلك ألا وهو ذلك الشاعر الذي صرخ من سجنه بهذه الكلمات المرّة:

"إننا نسبح في العار إلى حدّ الصدر. فقد صرنا حملة زِبْلٍ"

ففي الأرشيف الموجود لدينا شهادات مؤرخين مثل شهادة ابن الأثير الذي كتب: "إن الخراب الذي تسبب فيه الفرنك ينتشر إلى كل الأرياف من الجزيرة، وكانت نيرانهم تتطاير من كل جهة، إن التدمير الذي قاموا به يبرز في الأجزاء البعيدة في الجزيرة كما يبرز في القريبة منها حتى إلى آمدة (ديار بكر) ونصيبين ورأس العين والرقة".

وبعد ذلك بكثير، وفي الألفية الثالثة، أثبت ورثة الفرنك والشياطين الآخرين للغرب، بطرق حربية أكثر تقنية وكمالاً، ما معنى إبادة المسلمين، إن أمثلة البوسنة والشيشان والكوسوفو والعراق ما زالت حاضرة لتشهد على الحقد الذي لا يهدأ تجاه العربي والإسلام، في حين، وقروناً قبل هذه المجازر، كان النبي صلّى الله عليه وسلم في عظمته وجلاله كان يوصي رعاياه باحترام الأجانب غير المسلمين، وألا تمس كرامتهم فقد كان يقول (معنى الحديث):

"إن من يؤذي رعية غير مسلمة فقد يؤذيني شخصياً".

وما هذا سوى نموذج عمّا كانت عليه حكمة النبي ووداعته وتسامحه. لقد تواصلت هذه التقاليد الجيدة مع الزمن، وفي المكان، ولقد احترم حكّامنا دائماً المسيحي ودينه، ولم يدنّسوا أبداً كنائسه ومصلياته وأديرته ومعابده، لأنهم وبكل بساطة متشربون بعمق من ذلك النبل الإسلامي، ولنستمع إلى ما ذكره مصطفى لشرف في إحدى كتاباته: .."ولكن، عندما توالت الموجات من الفرسان ومن الرهبان الجنود المسيحيين الآتين بكثافة من كل أوروبا، وقد وقفوا مدّة ما

يقرب من قرنين على عالم عربي منحصر في سورية وفلسطين وجزء ضيق من الساحل المصري، مزودين في الوقت ذاته بأدوات راقية، ومتحمسين بدافع من إيمان قوي وثقافة عالية، فقد اندهش المجتاحون من وجود عدد قليل من المساجد، ومن عدم سماع الكلام عن الحرب المقدسة إلا قليلاً من طرف المسلمين، الذين كانوا معولين على قتالهم وعلى إخراجهم من الوطن المعتدى عليه والمخرب من أجل انتصار الصليب".

وعليه، فإن العربي بصفة عامّة، والمسلم بصفة خاصّة، لم يتخذا أبداً في كفاحهما العادل، خيار الغايات العدوانية والمخلة للتوازن، فلو كان ذلك هو ما فعلاه فإن ذلك كان من شأنه أن ينقص من قيمنا الخاصّة، وكذلك لإفقارها.

والدليل على ذلك تلك الرسالة التي وجهها الأمير عبد القادر، فارس العقيدة، إلى السويسري آينارد غداة أحداث دمشق، عندما دافع الأمير عن المسيحيين، بعدما أراد الدروز أن يبيدوهم:

"أما ما تقولون، أيها الصديق، عمّا علمته الصحف عني، فأقول لكم إن أقل ما يمكن أن أكون هو أنني أكسب نخوة كبيرة وتسامحاً يبلغ الدرجات العليا، ولهذا فإن لي الاعتبار لكل الرجال من أي عقيدة ومن أي دين كانوا، وأصل إلى غاية حماية الحيوانات، ولا أبحث عن إلحاق الضرر بأيّ كان، ولكني بالعكس أريد أن أحسن إليهم".

إن رئيسنا عبد العزيز بوتفليقة، وبعد سنوات طوال من تلك الحادثة، تعقب خطا الأمير في تصريح يشهد بِعُلُوّ همّة المؤمن وبإيثاريته واحترامه للديانات الأخرى، وقد عبر في لقاء رسمي عن تبجيله لشخصية جزائرية ذات ديانة مسيحية:

"أن يطلب من الهيئات المأذونة تطهير وتقديس صديقنا وأخينا صاحب السيادة ديفال، أريد أن لا يتم ذلك ليس فقط بالنسبة للطابع المثالي لحياته الروحية والعملية، ولكن كذلك لكل ما استطاع تقمصه بشجاعة، متجاوزاً الحواجز الإيديولوجية والإثنية والجنسية والدينية، وذلك بتأكيده على وحدة النوع البشري أمام العداوة التي تضرب هؤلاء لمصلحة الآخرين... إن الكلام عن الكردينال ديفال يثير في ذاتي إحساساً عميقاً مثل الذي يثيره في نفسي ذكر الأمير عبد القادر، الذي لم يتردد قديماً في "طريقة الدمشقي" أن يجعل حياته وحياة عائلته وأقربائه ومجموع مكاسبه في خطر ليخلص المسيحيين والمارونيين في لبنان وفي سورية".

والكفاح متواصل، كفاح شريف، حيث إن المدافعين عن الإسلام يريدون: "تجاوز الأحكام المسبقة التي يلفظها تقليد ثقافي ذو صبغة أوروبية متمركزة"، وهو تقليد يحملنا على الاعتقاد بأن حوار الديانات الرئيسية قد وضع في خانة النسيان، أمّا التسامح الذي احتفي به طويلاً في الغرب، فهو الآن ليس إلاّ فكرة مجرّدة.

ففي التسعينيات، نفى الأستاذ علي مراد من معهد الدراسات الإسلامية في ليون، وهو الرجل العاقل والرصين، بكثير من النزاهة، ذلك الاتهام الحقود المناهض للإسلام، فأفهم الجميع بأن تحليلاً واضحاً يسمح بتشخيص لا خوف فيه ولا تخويف؛ وفي هذا الشأن يقول:

"لقد تمت جدولته نهائياً على أنه مستهلك أبدي في مجال التكنولوجيا والأنماط الأدبية، إنهم يرفضون تخيله قادراً على تقديم أي إثراء أو أي زيادة روحية للعالم، أكثر من هذا فعبر معالجة الإعلام وتقديم الأحداث التي تفرض نفسها على الرأي العالمي، فليس نادراً

أن نرى الإسلام مشتركاً في بعض الصور القديمة المظلمة والمنفرّة، إن هذه المظاهر المؤسفة لا تستطيع إلا تقوية الصورة المحطّة للقدرْ الموجهة للمسلمين على أنهم كذلك، وفي المستوى السياسي، فإن الأسباب كثيرة للنيل من الأنظمة الإسلامية: البعض يحكم عليهم أنهم متهوّرون في حماستهم الثورية، والبعض الآخر على أنهم متحجرون في محافظتهم الاستبدادية المتمادية مثل الأوائل، وكلهم قادرٌ على إحداث حروب أهلية أو تأجيج نزاعات بين كتل إيديولوجية".

إن الرئيس بوتفليقة يلاحظ من جهته، مع شيء من الأسف، في إحدى تدخلاته، أن: "رصيداً مشتركاً واسع الانتشار في الثقافة الأوروبية قد عرف نمواً ملحوظاً، حيث البحر الأبيض المتوسط والحضارة يتم تقديمهما على أنهما معجزتان يونانيتان ولاتينيتان ومسيحيتان والإسلام غريب عنهما تماماً"، وبالفعل، ودائماً حسب هذا الكلام نفسه، فإن المقررين الذين يحتكرون السلطات، كل السلطات، يعرفون بصفة فطرية وفعالة كيف يستعملون كل تروبادورات البلاغة لتعميمْ هذه الأفكار التضليلية لدى الشعب، وجعل الأقراص المرّة قابلة للهضم، كان الرئيس يريد عبر تدخله أثناء اللقاء التاريخي للباليار (إسبانيا) حثّ المعنيين بهذه المشكلات على أن يتوجهوا نحو عمل مشترك من الفهم والإثراء المتبادل، ومن الثابت أن مثقفينا وحكّامنا لم يستعملوا أبداً الشتم والإثارة في الجواب على التصريحات المهينة وغير اللائقة تجاه الإسلام؛ وذلك بكل بساطة لأن ديننا يفرض علينا الاعتدال والمرونة، وأخيراً العفو، ونجد الدليل على ذلك في كون هذه الشروح مقنعة، عوض أن تكون ناقمة أو ذات مرارة.

إن الأستاذ شمس الدين شيتور في كتابه "التربية والثقافة في الجزائر" يشرح جيداً ذلك التعنت الفاحش، ويقدم أجوبة على ذلك الكره الوحشي الضاربة جذوره في أعماق التاريخ: "نتعجب في القرن العشرين من مساوئ العصبية ومناهضة السامية والنازية وحتى الفاشية، إن هتلر لم يقم إلا بترجمة أفكارٍ إلى الملموس، تم تذويبها بتفقه عبر تلك الآداب، آداب الإقصاء، التي كان يقوم بترويجها يوماً بعد يوم مستشرقون متمكنون من قوة الحضارة الغربية".

فليتوقف المتشددون من الغربيين عن شتمنا بأعمال مخطط لها ومتفق عليها، فليتوقفوا عن إزعاجنا بتشويه ديننا ونكران قيمنا الثقافية وليعرفوا، فيما يخصنا، أنه محتم علينا أن نفكّر برغم كل هذا في كيف يمكن لنا أن نصنع معاً سياسة تفاهم وتعاون في كل المجالات، وليعرفوا أخيراً أن ثمة أشخاصاً عندهم يفكرون بكيفية مختلفة، أشخاصاً مقتنعين يقولون الأشياء بوضوح وبإخلاص، ولا يخلطون بين الإسلام وبعض الممارسات المهجورة وحتى المحرّمة، التي لا صلة بممارسات العبادة الحقيقية الواردة في القرآن والسنّة، ويتبادر إلى ذهننا في هذا المجال كلمات للجنرال ب.ج. أندريه من أكاديمية العلوم الاستعمارية يقول فيها:

"إذا أردنا أن نكون منصفين، فإنه يتحتم علينا أن نُسلمٌ بأنه يوجد في تعاليم الإسلام قوة فعالة متوجهة بصفة طبيعية إلى الخير، إن الإسلام ينشد الرحمة لجميع مخلوقات الله، وحسن النية في العلاقات، والحب والإخلاص، وإبعاد الغرائز الذاتية والإحسان إلى الفقراء والإصلاح بين المؤمنين والتعاون معهم، إن القرآن يلح على النية في كل أفعال المسلم الجيدّ: إن مراعاة القوانين الدينية الكاملة لا تصح إلا إذا كانت مصحوبة بأعمال رحيمة، إن الإسلام موجهٌ لجميع

الشعوب وجميع الأجناس وإلى جميع البشر بدون تمييز في اللون، وبالتالي فإنه شكلّ في العديد من المناطق تطوراً ملموساً بالنسبة لما كان موجوداً قبله".

وأخيراً، كان روجيه غارودي يقول:

"إن المسلمين قد أعطوا بإيمانهم أغنى مساهمة للعلم الكوني".

أو كذلك من الكاتب نفسه:

"إن الحضارة العربية الإسلامية قد أخصبت الماضي وحضرّت المستقبل خلال ألفية من الزمن".

الإسلام ضد التقوقع والجمود

إن الإسلام، في الحقيقة، هو ذلك الدين الذي يتوجه إلى كل البشرية، وليس فقط إلى المجموعة البشرية الإسلامية التي تعيش في مساحة جيوسياسية في الشرق الأوسط والمغرب العربي وفي بعض البلدان الإفريقية والآسيوية، ويمثل ربع هذه البشرية، إنه دين تحرر وانعتاق، وهما مبدآن يكافح من أجلهما كل العالم اليوم للتقليل من الشغب والهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية، ألم يأت الإسلام ليصرخ بنقمته ضد الظلم حيثما كان، والتنديد بكل أشكال التمييز وفرض احترام كرامة الإنسان على أنه إنسان في كل مكان بفضل تعاليمه؟ ألم يأت الإسلام على أنه جواب واضح، أو قُل على أنه الحلّ المفيد، لاسيما للعالم الإسلامي، ولكن كذلك للبشرية جمعاء، لأنها كانت تمر بأزمة اضطهادية كانت تهدد كل القيم؟

وبالفعل، فإن الإسلام هو ذلك الدين الذي يوحي بطلب متوهج للعدل والكرامة، هو دين يدفع المؤمن إلى أن تكون له تلك الحاجة لربط الأقوال بالأفعال، قصد تحضير الأذهان لإحداث الظروف المناسبة

للتغييرات الجذرية، والإسلام كذلك هو ذلك الدين الذي "يدعو إلى تجديد النشاط في الإيمان والثقافة الإسلامية"، وهما عاملان للتقدم والانعتاق.

واليوم نُسْأل لنعرف: هل كل المسلمين مطلعون على تلك التوجيهات الرائعة؟ وهل يتبعون الطريق الحقيقي الذي سطره الله وتم تسجيله في مدونة الفقه، التي هي السنّة؟ والمقصود هنا: العبادات وكل الأحكام التي توصيهم بمواجهة تحديات العصرنة، وبأن يعيشوا زمانهم، يعني حضارة زمانهم، نحن نتساءل إن كنا أهلاً لتلك المكانة التي شرّفنا بها الله تعالى، ألا وهي: "الأمة الوسط".

وفي هذا المجال لا بد من القول بإخلاص، وبدون انحياز، إننا إذا رفعنا أصواتنا ضد الانتقادات اللاذعة، التي نحن ضحاياها الرئيسيون، فلا بد أن نتفق وبكل نزاهة أننا انطلاقاً من معاينة السلوكيات اليومية لبعض "المؤمنين"، فإنه علينا أن نفرق بين الإسلام وبين أولئك الذين يمارسونه. لحسن الحظ لا ينطبق هذا الأمر على مجموع الأمة الإسلامية، وحتى لو كان الحال كذلك، فإن هذا لا يسمح للغربيين، بالطبع، نظراً لبعض الصور المستنقصة، أن يدنّسوا ديننا، ومع هذا، فإن دافعنا عن أنفسنا – وهذا طبيعي – وقلنا إن كل هذا مبالغ فيه وليس من شأنه أن يشدّ انتباه الذين يعرفون جيداً تعاليم الإسلام، أليس هناك ظلم آخر ضد العالم العربي والإسلامي بصفة عامة؟ بلى! ولنقم بنقدنا الذاتي دون أيّ تحمس، ودون أن يكون في الذهن "شعور بالدفاع" عمّا لا دفاع عنه. ولنِرَ من نحن حالياً وما هي مكانتنا في الإسلام الحقيقي وفي الثقافة وفي الاقتصاد والعصرنة.

يؤكد مصطفى لشرف أن المشكلات المتجادل فيها، فيما يخص الموروث في مجال الدين، لا ترمي إلى نتائج اليوم أكثر من الأمس إن لم تمس نظرةً حقيقية للعالم؛ وإحساساً نسبياً بالواقع اليومي ومحيطه، وقد شرح هذا بالوضوح والاتزان المعهودين لديه فكتب: "وهكذا، فإنه من المعقول من وجهة النظر هذه فقط، أن "الإسلام الذي عاشه أو أحس به أو دافع عنه صلاح الدين الأيوبي أو الأمير عبد القادر، ليس له الكثير من الشبه مع ما يسمى بهذا الاسم في الجزائر الحالية مثلاً؛ حيث يوجد عدد أكثر من المساجد الفاخرة ومن الأشياء "المستحدثة" المشكوك فيها في مجال الدين، أكثر من وجود الإيمان المستنير والروحية العميقة... إن التقليد الأعمى والخاضع الذي ندد به المصلحون المتنورون هو كذلك عندنا – وبصفة غريبة – نتاج الصورة السهلة والكليشيه الكاذب المستعارين كليهما وبعفوية من الغرب العدو الذي قام، عن قصد، وفي حملته الدعائية القديمة والحديثة، بتزيين ما هو غريب أو مبتذل أو فلكلوري في الإسلام، فملأ مدننا ومناظرنا بغابات حقيقية من الصوامع، وزينّ حياتنا ببهرجة سمجة فيها الكثير من التكلف الخاص، وهذا قبل الحروب الصليبية".

وفيما يخص مالك بن نبي، وذلك في تدخله للتنديد بتقوقُع المسؤولين والمثقفين في البلدان السائرة في طريق النمو – مشيراً في ذلك إلى العديد من البلدان المسلمة – التي تجد نفسها في ورطة وتستحي بمجرد أن تسمع الحديث عن ضرورة تفادي النقائص والتجاوزات في اقتصادها فقد أكد قائلا: "اليوم، وفي العديد من البلدان العربية والمسلمة، لا يتردد مسؤولون ومثقفون في وصف أي مراجعة بـ "الرجعية، دون أن يعرفوا أن "تقدميتهم" قد ضعفت وقد تجاوزها الزمن، إن النظر في الفكر الإسلامي المعاصر وهو في تشابك مع

المشكلات الاقتصادية يظهر كيف يضع الحدود لمجالات التجديد تحت ضغط مسلّمات ضمنية... فمع هذا التقلص الذهني يبدأ جمود الفكر الإسلامي أمام الصعوبات التي تتولد عن هذه الأفكار البسيطة، وعن طبيعة موقفه أمام الأشياء وليس أمام طبيعة هذه الأشياء نفسها".

ومع هذا، فسنعرف عند قراءة المرافعة التي قام بها المسلمون أنفسهم ضد المسلمين وضد الإسلام، وخاصةً من قبل الغربيين، أننا كنا ضعافاً مدّة طويلة، وذلك لأنه وجهت لنا عدة اتهامات رئيسية وأحكام لا عفو فيها، وهنا يجب أن تتدخل مقاربة نقدية همها الأكبر أن توضح غموض التحليلات التي كرست لنمط عيش المسلمين، وهي التباسات لا مناص منها عندما لم يكن هناك فرق بين الدين وبين الممارسين، وكذلك، وبصفة أوسع، بين المفاهيم الثقافية العالمية ومعتقد القصص والخرافات، وأخيراً بين تجديد وضعية ثقافية قادرة على تسريع الوعي والشعلة المتأرجحة والغريبة للذكرى التاريخية.

وبالفعل، ولنكون منطقيين ونزهاء، عبر كلامنا، يجب القول إن العديد من المسلمين كانوا لا "يحملون" (ولا يحملون الآن) الإسلام كما ينبغي. إن علماء الفقه قد أثبتوا ذلك القول الجازم بالنظر إلى الأنصار الخانعين الذين لم يفهموا شيئاً في هذا الدين العجيب، هذا "حكم" لا رجعة فيه أو هو، على الأقل، الموقف الذي لا لبس فيه لأولئك المصلحين الذين يطمحون إلى رؤية: "الأمة الإسلامية تملأ فراغاتها وتدخل بانسجام في العالم المعاصر".

إن جوليات بسّيس، وهي تتكلم عمّا كان يفكر الأفغاني، كتبت:

"إن مسؤولية الظلامية وعدم التسامح هي بالنسبة لجمال الدين الأفغاني في الكيفية التي طبقت بها الدول والشعوب الإسلام، وليس

في الإسلام نفسه، إذ ينبغي البحث عن الانحطاط في التأويل الخاطئ للرسالة من السلطات الإسلامية المتوالية، والتي كانت فاسدة نوعاً ما، والرجوع إلى الينابيع الطاهرة من الأصول هو وحده ما يسمح بنهضة روحية قبل كل شيء، لا بد من الرجوع إلى الإيمان الأساسي، إلى الإسلام الذي يشبه وابلاً من غيث يسقط على أرض خصبة".

وهكذا فإن رشيد رضا (1865 – 1935) – وهو يأتي فعلاً بعد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده – هو تلك الشخصية الهامّة في هذا التيار الفكري، الذي يؤكد أن الأمّة الإسلامية هي أمّة وحدوية، حتّى لو أنها مركبة من أراض مختلفة، ومسكونة من قبل أجناس متنوّعة، فقد كان يؤكّد ذلك باقتناع كامل: "لقد أبلينا أقلامنا وأصواتنا من كثرة ما كتبنا وكررنا أن مصائب المسلمين لا يمكن أن تُحسب على دينهم ولكن... على كونهم "يحملون" الإسلام وكأنه فرو ملبوس مقلوباً".

وشكيب أرسلان (1871 – 1946) أعقبه فيما بعد مؤكداً فيما يخصّه: "الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر". وبعد ذلك بقليل، واصل مفكرون عرب آخرون إيحاءهم للتفكير الإسلامي المعاصر بهدف واضح جداً، وهو بث حركية تغيير وهم يتساءلون مثل المصري محمد قطب: "هل نحن مسلمون؟" ويقررون مثل الجزائري عبد الله شريط، الذي أعاد تقريباً تصريح أرسلان: "الإسلام شيء وعلماء الإسلام شيء آخر".

هؤلاء وأولئك في دوائر المصلحين قد جلبوا انتباه المؤمنين، وأيقظوا ضمائرهم، ليواجهوا حقائق العالم المعاصر، إن نهاية القرن التاسع عشر وكذلك العشرين قد شكلا فرصة للقيام بـ "حصيلة للطاقة الإسلامية وبإبراز نقائص النظام الاجتماعي الثقافي في

البلدان الإسلامية"، مثلما فعل جمال الدين الأفغاني في جريدته "العروة الوثقى" المنشورة في باريس، أما السوري عبد الرحمن الكواكبي في محاولته: "أم القرى" أو كذلك محمد عبده في "رسالته التوحيدية"، أو أخيراً العديد من عناوين الصحف التي توحي كلها بالبحث عن التقدم، ومنها "التقدم" و"الإقدام" و"الترقي" وغيرها "الإصلاح" و"البصائر"، وكذلك العديد من الجمعيات التي نشأت تقريباً في كل مكان في أرض الإسلام، وكذلك العشرات من الجامعات العصرية التي جاءت لتبث المعرفة، فقد كان كل هؤلاء سبباً في نشأة التفكير الناقد، الذي أدى إلى حصول الوعي القادر على إنشاء نوع جديد من الخِطاب، و"هو مؤسسات جديدة تتماشى مع المثُل العليا العصرية للحرية والمساواة"، ومن الواضح أن العالم العربي الإسلامي كان له ما يقلقه في ذلك الوقت، لأننا عندما نحلل أسباب ضعفه يمكن لنا أن نلحظ بصفة رئيسية حسب محمد عبده: الجمود الاجتماعي والسياسي، وعيوب "رجال الدين" والجهل والتطيرات الشعبية والظلامية والتقليص في الحريات العامة، والأمية بصفة عامة وأمية النساء بخاصةّ، وعدم الاعتناء "بعلوم الطبيعة" واستعمال الدين في خدمة السلطة السياسية خلال فترة النظام العثماني.

وفيما يخص الحكومات وتسييرها للشؤون العامة، فإن مصطفى خير الدين وهو الرائد في حركة التطور والوزير السابق (1873 – 1877)، كان قد كتب:

"إن الحكومات المسلمة الأخرى لا تجلبهم إلاّ حماستهم العمياء من أجل الاستبداد الذي هو مصدر كل التجاوزات، وبالفعل فإن الأسباب التي منعت إلى حدّ الآن إدخال إصلاحات أو تطويرها

التدريجي، وأخيراً تأسيس حرية سياسية وإدارية كاملة في البلدان الإسلامية، ليست، ولقد بينا ذلك، الأحكام القرآنية التي، بالعكس، تساعد على الحريات وعلى التقدم، ولا عجز الجماهير وجهلها المزعوم الذي يشكل العذر العادي لأنصار الاستبداد، ولكن هي الأسباب السياسية الوطنية المضاف إليها بلادة الأمراء ورجال الدولة المسلمين".

وفيما يخص الكواكبي، فإنه يرجعهم إلى سياق تشدّد الفقهاء، وهذا ما يتعارض مع بساطة الأحكام المعمول بها في الأمّة الإسلامية البدائية، وجهل الجماهير الشعبية واستسلامها للقدر، والتشاؤم العام المتولد عن الشعور بأنه يستحيل على المسلمين اللحاق بالشعوب المتقدمة في الغرب، وقبول رداءة النظام العثماني وشموليته هو الذي شكل التأخر في المستوى السياسي.

فهل نجح كل هؤلاء المصلحين؟ وماذا عن الخوف والجهل والقضاء والقدر والظلامية وأسباب أخرى لارتباك الجماهير العربية والإسلامية وكذلك لامبالاة علمائنا، فهل تم التغلب عليها أو على الأقل تقليصها؟

فالجواب: ليس سهلاً أن نقول: لم يتم فعل شيء، فهذا يعني أننا نجهل تماماً الجهود الكبيرة لمجموع المصلحين الذين أعطوا كل ما عندهم لهذه العملية، وعندما نقول إن كل شيء قد تمّ فعله بصورة جيدة، فهذا من الديماغوجية واللامبالاة وعدم أخذ التأخر الكبير الذي ينبغي تقليصه في الاعتبار، في أي وضعية نتواجد؟

هل نستطيع إيجاد جواب في هذا الخطاب الواضح والصادق الذي ألقاه رئيس الدولة عبد العزيز بوتفليقة، في اختتام منتدى الفكر

العربي الذي انعقد في الجزائر في جوان سنة 2000؟ بلى، لأنه ألقاه أمام جمهرة من المفكرين والمثقفين والكتاب ورجال الأدب العربي الذين جاءوا لتدبر المشكلات وإيجاد الحلول، قصد رصّ الصفوف والمحافظة على مصالح الأمّة، فقد عبر حسب قوله عن شعور مواطن واعٍ بالمهمة الصعبة لإنجاز الشراكة المستقبلية في عالم متحوِّل يتوجه نحو مستقبل يصعب استشرافه، فقد قال:

"إن منطقتنا العربية قد كانت إحدى حلبات الكفاح والاستقطاب السياسي والإيديولوجي الأكثر استهدافاً، ما هي الأدوات التي حضرناها لتأكيد وجودنا في هذه المعركة التي تجاوزت الهيمنة المباشرة على الرجال والطبيعة للهجوم على الفكر والتوجيه؟ فما هو إذن موقفنا تجاه ما يجري حولنا؟ كيف نوفق بين ماضينا وحاضرنا؟ كيف نسهم في عالم تلتحم فيه الأفكار الخلاقة، عالم تكثر فيه المواهب والعبقريات؟ هذه أسئلة تقتضي نظرة متبصرة لواقعنا العربي حتى نجد طريقنا نحو المستقبل المنشود (...). إن التأخر الذي سجله العالم العربي، والذي يتحدث عنه الناس، لا يعزى البتة إلى مؤسساته الجامدة، ولكنه يرجع بالأحرى إلى تقوقعنا الذي ولّد تأخراً نكرر فيه أفكاراً ومفاهيم أكل الدهر عليها وشرب، إن عهدنا ليس فقط عهد ذهن خلاق واختراعات فهو كذلك عهد اصطدام الإرادات. لا مكان في هذا العالم للضعفاء والكسالى والمسعفين، إنه عالم يتميز بسباق جامح، فالساعة إذن ساعة الاستفاقة لتدارك الوقت الضائع خاصةً وأن الانطلاق لا يكون من العدم".

صحيح أن البلدان العربية والإسلامية، إلى غاية اليوم، على مفترق طرق، إن المسلمين يبحثون عن كل ما يمكنه أن يخرجهم من هذا

الفكْر الغافي ويقودهم إلى نهضة حضارتهم، لأن عزمهم حقيقي وإرادتهم قوية. ولكن صحيح أيضاً أن المنافقين من كل حدب وصوب متخصصون في التباهي والنفاق، لا يتوقفون عن المساومة على حساب الإسلام والحضارة، ولا يتوقفون عبر ممارساتهم، وحتّى سلوكياتهم المكيافيلية، عن تزوير التاريخ ومن ورائه الاستنتاج بأن حضارتنا لا تتضمن إلاّ المظاهر السلبية.

وبالفعل وإلى جانب إسلام طاهر يُمارَس في كل مكوناته من طرف جمهور من المؤمنين لا يقبل التديّن الضيّق والمتشدِّد، فإن هناك عدّة توجهات تتعايش بصعوبة في الميدان، وهي تتزاحم على زعامة مشكلات الساعة التي لها علاقة بالسلطة الزمنية، وفي غالب الأحيان من غير وعي ومن غير تدقيق النظر في الأفق من أجل القيام بدراسة جدية وتسطير أهداف المستقبل، وفي المجال نفسه فإن "المسؤول" و"المفكر" وهما من الرجال المتميزين والمتفوقين في بلدان أخرى، وذلك حسب الترتيب الذي قدّمه الفيلسوف المسلم الكبير ابن رشد، يصيران مثل رجل العامّة الذي لم يستطع "التخلص من الركود والجمود". وهكذا فإن المجموعات تتكون، وتتوسع بينها هوة عدم الفهم أكثر، وتصير الجماهير أحياناً متفرقة تبعاً لخصومة خفية قد تصل إلى القطيعة المفتوحة.

بعد ذلك، فإن الرئيس بومدين، وهو الذي كان موزعاً بين فكرة الوحدة العربية والإسلام والاشتراكية، وقد عرف القيام بالكفاح من أجل عالم عربي موحَّد ومعترف به من طرف الجميع، وقد عرف كيف يقدم أفكاراً من شأنها أن تحدث ثورة في العالم الإسلامي لو أطال الله في عمره، فقد كان يقول: "الإسلام دين ثوري".. لم يتوقف عند هذا

التأكيد، فقد ذهب بعيداً، وهو يستوحي من التجربة الجزائرية، إذ يقول:

"... فلو كان علينا أن نعطي صفة للتشريع الإسلامي، حسب جدلية الاقتصاديين المعاصرين، فسنقول بكل بساطة إنه يكوّن منظومة اشتراكية حقيقية... ينبغي أن نصنع تشريعاً ثورياً".

سنفهم جيداً ذلك المتطوع العنيد والمقتنع الذي اختار في وقته ممارسة التوازن الصعب، بالتموقع بين مفهومين وبين نمطين للعيش، أليس هو القائل في لاهور، سنة 1974، أثناء فعاليات القمّة الثانية للبلدان الإسلامية:

"لقد أثبتت التجارب البشرية في العديد من مناطق العالم أن الروابط الروحية، سواء كانت إسلامية أم مسيحية، لم تستطع المقاومة أمام الضربات العنيفة للفقر والجهل، للسبب الوجيه وهو أن الرجال لا يريدون الذهاب إلى الجنة وبطونهم خاوية.. هاهنا كنه المشكلة".

لقد قام بومدين بالخطوة، ولم يتردد في التصريح بكل شجاعة بما كان الزعماء العرب الآخرون لا يستطيعون قوله فيما يخص الإسلام الذي جاء برسالة دينية هائلة ومفعمة بالشرف، فبدون أيّ نفاق صرّح بأن الإسلام، وهو مرادف للعدالة والمساواة، قد جاء في تصور يجعله مقبولاً في كل زمان وكل مكان، إذا استطاع الفقهاء أن يتحرروا من ذلك العيب الذي كان مسؤولاً على توقيف "الاجتهاد" وجمود الفقه الإسلامي وتعقيم مؤهلاته ورسالته في تحديد الحلول للمشكلات الجديدة، وبكلمة واحدة عجزه عن اتباع التقدم.

في سنة 1974، في بجاية، قال مولود قاسم نايت بلقاسم، وهو رجل ذو ثقافة كبيرة، بوضوح فيما يخصه ومع النباهة المعهودة

لديه، عندما تطرق إلى هذه المسألة أي مسألة المسؤولين ورجال العلم المثقفين، أثناء الملتقى الثامن حول الفكر الإسلامي – يجدر القول إن تلك اللقاءات لم تكن مدرسة للأصولية المتطرفة كما أراد بعض المفكرين المناوئين أن يجعلونا نفكر – : "نتواجد أمام جماعتين تظهران لنا بانتظام، الواحدة متطرفة والأخرى عصرية، فهناك من جهة المحافظون الراسخون والمنغلقون والمنطوون على أنفسهم والسباتيون والمتقوقعون، الذين باسم المحافظة على التقاليد يريدون ألاّ نكتفي فقط بإغلاق الأبواب، ولكن كذلك النوافذ، مريدين بذلك منعنا هكذا من أي تسرب للضوء، من أي نسيم، وأن نبقى نتخبط في الظلام، وأن نتعرض للاختناق، والجماعة الثانية تحثنا باسم العصرنة والانعتاق والتقدمية والثورية وسعة النظر والانفتاح على العالم والكونية، الخ... على ألاّنكتفي بفتح الأبواب والنوافذ في الوقت نفسه فتحاً كاملاً، إنها تقوم بضجةٌ مُصمةٌ لكي ننزع كذلك السطوح بالمناسبة نفسها، هؤلاء هم المغامرون والسطحيون والمشوّهون! إننا نريد – بل يجب علينا – أن نفتح النوافذ على مصاريعها وحتى الأبواب إن اقتضت الحاجة، ولكن يجب علينا أن نغلق بكيفية محكمة السطوح ونبقي أرجلنا فوق أرضنا الصلبة، وهكذا ونحن متيقنون من أنفسنا، فقد يكون بوسعنا أن نتمتع بالنظر إلى عوالم أخرى، لنقتبس من تجاربها الناجحة، وأن نأخذ العبرة من أخطائها... هذا هو ما نفهمه من الارتباط المنسجم بين الهوية والأصالة من ناحية والانفتاح والكونية من ناحية أخرى، لأن هذا الارتباط، بينما يفتح لنا الأبواب والنوافذ، فإنه يحفظ لنا السطوح والدعائم، على كل حال تظهر لنا سبيلاً للخروج للبشرية التي تعبر اليوم أزمة حضارة حادةٌ تهدد البناء البشري بالتشققات والانهيار".

فبعد أكثر من عشريتين على هذه التوصية المتميزة، نلاحظ فيما يخصنا أن الأشياء لم تتغير بالنسبة للبعض، بالعكس من ذلك، فقد تدهورت، لأن هؤلاء لم يستطيعوا إيجاد الوسيلة لمغادرة البرج العاجي الذي أغلقوا على أنفسهم فيه، وهم يوافقون ويصفقون ويختفون وينقحون ويمدحون وينمقون، عوض أن يصرخوا برأيهم ويعملوا في الاتجاه الجيد، فاليوم يفرض عليهم الواجب أن يقوموا بالمهمة الموكلة إلى كل واحد منهم ليبلغوا الرسالة ويضطلعوا بمسؤوليتهم بصفة كاملة، فمولود قاسم، العلامة في الإسلام – لا بد من الاعتراف له بذلك اللقب – كان يلح ليقنع:

"سنجيب هؤلاء وأولئك بأننا لا نريد أن يمْنع عنا الأوكسجين والضوء، وهما إكسير الحياة، كما لا نريد أن نهَبَ أنفسنا للعواصف التي تزعزع الأسس والدعائم قبل أن تجرف البنيان".

كان يناضل، وهو المؤمن الجيد، من أجل ترقية هذا المجتمع الوسطي، مترجماً بإخلاص توجيهات الإسلام الذي يوجهنا، بالإضافة إلى وصاياه المتعددة، نحو كثير من النجاح وكثير من الصدق والنزاهة في ممارساتنا اليومية، ونحو شجاعة كبيرة في مواقفنا مع الغير، وإلى إيمان وتفان وتضحية أكثر في سبيل الله، إنه يحثنا على الذهاب إلى العلم والثقافة، وأن تكون لنا مواقف متكاملة، يعني تلك الحاجة لمعرفة ما يجري في العوالم الأخرى، بالأخذ من تجاربهم الناجحة والاتعاظ بأخطائهم، وهكذا فإن كلمتي الأوكسجين والضوء في منظومة معاني مولود قاسم لها أصداء ذات صناعة نبيلة، لا نتمكن من ترجمتها إلا بتلك الثقافة اللازمة التي تولد التحسينات والرّفعة، وفي نهاية المطاف: النجاح، وهذه الثقافة توجد

في تراثنا؛ إنها مزدهرة ومشجعة إذا احتضناها وأثريناها بمكتشفات العصر الحديث.

إن الله في القرآن يأمرنا بالسفر للعلم في كل مكان، ويحثنا على التفكير وعلى معرفة الغير للتعلم أكثر عبر الاتصالات: (الآية 15 من سورة الملك): ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها....﴾.

ومن ناحية أخرى ينبغي أن نكون عمياناً كي لا نرى، أو صماً كي لا نسمع، تلك الرسالة التي يملي علينا حكمه فيها:

﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (سورة العلق: 3، 4، 5).

إنه يطلب منا أن نعمل ونضاعف المجهود والسرعة لِنَعِي ضرورة الحفظ والتعلم والتربية، وهي الوسيلة الوحيدة ليرفعنا إلى درجة من استقبلهم الله في نعيمه؛ وأن نتطور لنعايش مقتضيات زمننا والمحافظة على كرامة الإنسان والشعوب.

"إن الحضارة والفكر الإسلاميين هما ميراث مشترك، وكذلك ثمرة المجهود الجماعي، وإذا سجلّ التاريخ لكل شعب اللبِّنة التي قدمها في البناء فإنه كذلك يعاقب – عندما يقتضي الأمر ذلك – تكاسله وتهاونه، إذ إنه من الصحيح أن من يهمل نفسه يُهْمَل ويضيع رهانه"، حسب المغفور له مولود قاسم.

وفيما يخص علي مراد، أستاذي المحترم الذي أخذت عنه هذا الاستشهاد، مع امتناني العميق له، فقد كان بالنسبة لي أستاذاً مربياً، فإنه ينتفض كذلك ضدّ روح الركود والتقوقع ويشرح:

"إنه في العديد من الحالات، بالنسبة للضمير الجماعي، يكون تبني القيم التي تحملها العصرنة (ذات مراجع يهودية ومسيحية أو مادية) هو في حد ذاته نكران للقيم التي صنعت عظمة الإسلام في بداياته... وهو كذلك تهشيم أو تكسير للتفاهم الجماعي، كما أنه يعرِّض للخطر انسجام الأمة، ذلك الجسم الاجتماعي الصوفي، ذلك الوطن الروحي السرمدي المتعالي فوق كل الأوطان الأرضية".

ففي منطقه ومنطقنا بالطبع، يجب أن يمر تطور الروح الإسلامية بخاصةً عبر الانفتاح على مجموع الثقافات، والتكفل بالجزء الأكبر من التجارب التي قامت بها البشرية، وهذا هو الواقع... الواقع الذي يتحتم علينا أن نعيشه إذا أردنا أن نكون في تناغم مع الألفية الثالثة.

وبرغم استمرار الصعوبات التي كانت في الماضي، فإننا ننددّ بتلك "الضحالة الفكرية" المفروضة على شعوبنا، لأننا متيقنون من استرجاع بريقنا القديم، بشرط أن نبادر بالعمل، وأن نخلع عنا تلك الحتمية التي تجعلنا نعتقد بأن الغرب أحسن منّا مبدئياً، ولنا في هذا المجال مراجع جادة، ولنا – خاصةً – طاقات كامنة تستطيع أن تسهم في رفع التحدي، لقد آن الأوان أن نُذكِّر الشباب بأن هذا الخطاب ليس فقط متضمناً كثيراً من الاختزال، ولكنه كذلك فارغ من المعنى وفاسد، لا بد أن نقول لهم الحقيقة، وأن نلفت انتباههم ليعرفوا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت – بالإضافة إلى عطائها الكبير للحضارة الكونية – "المولّدة والأم المطعمة للغرب المعاصر"، حسب كلمات روجي غارودي نفسه.

لقد قدم العلماء المسلمون مساهمة متميزة، ولعبوا دوراً هائلاً في ترقية التاريخ والفيزياء والكيمياء والجغرافيا وعلم الفلك،

وشكلت هذه المواد الأساس في تقدم العلوم في الغرب. لقد كان العلماء العرب سباقين في اقتراح وإنجاز التجارب العلمية للتثبت من بعض الظواهر الفيزيائية أو تأسيسها، وهكذا فإنهم رفضوا بعض النظريات والافتراضات المجردّة، فقد كانت هاهنا فعلاً بداية الثورة العلمية الاختبارية" حسب ما قاله من جهته الدكتور محمد نجاة الله الصديقي، أستاذ في الجامعة الإسلامية "علي غرب" بالهند.

"من المعْتَرَفِ بِهِ اليوم عند الباحثين الغربيين أن الفارابي قد مارس تأثيراً كبيراً على فلسفة العصور الوسطى، إن كتابه "إحصاء العلوم"، "قد تمت ترجمته إلى اللاتينية وقد حاز على سمعة كبيرة لدى المنظومات الفلسفية المسيحية واليهودية، إن هذا التأثير يظهر خاصة عند روجيه باكون ورامون لول. إن "إحصاء العلوم" للفارابي هو نفسه الذي اعتمده الفلاسفة المسيحيون في القرون الوسطى... وفيما يخص ابن سينا فإنه يكفينا أن نذكر كتابه "القانون في الطب". إن تأثيره على الفكر المسيحي معروف كذلك، والقديس توما الأكويني قد اتبع منهجية ابن سينا في البرهان على وحدانية الله وفي تميزه غير الجسماني، كما أن ديكارت استعمل تمشياً يشبه كثيراً تمشي ابن سينا ليثبت "وجود الروح ومادتها الروحانية واستقلاليتها بالنسبة للجسد"، حسب ما ذكره عثمان أمين وهو أستاذ في جامعة القاهرة وذلك خلال محاضرة في أفريل سنة 1974:

"عندما تبنى الأوروبيون الجبر، فإنهم لم يتبنوا الكلمة فقط، ولكنهم تبنوا كذلك منهجية الحساب التي وضعها العرب وحسنّوها.. ونستطيع أن نقول الشيء نفسه بالنسبة لعلم الفلك والرياضيات بصفة عامة والجغرافيا. وأخيراً فإن النهضة الأوروبية لم يكن لها أن

توجد بهذا الشكل التي هي عليه لو لا الإسهامات العربية"، كما ضبط ذلك بول بالطا، وهو الكاتب الصحفي.

فالمقصود هنا بالضبط: الحديث عن تلك الثقافة التي كانت تعمل من أجل مصلحة الجميع، والتي كانت تساعد على التقدم، والتي كانت تصنع من العلم وسيلة فعّالة للإنتاج وللارتفاع في عالم دائم التطور، وأخيراً فالمقصود هو تلك الثقافة التي كانت قادرة، كما يزعم ذلك علي مراد:

"على تكوين العبقرية ذات السمعة، مثل ابن خلدون الذي بفضله أثبتت العقلانية مكانتها أمام ذهنية القرون الوسطى".

إن هذه الإثباتات تأتي لتفند النظريات التي طورها إرنست رينان، أثناء محاضرته الشهيرة في جامعة السوربون يوم 29 مارس سنة 1883 – وهو قصر المعرفة الذي لا يقل شهرة عن المحاضرِ نفسه – من شدة هجائه للإسلام والمسلمين، ومع هذا فهل كان هؤلاء العلماء يستحقون هذه النقمات من طرف مفكر مشهور، بينما كان رجال آخرون مشهورون في أوروبا يكيلون لهم المديح لما قدّموه من إسهامات في الحضارة؟

إن التاريخ، بتقلباته، حاضر ليذكرنا في كل مرة كيف ساهم أجدادنا في انطلاق الحضارة الكونية.

فبناء على كل ما سبق، يريد هذا الكتاب أن يكون استدراكياً، وحاملاً معه الأضواء اللازمة لمعرفة الأحداث التي تشهد على أن بلدنا كان دائماً أرض إيمان وثقافة.

الفصل الثاني

إشعاع الثقافة والإسلام في المغرب الأوسط
العلماء والأعيان ممن أسسوا المدارس

الثقافة في الجزائر إلى غاية الاحتلال في سنة 1830

كانت الجزائر – وهي القلب النابض للمغرب العربي – تواجه انشغالات مماثلة للتي عرفها جيرانها، وكانت الروابط معهم وثيقة، حيث بدت الحدود الفاصلة للجميع – وخاصة للمسافرين الآتين إليها يحدوهم شغفهم بنهل العلوم – غير واضحة، لا.. بل إنها لم تكن ذات وجود قط.. شعب واحد، تقاليد متطابقة، ما عدا بعض الاستثناءات، وثقافة موروثة عن السلف، تغذيها القيم الروحية والأخلاقية نفسها، ولها تفرعات عديدة في البلدان الثلاثة، وحتى فيما يتعداها، امتداداً من أراضي ليبيا قديماً – سيرنايك – وصولاً إلى الفزان وغيره، مما جعل المغرب العربي كياناً واحداً مزّقته اجتياحات الأجانب، والصراعات الداخلية على السلطة الزمنية، وزعزعته بصفة جدية، لتصنع منه منطقة أدركها الوهن، وصارت خاضعة لأخطار التقلبات السياسية التي فرضتها عليها مع الزمن السلالات الحاكمة المتهالكة التي توالت على حكمها.

لقد درج العلماء الجزائريون على الانتقال من بجاية إلى القيروان إلى مراكش إلى المرج (برقة بمنطقة طرابلس) إلى القاهرة إلى دمشق إلى بغداد، وكأنهم يذهبون من مدينة الجزائر إلى تلمسان، وكانوا يتحركون جميعاً تحدوهم الحاجة إلى خدمة قومهم، وبالتالي

العمل بموجب أحد تعاليم الإسلام الذي يوصي بـ "الأخذ والعطاء"، حتى يكون العالِم مخلصاً لدينه، ويبقى على اتصال دائم، منسجماً مع رجال العلم والثقافة في دراساتهم واكتشافاتهم انسجاماً كاملاً، وقد تأثر هؤلاء العلماء بوقع أن الإسلام منذ القرن السابع الميلادي، ولأول مرة في تاريخ الحضارة، فرض حكمه على الذين يرفضون إمّا أن يتعلموا، هم أنفسهم، أو أن يعلموا الآخرين ما استطاعوا لذلك سبيلاً، فقد قال رسول الله، النبي محمد صلّى الله عليه وسلم، (في معنى الحديث الشريف): "يجب على بعض الناس أن يتعلموا لدى جيرانهم، وعلى البعض الآخر أن يبذل العلم إلى جيرانه، وإلا كان عقابه قريباً".

وهكذا إذن، كانت بجاية وتلمسان ومدينة الجزائر مدناً مشهورة عبر ثقافتها على الأقل مثلها مثل المدن الأخرى في المغرب العربي وفي مشرقه، وقد تميزت بعدد علمائها ومدارسها ومكتباتها وبحياتها الاقتصادية الهامة، إذ إنها جمعت أمهر الحرفيين الذين جعلوا منها مراكز لتصدير المواد المصنعة، وقد فرضت تلك المدن نفسها كبؤر تعمّ فيها أفكار التقدم ويجند فيها العلماء والطلبة أنفسهم في مجالات الفقه والأدب والفلسفة والعلوم الإنسانية وعلم الفلك والطب، تعبئة كانت تتم عن إرادة متينة وشغف بالإتقان على حد سواء، في حين كانت تلك المجالات آنذاك لا تزال جنينية في أوروبا، وقد سطع نور تلك المدن، إذن، في العلوم والآداب، وكانت مدارسها تنافس مدارس قرطبة، ألم تكن وصية النبي (صلّى الله عليه وسلم) نفسه بالاهتمام بالثقافة حين ذكّرنا بأحكام الله (معنى الحديث):

"لقنوا العلم، لأن تلقينه تسبيح لله. إن الجدال في العلم لهو جدال مقدس، فبالعلم نميزّ بين الحق والباطل، إنه نور يضيء لنا طريق الجنة، والنجي في الصحراء، والأنيس في أوقات الوحدة، والمرشد الوفي في السراء والضراء، والملائكة ترغب في صداقته؛ وكل مخلوق على الأرض يطمع بفضائله؛ إنه بلسم القلوب ضد موت الجهل والنبراس الهادي في ليل المظالم".

لذا، فإن تلك المدن كانت مراكز حضارية حساسة، وبالتالي: لم تكن الجزائر ذاك البلد الذي ادعى المستعمرون البرهان على أنه ذو وجه منفّر متوحش، ينبغي احتلاله لتدجينه أو لتمدينه، حسب ما استعملوا من صيغ، فقد ورد في كتاب "تكوين الأمة الجزائرية" لمحفوظ سماتي أن "لوسيت فالنسي" أكدت في كتابها "المغرب العربي قبل الاستيلاء على مدينة الجزائر" أن البلاد كانت قليلة السكان، فضلاً عن الانقسامات التي كانت تتجاذبهم، إذ كتبت تقول:

"يضاف إلى قلة عدد سكانها الانقسامات الشديدة فيما بينهم، هناك سبعة شعوب وأربعة مذاهب أو ملل وقدر ذلك من اللغات وأنماط العيش: إن هذا التنوع يترجم قول الخليفة عمر (رضي الله عنه) بأن "إفريقيا تقسم"، وكان جواب السيد سماطي كالتالي:

"إن في هذا القول ما يدفع القارئ غير المطلع إلى الخطأ، فنحن لا نعتقد أن لوسيت فالنسي لا تميز بين المذهب والملة وبخاصة في الإسلام، حيث المذاهب السنية الأربعة لا تباينات فيما بينها، إلا تباينات طفيفة جداً أي في بعض التفاصيل التافهة".

لكن هذه السيدة الكريمة لم تأت بجديد، إذ إنها اطلعت على وثائق لتلك الفترة، تلك الوثائق التي تم تحريرها – أو تزويرها – من قبل

مختصين في التضليل كانوا قد عقدوا العزم على إحداث إثارات جديدة بل قل غريبة، حيث تكثر رؤى مزعجة لتغرب شامل وتوترات ذهنية، وليس ذلك سوى ردود فعل خبيثة ومجادلات مستوحاة من الإيديولوجية الاستعمارية – حسب فكرة الاقتصادي المغربي فتح الله ولعلو – وذلك في كل مرة يأخذ الجزائريون مسؤوليتهم للاحتفاء بحاضر بلادهم أو ماضيها والبرهان على ارتباطهم بالكفاح وبالتراث الثقافي الوطني، فقد كتب مصطفى لشرف يقول: ″في أزمنة الاحتلال الأولى لبلادنا من قبل فرنسا، في سنوات 1850، كل الحكام العسكريين الاستعماريين وصلهم الأمر بالقيام، في كل منطقة من المناطق الجزائرية، بدراسة ميدانية كاملة متعلقة بتاريخ السكان وبأصولهم القريبة أو البعيدة وتقاليدهم وتبادلاتهم وتحالفاتهم وأنشطتهم الاقتصادية والثقافية، إلخ، وكانت تلك الدراسات الميدانية معتمدة على ما حفلت به ذاكرة الأشخاص الذين تم استقصاؤهم وعلى شهاداتهم المباشرة مع أفضلية أعطيت للمسنين والطلبة (حفظة القرآن). والحال أنه في أكثر من حالة، كان الجزء التاريخي الصرف المتعلق بوقائع تعود إلى قرن أو قرنين مضيا قد أحيط بغمامة من الضباب، وحفل بالخرافات، وخصص مكاناً أرحب للتاريخ المقدس (أو معجزات الأولياء وحياتهم) أكثر مما خصص للرواية الملموسة للأحداث الكبيرة التي وقعت في الماضي غير البعيد″. وبطبيعة الحال فليس بوسعها – بوثائق من هذا النوع – أن تقدم ما هو أفضل.

مع العلم أن ما ورد بريشة لوسيت فالنسي كان أقل وطأة وإهانة، وبالتالي أقل خبثاً مما أفاده أغوستين برنار، العضو المؤسس للمدرسة الاستعمارية الجزائرية، والذي جزم دون خجل أو احتراس قائلاً:

"نستطيع القول وبدون مبالغة إن الجزائر لم تكن موجودة قبل مجيء الفرنسيين، إننا فعلاً أخرجناها من العدم وأعطيناها اسمها وشخصيتها".

أمّا روبير أرون الذي ذكره الكاتب الجزائري نفسه، فلم يتردد في الحكم السلبي على ثقافة بلادنا:

"لم تكن جزائر العام 1830 تتمتع بأي ثقافة منظمة، وأي طريق للمواصلات، وليس لها أي تبادل إن لم يكن في حالة متفرقة (...) إن سهل المتيجة كان بؤرة للطاعون ومرتعاً لكل أنواع الحشرات والبعوض المتسبب في الملاريا، وهو بالوعة ضخمة أو مقذرة كبرى، قال عنها الجنرال بيرتيزين، خليفة دو بورمون، إنها ستكون مقبرة لكل من يتجاسر على استغلالها".

هل يجب علينا أن نؤمن بكل تلك السخافات عندما يثبت مسؤولون سامون في الحكومة الفرنسية العكس في تصريحاتهم، وكانوا يبرهنون بوضوح أن بلدنا بالفعل كان غنيا جداً، وأنه كان يجب الاستيلاء عليه ليجنوا منه فوائد جمة لفرنسا؟، كان أحد الأعيان المهمين يتكلم عن الجزائر ويتوجه إلى حكومته بعبارات انتشرت فيما بعد طالباً منها أن تنحاز، لأن الحصار لم يلحق بالجزائريين أي ضرر، فقد طلب أثناء ذلك الاجتماع الرسمي في سنة 1829 عدم تفويت تلك الفرصة من أجل الدفاع عن "قضية" أوروبا بأكملها، "إن الحصول على بعض الموانئ المحصنّة سيمنح لنا ضمانات، ويسمح لنا في الوقت نفسه بنسج علاقة مع البدو الذين يمكن أن نفيدهم مع بعض الامتيازات في صالحنا، لا ينبغي أن نستخف بالمزايا التي تمثلها أرض هائلة نراها تقريباً من منازلنا ونستطيع التواصل معها في أربعة

أيام، وهي قادرة على إنتاج ما عز من غلال نذهب لجلبها من أمصار بعيدة"، هل كان الجنرال بيرتيزين ضدّ هذا التصريح الذي هو توسعي أكثر منه مدحيّ، عندما قال بأن أراضينا قد تكون مقبرة لكل من يتجاسر ويقدم على استغلاله ؟

إن مسخ واقع الأمور والسير في الاتجاه المعاكس للحقيقة كان من الأمور التي لا تثبط عزيمة المؤرخين والمفكرين الغربيين عندما تتطلب مصالحهم الخاصّة تزييف التاريخ.

إن حمدان خوجة، وهو ابن مدينة الجزائر، المتعدد اللغات، ذو الثقافة الواسعة والذي يعتبر من الأعيان الكبار في النظام التركي، صرّح بما يلي:

"فأنا لست متعلقاً بهذا السهل إلا لأنه قريب من المدينة، ولأن فيه مزارع مواش قريبة من مدينة الجزائر وفيه كنت أزرع القطن (...) وخلال تعرضه لاجتياح الفرنسيين خسرت هذه الزراعة ومزايا أخرى متعددة، أرغمت على التخلي عنها".

أمّا محمد الشريف ساحلي، المؤرخ، فإنه يذكر في كتابه المعنون: "تحرير التاريخ من الاستعمار" أغنية شعبية تعبر عن مدى تأثر مشاعر فلاحي المنطقة بعد الاحتلال:

"أين أنت يا متيجة الجميلة،

"أنت التي كنا ندعوك أم الفقير ؟

"كانت قطعانك تقارن بالدرجات؛

"كنا نراها تستعرض في المساء.

"أين أنت يا محبوبة البؤساء ؟

"كنا نفضل المكوث فيك على المكوث في المدن الجميلة.

"إن أموالك كانت تتدفق كالوديان

"وفخرك كان

"في إطعام من هو جائع".

فبمفردات الأرقام القابلة للتصديق، بلغت الأراضي المزروعة – التي كانت ملكاً للجزائريين قبل 1830 حوالي 14 مليوناً من الهكتارات، وبعد قرن من الاستعمار تراجعت هذه المساحة إلى 7 ملايين هكتار.. أين ذهبت أراضي أجدادنا.

كان يعيش في هذه المتيجة مائة ألف من الفلاحين، وكان الجزائريون يسمون المتيجة "عدوة الجوع" أو "أم الفقير"، وقد انتهت حسب ساحلي إلى احتلال مكانة مرموقة في مطامح الفرنسيين المتعلقة بإسهامهم الحضاري والتنموي بالجزائر.

لقد رفع النائب دو صاد الصوت عالياً أمام الجمعية الوطنية الفرنسية يوم 28 أفريل 1834 للتنديد وفضح الأعمال التخريبية التي اقترفها أبناء ملّته في مدينة الجزائر:

"كانت مدينة الجزائر في السابق محاطة بالحدائق ومساكن للترفيه، وكنا نرى في نواحيها المناظر عينها التي نراها في مرسيليا، كل ذلك قد اختفى، إن الحدائق قد خربّت والديار هدُمّت وأخذ خشب الهياكل للتدفئة (...) وعندما نقصت هذه الموارد تم قطع الأشجار المغروسة وأشجار الفواكه، فذلك ما قمتم به من استصلاح إلى حد الآن".

ولكن برغم ذلك، أي تلك الحملة المتزايدة ضدّنا، وحتى لو كانوا يذهبون في سوء نيتهم إلى أقصاها كما كان يقول لشرف، فإن

مؤرخي الاستعمار لم يفلحوا في إضفاء وشاح أسود على صورة المغرب العربي والعالم العربي والإسلامي إلى درجة لا تطاق، وجوابنا هو الآتي: لم تتمكن الكوارث أو الاستبداد أو الآفات الاجتماعية أو العنف، وفي أيّ وقت من الأوقات، من بلوغ مدى تضع فيه المغرب في مرتبة تقارن بما كانت عليه تطيّرات الغرب الفظة وثقافته الظلامية التي صنعتها جميعها كهنوتية كنسية.

في المغرب العربي كانت مراكز الانتشار الثقافي كثيرة بفضل الحضارة العربية الإسلامية، في المراكز الرئيسية كان هناك جوّ ثقافي تم تشجيعه كذلك بعوامل مختلفة ومنها من جهة، تعريب جزء كبير من السكان البربر الذين شجعهم الحماديون على الدخول بصفة كاملة في الحركة الثقافية والفكرية، ومن جهة أخرى: المواجهة بين الجو الثقافي المغاربي والجو الثقافي الأندلسي، لقد كانت تلك المواجهة تمارس بمناسبة المبادلات الكثيرة، وبصفة رئيسية، بعد تلك الأحداث التي لا تحصى، والتي شجعت على هجرة علماء كبار في الجزء الغربي وفي الوقت الذي كان المسيحيون يعدون العدة لاسترجاع العديد من المدن.

إن مناطق عديدة من البلاد قد انخرطت في تلك الحركة الثقافية، وباعتبار الوسائل المتاحة ونوعية المربّين، فإنها قد توصلت إلى فرض نفسها كذلك في المحيط المباشر، وفي بعض الأحيان أبعد من ذلك بقليل عندما استلمت المشعل أيدٍ قادرة، فبمعزل عن مدينة الجزائر التي صارت فيما بعد مقر الولاية، فإن قسنطينة وميلة وفرجيوة وقالمة وقلعة بني حماد وبوجليل وبني أوغليس وخنقة سيدي ناجي ودلس وماكودة وشرشال وتنس ومليانة والمدية

ومجاجة ومستغانم ومازونة ومسيلة وبوسعادة وعين ماضي وأدرار.. ومدن أخرى كثيرة كانت في التاريخ الحديث للجزائر، أقصد قبل الاحتلال الفرنسي، مراكز إشعاع حيث كان رجال مثقفون وأتقياء ومخلصون لمبادئهم ينشرون العلم ويقومون بالدراسات والأبحاث وينشرون مؤلفات قيمة، هذه المدن الثقافية كانت كذلك مراكز تنطلق منها التوجيهات الخاصّة بالممارسة السلمية للإسلام وأحسن الطرق للحوار والإثراء بواسطة الملاحظات التي قام بها مثقفوها وعلماؤها خلال دراستهم.

وفي مجال التربية، فإن الفرنسيين أنفسهم بواسطة جيشهم المحتل، قد تحتم عليهم الاعتراف بأن عدد التلاميذ، عند وصولهم إلى الجزائر، في المدارس الجزائرية كان يفوق ما كان متواجداً في فرنسا نسبياً بالطبع باعتبار عدد السكان، فقد سجل ذلك في التقارير مع شيء من المرارة وأرسل إلى الحكومة الفرنسية، وكأن كاتبي التقرير يفرضون على أنفسهم الاعتراف بحياء أن الحقيقة كانت مغايرة، ألم يكتبوا هم أنفسهم: ″إن البرابرة الذين جئنا لتمدينهم متقدمون علينا في المجال الثقافي″.

إنهم لم يخطئوا لأن الجزائر كانت تَهُبُّ منها ريح العلم والتقدم زمناً طويلاً قبل الاستعمار، أي في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش أحلك أيّامها.

أمّا فيما يخص التعليم والثقافة العامة قبل الاحتلال الاستعماري، فإن نموذج تلمسان ″يعتبر معجزة مستمرة″، حسب مؤرخ فرنسي لاحظ أنه يوجد، بالإضافة إلى العدد الكبير من المدارس الابتدائية، خمس مؤسسات ثانوية وعالية في زمن الزيانيين، وقد

أثبت ذلك عبد الباسط بن خليل المالطي والحسن الوزان (ليون الأفريقي) في كتاباتهما. وبعد مجيء العثمانيين، فقد تضاعفت المدارس، وهكذا، فعندما احتل الفرنسيون الجزائر، كانت تلمسان تعد خمسين مدرسة ابتدائية ومعهدين عاليين قد أعيد تنظيمهما وتحسينهما في شكل مؤسسة دينية من قبل الباي محمد الكبير.

ولم تكن قسنطينة كذلك على الهامش في هذا النشاط التربوي والثقافي، فقد عرفت ذروتها في عصر الحفصيين واستمرت هذه الذروة حتى في عهد العثمانيين، كما استطاع الفرنسيون أن يلاحظوا ذلك في بداية الاحتلال، فقد كان فيها تسعون مدرسة ابتدائية وسبع مؤسسات ثانوية وعالية، وقد أكد الباحثون آنذاك أن كل طفل في سن الدراسة، يعني ما بين ستّ وعشر سنوات، كان له مكان في المدرسة.

فيما يتعلق بمدينة الجزائر، يؤكد العديد من المؤرخين أن عدد المدارس كان يقارب المائة مؤسسة مدرسية وكذلك ثلاثة معاهد عليا: القشاشية وشيخ البلاد والجامع الكبير، إن هذا العدد الهام يشهد على أن السكان وكذلك حكامهم كانوا يشعرون بأنهم معنيون بإنجاز المدارس وفتحها، من الباشا إلى المواطن البسيط مروراً بالباي والموظف السامي كلهم كانوا يتدخلون ويساهمون مالياً في بنائها، إن بعض الأثرياء ذوي الثروات المفرطة من مدينة الجزائر كانوا يتدخلون بصفة متستّرة وفي الغالب بدون الإعلان عن الاسم، فيخصصون مبالغ هامة لهذا الشأن الذي يعتبرونه من الشرف الكبير.

أمّا مؤسسات التعليم في المناطق أو المدن الأخرى من البلاد، فالعديد منها قد عرف شهرة راسخة في مجال التربية والتكوين. إن

مثقفين سامين وعلماء كباراً قد تخرجوا من المعاهد الهامّة لخنقة سيدي ناجي ومازونة.

إن المعهد الأول: المدرسة الناصرية التي أسسها أحمد بن ناصر بن محمد بن الطيب كان يعلم النحو والفقه والحديث، فقد كان يشع على امتداد كل الشرق الجزائري ويستقبل التلاميذ من الزيبان ووادي سوف والأوراس وقسنطينة وعنابة.

أما المعهد الثاني وهو في مازونة فإنه كان فيما يخصّه يشع على مناطق الغرب الجزائري، وكانت له شهرة راسخة على أساس أنه تشرّب من التقاليد الراسخة لمدارس تلمسان والمغرب والأندلس.

إن العلماء، فيما يخصهم كانوا كثيرين وكان بلدنا يعرف حياة ثقافية مزدهرة، بالفعل كانت فيه أنشطة أكثر كثافة ومتسمة بإنتاج فكري ينافس إنتاج العواصم الأخرى والمراكز الكبرى في المغرب العربي وفي الشرق الأوسط، سواء تعلق الأمر بالعلوم الدينية والتعليمية والفلسفة والزهد والتاريخ والجغرافيا وغيرها، أم تعلق الأمر بعلم الفلك وعلم الأبراج والرياضيات، وفي الفترة عينها كان من السهل أن نلاحظ وجود عمل حركي ومتواصل للتخلص من الظلامية والرجوع إلى تحكيم العقل والمنطق وحرية التفكير والحكمة وتعميق التدبّر حول التعاليم الربانية الواردة في الوحي وتغيير الحياة الفردية والجماعية طبقاً للسنن التي أوحى بها الله، أمّا فيما يتعلق بارتباط علمائها بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية فقد كان ذلك بالغ الأهمية لأنه كان يستجيب لتطبيق السنن الإلهية ويؤدي إلى تكوين مجتمع سليم، وهكذا فإن البحث عن المعرفة النافعة والحث على تطبيقها في بناء المجتمع السليم المنشود كان من بين الميزات التي اتصف بها

مثقفونا الذين عملوا، في زمانهم، على إرساء جوّ ملائم متصف بالفضيلة على المستويين الأخلاقي والروحي.

ففي نظر المسلمين الجزائريين، فإن الدين يسير في تناغم مع العلم الذي يتم احترام استقلاليته، فقد كان الغبريني يقول في أحد كتبه: "كان للحماديين سلوك مثالي مع رجال العلم" .وكان الأمير عبد القادر، الرجل الإنساني، يدعو إلى هذا وهو يلح في كتاباته:

"إن الذين يزعمون أن المعارف العلمية تتعارض مع الدين، فإنهم يأثمون ضد "الدين".

قديماً، وفي القرن الثاني عشر الميلادي بالضبط، فإن عبد المؤمن الكومي المشجع لرجال العلم، كان (هو شخصياً) شاعراً ملهما، وأبا بكر علي الصنهاجي، المشهور باسم البيدق وعبد الوهاب المراكشي كانا مؤرخين كبيرين، أمّا الإدريسي السبتي فإنه تميّز بحوصلاته بعد أسفاره الطويلة التي جعلته يكتشف الشرق الأوسط وأوروبا فهو عالم جغرافيا وأنساب محنك، وقد جعلته شهرته مثل غيره من العلماء في هذه المادة يحظى بالترحيب في حاشية الملك النورماندي الذي كان يحكم صقلية، وهناك عالم آخر، ربما الأشهر ألا وهو أبو إسحق إبراهيم بن القاسم المعروف باسم الرقيق والذي كان الكاتب في بلاط بلوغين بن زيري بن مناّد ثم في ديوان ابنه المنصور، وأخيراً لدى أحفاده باديس والمعزّ، وهو المؤلف كذلك للمرجع الأكثر جدية في تاريخ الدولة الصنهاجية: "تاريخ إفريقيا والمغرب (العربي)" في عشرة (10) أجزاء.

كان ابن خلدون يقول عنه هذه الكلمات التي استشهد بها المؤرخ المهدي البوعبدلّي: "الرقيق كان مؤرخ إفريقيا والدول التي توالت على القيروان، ومن خلفوه لم يكونوا سوى مقلدين".

وهناك أيضاً ياقوت الحموي مع تحفته الراقية: "معجم البلدان" وفيه يروي أن غرناطة، عند تأسيسها، حملت اسماً بربرياً "أغرناطة" وهي نظرية مرجحة لأن بناء هذه المدينة وتحصينها تمّا على يد البربري حابوس الصنهاجي ثم أنهى بناءها ابنه باديس، كما أكد ذلك ابن هادية القرشي وهو رجل أدب ووزير أول لدى ملوك الزيانيين في تلمسان.

إن الجزائريين سلكوا كذلك سبل علم الفلك وعلم الأبراج، ومن بين المتخصصين في هذه المادة: عبد الله الفاسي والبطرجي وهما عالمان شهيران في القرن الثاني عشر، ولقد حظي هذا الأخير باحترام بالغ من قبل علماء أوروبا، وجاء فيما بعد، في القرن الخامس عشر، محمد بن يوسف السنوسي وابن القنفذ والقلصدي والأخضري ومؤلفه الشهير: "الجوهرة البيضاء"، وفي القرن السابع عشر هناك أحمد بن محمد بن عيسى المرساوي الذي تميّز بمؤلفه الشهير: لغة الكواكب. وقد عرفت تلك الفترة عينها عالماً آخر مشهوراً وهو محمد بن أحمد الصخري الذي أكملت أعماله قرناً بعد ذلك من قبل ابن حمدوش، وتميّز القرن الثامن عشر بدوره بوجود محبين كبار لعلم الفلك وعلم الأبراج ومن بينهم ابن علي الشريف وأحمد بن بلقاسم الزواوي وعبد الله بن عزوز التلمساني.

ولم تكن الهندسة المعمارية على هامش ذلك النشاط الثقافي والعلمي، فالمهندسون مثل الحاج يعيش المالكي، كان لهم الشرف أن ينجزوا أعمالاً عديدة في البلد وأسهموا في بناء مدينة جبل طارق، وقريباً من مدينة الجزائر، في البليدة، كان الولي الصالح سيدي الكبير، صاحب مدينة الورود، مهندساً معمارياً، إضافة إلى ما كان يقدمه من تعليم لتلاميذه.

والرياضيات أيضاً كان لها رجالها المشهورون: ابن فرسون القيسي وأبو عبد الله محمد بن حجاج (القرن الثاني عشر) وأبو عبد الله الحباك ومحمد بن أحمد الجلاب وعبد الرحمن الأخضري (القرن الخامس عشر)، أمّا عبد اللطيف المصباح وسحنون بن عثمان الراشدي الونشريسي (القرن السابع عشر)، فإنهما قد قاما من جهتهما بمجهودات جبارة في هذه المادة بكتابة العديد من المؤلفات، مثل ابن مدينة الجزائر والموسوعي عبد الرزاق بن حمدوش الدباغ الذي عاش في القرن الثامن عشر.

إن العلماء والمثقفين الجزائريين كانوا يهتمون بالعلوم بصفة عامّة وبخاصة علم الفلك، ولهذا فإن الطب والصيدلة والجراحة لم تكن مجهولة حتى لو أن الممارسين لها لم يكونوا كثراً، وأن العوام كانوا يلتجئون في حالة المرض إلى مشعوذين يقُدّمون لهم أنفسهم على أنهم أولياء أو مرابطون، إن الأغلبية كانت تتعاطى الطب التقليدي وتتداوى بخلاصة النباتات الطبية التي كان يحضرها بمهارة صيادلة يعرفون جيداً مختلف لوحات المرض.

وحسبما لاحظ كل المؤرخين، فإن العثمانيين لم يشجّعوا فتح مدارس للطب ولا من باب أولى الأبحاث في هذا المجال، كما شرح ذلك الدكتور سعد الله، ولم تضرب جذورهم عميقاً في البلد لأسباب عديدة، منها: أن أخلاق السكان الجزائريين وعاداتهم كانت مختلفة في أغلبية الحالات عن الأخلاق والعادات التركية حتى يمكن لنا أن نرجو من اختلاطها نتيجة متجانسة، فقد كان للعثمانيين مطامح أخرى ليست متطابقة تماماً مع مطامح السكان الذين كانوا ينوون السيطرة عليهم، ولنتجاوز عن فضائحهم مثل الخيانة والاختلاس

ورفض المحاربة لحماية البلاد التي استغلوها أكثر من ثلاثة قرون دون أن يعطوها أي شيء بالمقابل حسبما جاء في كتاب حسين مزالي "مدينة الجزائر، اثنان وثلاثون قرناً من التاريخ"، كان العثمانيون يخضعون لغرائزهم، كانت العصائب تتنازع، كل واحدة تريد أن تفرض هيمنتها على الشؤون العامة ولكن لنتجاوز هذا المظهر الذي لا يهمنا الآن فهو يهم المؤرخين الذين كتبوا وسيكتبون أيضاً، غداً، لأنه سيكون لهم كل الوسائل ليقولوا كل ما هو اضطهادي في سلطة "الأوجاك" و"طائفة الرياس"، وهي سلطات لا فائدة من ورائها للسكان المحليين بل إنها كانت تهينهم إلى درجة كانوا لا يأملون بلوغها أبداً لأنهم كانوا يظنون أنهم فعلوا شيئاً جيداً بقبولهم مساعدتهم وحمايتهم.

ولنعد إلى ممارساتهم التي لم تكن بالدرجة التي يحبها الجزائريون، في إطار العلوم وخاصة الطب، فإنهم كانوا يرتبطون بخدمات أطباء أجانب، وكانوا لا يتدخلون إلاّ في الحالات ذات الصفة الاستعجالية مثل استئصال الأوبئة، ولكن هذا لم يمنع العلماء الجزائريين أن يقوموا من ناحيتهم بجهود في هذا المجال الحيوي ليتكفلوا بمشكلات صحة المواطنين، فابن سينا وابن رشد وابن البيطار، هؤلاء الأطباء العرب المشهورون الذين تميّزوا كذلك بمعرفتهم الواسعة في الفلسفة، كانوا حاضرين في الجزائر عبر الوثائق الثرية التي كانت موجودة في مكتباتنا، وابن حمدوش وابن يوسف السنوسي وإبراهيم بن أحمد التلمساني كانوا يرجعون إليها دائماً ويستلهمون من التوجيهات العملية التي تتضمنها، كما ان أحمد بن قاسم البوني وهو عالم من القرن الثامن عشر هو صاحب أكبر عدد من المؤلفات في الطب. وبقطع النظر عن هؤلاء، فقد كانت الجزائر

تضمّ أعلاماً آخرين في هذا المجال، أقصد الطب والعلوم الطبيعية مثل أحمد ابن خالد المالكي.

أمّا فيما يتعلق بعالم الأدب والشعر واللاهوت والفقه والعلوم الدينية بصفة عامة، فقد كان مزدهراً أكثر نظراً لعدد العلماء والرواد الذين كانوا يمارسون هذه المواد، ويجدر القول إن الجزائر منذ دخلها الإسلام إلى غاية الاحتلال الاستعماري الفرنسي كانت تعيش على وتيرة ثقافة مغروسة في التقاليد المغاربية بدون أيّ اضطراب في مستوى الثراء مقارنة مع الجهة الأخرى من العالم العزبي والإسلامي، إن أدباء كباراً قد رأوا النور فوق هذه الأراضي التي، برغم المناخ العدواني المستمر الذي تحدثه الاجتياحات المتوالية التي تعرضت لها أرضنا، فإنها قد أعطت للإسلام وللثقافة أحسن المنتصرين لها.

والآن سنعطي بعض الأسماء من الذين أذاعوا صيت الجزائر بفضل كفاءاتهم وإنتاجهم الجليل في محفل العالم العربي وأبعد من ذلك، أي عبر أوروبا، وأسهموا في الحضارة والفكر الإسلاميين.

فقد كان هناك الكثير من سير الرجال المشهورين في الجزائر، ومنها سيرة الغبريني وعبد الملك المراكشي وأبو جعفر بن الزبير، فهل كانت هذه السير كافية؟ نشك كثيراً في ذلك لأن العلماء الثلاثة قد أغفلوا العديد من الذين كانوا يعيشون قبل عصرهم وكذلك العديد من الشخصيات المرموقة من معاصريهم، من المتفق عليه أننا نعترف بوجود حياة ثقافية مزدهرة في الجزائر منذ عهد الدولة الرستمية (القرن الثامن الميلادي) فهناك العديد من الوثائق تثبت ذلك، وهناك أسماء في كل وثائق المؤرخين سواء هنا في البلد أم في بلدان أخرى، أي عند من يعرفون قيمة هذه الكنوز ويجعلون منها مكتسبات ثمينة.

إن هذا الجو نفسه قد تواصل في زمن الحماديين وفي عهد الموحدين ثم في عهد الحفصيين والزيانيين، فبقطع النظر عن الأسباب المؤسفة التي تسببت في انقراض هذه الممالك، فإن بلدنا لم يتخلف عن تخصيص مكانة تليق بالثقافة، إن دراسة العلوم الإسلامية والفن الأدبي قد ازدهرا خاصة في القرن الثاني عشر عندما كادت الدراسات الفلسفية تنطمس في المشرق، إن هاتين المادتين قد عرفتا عندنا ازدهاراً جيداً بمساهمة العديد من العلماء أثناء المبادلات والهجرات من الأندلس بعد انحلال الدولة الأموية وسقوط مدنها المشهورة بأنشطتها العلمية.

أمّا فيما يتعلق بالكتاب فإنه المطية اللاّزمة للثقافة وقد كانت له حروفه الذهبية في بلادنا، إلى درجة أن الباحثين الفرنسيين قد لاحظوا مباشرة بعد الاحتلال، وفرة الكتب والوثائق والمخطوطات الثمينة، وقد جمعوها بعد أن نهبوا تقريباً كل المكتبات التي كانت موجودة في المناطق التي احتلها جيشهم، ولقد بهرهم غنى تلك الكنوز ومدى ما كان الجزائريون يولونها من اهتمام. إن البارون دو سلان قد أكّد ذلك في كتاباته المتعلقة بمكتبة قسنطينة، وكثيرٌ من الباحثين الآخرين كانوا قد كتبوا وشهدوا على أن العديد من المؤسسات والعائلات الجزائرية حافظت بعناية كبيرة على المخطوطات والمؤلفات ذات القيمة العالية أو الفريدة من نوعها.

إن مكتبة "شيخ الإسلام" في قسنطينة وهي ملك لعائلة الفكون، كانت غنية جداً ليس لأنها احتوت على مؤلفات تتعلق بالجزائر فحسب ولكن لأنها كانت تتضمن كذلك عناوين ثمينة جداً قد جاءتها من البلدان العربية والإسلامية، إن هذا لبرهان، إن كنّا في حاجة إلى

برهان، على أن الجزائريين في ذلك الوقت كانوا شغوفين بالقراءة وكانوا يحبون الفن والعلوم برغم نقص الوسائل وبعض التهاون من قبل العثمانيين تجاه الثقافة.

إن أهلنا، وهم محللون متحمسون، قد كتبوا كذلك للتعبير عن رضاهم أمام تجدد الاهتمام بالكتاب، يذكر العياشي (القرن السابع عشر) في كتابه "السفر" أنه اكتشف في أعماق الصحراء في تكورارن، مكتبة نفيسة جداً كانت ملكاً للشيخ محمد بن إسماعيل، لقد أُحْصِيَ فيها على الأقل ألف وخمسمائة (1500) مؤلفٍ. فقد كتب ما يلي: "في هذه المكتبة يوجد كتب ثمينة قد جلبها ابن إسماعيل من اسطنبول".

إن كتبنا ذات جمال نادر وكانت تصل عن طريق المؤمنين الذين يعودون من مكة، ثم كانت تذهب إلى الأماكن النائية من البلاد، إن الكاتب نفسه الذي تم ذكره، يحكي أنه وجد في قرية في الجنوب، قرب ورقلة وعند رجل تقي نسخة مخطوطة عن "أحداث البرزالي" قد كتبها الإمام ابن مرزوق وكانت تحتوي على تعليقات بالخط الشرقي حملها رواد الطريقة القادرية، إن الدكتور سعد الله الذي يروي هذه المعلومات في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي" يوضح أن السيد العياشي قد اندهش لوجود هذا المؤلف في مثل تلك المنطقة النائية، واندهاشنا اليوم أكبر لا بسبب وجود هذه الكنوز ولكن بسبب انتشار كل هذه المدارس وهذه المذاهب الزاهدة وخاصّة الطريقة القادرية في تلك المناطق النائية، في الواقع ليس هناك ما يبرر الاندهاش لأن العلم كان يُبلّغ بسرعة في مناطق المغرب العربي وبصفة رئيسية في الجزائر عندنا. بأيّ وسيلة كان يتم ذلك؟ بواسطة المسافرين وخاصة المثقفين من بين الحجاج، الذين كانوا يتخذون الحيوانات مطايا

لسفرهم وكانوا مسلحين بالإيمان والشجاعة وكانوا ينتهزون الفرصة لاقتناء الكتب كلما مروا بمختلف العواصم العربية خلال الرحلة الحماسية الطويلة للتعلم ولجلب أكثر المعلومات والكتب. يحكي الجبرتي في كتابه: "عجائب الآثار" أن جزائرياً اشترى عدداً كبيراً من الكتب ذات القيمة النفيسة في الحجاز، وكانت تلك الكتب تعتبر نادرة وغير موجودة حتى في مكتبات سلاطين ذلك الزمان، ثم إن مروره بالقاهرة سمح له بأن يشتري كذلك كتباً نفيسة أخرى.

كان الكتاب يشغل حيزاً كبيراً في الحياة الثقافية للجزائريين، وأتكلم عن هذا بكل فخر لأن الكتاب اعتبر دائماً على أنه أحسن مطية للمعرفة...

وهكذا فإن الأغنياء والفقراء وكل من أحسن القراءة كانوا يشترونه ويعتنون به جيداً، إن الشيخ ابن إسماعيل مثلاً كان ينفق على مكتبته مبالغ كبيرة وكذلك العالم ابن حمدوش الدباغ برغم وضعيته المالية المتواضعة، فقد كان ينسخ كتباً كاملة وبنسخ جيد بعد استعارتها من ذوي الثقافة وذلك ليقتصد بعض المال، وفي هذا الجو كانت الجزائر وقسنطينة وتلمسان وبجاية مدناً خصبة بمؤسساتها للنشر وبوراقاتها حيث كانت تُمَارَسُ الخطوط التي نعتبرها عندنا وعند كل العرب علماً، ودائماً فيما يخص علم الخطوط يحكى أن أبا عبد الله العطار كان خطاطاً ممتازاً وأن شهرته كانت تساوي شهرة ابن مقلة، وكذلك فإن الشيخ إبراهيم الحركاتي والزجاي وأحمد التليلي كانوا يعتبرون اختصاصيين كباراً في هذا العلم، وقد عرف الخط العربي بفضلهم في بلادنا تطوراً هائلاً نظراً لرشاقته وجماله.

وبالموازاة مع هذه الأنشطة، هناك علماء آخرون لم يلمعوا بدراساتهم ومحاضراتهم والمؤلفات التي تركوها للبشرية، إن مساهمتهم في إثراء التراث الثقافي الوطني لا مراء فيها.

وقد أسهم العلماء الكبار: أبا القاسم القالمي وسيدي بومدين شعيب والآخرين كالشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الحق البطيوي ومحمد بن يوسف بن عمر شعيب السنوسي وعبد الحق الاشبيلي، بنشاط في إحداث جوّ ثقافي راق، وسمحوا للإسلام أن يمارس في سياقه المتسم بالاطمئنان وبالاتحاد الروحي الكبير، وكان الاشبيلي يمثل طبقة المفكرين الأحرار.

هذا ما قاله عنه المهدي البوعبدلي: "لقد ترك مؤلفات جيدة إذ نرى مكتبات العالم الإسلامي تتنافس للحصول عليها... فقد كان الأشبيلي قاسياً في أشعاره مع الإقطاعيين والأمراء الذين كانوا في الغالب جهلاء، كل أشعاره تظهر ترفّع روحه واحتقاره للمادة وحبه للعلم والأوصاف النبيلة".

كان حسن أبو علي المسيلي، يُعْرف بتسمية أبي حامد الغزالي الصغير، فقد كان عالماً ومفتياً في بجاية في القرن الثامن عشر، ويرى الغبريني أنه أحسن من أبي حامد الغزالي (الحقيقي)، فقد برهن كلامه على أنه كان يتحكم في الفيزياء والميتافيزيقا (الماورائيات)، وكان أبو إسحق إبراهيم وأصله من تنس عالماً جليلاً في نهاية القرن الثاني عشر وكان يتمتع بشهرة تمتد إلى كامل المغرب العربي.

إن ولَدَيْ الإمام محمد، وهو شخصية محترمة عاشت في نهاية القرن الثالث عشر وهو كذلك من مدينة تنس، قد تم استقبالهما في تلمسان من قبل أبي حمو الأول، إن مصداقيتهما وتأثيرهما في

المجال الثقافي قد بلغا شأنا، وذلك إلى درجة أن تدخلهما لدى أبي الحسن سلطان فاس كان كافيا لتوقيف نهب مدينة تلمسان من طرف المرينيين، ويوجد اليوم في تلمسان مسجد صغير يحمل اسمهما: "مسجد أولاد الإمام". أمّا ابن سبعين وهو تلميذ بومدين فقد كان مكثراً في الإنتاج، وصار شهيراً بفضل "رسائل صقلية" التي ترجمت إلى عدة لغات.

أما المظفّر بالله عبد الله بن بلكين بن باديس بن حابوس الصنهاجي فإنه خلف جدّه باديس سنة 460 هـ على عرش غرناطة في الوقت الذي نُصِّبَ فيه أخُوه تميم على عرش مالقة، كان عبد الله أديباً من الطراز الكبير وشاعراً ماهراً وخطاطاً ممتازاً، وقد ترك للأجيال الصاعدة نسخة فاخرة من القرآن الكريم كُتبت بكثير من العناية، والعديد من المؤلفات، وبخاصة مذكراته التي عرضها ليفي بروفانسال تحت عنوان "مذكرات الأمير عبد الله".

أمّا أبو يحيى تميم بن المعز بن باديس بن المنصور الصنهاجي فقد كان أحد سلاطين بني زيري، كما أنه حارب بني هلال وأرجع الهدوء في المملكة، لقد تحتم عليه كذلك أن يواجه غارات الفرنسيين والإيطاليين، إن تقلّبات السلطة والأعمال الحربية لم تضعف مواهبه كشاعر كبير، وترك لنا هو كذلك تأليفاً متميزاً من الشعر الممتاز الذي اختاره وجمعه العماد الأصفهاني في كتاب عنوانه "جريدة البلاط".

وفيما يخص أبا عبد الله محمد بن علي بن حمّاد الصنهاجي، وهو ابن برج حمزة في ناحية بويرة، فقد تميز عن المثقفين الآخرين، فبعد دراسات غنية في بجاية والجزائر وتلمسان، لمع في مجال الفقه وصار قاضياً كبيراً في الأندلس ثم في المغرب العربي، إن معلوماته

الواسعة صيرته موسوعياً لأنه درس تقريباً كل العلوم وامتاز في التاريخ والجغرافيا وفي الأدب والنحو وكذلك في الشعر، حيث ترك لنا ديواناً رائعاً، كما أنه كتب أيضاً العديد من المؤلفات ومن أهمّها: "النبذ المحتاجة في ملوك صنهاجة" و"مفاخر البربر".

كان عبد الله شرف الدين محمّد بن سعيد بن حمّاد بن عبد الله الصنهاجي معروفاً باسم البوصيري وكان أصله من قلعة بني حمّاد، وقد ترك لنا مجموعة شعرية ثرية ومن بينها القصيدة المشهورة والمعنونة "بالبردة" فيها مائة واثنان وستون بيتاً.

ونجد أيضا أبا عبد الله محمّد بن محمّد بن داود بن أجروم (أجروم في اللغة الأمازيغية يعني الفقير والمتصوّف)، فقد كان عالماً كبيراً في النحو خاصة وفي الأدب، وكان يمتلك معلومات واسعة في مادة الرياضيات، إن كتاب النحو، الأجرومية، الذي يحمل اسمه قد تم تحريره عند عتبة الكعبة.

ثم أبا علي الحسن بن حجاج بن يوسف الهواري وهو من مواليد ناحية بجاية، فقد كان فقيها كبيراً وأستاذاً محاضراً في أشبيلية في القرن السادس الهجري.

كان أحمد بن محمد المقري معروفاً في عالم الأدب، وهو عالم علاّمة متخصص في علم الكلام والتفسير والحديث، ترك لنا مؤلفات ذات نوعية لا مراء فيها، إن القاهرة ودمشق تعرفان جيداً فصاحته وكانتا تقدران عمق اطلاعه حق قدره.

أمّا أبو عبد الله شمس الدين محمد بن محمد بن مرزوق التلمساني العجيسي، فهو أحد أبناء قبيلة عجيسة الكبيرة التي أعطتنا شخصيات شهيرة في الأدب والسياسة في كل المغرب

العربي، وكانت تلك العائلة مفيدة في هذا المجال، كان ابن مرزوق — كما كان يناديه كل الناس — أحد أقطاب الفقه المالكي ورجل أدب مشهور بالإضافة إلى كفاءاته في العلوم الأخرى، فقد كتب أكثر من سبعة عشر مؤلفاً في علم أصول الدين وفي الفتاوى الشرعية والتفسير والحديث والتاريخ وعلم الفلك والأدب وأخيراً في الشعر، فقد كلِّف ابن مرزوق من قبل السلطان المريني أبي الحسن بوظيفة الخطابة في مسجد العبّاد في تلمسان قبل أن يلحقه بمصالحه ليكلف بعدة مهام، منها سفير أو ممثل شخصي لدى العديد من الملوك، إن السلطان أبا الحسن كان محاطاً بأشهر العلماء وتميّز بعدله وبإسهامه الفاعل في الدفاع عن إسبانيا المسلمة في مواجهتها للغزوات المسيحية، كما ذكر ذلك محمود بوعيّاد في تقديمه لرائعة ابن مرزوق المعنونة: "المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن". وهذا المؤلف يتحدث عن حياة هذا الملك الذي كان صانعا لتفتح كبير، باعتْبِار تربيته والعناية التي كان يوليها لحياة رعاياه، وبملاطفته للعلماء وحبه للعلوم.

وهناك أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق التلمساني العجيسي، وهو معروف باسم "ابن الأخ"، فهو مثل عمه المذكور آنفاً، فقد كان هو كذلك قمّة في العلوم وبصفة خاصّة في مجال الفقه والأدب الذي كان الشعر يتبوأ فيه مكانة متميزة، بقي لنا عدّة مؤلفات من هذا العالم لتشهد على جلَدِه وعلى قدراته الإبداعية، إن قصائده طويلة واثنتان منها تحويان على التوالي 1000 و1700 بيت، وقد كتب كذلك عدة مؤلفات في التفسير وخاصة سورة "الإخلاص" التي لا تحتوي إلاّ على أربعة آيات، وله كذلك ثلاثة مؤلفات في شرح بردة "البوصيري". وتجدر الإشارة إلى أن ابنه الذي كان يدعى الأعمى

والذي توفي في مكة لا يخلو من التقدير، فقد كان مثل أبيه مثقفاً كبيراً وترك لنا عدة مؤلفات تعالج المذهب المالكي.

كان محمد بن خلف الله بن خليفة بن محمد القسنطيني الكتامي وهو مشهور باسم ابن الشمني أحدَ الأقطاب الأكثر شهرة في علم الحديث وفي إطار الفقه الإسلامي، ذهب من قسنطينة إلى القاهرة ليصير شيخاً محاضراً في مجال العلوم الدينية، حتى إن جامعة الأزهر تعرف جيداً دروسه البديعة.

أما أبو علي حسن بن عمر القسنطيني الكتامي، المكنّى ابن الفكون، فقد احتُفِيَ به في زمانه على أنه أحسن شاعر في المغرب الأوسط، إن مؤرخين وكُتّاب سِيِّر مثل الغبريني وابن القنفذ والعبدري وأخيراً المقري قد تحدثوا كثيراً عن أشعاره الرائعة في مقتطفات واسعة وكثيرة الثناء.

وقد كان أبو العباس أحمد بن عثمان بن عبد الجبار الملياني الكتامي كذلك مثقفاً كبيراً وعالماً في مجال العلوم الدينية، وقد كان ميالاً إلى الزهد وترك مؤلفات، أحدها متعلق بآرائه في شكل شرح أو أجوبة على كتاب "البداية" للمازري.

أبو عمران موشى المصمودي (موشى وليس موسى هكذا كُتِبَ اسمه في "الجوهرة" للحجّال) كان متخصصاً مرموقاً في الفقه الإسلامي، فقد تحدث عن هذا ابن القاضي في كتاباته.

عاش أبو إسحق إبراهيم بن محمد المصمودي عند الصنهاجيين في ناحية مكناسة ثم تنقل إلى تلمسان ليقيم بها إلى أن مات، فقد كان أستاذاً لابن مرزوق "ابن الأخ" – قد تحدثنا عن هذا – وكذلك (أستاذاً) لعالم آخر محمد المجري الأندلسي الذي يتحدث عنه بكثير من الاحترام والمودة، مبيناً صفاته النبيلة ومنها التواضع والصفاء والتقوى والإيثار.

أحمد بن إدريس وتلميذه عبد الرحمن الوغليسي وكذلك أحمد النقويسي، وهم أساتذة في جامعة بجاية، كانوا كذلك أساتذة للعديد من الشخصيات البارزة في هذا البلد، الذين صاروا بدورهم علماء كراماً مثل محمد بن عمار الهواري، سيد وهران الشهير وتلميذه إبراهيم التازي وعبد الرحمن الثعالبي، سيد مدينة الجزائر الشهير وكذلك ابن عبد الكريم المغيلي "إمام المسلمين" في إمبراطورية صونغاي، وسيدي التواتي العالم الشهير لبجاية.

لقد كتب أحمد بن زكري التلمساني المتخصص في علم الكلام، رائعة شعرية من 1500 بيت عنوانها "المراصد".

وصنع بالمثل أحمد بن عبد الله الجزائري في رائعة شعرية أخرى عنوانها "الجزائرية"، والتي علق عليها الشيخ السنوسي وهو ذلك العالم الكبير في القرن الخامس عشر.

وفي القرن السادس عشر، نجد أن للشيخ الحاج بلقاسم بن الحسين وهو مثقف من التوات ويصل نسبه إلى ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، العديد من المؤلفات، احدها عن "التوحيد" وآخر بعنوان "منهاج السالكين" وثالث عن "معجزات النبي" (صلّى الله عليه وسلم) ورابع عن "مناسك الحج" وعشرات الكتب في العلوم الدينية وممارسات الإسلام.

والحاج أحمد بن يوسف هو عالم آخر من الناحية نفسها، وقد جاء قرناً بعد الأول وتميز بإنتاجه الغزير في المؤلفات المفيدة والمحفوظة إلى يومنا هذا. وقد ترك هذان العالمان الكبيران (من التوات) على غرار العديد من الآخرين، جواً متيناً من الثقافة في هذه الناحية المشهورة عادة بسعة الاطلاع.

لقد كان هناك آخرون كذلك متخصصون في كثير من المواد، سنذكرهم باختصار وبدون تفاصيل مع إعلام القارئ أنهم عاشوا في فترات مختلفة، وأسماؤهم هي الآتية: عبد الملك زيادة الله الطبْني (من ناحية طبنة) ومحمد بن الحسن القلعي وعبد الرحمن وعيسى ابنا الإمام الشريف التلمساني اللذان عاشا في حاشية السلطان المريني أبي الحسن، وهناك عبد الرحمن بن محمد الجزائري وأبو العباس أحمد بن علي الملياني، وعبد الحق الأنصاري البجاوي وعيسى البسكري وأبو محمد عبد المنعم الجزائري وبركات بن أحمد العروسي القسنطيني وابن عبد الكريم لقنون الكتامي وأبو عصيدة البجاوي والحسن بن عثمان الونشريسي وأحمد الونشريسي وأبو مهدي عشتى الثعالبي (من عائلة سيدي عبد الرحمن الثعالبي صاحب مدينة الجزائر) وعبد العزيز الثميني وخليفة بن حسن القمري ومحمد بن علي الخروبي ومحمد بن علي البهلول وأبو زكريا يحيى محمد الشاوي الملياني الذي كان أستاذاً محاضراً في مدينة الجزائر والقاهرة ودمشق واسطنبول وقاضياً في المذهب المالكي لدى الأزهر الشريف ومحمد بن عبد الرحمن بوقبرين وهذا دون أن نأخذ في الحسبان العلماء الذين هاجروا من الأندلس وأقاموا في بلادنا.

ولا ننسى أن نذكر عبد الله محمد أحمد التلمساني وعلِيًا ابن أبي نصر وهو ابن محكم الهواري وعلياً بن عمران بن موسى الملياني، وهو "أرسطو الجزائر" وابن زاغو التلمساني وابن عبد الله الباهلي وأبا الروح عيسى المكوي الزواوي وهو شيخ "الفتوى" في الأزهر ثم قاضٍ في نابلس ودمشق، وعلياً بن موسى بن علي بن هارون ويوسف أبا الفضل بن النحوي وأبا عبد الله محمد بن مرزوق وأبا علي ناصر الدين المشدلي الزواوي وعمران بن موسى المشدلي

(صهره) وعمر بن محمد الكماد الأنصاري القسنطيني المعروف باسم الوزان وأبا محمد بركات القسنطيني وقاسم بن سعيد العقباني التلمساني ومحمّداً بن أحمد بن مريم المديوني ومحمّداً بن الجليل التنسي ويحيى بن عتيق التدلسي (أحد أساتذة بن عبد الكريم المغيلي) وإبراهيم بن يخلف المطماطي التنسي الملقب بشيخ "الفتوى" في سائر المغرب العربي والشيخ محمداً بن عنتر وسيدي أحمد بن جيدة المديوني وأحمد ابن الحاج البيدري وأبا العباس أحمد بن ادريس وأبا بن عثمان المنقلاتي وأبا عبد الله الخميس ومحمد بن عبد الجبار المسعودي التلمساني وهو شاعر صوفي كبير وأحمد زروق البنوسي وأبا إسحق إبراهيم وهو أستاذ محاضر في المسجد الكبير في تلمسان في عهد الملك يغمراسن وأبا محمد عبد الله بن أبي بكر الأسوني وهو قاضي التوات وسيدي محْمّد الكتاني وهو عالم جليل أطلق اسمه لحيّ كبير في مدينة الجزائر اليوم وآخرين منهم سيدي يحيى العدلي ومحمد الشريف الزهار وأبو عبد الله محمد بن محمد الجزائري وعمر بن محمد المنقلاتي.

لقد كان القرن الثامن عشر كذلك ساطعاً بالأنوار الثقافية، وكانت العلوم الإسلامية والفلسفة والنحو والشعر والأدب تشكل المحور بالنسبة لكل المواد في المدارس والمعاهد الكبرى، وقد نشّط علماء كبار هذا القرن، الذي كان كذلك فترة مزدهرة، وبالفعل فإن منطقتنا بدأت تعرف آثاراً سلبية ناتجة عن التحولات الكبرى في أوروبا وسياساتها التوسعية، ولكن لِنبق في مجالنا، أي مجال العقيدة والثقافة ولنذكر الذين لمعوا بمعارفهم الواسعة، يخطر على بالنا أحمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني وأحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني الذي أنتج مؤلفات متميّزة، وسيد أحمد بن عمار

الجزائري وعبد القادر الراشدي وسيدي عبد الله البرناوي وعلي بن محمد الجزائري وهو صاحب باشا مصر الأمير أحمد والشيخ محمد بن الميروك الجعفري البدوي عالم التوات الذي قال عنه عبد القادر بن عمار مؤرخ تلك الفترة: "كان ولياً صالحاً مبجلاً وعالماً لامعاً قد درس على العلماء الفطاحل من أمثال سيدي محمدّ الونقلي وسيدي عامر بن عبد القادر وسيدي عبد الرحمن التنلاني".

وجاءنا من التوات مولاي عبد الله الرقاني الذي كرّس نفسه لدراسة العلوم الإسلامية وتعليم الأخلاق الفاضلة، مستوحياً ذلك من مؤلفات الإمام عبد الكريم المغيلي.

وهكذا وقبل أن نغادر هذا القرن الثري، على الأقل مثل القرون الأخرى، في مجال الثقافة، والمضطرب في مستوى الكفاح من أجل السيادة الوطنية، فإننا سنتوسع في الكلام على عالمين كبيرين عرفتهما البلاد، نأخذهما على سبيل المثال فقط لنؤكد أن ما قلناه عن هؤلاء الرجال، رجال العقيدة والثقافة، لم يكن ببساطة نظرة فكريّة ولكن هؤلاء العلماء المشهورين كانوا بالفعل من الأعيان في مجالاتهم، نذكر مطولاً: بوراس من معسكر وحمدان خوجة من مدينة الجزائر.

"وِلُدت بين جبل كرسوت وجبل هونت حسبما أخبرتني به أختي حليمة الصافية الصالحة المتخلقّة والتي يحبها الله، ونرجو من الله أن يسقي قبرها ويستقبلها في جنة الخلد، أخذنا أبونا معه إلى الشرق في المتيجة حيث ماتت أمّي التي كانت امرأة ذات أعمال حسنة وتقية وعاملة، كانت تحب العلم والتقوى لأنها كبرت في منزل فيه الثقافة والإحسان والإخلاص والنعيم، كانت تشبه رابعة العدوية، فبعد موتها نرجو أن يُحيطها الله بفضله، انتقل أبي إلى مجاجة ليعلم

القرآن الكريم، إنه مدفون في أمّ الدروع في مقام الشيخ أحمد بن عبد الله" مقتطف من "فتح الإله" وهو مؤلف لبوراس.

من هو هذا الرجل الذي لا يعرفه الكثير من الجزائريين؟ اسمه محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد الراشدي الجليلي المعسكري، ولكنه مشهور باسم بوراس، لقد اشتهر بهذا اللقب (بوراس) لأن رأسه كبير بالنسبة لقامته الصغيرة، ولِد في سنة 1737م قرب معسكر وتوفي سنة 1823م. عاش يتيماً وفقيراً منذ نعومة أظفاره، وتكفل بتربيته أخوه الكبير عبد القادر فأخذه معه إلى المغرب حيث كان يتاجر، فحفظ القرآن هناك وتعلم مبادئ اللغة العربية.

وبعد رجوعه إلى مسقط رأسه، توجّه إلى مدينة الجزائر ليتعلّم العلوم، ثم إلى تونس ومصر وسورية وغزة والقدس والحجاز حيث أدّى مناسك الحج مرتين، فقد كان لديه متسع من الوقت أثناء تنقلاته لمخالطة ومصاحبة علماء كبار؛ حيث وجد لديهم ارتياحاً كبيراً وفرصاً مناسبة ليثقف نفسه ويكتسب المزيد من المعلومات، وهكذا فإنه خالط باستمرار أحمد بن عمار المفتي الكبير في الجزائر، مؤلف "نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب"، ومرتضى الزبيدي وشيخ الأمير الكبير.

ثم صار بوراس بدوره عالماً طبقت شهرته الآفاق إلى درجة أن مشايخ كباراً اعترفوا له بقدرته على توفير التربية وإصدار الفتاوى. كان الشرقاوي يناديه "شيخ الإسلام". ولم يكف تلميذه ابن السنوسي عن مدحه. ولنقرأ ما كان يقوله عنه:

"كان أبوراس متمكناً جيداً في العلوم فقد كان يعرف بامتياز المذاهب الشرعية الأربعة للإسلام. عندما كنا نلقي عليه أسئلة عن أيّ حادث، كان يجيب بثبات وكأن الأجوبة كانت حاضرة على شفتيه".

فقد عرُف أبوراس – بقطع النظر عن الأوقات الحماسية التي قام خلالها بدراسات جادّة – حياة صعبة ومتقلبة ولكنها غنية بالتجارب، إن تنقلاته عبر كل التراب الجزائري والمغرب العربي والمشرق قد سمحت له باكتشاف علماء كبار وحكام كثيرين، كان يحمل لبعضهم – وبخاصةّ للحكام الأتراك – نوايا طيبة، وقد برهن على ذلك في كتاباته، حتّى لو أنه لم يفعل أكثر على غرار ما فعل بعض المؤرخين والشعراء في تلك الفترة.

لقد أثر في حياته الكثير من الأحداث، فعرف أبوراس الجوع والحاجة، وأكثر منْ ذلك، الفقر والتسوّل، فقد لبس الثياب الرثة ومشي حافي القدمين مدّة سنوات طوال، فخلال مروره بالسنوات العجاف، هزّ رجال الثقافة جدل كبير، كان ذلك الوقت وقت رجال ادعوا تقمص مهمة وتخلوا عنها. وهكذا وأثناء تلك الفترة الصعبة حصل له حظ وجود نفس طيبة ومساعدة من تدبير العناية الربانية، وهي الشيخ عبد القادر المشارفي الذي اكتشف فيه تلميذاً ذكياً وذا ذاكرة خارقة للعادة وذا قدرات استيعابية واسعة. وكانت تلك الفترة أيضاً الزمن الذي حدثت فيه أحداث أخرى في المنطقة وكذلك في العالمين العربي والإسلامي: أولى الإصلاحات في الحجاز، البعثة الفرنسية إلى مصر وكذلك وصول محمد علي إلى السلطة والحركة الإصلاحية عند العثمانيين وهجومات اللورد إيكسموث والأميرال فان كابيلان ضد مدينة الجزائر وثورة الدرقاوة ضد الأتراك.

ونضيف إلى هذه الأحداث الوضعية الاجتماعية المضطربة جداً للشاب "أبوراس"، الذي خرج من ذلك المأزق بخبرة كبيرة، مستغلا فرصة علاقته مع عبد القادر المشارفي، ذلك المثقف الذي كان يتحكم جيداً في الأخبار التاريخية والحوليات – والتاريخ بالإضافة إلى

معارفه الواسعة في مجال العلوم التقليدية – ثم قرر أبوراس أن يتحرّر وأن يذهب للعيش في البادية وأن يتزوج ويقوم بتبليغ تجربته إلى شباب تلك المناطق المختلفة التي كانت تتألم من العزلة والتباينات الصارخة إلاّ أنه بعد سنتين من التعليم والتضحيات، أحسّ بحاجته إلى إكمال معارفه، ولم يستطع تحمل ما كان يعتبره تقهقراً برغم شرف المهنة التي وجه نفسه إليها، فرجع إلى معسكر حيث مكث اثنتين وثلاثين سنة، وهكذا تحصل على شعبية كبيرة في تلك المدينة المشهورة بتقاليدها الكفاحية والثقافية، ففرض نفسه كأستاذ محاضر متخصص في الفتاوى الشرعية وأخذ لقب أحسن قارئ، لأن صوته كان – حسب قولهم – ألطف الأصوات، إن اجتماعاته العلمية كانت شهيرة لأنها كانت تبلغ أحياناً ثمانمائة مستمع.

كان بوراس كثير الإنتاج بالنسبة للعلماء ورجال الثقافة الذين عرفتهم الجزائر في مختلف الفترات، باستثناء أحمد البوني الذي أنتج أكثر من مئة مؤلف، فهو مؤرخ لامع ومعلق على الأحداث ورجل أدب وفقه، هذا هو بوراس الذي ترك لنا كمية هامة من المؤلفات، أكثر من ستين مؤلفاً، ترجم بعضها إلى الفرنسية وبقيت المؤلفات الأخرى محفوظة في المكتبة الوطنية في الجزائر وفي مكتبات الرباط وبرلين والقاهرة وباريس.

وقد عاش حياة يطغى عليها العناء والصعوبات والآلام، وبعد وفاته بني له مقام سمي "قبة المذاهب الشرعية الأربعة"، لأن "بوراس" وبكل بساطة كان "يفتي" وهو مستلهم من المذاهب الأربعة وبدون تمييز، وأكد بعض المؤرخين أن الأتراك – وكان أحد أصدقائهم المتحمسين– قد بنوا له مكتبة وساعدوه ببعض السبل ليعيش حياة كريمة، وذهب أولئك المؤرخون إلى القول بأنه كان متشيّعاً لهم، وهكذا فإنه صار من بين

مادحيهم، هل هذا صحيح؟ مهما يكن فإن معسكر لها الحق في أن تفتخر بأنها أنجبت شخصية شهيرة، على أبناء المدينة وعلى الذين يشعرون بأن الواجب يدعوهم للدفاع عن تراثهم أن يبذلوا جهداً في التعريف بهذا الرجل الذي تبوأ مكانة هامّة في تراثنا الثقافي والديني.

وحمدان خوجة، مثقف آخر في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، من هو هذا الشخص الذي كان يدعى زعيم الإسلام العصري؟

إنه كروغلي، ولكنه من طينة استثنائية، وقد استطاع أن يفرض على محيطه الاحترام وأن يضفي على كل المهام التي اضطلع بها طابع الجدّية والنجاح.

لقد ولد في الجزائر سنة 1775م في زمن الداي محمد عثمان باشا وهي السنة التي اجتاحت خلالها إسبانيا العاصمة قبل أن تصَدَّ عنها، وهو من عائلة من أعيان مدينة الجزائر، لها أثر كبير في الأمور المالية والإدارة والوظائف السامية في الدولة، كان أبوه أميناً عاماً للحكومة التركية في زمن الوصاية بالإضافة إلى منصبه الأساسي كأستاذ التشريع الإسلامي، فاستطاع حمدان خوجة أن يستغل هذه المكانة العائلية وأن يستعملها أحسن استعمال.

حفظ القرآن وهو ما زال طفلاً صغيراً وبعد ذلك تعلم مبادئ اللغة العربية والحساب والفقه الإسلامي والحديث، من بين أساتذته الكثيرين أبوه الذي علمه العلوم والطب والفلسفة والعلوم الدينية وذلك عبر المذهب الحنفي خاصةً.

سافر يافعاً إلى القسطنطينية برفقة خاله وتعلم هناك اللغة التركية وتحسن في العلوم العصرية وبقي سبعة عشر سنة في تركيا.

وفيما بعد تسنى له أن يسافر كثيراً وأن يستغل مدة إقامته الطويلة في مختلف عواصم الشرق الأوسط وأوروبا وأن يخالط علماءهم، رجع من إسبانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا بمجموعة من المعلومات عن أشكال التسيير السياسي وممارسة الديمقراطية، وهي المناهج التي كان يتم العمل بها في أوروبا وخاصة لدى الأنظمة الجمهورية.

كان حمدان خوجة متمكناً من اللغة الفرنسية تمكناً تاماً، وكان كذلك يتكلم الانجليزية جيداً مما سمح له بمراسلة المسؤولين الكبار في البلدين وشدّ انتباههم إلى المشكلات المؤلمة التي كان الجزائريون يعيشونها، وذلك مع رفع احتجاجات شديدة اللهجة، كان يشغل المنصب عينه الذي شغله أبوه في زمن النظام العثماني، أضف إلى ذلك أنه كان من الدعاة الذين ينشرون العلوم التجريبية، ومحاربة الظلامية وتجنب أيّ ميول لعدم الاعتماد على النفس، فكان أول من أسس، في مجال الصحة العمومية، نظام العزل والحجر الصحي تحسباً للأوبئة والأمراض الخطيرة.

كان حمدان خوجة مستشاراً للداي حسين وعلّم في الوقت نفسه الفقه الإسلامي، وبعد الاحتلال استعمل كوسيط بين الجنرالات الفرنسيين والمسؤولين عن النظام التركي والمسؤولين عن القبائل والزوايا الكبرى. وهكذا فإنه كان عليه أن يتصل مع باي قسنطينة، أحمد باي وباي الطيطري بومزراق، وكانت له مراسلات مع الأمير عبد القادر إلى غاية سنة 1840. مع ذلك، وبُعَيْدَ الحكم الذي أصدرته السلطات الفرنسية بحقه وعقب كل المضايقات التي تعرض لها من قبل كلوزال لأنه انتصر بشراسة لشعبه، فإنه التجأ إلى فرنسا نفسها،

عند الذين أهانوه، ووجد الحماية لدى التقدميين والليبراليين ومن بينهم العديد من البرلمانيين والمسؤولين عن التنظيمات السياسية، فقد قام بكفاح في مستوى قدراته الكبيرة، كفاح بدون انقطاع وكفاح مباشر وشجاع مبرهناً للجميع أن المستعمرين كانوا يستعملون في الجزائر سياسة التردد والمخادعة والتزوير.

نتناول من كتبه مؤلفاً بعنوان المرآة "Le Miroir" وضعه بالفرنسية على أنه تحدٍّ فريد من نوعه، ألم تقل تلك السلطات عن هذا الكتاب "إنه جاء ليسيء إلى الحضور الفرنسي في الجزائر" ؟

ونعطيك فيما يلي بعض المقتطفات من مقدمته:

"هل من الطبيعي أن تتجدد كوارث القرن السادس عشر في القرن التاسع عشر ؟

إن المعلومات المتعلقة بالأهوال التي يتعرض لها أبناء بلدي تزعجني أكثر وتفرض عليّ أن أحث الأكثر بؤساً منهم على أن يضحوا أكثر وأن يتشجعوا أكثر.

وفيما يخصني فإني سأفعل كل ما هو في وسعي لدعمهم وإعطائهم ثباتاً أكثر.

وبالفعل، يصعب عليّ اليوم في بلدي أن أجد منطقة يعيش فيها المواطنون في السكينة والثقة والطمأنينة، فبحثت عن شيء يستطيع أن يصبرّ الشعب بعد أن سلبت منه حقوقه وأن يخفف عنه حرمانه ولكن من دون جدوى. فلاحظت أنه لم يحظ بأيّ شفقة ولم ينعم بأيّ عدل.

وأخيراً أتساءل: لماذا زعزعت كل بِنيات بلدي وأهين في مبادئه؟ لماذا أصيب في أعمق أعماقه... في طاقاته الحيّة؟

عندما أتأملّ بوضعية الشعوب الأخرى... فإنني لا أرى أحداً منها محكوماً عليه أن يعاني مثل الآلام التي يعاني منها شعبي... لقد استجيب لإرادة اليونانيين وتمت إعانتهم على الوحدة... إن الشعبين البلجيكي والهولندي استطاعا أن يفترقا بسبب اختلافاتهما السياسية والدينية... كما أن الشعوب الحرّة قد اهتمت ببولونيا وساعدتها على استعادة هويتها. أمّا الحكومة الانجليزية فإنها تخلدّ مجدها وتعتني بصورتها الرسمية وذلك بتحرير السود...

ومع ذلك، وعندما ألقي نظرة على بلدي، الجزائر، فإني ألاحظ أن شعبي ما زال بائساً وأنه يئن تحت نير الاضطهاد ويتعرض للظلم ولكل فضائع الحرب.

يتم القيام بكل تلك الممارسات الشنيعة باسم فرنسا التي تنادي بحرية الشعوب وتفتخر بتطبيق حقوق الإنسان !!"

الكتابة كذلك نوع من الكفاح. فقد كان حمدان خوجة يكتب كثيراً وخاصّة عندما تضاعفت شراسة التدخلات الفرنسية ضد الشعب الجزائري.

فأثناء الاحتلال في القرن التاسع عشر كان هناك رجال آخرون مشهورون مثل أبي العباس أحمد العباسي وسيدي أحمد الشريف الورتلاني وأبي طالب أحمد بن محمّد الأغريسي الذي ولد في قبيلة الأمير عبد القادر ومعاصره حسن بريهمات الجزائري المشهور باسم المقايسي وسيدي عبد الرحمن باشطرزي من قسنطينة والشيخ مصطفى بن خوجة وأحميدة العمّالي والشيخ ابن أبي القاسم الديسي بن عروس، وأبي طالب أحمد بن محمد الأغريسي وهو عالم محنك وفقيه شهير – مارس العمل مدة ثلاثين سنة في المحاكم – وهو في الوقت نفسه شاعر، وأحمد بن محمد الأغريسي وهو ذلك المثقف

الآخر لسهل غريس وهو شقيق الأمير عبد القادر. وكان هنا كذلك أبو الحسن علي لونيسي وابن زكري محمد بن سعيد الزواوي وآخرون عرفوا آخر القرن التاسع عشر وهم الشيخ قدور بن محمد بن سليمان المستغانمي ومحمد بن عبد الرحمن وسيدي محمد الطيب بن أبي داود الزواوي ومحمد بن أبي القاسم الهاملي.

أمّا بداية القرن العشرين فإنها كانت كذلك حافلة برجال الثقافة، فعدا زعماء النهضة الإصلاحيين الشهيرين مثل عبد الحميد بن باديس والشيخ الابراهيمي والعربي التبسي والطيب العقبي ومبارك الميلي والفضيل الورثيلاني والأمين العمودي وتوفيق المدني.. عدا هؤلاء، هناك مفكرون كبار كانت لهم شجاعة مواجهة الخطر وفرض أنفسهم في أوقات الاستعمار العصيبة. فمحمد العيد آل خليفة وبعده بقليل مفدي زكريا الذي ختم تراثه الثري بـ "إلياذة الجزائر"، كانا شاعري الثورة. وكان العديد من الأشعار والأناشيد الوطنية قد أسهم في تجنيد الشعب أثناء حرب التحرير الوطنية. "قسماً" وهو النشيد الوطني الجزائري، كتبه مفدي زكريا، و"جزائرنا" وهو كذلك نشيد الحرية، كتبه الشيخ محمد الشبوكي، وأخيراً "من جبالنا"، وكتبه محمد المحبوب اسطنبولي، ذلك المناضل ورجل الأدب الذي لا يعرف إنتاجه العامّة مع الأسف، بسبب بعض التراخي الذي أظهره المسؤولون عن هذا القطاع الهام من الثقافة. فمحبوب اسطنبولي كان رجلاً ذا همّة استثنائية لأنه شاعر ومسرحي وكاتب ورجل عقيدة، فقد أنتج مؤلفات مشهورة نجدها ضمن مسرحياته، ومسرحياته الغنائية والمقتبسة وسيناريوهاته للسينما وقصصه وقصائده التي بلغ عددها خمسة آلاف بالعربية الفصيحة والدارجة، فمن يزيد؟ على كل حال فإنه كان في حياته، يقول لنا هذه النكتة

عندما نلتقي به: "فهل يستطيع فكتور هيجو بأن يفتخر بأنه كتب عدداً من الأبيات أكثر مني؟"

محبوب اسطنبولي، وهو الرجل الذي لا يكل والشاعر المكثر في الإنتاج، كان يترجم ويقتبس – بما يتلاءم "مع الواقع الجزائري" – من الكتاب الأجانب مثل بيرتولد بريشت وسيرفانتيس.

وهناك شاعر آخر، وهو أبو اليقظان الذي كان كذلك صحافياً ممتازاً، تملأ مقالاته الثمينة أهم الجرائد: "الفرقان" و"الأمة" و"النبراس" و"المغرب"، وغيرها، مثل "النور" و"ميزاب"، وهي جرائد أنشئت بين 1926 و1938 في خضم الحركة الوطنية الواسعة للإصلاح، وكان لها الصدى المرتقب لدى الجماهير الشعبية، وقد أثارت ردود فعل سلبية للغاية لدى المستعمرين، فقد كان الشيخ إبراهيم أبو اليقظان مثقفاً ماهراً لم يكن له من كلام إلاّ ما يؤمن به ولا يكتب إلاّ للعقيدة ولا يحارب إلا من أجل الإسلام، وحتّى إذا تميّز بلطافة الخلق وصفاء النفس وشعلة الذكاء وإزهار النبوغ وعمق المكتوبات ومواهب الشاعر كما كان يقدمه توفيق المدني، فقد كان متميزاً في عبقريته وحماسته الفياضة التي بذلها في كفاحه الصحفي والأدبي.

ومن مدينة سيدي عقبة جاءنا رجل ثقافة آخر ألا وهو أحمد رضا حوحو الذي كان قبل أن يسقط في ميدان الشرف محط أنظار الناس في زمانه، كان حوحو مسرحياً وكاتباً وشاعراً، ترك أثراً عميقاً لدى الشباب، فقد ترك مؤلفات ذات نوعية راقية شهدت، فيما بعد – عندما استرجعت الثقافة بريقها الماضي – على قوّة الالتزام لهذا المثقف الثوري في كفاحه من أجل انعتاق الجزائر وتحريرها.

ومن التوات، تلك المنطقة التي تشربت بقوة الثقافة منذ عهد المغيلي، هناك قطب آخر قد فرض نفسه في بداية القرن العشرين وأعاد إلى الإسلام صداه الحقيقي، وهذا القطب هو الشيخ المحترم الحاج محمد بلكير، ابن بودا في منطقة الغمارة القريبة من أدرار. إنه من أصل شريف وأجداده يتواصلون، مثل سابقه الحاج بلقاسم بن حسن إلى غاية الخليفة الثالث في الإسلام، عثمان بن عفان.

وقد نما منذ نعومة أظفاره في جوّ من الفضيلة والتقوى، كان أبوه حافظاً للقرآن عن ظهر قلب وكان عمّه إماماً ومعلماً في مدرسة قرآنية وكان خاله سيدي محمد بن المهدي فقيهاً وزاهداً مبجلاً في كل منطقة التوات، فبعد دراسته الابتدائية حيث حفظ القرآن والنحو ومبادئ الدين، رافق محمد بلكير أباه إلى تمنطيط وهي المدينة الأخرى للعلم والمعرفة، حيث تم قبوله في دروس الأدب والفقه الإسلامي والتفسير تحت إشراف العالم سيدي أحمد بن ديدي البكراوي، وحالفه الحظ كذلك لحضور دروس الذين لا يقلون علماً وهما العالمان سيدي عبد الكريم الفقيه البلبلي من بني تامر والقاضي سيدي محمد بن عبد الكريم البكري.

ثم انتقل إلى تلمسان، وبالضبط عند شيخ طريقة الكرززية الشيخ عبد الرحمن بن بوفلوجة، والتحق سنة بعدها بالعريشة قرب المشرية ثم إلى مدينة تيميمون حيث أسس مدرسة قرآنية كان لها صدى كبير في المنطقة، وهكذا فإنه أقام بصفة نهائية في هذه المدينة، حيث أسس معهداً كبيراً يستقبل إلى يومنا هذا أكثر من ألف طالب من الجزائر والبلدان المجاورة: تونس وليبيا ومالي والنيجر وموريطانيا.

وبرز في العاصمة فقيه ومفسر ورجل أدب متميز، والمقصود هو عبد الرحمن بن محمد الجيلالي والذي ما زال حياً في الوقت الذي ترجم

فيه هذا الكتاب والذي كانت دروسه ومحاضراته في الإذاعة الجزائرية، كذلك أخيراً في التلفزة، تلفت الانتباه، إن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، كما يسمى عادة، كان له مسار طويل في عالم الثقافة، إنه فقيه ومؤرخ ترك للشباب الجزائري العديد من المؤلفات منها واحد عن مساجد مدينة الجزائر وآخر عن حياة الدكتور محمد بن شنب وثالث عن النقود في الدولة الجزائرية في زمن الأمير عبد القادر ورابع عن تاريخ الجزائر وخامس عن تاريخ المدن الثلاثة: الجزائر والمدية ومليانة بالإضافة إلى إسهاماته الأدبية الهامّة عبر تحاليل مفيدة منشورة في كل المجلات التاريخية والثقافية الوطنية. لقد كرس نفسه كذلك في المسرح مثل معاصريه المحترمين عبد الله نقلي بمسرحيته (فتح الأندلس) وتوفيق المدني (هانيبعل) وعمر راسم (الفاروق عمر بن الخطاب) والشيخ محمد العيد آل خليفة (بلال بن رباح). إن شيخنا المبجل قدّم مسرحية بعنوان (المولد النبوي) وقد عرفت نجاحاً كبيراً، كان الشيخ عبد الرحمن الجيلالي تلميذاً للمفتي الكبير في مدينة الجزائر أبي القاسم الحفناوي الديسي، وهو صاحب المؤلف الشهير (تعريف الخلف برجال السلف) وكذلك تلميذا للشيخ بن سماية، لقد توفي الشيخ الحفناوي سنة 1942ودفن قرب مدينة بوسعادة في القرية المسماة الديس، وأخيراً صار الشيخ عبد الرحمن الجيلالي منذ بعض السنوات، مثل العالم عبد الرزاق بن حمدوش، أستاذاً محاضراً في المسجد الكبير بمدينة الجزائر حيث يعلم البخاري.

ولنواصل سرد هؤلاء الرجال، رجال العقيدة والثقافة في القرن الأخير، إن البعض منهم ما زال على قيد الحياة والبعض الآخر غادرها. سنذكر البعض منهم على سبيل التذكير لأن ذاكرتنا، غالباً ما تكون ساهية، قد تنساهم وتواصل في تشريف أقزام وتجاهل العظماء، كما فعلنا ذلك

دائماً في السنوات الأخيرة، لنعد إلى الذكرى الطيبة للناس. الشيخ أحمد حماني، تلميذ ابن باديس ومكافح بدون هوادة من أجل العقيدة والحرية وقد أنهى حياته في التضحية والتفاني، وابن زكري مدير مدرسة الجزائر الشهيرة والشيخ عويسي المدعو المشري وهو فقيه محنك تتلمذ عليه العديد من إطارات هذه البلاد، وكان أيضاً عضواً في المجلس الإسلامي الأعلى ومستشاراً دائماً في وزارة العدل، ثم الشيخ المهدي البوعبدلّي والشيخ عبد الرحمن شيبان وهو كذلك تلميذ لابن باديس ومُرَبٍّ معترف به، لقد كان وزيراً للشؤون الدينية وقد أسهم مساهمة معتبرة في تطوير هذا القطاع، وللتاريخ نذكر هذا الموقف الشجاع للشيخ شيبان خلال لقائه مع الكاردينال ديفال الذي طلب منه فيها أن يسند الكنيسة القديمة بتيلملي (وهي حالياً مسجد الورثيلاني) إلى الجالية القبطية التي تعيش في مدينة الجزائر، فحسب الكاردينال، فقد كان عددهم ألفاً وخمسمائة، وكانوا يشكلون مجموعة من الإطارات السامية، وأغلبهم متعاونون في مجال الاقتصاد والثقافة، وقد كان جوابه واضحاً:

– إن كنيستكم "القلب المقدس" (ساكري كور) فيها من المكان ما يسعهم، تستطيعون أخذهم كلهم لأنهم مسيحيون مثلكم !

– ولكن سيدي الوزير، هؤلاء المسيحيون لا يتكلمون لغتنا! (المسيحيون المشارقة يتكلمون ويقيمون شعائرهم بالعربية).

– سيدي إن الإسلام قد جاء إلى بلادنا مع اللغة العربية، وتراني متأسفاً إجابتكم بالسلب ولهذا فليس بهذه اللغة التي سنطرده بها من هذا البلد... !!!"

لنذكر آخرين كذلك: مولود قاسم نايت بلقاسم الذي يتقن عدة غات وله ثقافة واسعة فقد كان كذلك وزيراً للشؤون الدينية، والسعيد

شيبان وهو أخ عبد الرحمن شيبان وهو أستاذ ممتاز في طب العيون ومتخصص في العلوم الدينية، فقد كان هو كذلك وزيراً للشؤون الدينية والحبوس، وكذلك التجيني هدام وهو أستاذ في الطب وفقيه معترف به ورجل آداب وقد كان من الأقلية النادرة من رجال السياسة في البلاد الذين كانوا يبجلون الشعر وقد كان يعرف عن ظهر قلب الآلاف من الأبيات الشعرية من هذا الأدب الظريف، إننا نتحدث عنه في الماضي لأنه غادرنا منذ قليل ليلتحق بالرفيق الأعلى، فقد كان وزيراً للحبوس في السنوات الأولى من الاستقلال، ثم وزيراً للصحة العمومية وسفيراً في تونس والعربية السعودية ورئيس مسجد باريس وأخيراً عضو المجلس الأعلى للدولة. كان تجيني هدام سياسياً لطيفاً ومسؤولاً حكيما جداً، ويحضر في ذهننا ذلك الجواب الذكي الذي وجهه يوماً أثناء مأدبة إلى وزير عراقي سأله كيف استطاع بسهولة أن يمرّ من وظيفة وزير الشؤون الدينية إلى وظيفة وزير للصحة العمومية، فقال: "لم أجد أي صعوبة، يا صديقي، لأنني في مكاني الطبيعي، فقد كنت منشغلاً بالأذهان واليوم أنا مكلف بالباقي، يعني الجسم".

ولن نغادر هذا القرن العشرين دون ذكر أساتذة آخرين ومنهم الشيخ علي شنتير وعمار بوعناني ومحمد المنصور الغسيري ومحمد الصالح رمضان وأحمد بن ذياب وباعزيز بن عمر وعبد اللطيف القنطري ومحمد العابد الجيلالي ونعيم النعيمي ومحمد الصالح بن عتيق وأحمد بوشمال وعلي مرحوم وأحمد سحنون والجيلالي حجاج، وهم الذين قاموا بعمل نبيل، وهو التربية والتوعية والتكوين للعديد من الأجيال، ونذكر أخيراً في هذه القائمة غير الوافية من لا يمكن نسيانهم:

الشيخ بوعلام ولد رويس والشيوخ آغا ومصطفاي ومزيان ونور الدين الذين توفاهم الله والآخرين الشيخ بلقراد محمد الطاهر ولعزيب المدير السابق لثانوية بن عكنون الشهيرة والرئيس السابق لمسجد باريس ومولاي بن حميسي وعلى مراد وهم المؤلفون للعديد من الكتب والشيخ عناني والشيخ سلمان وسليم بابا عمر ومحمد بقادة الرياضي التقي، وعبد القادر بن حراث والشيخ بن سالم الذي نتمنى له طول العمر، إننا نذكرهم جميعاً مع كل الاحترام الذي هم أهل له من قبلنا لأنهم، في وقت ما من التاريخ وبرغم الضغوط التي فرضها عليهم الاستعمار، كانوا رواداً لتربية قوية ومحترمة لا تقل عمّا كان يدرس في الجامعات الكبيرة في القاهرة ودمشق وبغداد.

إن هذه النظرة الخاطفة على هذا المجال الواسع تضمن لنا وتطمئننا أن الثقافة بصفة عامة كانت الشغل الشاغل المستمر للجزائريين وذلك في مختلف العهود، إنها كانت تمثل بالنسبة لهم النواة الصافية للمعرفة والكمال.

إن أستاذي المحترم مولاي بلحميسي الذي كتب كثيراً فيما يتعلق بالعلم والثقافة في بلادنا، قد أكد في مجلة "المدرسيين" وهو يذكر تصريحاً لعبد الباسط بن خليل المالطي عند مروره بالجزائر في سنة 1464م: "عندما وقع تطور في السياق السياسي فإن عدد السكان تضاعف في جزائر بني مزغنة وإن المساجد ومحلات الصلاة تزايدت وأخذت الزوايا كثيراً من الحيز، وهكذا فإن سمعتها قد تحسنت وتجاوزت حدود البلاد، إن الشعراء والأدباء يتنافسون واللغة العربية لا تعرف مضايقة وليست خاضعة للمراقبات... هناك في الجزائر شارع بأكمله مخصص بصفة رئيسية للكتب، نجد فيه نسخاً

من القرآن الكريم وكتباً للحديث ومؤلفات في علم الكلام والفقه، إن الدكاكين العديدة للناسخين والمترجمين والخطاطين ملأى بالكتب والتعاليق ويتهافت لزيارتها العديد من الطلبة والأساتذة".

إن محمد الفاسي، الوزير السابق المغربي، في عهد الحسن الثاني، قال عن بجاية أثناء ملتقى الفكر الإسلامي المنعقد في أفريل 1974: "كانت بجاية في عهد الموحدين، إحدى عواصم المغرب العربي الكبير بفضل أكاديمياتها العلمية التي كان يتردد إليها الطلبة المنحدرون من كل مناطق المملكة الموحدية، الأندلسيون والمغاربة والتونسيون، كل الذين كانوا يذهبون لتأدية فريضة الحج ويدرسون في الشرق يمرون على بجاية ويمكثون فيها فترات قصيرة أو طويلة، لم يبق أي مؤلف من علماء بجاية ميتاً (في الرفوف)، لقد لعبت بجاية دوراً كبيراً في تحويل الحضارة العربية المغاربية إلى أوروبا عبر صقلية وإيطاليا".

. "إن قلعة بني حماد كانت تشبه أنطاكيا" حسب ياقوت في كتابه "معجم البلدان" فمباشرة بعد سقوط القيروان صارت عاصمة المملكة وجعل منها حماد قاعدة علمية واقتصادية.

كانت مهدية تأوي "بيت العلم" الذي بادر بإعادة تركيبه تميم بن ملك صنهاجة، المعز بن باديس، وكان الفاطميون قد حولوه إلى القاهرة قبل مجيئه بفترة. و"تمت ترجمة العديد من المؤلفات العلمية وأخذت طريقها إلى أوروبا"، كما قال ذلك المؤرخ المهدي البوعبدلي.

أما جورج مارسي، فقد كتب في الموسوعة الإسلامية:

"لقد توثقت بفضل بجاية علاقات تجارية وثقافية كبيرة مع بلدان ضفاف البحر الأبيض المتوسط، فمن هنا ذهبت حضارة

المغرب الشرقي وفنونه نحو أوروبا المسيحية بواسطة صقلية وإيطاليا، لا شك أن قصور باليرمو قد تم استيحاؤها من الناحية الهندسية من قصور بجاية، وأخيراً فإن عدداً كبيراً من المؤلفين قد احتفلوا بتلمسان، لا يمكن لنا أن نذكرهم جميعاً. وما يمكن أن نحتفظ به من شهاداتهم هو أن هذه المدينة كانت مزدهرة، حيث يبدو أن الله قد بسط فيها بوفرة وافرة رغد العيش، فقد رفعت إلى درجة مدينة ملكية في عهد بني عبد الواد، وقد عرفت إشعاعاً فكرياً جعل منها إحدى المدن التي كانت فيها الحياة الثقافية أكثر كثافة بالنسبة لكل المغرب الأوسط.

إن هذا التقديم المتواضع لعلمائنا ومثقفينا وكذلك لمراكز الحضارة التي كانت ثقافتنا ترتكز عليها قبل الاحتلال تعني بكل بساطة أن الجزائريين في ذلك الوقت كانوا أكثر ميلاً إلى المعارف والتقدم. لقد كانوا يبحثون عن أي منبع وعن أي وثيقة يمكنها أن تعلمهم أو أن تجعلهم على النهج وتنقل لهم العلم الذي كانت له مكانته المرموقة في المراكز التي كانت تشع منها المعرفة، أي المدن الرئيسية من الأندلس ومن البلدان العربية الأخرى مثل تونس ومراكش في المغرب العربي والقاهرة ودمشق وبغداد في الشرق الأوسط.

ينبغي لنا أن نكون فخورين عندما نعرف هذا الإسهام في الحضارة والفكر الإسلاميين، وبالفعل فإن فخرنا مبرر عندما نعرف أن بلدنا قد كون وأوى عمالقة في العلم ما زالت أعمالهم إلى يومنا هذا تجذب انتباه الباحثين العرب والأجانب، إن فخرنا يزداد عظمة عندما نعلم أن العلماء الأكثر نزاهة من بين المستعمرين يعترفون بالبعد الثقافي وبعظمة النفس لدى الجزائريين، إن بعض الشهادات التي

أعطيها فيما يلي باختصار تبرهن بوضوح ساطع على الاعتراف ولو كان محتشماً من أعدائنا بماضينا المزدهر.

أول شهادة أتتنا من دي توكفيل، وهي شهادة من رجل ذي أوجه متعددة لأنه من "أنصار الغزوات وكل الوسائل التي من شأنها أن تزعج القبائل" كما يصفه بذلك ش. أندريه جوليان. كان يكتب في تقرير دون خشية من أن يكون محط سخرية:

"انطفأت من حولنا الأضواء، وتوقف توظيف رجال القانون يعني أننا أرجعنا المجتمع الإسلامي أكثر فقراً وأكثر فوضى وأكثر جهلاً وأكثر توحشاً مما كان عليه قبل أن يعرفنا".

وتأتينا الشهادة الثانية القاسية من بلّيسيي دو راينو حيث قال: "ربما لم يتم يوماً احتلال بالطريقة التي احتلت بها مدينة الجزائر، حتى في القرون الأكثر وحشية، إن العصابات القادمة من الشمال والتي اقتسمت أشلاء الإمبراطورية الرومانية قد كان سلوكها أكثر حكمة وتعقلاً".

أليس هذا اعترافاً بأن تراثنا الثقافي العتيق كان موجوداً بالفعل ولكنه خرب وحرق وسرق من طرف عصابات متوحشة كانت مختفية تحت غطاء جيش الاحتلال الفرنسي؟ لنحلل ما كتبه توكفيل ولنتأمل في الكلمات "انطفأت الأضواء" "رجال القانون" "المجتمع الإسلامي الفقير والفوضوي والجاهل والمتوحش أكثر مما كان ..."، يعني أن هذه الصفات لم يعرفها المجتمع من قبل وذلك لنفهم فكرته، وهكذا فإننا سنصيح لا أوريكا! ولكن ما كان ينبغي أن يبرهن عليه! مثل الرياضيات تلك المادة التي اعتنى بها المجتمع الجزائري قبل أن يعرف أهوال الانحطاط ومآسي الاستعمار.

أولياء وأصحاب مدن ومؤسسو مدارس

لنتمكن من فهم الموضوع التالي وقبل أن ندخل في المجال الواسع جداً للزوايا التي كان عليها أن تلعب دوراً حاسماً قبل احتلال الجزائر وبعده، علينا أن نعرف ما هي الطرق الدينية التي كانت مرتبطة بها والرجال الأتقياء، أولئك الأولياء وأصحاب المدن الذين طبعوا بأثرهم فترة كاملة من تاريخ الإسلام، علينا أن نرى ماذا تركوا، في مختلف المناطق إن لم يكن في سائر بلدان الإسلام، من سمعة في أوساط السكان الذين انخرطوا في "مدارسهم" والذين اتبعوا تعاليمهم وحاولوا إلى يومنا هذا – وفي الغالب في جو من اللامبالاة – أن يخلدوا السنن الجيدة التي لقنوها للكفاح ضد اضطراب النفوس وإعطاء الوجه الجميل للدين الحنيف.

وهذا ما سنقوم به لإلقاء كل الضوء على هذا العالم المعتبر منذ زمن بعيد على أنه عالم خفي ومعقد في آن واحد، وعليه فإننا سنحاول أن نزيل ظلماً وندافع عن الحق باستجابتنا الإيجابية لمبدأ الإسلام الشجاع الذي أعلنه النبي (صلّى الله عليه وسلم): "من يسكت على الظلم شيطان أخرس" (معنى الحديث).

كانت تلك المواضيع تقترح في العديد من المرات على القراء في شكل محاضرات أو مؤتمرات أو ملتقيات وفي العديد من الكتابات التي تشهد بما لا مراء فيه على الشغف والانجذاب الذي يمارسه المحاضرون لجهة إرادتهم أن يلقنوا شبابنا تلك الفكرة التي تقول بأن الإسلام في بلادنا كان دائماً – باستثناء السنوات الأخيرة – يمارس ببساطة ورزانة وبدون غلو ولا عنف، ومع ذلك وبرغم كل تلك الوثائق، ينبغي دائماً أن نعيد هذا القول للعلي القدير ونشرحه أكثر: "فذكرّ إن نفعت الذكرى".

لا بد من الذهاب دائماً بعيداً في الشرح وقد يكون ذلك غير كاف، لا بد من جمع كل الشروط وانتهاز كل الفرص لتعليم الشبان وشدّ انتباههم كي يسترجعوا معالمهم ويعرفوا، بعد اقتناعهم، أن الإسلام ليس فقط مجموعة من الشيع والممارسات القديمة، كما يميل البعض إلى جعلنا نعتقد ذلك، ولكنه دين ذو أبعاد كبيرة ومدرسة، حيث نُسمع نتيجة تفكيرنا وحيث نصرخ بصوت ضميرنا.

إن الواجب الملح على كل من يمتلك المعارف الضرورية في هذا المجال بالضبط، يقتضي منهم أن يسهموا في الجهد المتواصل لشرح العمل الهام، في التفاصيل التي قدمها أولئك الناس النزهاء، والأتقياء، وحينئذ نستطيع أن نرد الاعتبار لتلك الوجوه العظيمة في الدين، وأن نرد لهم المكانة التي كانت لهم في زمن ما أثناء تطور الإسلام في المغرب العربي وفي الوقت نفسه محاربة تلك الصورة المنفرة "للمرابط" الذي يزار من أجل "الوعدة " أو "النشرة" أو "الزيارة" وهي كلها تلك لقاءات ورعة تشعل فيها الشموع وتنتهي بشعائر دينية وأضحية.

كما ينبغي لنا أن نندد بممارسات الذين بنوا شهرتهم على المخادعة، من بين هؤلاء الأولياء وشيوخ الطرقية.

وبالفعل إن الذين كان تأثيرهم أكثر سلبية على الجماهير، قد تم كشفهم من قبل رجال العقيدة الحقيقيين الذين يحرصون على التقيد بأحكام القرآن لأنهم كانوا طيلة حياتهم متيقظين محافظين على الشرع الإسلامي وسلامته، وأخيراً كانوا رجالاً تقربهم دائماً من الله صلواتهم وأعمالهم الصالحة وحياتهم الزاهدة والمتأملة، لقد تمت محاربة أشباه المتقين فيما بعد من قبل العلماء الذين أخذت حركتهم في التوسع، تحت قيادة عبد الحميد بن باديس، ودعمت الأنشطة

الإصلاحية، لقد انتقد ابن باديس صراحة انحرافات بعض الطرق التي ابتعدت عن طريق الله والرسول، بعد أن كان منتمياً إلى طريقة الرحمانية مدة من الزمن.

من الواضح أننا عندما نتحدث عن رجال العقيدة والطرق الدينية، لا ينبغي أن نجهل أنه قد كان في خليط الجمعيات الدينية الكثير من الذين ليسوا أهلاً لاحترام السكان وتبجيلهم لأن الانحراف يعتبر انتهاكاً للرسالة الربانية، فمنهم من كان يمارس المانوية دون أن يعرف أصلها ولا قواعدها بينما كان الآخرون يستعملون من قبل دواوين ومنظمات أجنبية تعرف قيمة استثمارها خاصة وأنها كانت تستخدمهم كمحطات للاستخبارات وكقواعد للتمويه وكل ذلك بهدف نزع الثقافة من الجماهير وتجهيلها، وكان آخرون من محبي ملذات الحياة الدنيا يتميزون بممارسات عابثة بيد أنهم أمام الجمهور يتلبسون بالوقار، إن هؤلاء، شرفاء ومرابطين وطرقية وجمعيات صاروا محطات من أجل سياسة خدعتنا، وبالطبع دعمت الاستعمار في مراميه لينغرس بقوة في بلادنا. وفي هذا المجال نعرف أن القرن (ما قبل) الماضي وبعد انتفاضة المقراني، بذل فيه المستعمر جهده في تشجيع أسطورة قوة "الأسياد"، لقد صنع منهم جدداً وقد اجتهد في وجود أصول جيدة لهم، وذلك ببساطة، وبحبك وتثبيت قصص غريبة الأطوار حول الإسلام وحول صانعي المعجزات والمخلصين، إن الشرائح الواسعة من سكاننا كانت مع الأسف تحب الأسطورة، وكانت السلطات الاستعمارية في ذلك الوقت تشجعهم وتعمل بلا هوادة لإبراز المنتحل على حساب الصحيح والحقيقي.

برغم تلك الانحرافات، ينبغي أن نسجل أن الإسلام واصل انتشاره بفضل الإنجازات العديدة وبخاصة عبر الممارسات البسيطة والأكثر مرونة. إن المدارس الكثيرة والطرقية، كان لها مردود إيجابي لأنها حافظت على روح الإسلام وثقافة شعبنا وذلك بتربيته وتجنيبه أن يكتفي بالإضافي على حساب الرئيسي، إن أقطاب الاستعمار كانوا يعترفون بالدور الهام الذي لعبته تلك المؤسسات الإسلامية، لقد كتب الجنرال ب.ج أندري في كتابه "مساهمة في دراسة الطرق الدينية المسلمة":

1 – على مستوى الدين الإسلامي، فإن الطرقية تواصل تنمية التعليم العربي بواسطة مدارسهم القرآنية.

2 – على المستوى السياسي، لا تستطيع (الطرقية) أن تتخلى عن العالم الإسلامي.

3 – على المستوى الاقتصادي، إنها (الطرقية) أسهمت دائماً في الاستقرار الاجتماعي.

4 – وعلى المستوى المحلي، إنها أكدت دائماً الطموحات المحلية وخاصة الخصوصيات البربرية.

5 – لقد رأينا أنها في إقامة زواياها، تحتفظ دائماً بتأثير حقيقي.

فيما يلي سنتناول تعداد ودراسة هؤلاء الأولياء وأصحاب المدن ومؤسسي "المدارس" والشخصيات التي لا بد منها في تنمية ومعرفة العلوم والإسلام بصفة عامة، لقد أعطوا أسماءهم إلى ثقافة وإلى تقاليد وإلى مذاهب، وهم اليوم يستحقون كل احترامنا لما أضافوه إلى الممارسة الإسلامية.

إن الإسلام، مثل الأديان الأخرى، لم يتخلص من الفضائح والأطماع الناجمة عن الذين أرادوا استغلال درجاتهم كرجال دين ليزرعوا بذور البدعة أو على الأقل، أن يتركوا الأبواب مفتوحة على الممارسات غير المقبولة من قبل نحل أو مجموعات منشقة ذات عبادات وأعراف قد قاومت النظريات السليمة التي تكاثرت مع الإسلام منذ ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم. ألم تعتبر هذه الممارسات أحياناً أنها ردة؟

فأمام خطر تحريف الرسالة الربانية كما بلغها رسول الله (صلّى الله عليه وسلم)، يبقى أن "للكعبة رب يحميها" كما تقول الحكمة العربية، ولكنه من واجبنا أن نؤيد قرار محاربة الظلامية والتطير وإبطال تأثير أعمال المنافقين المضرة، والوعاظ الخطرين والمحتالين، وهكذا فإننا نريد القيام بإعادة التنظيم في الأذهان والإلحاح على أن يقوم العلماء والأتقياء الذين لم يتساو مع فضيلتهم إلا سلوكهم الحياتي المتصف بالصفاء الكامل، كما نريد التأكيد على أن المغرب العربي عبر السلالات الحاكمة المتوالية عليه كان دائماً يبرز فيه بصورة متواصلة رجال كانت حياتهم وأعمالهم ذخراً كبيراً للفكر الحضاري الإسلامي وتراثه، فإلى متى يستمر جهل شبابنا لملاحم "أولئك المغاربيين الكرام والعظام الذين يجب أن تواصل حياتهم المثالية وتراثهم الروحي تغذية أذهان الأجيال؟"، إذا كان همنا الواضح أن نخلصهم من تأثير المعلومات المشوهة عن الإسلام والتي قدمها أشباه وعاظ مستغلين في ذلك الفراغ الثقافي منتهزين الأزمات المتوالية التي لغمت البلاد جراء اختلالات التوازن العديدة، ألا يليق بنا في مثل هذه الحالة أن نلقي أضواء باهرة على حقائق وأفعال تجهلها أحياناً أجيالنا الشابة؟

فللإحاطة الملائمة بهذا المظهر، علينا أن نرجع إلى مجرى التاريخ لنكتشف كيف تطورت أعمال أولئك الرجال الصالحين أو "الشرفاء" أو الطوائف الدينية خلال المراحل المختلفة لترسيخ الإسلام منذ الوحي الذي نزل على نبينا (صلّى الله عليه وسلم) إلى يومنا هذا، يجب علينا أن نفهم أخيراً أن الإسلام عبرهم لم يكن أبداً ديناً جامداً له مبادئ قاسية وعقابية. إن أولئك الأولياء كانوا يعملون من أجل ممارسة جيدة وكانوا يحترمون بصرامة الأحكام التي كانت تنكر على أي شخص الحق والسلطة في الحل والربط على الأرض، كانوا يعلمون أن الإسلام لا يتضمن الطقوس وأن المؤمن هو إمام نفسه لأنه يستطيع وبدون مسجد وبدون وسيط بينه وبين الله، أن يتصل بالخالق، والقوة الحقيقية للمجتمع الإسلامي تكمن في عالم يستقي مكانته المنقطعة النظير ونفوذه من الله نفسه، "إن هذا العالم متكون من مجموع المدارس والنظم والطرقية وحكومات ذات تفويض ديني حقيقي تم تطورها بالموازاة مع تطور علم الكلام"، كما يذكر ذلك المؤرخون في تحليلهم.

وهكذا فإن السلطة الروحية في الإسلام أمر جديد ومخالف للعقيدة، حتى لو أنه "شهد في شكل من الطبقات استحداث نوع من الرهبنة متمثل في العلماء، ولكن كذلك في طوائف دينية يرأسها شيوخ".

إن هذه النحل المبتدعة، حسب تعبير الغربيين – مع أنها في الحقيقة هي مدارس فكرية حسب تصور مثقفي الإسلام – تنقسم إلى ثمانية أقسام رئيسية من الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة والنجارية وغيرها من الجبرية والمشبهين وهذه الأقسام بدورها تنقسم إلى اثنتين وسبعين شعبة، إن هذه المدارس التي لا يختلف بعضها عن البعض الآخر في العمق، كما نرى ذلك في الأديان الأخرى،

تتكامل ويثري بعضها البعض الآخر ويصير "اختلافها رحمة" حسب معنى حديث النبي (صلّى الله عليه وسلم).

وعليه فعندما نتحدث عن الإسلام، سنتناول موضوعاً واسعاً جداً وغريباً بالنسبة لغير المتخصصين، إن توسعه السياسي والديني كان سريعاً إلى درجة أنه بعد نصف قرن تقريباً من وفاة النبي (صلّى الله عليه وسلم)، سيطر المسلمون كسادة، سيطرة بدون منازع، من ضفاف الهندوس إلى شواطئ المحيط الأطلسي، إننا نقر بأن الموضوع لا يزال معقداً للغاية، بالنسبة للغربيين على كل حال، وغالباً بالنسبة للمسلمين أنفسهم الذين لا يعرفون أحياناً من المؤسسات إلا ما يطفو على سطحها، ويجهلون تماماً الأعمال التي يقودها مسؤولوهم والشعور الديني الذي يحركهم. إن الغربيين بخاصة وعن قصد، يقومون بتعقب الأخبار ويشيعونها "بكيفية متفرقة وكأنها ملقاة خبط عشواء (...) ويصفون بهزل مشاهد طريفة أو مضحكة لأنهم لا يركزون أبحاثهم إلا على مساحة معينة دون أن يتابعوا وراء حدود معينة العديد من التشعب للطائفة نفسها"، وبالفعل، نادراً ما استطاع المؤلفون من هذا العالم المتحضر أن يجمعوا في إطار بسيط ومنطقي التعاليم الحقيقية لأولئك الأولياء ومؤسساتهم والأفكار الحقيقية التي تعرض صورة حقيقية عن الحياة الدينية عند المسلمين، إن هؤلاء يقولون إن الإسلام كوني النزعة، فهم يعترفون بذلك ويؤكدون أن الإسلام ليس كنيسة موحدة، ويؤكدون أن الطوائف الدينية، مع احترامها للعقيدة الإسلامية، ظهرت في العالم الإسلامي على أنها مجموعة من القوى غالباً ما غيرت مجرى التاريخ ليس فقط على المستوى الروحي ولكن كذلك على المستوى الدنيوي الزمني، لقد مثلت تلك الطوائف إمّا حركة إسلامية جامعة أو عربية جامعة، وإمّا ردة فعل للطموحات المحلية ضد

صيغة اعتبرت مفرطة في جمودها، وإما كذلك تكيفاً للعقيدة الإسلامية مع الخرافات المحلية الموروثة، لقد قال ج. ب. أندري:

ولدت الطوائف الدينية، أي الطرقية الإسلامية من الحاجة لوجود وسيلة للتقرب من الله دون انتظار أمره، وتطورت كذلك على هامش التنظيم الاجتماعي الرسمي، وذلك بسبب الحاجة إلى إبقاء الخصائص المحلية والسياسية والاجتماعية".

ما هو فحوى ممارسات هذه الطرق في العالم الإسلامي بصفة عامة وفي المغرب العربي بصفة خاصة، لقد كتب إميل ديرمنغام في هذا الشأن ما يلي:

"إن ممارسات الطوائف في الطريقة لها مظهر مذهبي ومظهر داخلي. إن الماورائيات الصوفية توجد في قلب المنظومة والأساليب النفسية الفزيولوجية وهدفها إنجاز هذه الحالة الماورائية بدرجات مختلفة جداً لأن هذه الطرقية قد فتحت للعديد من المنخرطين، وكان لها دور تاريخي واجتماعي وسياسي معتبر؛ إن المريدين من خارج الطائفة المغلقة وحتى المنخرطين تقريباً بصفة شخصية يتواجدون بأعداد كبيرة جداً بالنسبة للأتباع الحقيقيين، والمبدأ هو أن تكيف الأساليب مع الإمكانيات ومع استعدادات كل واحد، لاسيما وأن كل أخ سيتحصل ضمن مجتمعه على ما يستطيع تقبله ولكن هناك مجموعات من الطوائف تستجيب للإمكانيات المتفاوتة التي تتوجه خاصة لهذه أو تلك الطبقة الاجتماعية أو لهذه أو تلك المهنة أو لهذا أو ذلك المزاج".

إن الغربيين يعرفون جيداً أن مؤمنينا يحملون ثقافة واسعة، ولكنهم يبقون قليلي التعبير عن ذلك وبخلاء في المدح، وثناؤهم إذا تجاسروا أحياناً على ذلك مثل غارودي، فإنه مخفف.

كان البعض يقول عنهم إنهم علماء مشهورون ويثبت البعض الآخر أنهم موسوعيون ولكن لا أحد يصدح بذلك أمام الملأ وذلك احتقاراً للمسلمين، وهذا يعني أن الحروب الصليبية لم تنته! ألم يذهبوا إلى حد أنهم شبهوا حياة الطرقيين بحياة الرهبان الشيء الذي يحظره القرآن لأنها من اختراع أتباع المسيح؟ ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ...﴾ (سورة الحديد : 27)

"لا رهبانية في الإسلام" هذا ما قاله الفقهاء وعلماء الإسلام، إن حياة الراهب كما هي معروفة وممارسة في المسيحية لا وجود لها في العالم الإسلامي حتى لو أننا نجد في المقابل عدداً كبيراً من "الجمعيات الدينية لها قيادة منظمة"، حسبما كتبه ر.ل. لويس بوتي R.L Louis Petit، الذي يؤكد أنها غابة عذراء من التنظيمات ذات الفروع العريضة والغزيرة وذات العديد من الجذور العميقة.

إن هذه الجمعيات والمؤسسات والطرق الدينية – لا تهم التسمية – قد بدأت، كما يشهد على ذلك التاريخ، في زمن النبي محمد (صلّى الله عليه وسلم)، ففي سنة 622 م وهي سنة الهجرة نفسها، كان العديد من الصحابة قد شكلوا جمعيات أو تجمعات وكانوا يتعاطون ممارسات التقوى حيث تكثر التوبة والتقشف، كانوا يتسمون بنوع من الزهد شديد القسوة يتجاوز التصوف الذي ستمارسه فيما بعد مجتمعات أخرى معروفة بمذاهبها الصوفية، وقد أدى ذلك إلى بروز فرقة سنية قام شيوخها بربط نسبهم بصحابة الرسول (صلّى الله عليه وسلم) ليرفعوا من شأن التنظيم، ومع هذا فقد بقيت هذه التجمعات في شكل خلوي ولم تتطور بفعالية إلا بعد

ذلك بكثير في الهند ثم في بلاد فارس وبعدها في العراق، لتنتشر في كل الشرق الأوسط والمغرب العربي حتى بلغت الأندلس. إن هذا الاتجاه نحو الزهد، حسب أحد المؤرخين، قد بلغ أوجه في بلاد فارس وهي مثل الهند ؛ الأرض التي كان لها مفكروها وفلاسفتها ودعاتها الذين أثروا في الفكر العالمي، إن الإسلام لم يكن بمأمن قط عن ردة فعل المفكرين الإيرانيين، إن هذا المؤرخ لم يتردد في التأكيد على أن الصوفية من أصل فارسي وليست عديمة العلاقة مع بعض الطرق الصوفية الغريبة عن الإسلام.

لقد كتب الدكتور ب. هيشور ما يلي: "فمع المرابطين والموحدين ومع الشرفاء وفقهاء الأندلس أمثال ابن رشد والغزالي، مع هؤلاء كلهم انطلقت الحركة الطرقية وتوسعت، تحدث ابن خلدون عن تلك القبائل المرابطية التي تصير من الأعيان في البلد، في بغداد وفاس وقرطبة والقاهرة وتلمسان وفي كل مدن المغرب العربي وإفريقيا المتواجدة جنوب الصحراء، نشأت زوايا، زوايا هامة مثل الزاوية التيجانية القوية في عين ماضي قرب تيماسين والتي (مازالت) تشع على العديد من البلدان".

منذ تلك البدايات لم تكن الصوفية تمثل علماً للإلهيات، ولكنها كانت تعبر سواء بفكرها أم بممارساتها عن حالة نفسية وميول واندفاع روحي وغريزة صوفية، وقد وصف غويي هذه الحركة بأنها تشبه "عطشاً أو مذاقاً للشيء الإلهي". وبدوره ب.ج. أندريه، كان يشرح مطولاً شعيرة المريدين، أولئك الرجال الذين كان لهم أهمية توسعية وتربوية في العالم الإسلامي، كان يقول بالفعل:

"إن الأفكار التأملية للصوفية قد تصل إلى حد الحماسة، إنهم يتأملون الله في كل شيء: فمن كثرة التفكير في صفاته ومتابعته في

كل الأشكال، كانوا يظنون أنهم سيصلون إلى حب خالص للربوبية وحتى إلى وحدة لطيفة مع جوهره، والنتيجة النهائية لهذا التصور أن نصل بهم إلى اعتبار الطقوس الخاصة بكل اعتقاد على أنها زائدة وعلى عدم التوصية بأي اعتقاد ديني وعلى ألا نعقد إلا أهمية قليلة للشكل الذي تتوجه به الأفكار إلى الله بشرط أن نستطيع التأمل في عظمته وحسنه".

وواصل بوركهارد على المنوال نفسه فأعطانا وضوحاً أكثر عن الأصل الإسلامي للصوفية، فقال: "إن المستشرقين لم يستطيعوا أبداً فهم ذلك المظهر المزدوج للصوفية إلا بالتأثيرات الأجنبية عن الإسلام بمراجع إيرانية وهندية وأفلاطونية محدثة أو مسيحية لأن همهم الوحيد هو أن يرجعوا كل شيء إلى المستوى التاريخي، إن تلك الإسنادات المختلفة آلت في النهاية إلى التوازن فيما بينها، خاصة وأنه لا يوجد سبب كاف للتشكيك في الصحة التاريخية للانتساب الروحي لشيوخ الصوفية الكبار، وهو انتساب في سلسلة غير منقطعة تصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وعليه فالحجة الفاصلة لصالح الأصل المحمدي للصوفية تكمن في الصوفية نفسها، لأنه إذا كانت حكمة الصوفية تأتي من مرجع موجود خارج الإسلام فإن الذين يطمحون إلى تلك الحكمة – التي ليست مستخرجة من الكتب بالتأكيد أو هي بكل بساطة ذهنية – لا يكون في استطاعتهم أن يعتمدوا على الرمزية القرآنية لتحقيقها من جديد دائماً. وعليه فكل ما هو جزء مندمج في الأسلوب أو الطريقة الروحية للصوفية، وهذا بكيفية مستمرة وضرورية، مستوحى من القرآن ومن تعاليم النبي (صلّى الله عليه وسلم)".

كتب إميل ديرمنغام في "حياة الأولياء المسلمين" فيما يخص الصوفية يقول:

"إن البغداديين المثقفين والمرهفين كانوا يفضلون الماورائيات والشعر والموسيقى ويستعملون السماع بصفة منتظمة، فأُعطوا في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري اللقب الجماعي: الصوفية، حملت هذا اللقب في البداية مجموعة من الزهاد في الكوفة ثم توسع في القرن الرابع إلى مجموع الروحانيين في العراق، وقد كان له نجاح كبير إلى حد أنهم طبقوا الاسم تصوف على الحياة الروحية حسب الطرق الملقنة التي طورها فيما بعد كبار العرب، إن تلك الأساليب (الطرق) قد وضعت من القرن الثاني إلى الرابع الهجري في مصر وسورية وفلسطين والعراق وإيران وخراسان وبصفة خاصة بغداد، وفي الوقت نفسه تم تدقيق نظرية ماورائية نجد منها الشكل الأكثر إنسانية وتوازناً وإشعاعاً عند الغزالي (توفي سنة 505 هـ/1111م) بمساعدة الفكر اليوناني المستعاد، وفي انتظار الغنائية التوحيدية (وحدة الوجود) لجلال الدين الرومي الذي توفي في سنة 672/ 1273، ومجموع الحكمة الإلهية لمحي الدين بن عربي (توفي سنة 638هـ/ 1240) صاحب الوحدوية الوجودية".

وهكذا فإن كبار شيوخ هذه المدرسة، وهم زهاد مشهورون، صاروا المؤسسين لتنظيمات دينية تبحث حقيقة عن هدف مرموق.

لنتحدث عن ملحمة هذه التنظيمات والطوائف، فأحد أوائل هذه التنظيمات خلال تلك الفترة القديمة من الإسلام، كان تنظيم الصديقية والذي ينسب إنشاؤها إلى أبي بكر الصديق، أول صحابة رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) وأبو زوجته، لم تكن فرقته أبداً فرقة ذات

درجات مشتركة بين جميع الناس لأن العلاقة بين الذين كانوا يدّعون الانتساب إليها والذين هم متفرقون عبر الطوائف في المدن الكبرى في الجزيرة العربية ومصر وسورية وتركية، كانت نظرية صرف. ونعرف، عوضاً عن ذلك، "أنه بعد وفاته سنة ثلاثة عشر للهجرة| 634م، وبعد استجماع الكلمات المأثورة التي تلفظ بها وجمع الممارسات التقووية (من التقوى) التي كانت مفضلة لديه، تم وضع القاعدة التي حملت اسمه"، هذا ما قاله لويس بوتي.

وفي سنة 37 للهجرة (القرن السابع ميلادي) ظهر أول ناسك في الإسلام أويس بن عامر القرني وهو يمني الأصل. كان رجلاً متقشفاً ومن رواد الزهد الصوفي والقاسي، كان يذهب إلى الصحراء ليقضي فيها حياة تأمل وتوبة، ومعه نشأت الطريقة العويسية إلى الوجود واتبعه العديد من الرواد، ومع هذا فإن الموجبات الصعبة التي فرضها هذا القائد الديني لم تستطع أن تسمح له بالمحافظة على أتباعه أطول مدة لأنهم لم تكن لهم الشجاعة الكافية لتقليد تقشفه، "إن نمط الحياة الذي ابتدره، تعرض بعد وفاته لتغييرات خطيرة: شيئاً فشيئاً بدأت الرهبنة تأخذ مكان النسكية".

من بين القصص التي كانت تحكى لوصف ذلك الزاهد المحصن، أنه لدى تذكره سقوط ثنيتي النبي (صلّى الله عليه وسلم) في معركة أحد وهي المعركة الأكثر دموية في تاريخ الكفاح الإسلامي ضد الكفار، قام بنزع كل أسنانه وكان يفرض على رواده التضحية عينها...

فيما بعد أي في 149 هـ (القرن الثامن م)، أي أكثر من قرن بعد ذلك، ظهر سي علوان بادئ التلقين أو بالضبط باعث تلك الفترة التلقينية التي يجب بالضرورة أن ينجح فيها مريد المستقبل قبل أن

يندمج في الطائفة، وهذا يشبه نوعاً ما دار المبتدئين عند المسيحيين الذين كانوا يطلبون من الراغبين في الالتحاق بالرهبنة ذلك الوقت التجريبي للاندماج في الحياة الدينية.

بدأت الممارسة تعرف أساليب جديدة وبدأ المؤمنون يتعلمون طقوساً وحركات شبه مقدسة عبر التنظيمات، وبدأت هذه التنظيمات تصير تقليداً في المشهد الروحي حتى لو أنها مع طول المدة كان يجب عليها أن تفهم أنها برغم كل شيء منقسمة من جراء بعض الخلافات الثانوية.

في الفترة نفسها، عرفت المنطقة نشأة تنظيم الأعظمية وهو تنظيم أسسه الحاج الأسطوري إبراهيم بن الأعظم الذي قضى 12 سنة في اجتياز المسافة الفاصلة بين دمشق ومكة المكرمة.

وبعده بقليل، أي في القرن التاسع، أسس أبو يزيد البسطامي البسطامية وترك بعد وفاته نظرية مصطبغة بالشمولية الربانية؛ "ذلك النوع من الحساسية التي ترى الله متجلياً في كل الطبيعة". كان البسطامي يقول بكل اقتناع:

"عندما يتصور الناس أنهم يعبدون الله، فالله هو الذي يعبد نفسه بنفسه".

ثم جاءت السكاتية، ثلاثون سنة بعد ذلك، كناية مستمدة عن أبي الحسين السكاتي الذي توفي في بغداد (295هـ/907م) تاركاً "منظومة من علم الكلام تميز في الله صفات الماهية".

كل أولئك الزهاد كان لهم تقريباً البرنامج نفسه وفيه "الابتعاد عن الدنيا والتجرد المطلق والصلوات المطولة والتكفير عن كل الأشياء والتأملات غير المجدية"، كلهم كانوا يصبون – بطرق ووسائل مختلفة

– إلى الفضائل عينها وكلهم يبتغون الغاية نفسها: الصوفية، وهي ذلك "المثل الأعلى الأخلاقي الذي يصعب على القدرة البشرية إنجازه".

لم تكن الصوفية أبداً منظمة أو منظومة، كانت وما زالت نمط حياة وأسلوب سلوك، إن ديتورنال، بارون دوكونسطان، D'Estournel, baron de Constant وهو دبلوماسي وحائز على جائزة نوبل للسلام في سنة 1909، قد كتب في هذا الموضوع يقول:

"في هذه الحالة، هناك درجات ابتداء من التأمل ومروراً بالانتشاء الروحي إلى الهستيريا؛ كما أنه يوجد من بين مريديها حالمون وكسالى وأولياء ومرضى ومختلون عقلياً".

كيف بدأت الصوفية؟ كيف عمقت جذورها؟ حسب المعلومات الدقيقة نوعاً ما، وفي بعض الأحيان، المبعثرة والتي تمكّنا من الحصول عليها، فإن الصوفية "نشأت من التوجهات الروحية الهندية والفارسية ونشرها الزهاد المسلمون الأوائل"، وهكذا فإن النظريات الصوفية، منذ القرن الثامن/م، انتشرت في الشرق الأوسط وبصفة رئيسية في بلدان الفرات وفلسطين، إن الصوفية التي جاءت لتعميق تعليم القرآن والسنة "قد نشأت في الهند وتوطنت في بلاد فارس وشُكلت في الحماسة النشوانية من قبل الجيل الثاني من مدرسة الإسكندرية وفيما بعد من طرف الفلاسفة العرب أنفسهم".

كان أبو القاسم الجنيد، فقيه البصرة، وخلافاً لسلفه أويس الذي كان يدعو إلى رؤى غامضة، يلجأ إلى الفلسفة فيستعمل الاستنتاجات المنطقية". الجنيد وهو من أوائل المروّجين لهذه المدرسة التي افتتحت نهجاً أقل صبيانية للأرواح المهمومة طلباً للزهد، كان يعرف هدف الصوفية كالتالي:

"تحرير الذهن من استبداد الأهواء والتجرد من العادات المزمنة واستخراج الطبيعة وترويض الحواس وتقوية قدرات العقل والارتفاع إلى معرفة الحقيقة وممارسة الفضيلة".

كان أبو سعيد بن الخير، وبعد هذا الرائد بكثير، هو الذي عمل كثيراً على تطوير الصوفية، ويسجل التاريخ أنه كان هو أول من جمع في شبه داخلية كل الذين يطمحون في "حياة الكمال"، كان يرغمهم على لبس الصوف، رمز الصفاء. أمن هنا جاء أصل كلمة الصوفية؟ إن لويس رين Louis Rinn يؤكد عكس ذلك لأن مريدي هذه المدرسة كانوا موجودين قبل أبي سعيد بكثير.

إن أغلب الفرق الروحية كانت مرتبطة بالجَنِيد وبخاصة أهمها وهي الطريقة الشاذلية، وهكذا فإن الجنيدية أثرت مدة قرنين في الحياة الدينية الإسلامية؛ وأن "المفكرين الكبار كانوا يظهرون وكأنهم مسكونون بالنظريات الصوفية". إن مسألة إثبات هوية الذات مع الله قد تم التطرق إليها بالتتالي من قبل "ألمع ممثلي المدرسة العربية، إلا أن الحلول التي أعطوها كانت بعيدة عن أن تكون متوافقة"، مثلما نجده عند أبي بكر محمد بن باجه – كان الغربيون ينادونه l'Avempace – وزير المرابطين، الذي يبرهن في كتاب "الروح" كيف يرتفع الإنسان من المعرفة الحسية إلى المعرفة الذهنية بعد المرور بالخيال، إن هذا الإثبات للهوية حيث تتشكل "الوحدة" "بالتنمية المتوالية للقدرات العليا للنفس". وبالعكس فإن ابن طفيل، الفيلسوف طبيب سلطان الموحدين أبي يعقوب يوسف، وهو كاتب المُؤَلَّف الشهير "حي بن يقظان" ذلك الأثر العظيم، شرح أن "الله في الإنسان، وأن معرفته يمكن أن تتم بالغريزة"، ونصل إلى الوحدة "بدوران الدرويش، وبالغثيان

وبالانغلاق على النفس داخل مغارة، والرأس مطأطأ والعينان مغمضتان مبعدين عناً كل فكرة حسية". إن الدراويش هم فرق من الرهبان يمارسون قواعد روحية بصفة جماعية وأشهرها: المولوية وهم دراويش دوارون أو راقصون، والرفاعية وهم دراويش يصيحون، والقادرية وهم مريدو عبد القادر الجيلاني.

ومع هذا فحتى لو كان ابن باجة في وقته قد أثر في ابن رشد بفكره، فإن هذا الأخير كان يصرح على العكس من سلفه أننا لا نستطيع الوصول إلى الوحدة إلا بالعلم، فإن قمة التطور البشري ليست في نظره، كما يفسر ذلك لويس بوتي "إلا القمة التي تصل فيها القدرات البشرية إلى أعلى درجاتها، ونتوصل إلى الله بمجرد أن يتوصل الإنسان بالتأمل إلى اختراق غشاء الأشياء وأن يجد نفسه وجها لوجه مع الحقيقة السرمدية".

إن هذا الازدهار للتنظيمات وهذه الوفرة في الأفكار قد توقفت مؤقتاً تقريباً في القرن الحادي عشر الميلادي من أجل الحروب الصليبية. وبالفعل فإن هذه الحروب قد جندت المسلمين وفلاسفتهم وعلماءهم وأضعفت الفكر بصفة واسعة جداً لأن الفكر كان في أقصى التوسع، كان من الواجب تدعيم الوحدة وتنظيم المؤمنين وإصلاح المدارس القديمة وإحداث مدارس جديدة، ففي هذه الفترة بالذات وضع شاب وهو من جيلان، منطقة قريبة من بغداد، قواعد لتنظيم جديد سيعيش بعد منشئه زمناً طويلاً ليبلغ الشهرة.

كان يقضي حياته كلها في مساعدة الناس وخاصة الفقراء. "فالحزن أكثر من الفرح، هذه هي قسمة العالم كما كان يراها". والتجربة هي التي حملته على هذه الخلاصة.

توفي يوم 11 فبراير 1166 في بغداد تاركاً وراءه عدداً هائلاً من المريدين والأنصار سواء في الشرق الأوسط أو في إفريقيا الشمالية، إن نظريته، أي القادرية، متشبعة بشعور كبير بالتضحية والتفاني، إن الصلاة المستمرة تبقى هي الدواء للتخفيف من الألم وتلطيف المرارة، إن التدريبات المطولة تمنع الفقراء والمعوزين من التفكير في مآسيهم وبؤسهم.

إن ابن أخيه ومريده، سيدي أحمد الرفاعي اتخذ سبيلاً جديداً تماماً إذ دعا إلى "فناء فردية الإنسان بذوبانها في كنه الله" ومعه انتشر تنظيم الرفاعية وهو تنظيم يتميز عن السابقين في إسناد الصفة المسيحية للشيخ الشيء الذي صرح به الكثير وهي مقارنة مع صفة النبي، والشيء الذي كان يميزهم كذلك هو "الحماسة والسكر الهستيري الذي يصاحب وظيفتهم الطقوسية" . لقد استفاض تيوفيل غوتيي في الحديث عن ذلك في كتابه "القسطنطينية" عندما قام بوصف رائع لبعض المشاهد التي ظهرت له أنها غريبة وخارقة للعادة.

وعقب وفاته سنة 1181 ميلادية، قام أبو مدين شعيب وهو مريد آخر للجيلاني، بنشر نظرية شيخه سيدي عبد القادر، في الجزائر، بدءاً ببجاية التي كانت مركزاً هاماً لإشعاع الثقافة ثم بتلمسان حيث لم يستطع إنهاء مهمته.

وفيما يخص الطريقة القادرية فإنها تتصف في بنيتها، حسب محفوظ سماتي، بثلاث ميزات أساسية:

– اللامركزية، مما يسمح للمقدّمين باستقلالية التسيير والتنظيم، إذ لا توجد هناك سلطات عليا ضاغطة قد تتسبب أحياناً في

صعوبات بين الآمر والمأمور، بالعكس هناك عقد معنوي يربط بين مختلف الزوايا والمؤسسة المركزية.

– الذهنية المسالمة في هذا التنظيم: لا يتضمن الذكر أي إشارة عنيفة وكذلك الأمر بالنسبة للأذكار التي يكررها المريد يومياً حسب تعليمات الطريقة.

– المعرفة: أهم ميزة عند القادرية هي تحصيل العلم، لا بد من التعلم لامتلاك الفكر الديني وبواسطته الارتقاء إلى الحقيقة، إذ واجب الإنسان هو أن يتعلم ويبلغ معرفته إلى الآخرين.

وفي هذا الإطار بالذات فإن الأمير عبد القادر وهو المريد المتحمس للقادرية، كان يقول: "إن العالم يفوق الجاهل بالتجربة والتفكير والمعارف المكتسبة (...). يوجد نوعان من العلم: العلوم التي تستحق المدح والعلوم التي تستلزم الذم، الأولى تتضمن المعارف المفيدة للدين والحياة الدنيا: الرياضيات وعلم الفلك، والطب والفلاحة والسياسة... وهذه العلوم هي العلوم الدنيوية التي نستطيع اكتسابها بجهد التعلم والعمل، أما العلوم المستحقة للذم فهي التي ليست مفيدة وتتسبب في خسائر للإنسان كعلم الأبراج والسحر ... ينبغي إذن أن نميّز بين العلوم الحقيقية والتي ليست كذلك؛ مهمتها محددة. إن العلوم الدينية تضمن الأمن في الآخرة والعلوم الدنيوية تضمنه في الدنيا".

إن القادرية، دائماً حسب الكاتب نفسه، تحث مريديها وخاصة الشبان منهم على ممارسة التمارين البدنية وخاصة الفروسية واستعمال السلاح. يجب أن يكون المريد رجل سلام، ولكنه ينبغي له أن يعرف كيف يحارب المتسببين في الاضطراب الاجتماعي.

. إن عبد السلام بن مشيش الذي كان تلميذاً لأبي مدين، كان يعظ مريديه باحتقار الوظائف العمومية والهروب من السلطة العلمانية ولكن مع البقاء في حالة الخضوع الكامل لها، إن هذا المثقف قد ترك أثراً لا يمحى في تاريخ الصوفية، لقد كون في مدرسته أبا الحسن علي الشاذلي الذي سافر إلى تونس وبالضبط إلى شاذل في نواحي مدينة تونس ومنها اسم الشاذلي وذلك سنة 625 هـ/1227م ولم يكن وقتئذ قد بلغ من العمر سوى اثنتين وعشرين سنة.

كانت شهرته كبيرة وبالتالي فقد تحتم عليه أن يغادر البلاد ليهاجر إلى القاهرة عندما تدهورت علاقاته مع سلطات البلاد، إن حياته كلها لم تكن إلا حجاً متواصلاً انتهى سنة 1258 بينما كان متوجهاً إلى مكة المكرمة، إن ضريحه في هميثرة ما زال يجلب لحد الآن وكل سنة العديد من الأتباع المخلصين.

لقد تعين أبو الحسن علي الشاذلي على أنه "الأصل في الفرق التي كانت قبله" وتنصب مريدوه، الذين استوحوا بعمق من نظرياته، كمشايخ لأفواج واتخذوا في الأغلب اسمه مباشرة، إن نظرياته ومجموعاته قد ترسخت عبر الزمن وعبر مريدين آخرين لممارسة تأثيرهم على وجه الخصوص في مصر والجزائر والمغرب، وهكذا فمن القرن الخامس عشر إلى الثامن عشر الميلادي هناك أكثر من عشرين مجموعة أو فرقة متولدة عن الأصل الشاذلي قد رأت النور، من بينها العوفاية من محمد عوف، رئيس عائلة شريفة من مصر، والعروسية (853هـ/1449م) والجزولية 869(هـ/1464م) والبكرية (909 هـ / 1503م) والكرزازية (1018 هـ / 1609م) والشيخية 1026 (هـ / 1615م) والناصرية (1079 هـ / 1668م) والطيبية (1069 هـ / 1609م) والدرقاوية 1214(هـ / 1799م).

قبل هذه الفرق التي جندت الأتباع المخلصين في الشرق الأوسط والمغرب العربي بكثير، كانت هناك مذاهب كثيرة نشأت في الشرق الأقصى وفي بلاد فارس والهند وخاصة تحت تأثير النشاط التعبوي للروحانيين الشموليين، فشهاب الدين يحيى السهروردي الفيلسوف وعالم الكلام والشارح ومفسّر علم أرسطو الروحاني، والذي تركزت أعماله الأساسية على الماورائيات والنور والتنوير، هو الذي أعطى نفساً جديداً للصوفية. وبالفعل فإن السهروردي كان فيلسوفاً استثنائياً، يحكى أنه كان يتساءل أحياناً بقلق شديد: هل كانت حياته مطمئنة كل الاطمئنان؛ وهل يستحق كل الإكرام الموجه له، ما هي مكانته الحقيقية عند من لا يتأثر بأي نفوذ وسمع مَرَّةً:

"لك البشارة ... اخلع ما هو عليك. فبرغم نقائصك لقد ذُكرت هناك".

فقفز حينئذ من الفرح منتشياً بالحقيقة وصائحاً من شدة الابتهاج وهو يرقص رقصة المذهول مكرراً البيت :

"لك البشارة ... لقد ذُكرت هناك"

ذُكرت ... الذكر في أحد مفاهيمه هو القاعدة الإسمنتية لكل الروحانية الإسلامية، هو في الوقت نفسه الذكر والتصريح والصلاة والشكوى إلى الله، والذكرى، إن هذا الكلام قد نقله إميل ديرمنغام في كتابه بعنوان "أجمل النصوص العربية"، هذا يعني أن الذكر يشغل مكانة مهمة عند زهاد الإسلام، وهكذا فإن صدورهم تنشرح وقلوبهم تجد الطمأنينة وأرواحهم ترتفع إلى القمم، يستشهد الإمام بحديث قدسي:

(ما معناه) "إن الذين يمارسون ذكري سيجلسون قربي مع الملأ ..."

وبعد هذا الزاهد الشهير والمبجل لما اتصف به من فضائل، ولتقواه ومؤلفاته وعلمه الروحاني، كانت في الشرق فِرَقٌ أخرى ومنها المولانية التي أسسها جمال الدين مولانا، أكبر الشعراء الروحانيين في القرن السابع للهجرة (الثالث عشر الميلادي) والذي له أشهر المريدين اليوم في تركيا؛ هم الدراويش الطوّافون. وكان لهذه الطائفة الصوفية قائد لا يقل شهرة عنها وهو الشلبي من قونية، عاصمة السلجوقيين خلال الاحتلال البيزنطي (1118م) والتي بنيت على هضبة الأناضول الوسطى، وكان شلبي هو الذي يسدى إليه "شرف تولية سيف عثمان لكل سلطان جديد" .وهو أيضاً حاكم تلك الأفواج من الدراويش الذين كان نفوذهم حاسماً، بحيث قال عنهم تيوفيل غوتيي في كتابه – وبقصد إبراز الجانب الفلكلوري عوضاً عن البعد الروحاني؛ متعرّضاً بذلك لإيمان أولئك الأتباع المخلصين من خلال وظائفهم الطقسية: "إن ممارساتهم الهزلية مصحوبة بالرقصات والموسيقى، رأى فيها الرحالة إلى المشرق ضرباً من اللهو والتسلية الممتعة".

في مصر، في حقبة جمال الدين مولانا وفي القرن الثالث عشر ميلادي، ظهرت طائفة صوفية أقوى وأكثر شعبية وهي الصوفية البدوية لمؤسسها السيد أحمد البدوي، ذلك المثقف الروحاني الذي قدِم من فاس ليقطن بمصر في طنطا الواقعة على منتصف الطريق بين القاهرة والإسكندرية، ويقال إنه اشتهر بصنع المعجزات؟ وبقي ضريحه أكثر الأضرحة استقطاباً للزائرين من أرجاء العالم الإسلامي الواسع كافة.

لقد دعا سيدي أحمد البدوي إلى الجهاد عندما اجتاح لويس التاسع مصر، وقد شارك فيه شخصياً مع أنصاره حتى تحقيق النصر

على الصليبيين وكانت مصر وقتها، قلب القوة الإسلامية، فهزم سان لويس في المنصورة في فبراير من سنة 1250 وتم أسره، لقد خلفت تلك الهزيمة لدى الصليبيين خيبة أمل مريرة، ولهذا وصف سيدي البدوي بما لا يليق به من الأوصاف في الكتابات الغربية على خلفية انتقامية، فعوض الكلام عن مناقبه وعن تعليمه الذي انتشر في جزء كبير من العالم الإسلامي في مصر وناحية طرابلس وتونس وسورية وفي اليمن وفي كل شبه الجزيرة العربية، فقد بذلوا جهدهم في تصوير رواده المخلصين بخاصة في لوحة خرافية تغلب عليها الشعوذة، مما استثار تعليقات قاسية ضد تلك الطائفة الصوفية:

"أثناء الاحتفال بذكرى سيدي البدوي، تقام حفلات مجون لا توصف وطقوس ليلية متكررة، وطقس أسرار أشطارتي (إلهة الخصوبة)، حيث أخيراً ولفترة ليست ببعيدة، كان يؤتى بعبيد يرتدون الدروع التي غنمت في السابق من الصليبيين، ليتم ذبحهم من قبل الأتباع، على سبيل محاكاة هزيمة المسيحيين، فلم نشهد قط مثل هذه الوقاحة في استغلال السذاجة البشرية".

وفي أعماق الشرق، في بلاد فارس، وفي خراسان تحديداً أو "موطن الشمس"، كما كانوا يسمونها في ذلك المهد، مهد الزهد الإسلامي، في شرق إيران الذي عبث به مع الأسف جنكيز خان سنة 1220م، في تلك الأصقاع برزت طائفة صوفية جديدة في الفترة نفسها وكأنها جاءت لحمل الناس على نسيان أهوال العنف، فقطب الدين حيدر، وهو من مواليد مدينة قريبة من نيسابور، إحدى كبريات مدن خراسان، أسس الطريقة الحيدرية وهي صوفية مفعمة بالتقوى أو "أفضل من ذلك، ملأى بالغرابة متخطية ما ذهب إليه الأقدمون بهذا

المنحى"، على ما قاله أحد أتباع المدرسة الاستغرابية occidentaliste. ثم ظهرت طوائف صوفية أخرى في الناحية نفسها، أمثال النقشبندية الذين تم وصفهم كذلك بأوصاف بشعة، ومع هذا فقد كانوا ينمون، بقدر ما مكنتهم قوتهم وإرادتهم إلى ذلك سبيلاً. إن ضريح بهاء الدين النقشبندي، المكنى باسمه، توفي في بلاد فارس سنة 1389م، وهو موجود حالياً في بخارى حيث نقل جثمان الرجل الصالح.

أما البكتاشية المكنّاة باسم مؤسسها الحاج بكتاش الخراساني، فإنهم ينشطون في جمعية عسكرية صارت مؤسسة للدولة، إن مؤسسها توفي 1357م وكان أتباعها يدعمون أنفسهم في الجيش ليبقوا في السلطة إلى غاية القرن التاسع عشر وهو التاريخ الذي تم عزلهم فيه من قبل العثماني محمود الثاني عندما أمر بتقتيل الإنكشاريين المشاغبين، ومع هذا فإن العناية الإلهية شاءت أن يبقى منهم اليوم عدد من الأتباع في تركيا تحت أسماء مستعارة وآخرون في ألبانيا حيث ما زالوا يحافظون على عاداتهم. لقد وجدنا في أحد المصنفات هذا التعريف المتعلق بهم:

"إنهم ارتيابيون ومحبون للملذات وغيورون على حريتهم وشديدو الاستقلال عن السلطة ونوعاً ما اشتراكيون ولكنهم، من جهة أخرى، متجردون ومحبون للخير، هذا باختصار من هم البكتاشية، ويجب علي أن أزيد أنهم يدعون إلى انتقائية واسعة، فمن بين الخمسين أو ستين درويشاً الذين يقيمون في كل دير من أديرتهم في ألبانيا، فأي تحقيق ولو كان مختصراً من شأنه أن يكشف بسهولة عن العديد من المسيحيين الذين لقنوا سر الجماعة كما لو كانوا مسلمين حقيقيين إنما من غير أن يطلب منهم التضحية بإيمانهم".

وكان هناك فرقة الملامية، الذين اختفوا منذ ذلك الوقت مثل من سبقهم تحت ضربات التهجير، إن مريدي هذه الطائفة ينادون بالرجوع إلى بساطة الدين الأصلي، فقد كانوا قاسين على أنفسهم ولكنهم متسامحون مع الغير، إن الملامية كانوا كذلك ينادون بالقلندرية وكانوا يشكلون طائفة من الدراويش السائحين في الأرض وهم قاسون وروحانيون، وبعض المريدين ما زالوا في تركية حيث تكَنَّوا باسم شيخهم حمزة منذ الإصلاح الذي أدخله فصاروا يعرفون بالحمزاوية.

أنشأ عمر الخلواتي في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي طائفة الخلواتية أو طائفة الذين يختلون (الخلوة)، إن لويس بوتي تعرف على الأقل على خمس عشرة مجموعة من الخلواتية القاطنين بتركيا وفي البلدان المجاورة.

وفي المغرب العربي، فإن سيدي محمد بن عيسى، القائد المغربي لمكناس والمعترف به على أنه أكبر صانع للمعجزات في الإسلام، وكان يسمى باسمه الحقيقي محمد بن عيسى السفياني المختاري، "الشيخ الكامل"، تنتسب عائلته ذات الأصل الشريفي إلى مولاي عمار الإدريسي. ولم يكن الإمام سليمان الجزولي إلا جده، وقد أسست طائفته أو الطريقة العيساوية، كما نسميها جميعاً في "الغرب" الجزائري، في القرن السادس عشر الميلادي وكانت تمارس قبل كل شيء دوراً سياسياً مؤثراً في المغرب.

ترك العيساوى أعمالاً روحانية تخللتها أحكام أخلاقية وأذكار تقية وحتى لو كانت ممارستهم ما زالت مطبوعة أحياناً بأعمال دروشة وشعوذة؛ حيث الألعاب النارية والعديد من الحيل الناتجة عن

موهبة المعجزة لشيخهم تَصِيرُ خطيرة ومخالفة لنظرية وأحكام الإسلام، كل هذا بعيد مستبعد، حسب شهادة بوجمعة هيشور، وهو يذكر أن المجموعات التي تغني النوع العيساوي، في قسنطينة وفي شكل منتسب إلى الروحانية، غرضه تنشيط الحفلات؛ ولكن الأهم هو ذلك اللقاء السنوي للمريدين لمختلف الطوائف في اجتماع يسمى "الشعبانية" .إنه مؤتمر حقيقي حيث تكرم الطريقة، عبر فترات من التأمل والأذكار... وكما يؤكد العديد من المؤرخين وعلماء الأنساب فإن المريد عندهم يصفي نفسه، والحالة الغريبة التي يتوصل إليها تجعله في اتصال مباشر مع حقيقة عليا، وذلك بفضل وحي خاص نزل على مؤسس الطائفة وبقي محفوظاً من جيل إلى جيل، هناك ذكر لا بد من حفظه عن ظهر قلب كما هو الحال في كل طريقة لها صيغتها في الحفظ، إن ما يبرز من الروحانية الملتهبة حماسة هو ذلك الانجذاب المتواصل للذهن نحو الربوبية.

فمن المغرب كذلك وخلال القرن السابع عشر الميلادي وفي منطقة الوزان ظهرت طائفة أخرى وهي الطيبية حاملة اسم مؤسسها مولاي الطيب.

مولاي الطيب شخصية ذات شعبية ونفوذ وهو أحد أقرباء سلطان تلك الفترة وكان يستعمل كل قوته ليرفع من شأن قوة السلطان المعرضة للخطر بفضل دعمه غير المشروط، وكان السلطان يرد له ذلك بسخاء عبر مجاملته واحترامه الذي كان فيه شيء من النفاق حسبما يقال، إلا أنه قد ساعد طريقة مولاي الطيب وعمل من أجل سمعتها.

و كتب البارون ديتورنال دوكونسطان يقول في هذا الصدد ما يلي:

"تلك التنازلات كانت ذكية، وكانت ضرورية، لم يكن في وسع أي سلطة في المغرب أن تستقر لو لم تتمكن سطوة الإيمان من خفض مستوى تمردّ فلول القبائل – التي لم ترَضيراً في إبقاء البلاد في حالة من الفوضى لأ وتحويل العصاة ليس إلى مؤمنين فحسب وإنما إلى رعايا صالحين كذلك. فنشر الانضباط الذي تدعو إليه طائفة واحدة بعينها في المغرب كان يعني تغيير أخلاق السكان تغييراً شاملاً وتعويض الفوضى بروح الخضوع، وكانت تلك الوسيلة هي التي تسمح ليس في استتباب السلم فحسب وإنما في جباية الضرائب وبناء الدولة".

ولكن سنوات بعد ذلك، تعرضت هذه الطائفة الصوفية إلى تفكك هام جراء الشقاق والانقسامات العميقة مما أفقد قادتها وأتباعها شيئاً من هيبتهم. والأسباب ؟ إن آخر شيخ للطيبية طلب من فرنسا أن تشرفه بتسجيله في قائمة المحظيين لديها وأن يستفيد من حمايتهم الشهيرة، فكان ذلك في نظر أتباعه عين الردة !

وسيدي محمد بن عبد الرحمن القتشولي الجرجري الأزهري الملقب بـ بوقبرين والذي ولد سنه 1715م في قبيلة آيت إسماعيل في جرجرة وكان مؤسساً لطائفة الرحمانية المكناة باسمه، وهذه الطريقة واسعة الانتشار في الجزائر، وبخاصة في منطقة القبائل والهضاب العليا والجنوب، وأستطيع القول من غير أن أقع في الخطأ، إن تلك الطريقة هي أهم طريقة باعتبار عدد الزوايا الواقعة تحت سيطرتها، ومما لا جدال فيه مشاركتها الفعالة في انتفاضة 1871م. إن المؤرخ المرحوم محفوظ قداش يثبت ذلك في أحد كتاباته حيث يقول:

"كانت هي الطريقة الوطنية التي تجمع الجزائريين من جميع الأصول، رجالاً ونساءً، مثل خدوجة بنت أحمد بن كانون في الأسر والتي حملت أولاد أوقاسي إلى الالتحاق بالانتفاضة، إن الإخوان وهم منسجمون ومتعودون على نوع من السرية وشدة الانضباط شكّلوا مجموعات من المحاربين مشهورين بشجاعتهم وبطولتهم، كان المقدمون (للزوايا) هم حملة الألوية لهؤلاء المحاربين الذين لم يكن في دأيهم مخرج آخر غير النصر أو الاستشهاد".

إن سيدي محمد بن عبد الرحمن القتشولي تابع دراسته الابتدائية عند الصديق واعراب وهو شخصية محترمة من قبيلة آيت إيراثن، ثم ذهب إلى الجزائر لإتمام تكوينه، وبعدها توجه إلى القاهرة لإكمال تعلمه بمتابعة التعليم العالي في الأزهر عند الأساتذة المشهورين ومن بينهم من كان له عليه الأثر الكبير وهو الشيخ الحفناوي وهو داعية مشهود له ومبشر مؤمن برسالته، وكان هذا الأستاذ شيخ الخلواتية في مصر. وذهب القشتولي بعدها إلى السودان والهند حيث مكث زمناً طويلاً لتعليم العلوم الإسلامية.

ثم زار مرة أخرى الحجاز لأداء فريضة الحج، وذهب بعدها إلى تركيا قبل أن يرجع إلى الجزائر حيث طبقت شهرته الآفاق بناء على خطبه.

وعند وفاته كانت الطريقة قد عرفت ازدهاراً كبيراً، كانت الرحمانية قد عرفت في هذه الفترة قوة عظيمة إلى درجة أن مريديه من مدينة الجزائر الذين كانوا كثراً، أرادوا دفنه عندهم، وفيما يخص هذا الجانب ثمة العديد من الروايات عن هذا الرجل الصالح، وقال بعض المؤرخين أن ناقوس الخطر قد دق لدى الأتراك خوفاً من يصبح ضريح هذا الرجل

الصالح مركزاً للانتفاضة بالنسبة للقبائل، فدفنوه في الحامة في مدينة الجزائر بعد أن بدلوا جثمانه الذي كان قد دفن من قبل في آيت إسماعيل في جرجرة، وقال آخرون إن مريديه من مدينة الجزائر، الذين لم يسمعوا بخبر موته إلا بعد ثلاثة أيام، لم يستطيعوا الصبر على أن يستقر جثمانه بعيداً عنهم لذا قرروا بعد العديد من المشاورات أن يختاروا بعض الرجال من بين الحازمين، ومن أمهرهم؛ فكلفوهم بالمهمة "المجيدة" ليعيدوا بينهم الرجل الذي كان في حياته الألمعي والصالح السيد المبجل محمد بن عبد الرحمن، ويقول هؤلاء المؤرخون ذاتهم إن الجثمان قد تم فعلاً إرجاعه إلى مدينة الجزائر بعد العديد من المناورات، وثمة عدة أساطير تحيط بهذه الفرضية الأخيرة أيضاً، حيث روي أن الله قد صنع معجزة نسخ جثمان الولي الصالح، وهكذا فقد جعل في الحامة ضريحاً منسوخاً لسيدي عبد الرحمن، حيث تمت جنازة فاخرة؛ ومن هنا تأتي تسمية بوقبرين، الرجل ذو القبرين، فوصل الخبر إلى الباشا الحاكم فأمر في الحين ببناء ضريح على قبر الرجل الصالح.

إن دراستنا هذه عن الطوائف الصوفية والجمعيات الدينية قد تكون ناقصة إن لم نعالج المساهمة المعروفة لبعض القادة الكبار الذين أثروا في عهدهم وبلغ إشعاعهم مناطق حساسة للغاية حيث انغرس الإسلام. والمقصود هنا طوائف قادتها وجوه ليست أقل أهمية واتصفت انتقائيتها بمجال واسع للغاية، تحركهم في ذلك رغبتهم الحارة في رص صفوف المسلمين، وفي هذا المجال قد تميّز وجهان من بين تلك النخبة.

سيدي أحمد بن سالم المولود سنة 1150هـ/1737م في حي آل التيجاني بمدينة عين ماضي قرب الأغواط والشيخ السنوسي واسمه

الحقيقي محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي المولود سنة 1202هـ/1787م في يلل بدوار الطرش من نواحي مستغانم، وهما مثقفان جزائريان قد لمعا بمعارفهما وتجربتهما وأسفارهما وكذلك بالتربية والأخلاق التي كانا يلقنانها، الشيخان التيجاني والسنوسي غمرتهما الفكرة السامية لرص صفوف المسلمين، كان على كلٍّ منهما أن يبحث عن الوسيلة الكفيلة بجلب الطرق الأخرى التي كان يتوزع عليها جميع المريدين، قال الأب الجليل لويس بوتي:

"من أجل ذلك الغرض، فقد برهن المؤسسان على تمتعهما بانتقائية واسعة النطاق للغاية، وسعى كل منهما إلى تركيب قاعدته بحيث تجد أي طائفة مهمة عناصر قاعدتها فيها، فكانت تلك الانتقائية الضرورية الصفة المشتركة الوحيدة بين الشيخين".

ومن ناحية أخرى وبعد ذلك بكثير تفطنت الطريقتان أن نظريتيهما كانتا مختلفتين، فطريقة التيجانية كانت أكثر انفتاحاً على العالم الخارجي، والتحق بها بسرعة العديد من الأتباع وبخاصة من القارة الإفريقية وعلى وجه التخصيص من السنغال، حيث ما زال التنظيم منتشراً بشكل واسع إلى حد الساعة.

إن الشيخ التيجاني، المعلّم، كان روحانياً كبيراً، فقبل أن يقوم بتحديث تنظيمه بكثير تبنى نظريات القادرية والخلواتية والطيبية، ومات في فاس سنة 1815م تاركاً قيادة التنظيم إلى مقدّمه سيدي الحاج بن حاج عيسى المنحدر من ينبع في العربية السعودية، وكان رئيس زاوية تيماسين في وادي غير جنوب بسكرة.

ابتداء من 1853 صار التنظيم قوة حقيقية وفرضت فاس نفسها بدورها على أنها أحد المراكز الموجّهة للطريقة، إن التيجانيين كانوا

ينظمون قوافل محروسة تنطلق من تيماسين وعين ماضي لتلتحق بشنقيط، في منطقة أدرار، وبتومبوكتو وسيقو وفوتا جالون، وكانت الدعوة إلى الإسلام والتجارة مترافقتين.

في السودان كان الحاج عمر وأحمد شيخو من تيجانية المدرسة المغربية وبالتالي فإن العرب والبُهْل Peuhls، (شعب إفريقي يشكل أغلبية في السينغال وأقلية في جنوب موريطانيا) كانوا متقبلين لهذا التأثير، وفي المغرب فإن العديد من القبائل أمثال البرانس والتسول كانت تنضم إلى الطائفة، واليوم تضم الطريقة عدداً كبيراً من الفروع في العالم، في الولايات المتحدة تذكر الإحصائيات أن ثمانين مليوناً من المسلمين يتبعون الطريقة التيجانية.

إن الطريقة السنوسية وهي أقل مرونة عاشت في خلوة وتركيز ومقاومة عنيدة "ضد تَوَسُّعِ العبقرية الغربية". وبالمقابل فإن الطريقة التيجانية تميزت بقواعدها العبادية الملطفة والمبسطة، مجردة إياها من كل ما في الطرق الصوفية الأخرى من روحاني وتسامٍ. إن طريقة الشيخ السنوسي وهو يتحدر من سلالة الأمراء الإدريسيين الأشراف وولد في عهد الحكم العثماني، وعاصر أيضاً تلك الفترات المفجعة من اغتصاب المستعمرين الفرنسيين لبلادنا. إن الطريقة السنوسية كانت تعمل متحاشية أي تورط مع الأوروبيين، فحافظت على نوع من الصرامة ملتزمة دائماً موقع المعارض، وكانت الطائفة السنوسية منفتحة على سائر المسلمين الذين يستطيعون الانخراط فيها دون التخلي عن انتمائهم لطوائفهم الأصلية، لقد نادى الشيخ السنوسي سنة 1829 عقب عودته من الحجاز بوحدة إسلامية ووحدة عربية عصريتين في مصر ومنطقتي طرابلس وتونس، وفي 1830كان في بوسعادة عندما احتلت فرنسا مدينة الجزائر، فذهب إلى مصر، وأثناء إقامته فيها تظاهر ضد

السلطان في القسطنطينية مما تسبب بطرده من البلاد، وعندما رجع إلى مكة حاول جاهداً من دون أي نجاح تسلم خلافة المعلم الأكبر للطريقة القادرية، فطرد مرة أخرى من الحجاز من قبل الأتراك، وعاد من جديد إلى منطقة بنغازي (سيرنايك) ثم إلى إفريقيا الوسطى حيث وجد مجالاً سانحاً لدعوته، فقد كتب عنه الجنرال مينييه ما يلي:

"أسس الزوايا على امتداد البلاد الواقعة بين الإسكندرية وقابس والسودان، ونجح المقدمون في إدخال العرب الليبيين وطوارق الصحراء الوسطى والسود في السودان، إلخ، بالآلاف... وفي غضون بضعة سنوات اكتسب نفوذاً هائلاً نجح في الحفاظ عليه بمهارة وذلك بواسطة ممارسة المعجزات".

وقد أسهم الشيخ السنوسي إسهاماً نَشِطاً في الانتفاضة ضد الاحتلال الفرنسي بفضل ما تمتع به من مزاج الداعية والمحارب، غير أنه انهزم أمام الجنرالين بيليسييه ويوسف سنة 1852، وفيما بعد عرفت السنوسية إعادة انتشار لها في ليبيا وصار أحد أحفاد الشيخ الأكبر ملكاً على البلاد سنة 1952.

إن طريقة الدرقاوية قد أسسها مولاي العربي الدرقاوي في ناحية فاس حوالى سنة 1823. ويقول المؤرخون إن اسم الطريقة مستمد من اسم مؤسسها أبو درقة (صاحب الدرع). ومولاي العربي شريف إدريسي متحدر من قبيلة بن زروال، والعقيدة الدرقاوية ما هي إلا عقيدة الشاذلية المحدثة ومن "أهدافها رد المسلمين إلى مبدأ الصوفية الخالص، عن طريق إبعادهم عن العالم المادي الزمني. (...) كانت توصي مريديها بالابتعاد عن السلطة، إنما بدون محاربتها أو في كل الحالات عدم محاربتها إلا في حال أرادت السلطة أن تفرض نفسها بالعنف".

وعند وفاة مؤسس الطريقة، نشأت العديد من الزوايا الدرقاوية، وكان شيوخها يعززون استقلاليتهم كلما ازداد نفوذهم الشخصي.

إن الطريقة لها كثير من الأتباع في الجزائر وبخاصة في غرب البلاد، وتأثيرها البارز يظهر عند الهبرية في مناطق ماوسة (معسكر) وسعيدة وفرندة وزمورة وجبل الناظور ومستغانم وتلمسان، حيث كان يتواجد عدد معتبر من الزوايا وكذلك عند درقاوة سيدي عدة، وهؤلاء منحدرون من سيدي بوعبدالله وهو رب عائلة مشهورة في ناحية الشلف دفن في وادي رهيو وكانوا تحت السلطة الأدبية لسيدي عدة بن غلام الله الذي كان تأثيره ينطلق من زاويته بأولاد لكرد، إلى غاية زوايا الشيخ بوشنتوف في تغنيف وسيدي ميسوم في الغريْب.

إن الدرقاوة لم يكونوا ليّني المراس كأتباع الطرق الأخرى، حسب اعتراف المستعمرين الذين عرفوا حميتهم وحماستهم في رفض الظلم وفيما بعد الاضطهاد في زمن الاحتلال الفرنسي، "إن الدرقاوة شاركوا في عدة انتفاضات سواء في الجزائر ضد الأتراك أم في المغرب ضد السلاطين، يتم تقديمهم عموماً على أنهم متعصبون ويميلون دائماً إلى الثورة ضد السلطة الحاكمة"، لقد كتب دوبون وكوبولاني سنة 1897 في عمل مخصص للطوائف الدينية الإسلامية يقولان:

"إن في كل حركات الانتفاضة التي شهدتها الجزائر أو المغرب منذ تأسيس هذه الطريقة، وجدنا دائماً وفي كل مكان سواعد أولئك الرجال ذوي الألبسة الرثة، أولئك المتزمتين في الإسلام، وأولئك الدراويش الذين حملتهم على التعصب خطب ملتهبة من قبل الشاذلية| الدرقاوية".

وفي سنة 1954، أي في بداية حرب التحرير الوطني، كانت الطريقة موضوعة تحت الرقابة المشددة من قبل الإدارة الاستعمارية التي كانت تلح على الهيئات المحلية أن تراقب عن قرب ممارسات سائر أتباع الدرقاوة، لأنها كانت تعرف قدرتهم الفائقة على تأسيس وتنظيم علاقات مع المغرب.

وكانت هناك طوائف أخرى منبثقة من الشاذلية/الدرقاوية: طريقتا الكتانية والعلوية، نشأت الأولى في المغرب بفاس في منتصف القرن التاسع عشر، وكان سيدي محمد بن عبد القادر الكتاني هو مؤسسها، ولم تكتسب أهميتها إلا نهاية القرن، والثانية أسست في الجزائر وبالضبط في مستغانم سنة 1920 من قبل الشيخ بن عليوة أحمد ولد مصطفى.

وهي برغم كونها صوفية النزعة فإنها كانت تتقبل التطور نحو العصرنة، في البداية كان العلوية منفتحين على الديانات التوحيدية وواصلوا دعوتهم في أوروبا (مرسيليا وكارديف في إنجلترا) وفي أمريكا حيث أسسوا بعض المراكز وحققوا بعض الحالات من الاهتداء إلى الإسلام. وكان هذا في زمن الشيخ بن عليوة، ذلك المثقف الذي عرف حماسة مريديه وتقواهم، فضلاً عن نجاح معتبر في الخارج، بفضل تقواه وروحانيته اللتين أثرتهما معارفه الكلامية والتاريخية والفلسفية، ولكن عرفت الطريقة توجها آخر منذ وفاته، ولم يستطع خليفته بن تونس عدة، وهو ابنه بالتبني، أن يواصل العمل وفقاً لروحية العمل الصوفي الذي ابتدره أبوه، وذلك ما كان المستعمر يأخذه عليه، فقد كان منجذباً أكثر لتصور العلماء الذين كانوا يناضلون من أجل تأسيس الجرائد بالعربية لتجنيد الجماهير وغرس المشاعر الوطنية لديها، يقول ب.ج. أندريه في هذا الصدد:

"فقد استقبل بن تونس عنده قدماء تلاميذ الشيخ بن باديس ومنهم بوديلمي علي الذي أرسله إلى تلمسان ليقود زاوية الطريقة هناك ويعلم الشباب في إطار التقاليد العربية".

وعلى غرار الطرق الأخرى فإن هذه الطائفة كانت تمتلك بدورها زواياها، سواء في الناحية الغربية من البلاد أم في نواحي الوسط أم الشرق.

فقد حددنا لأنفسنا في هذا الجزء نظرة خاطفة عمّا كانت عليه تلك الجمعيات الدينية الرئيسية، منذ فجر الإسلام، فقد اكتفينا بأن نقدم للقارئ معلومات قاعدية يمكنها أن تساعده على حصر الموضوع وفهم أهمية ما قام به الرجال الصالحون في العالم الإسلامي وبالتالي في المغرب العربي، وهكذا فإنه سيعرف أن المؤسسات التي أرسوها والأعمال المفيدة التي خلّفوها لنا يمكن أن تسجل في قائمة الإنجازات الإيجابية.

ففي الفصل القادم وهو أطول لأنه يتمتع بتوثيق أوفر، لقد اخترنا بعض الأولياء الذين لمعوا بعلمهم، وبشجاعتهم وبحلمهم وبأعمالهم، فضلاً عن كراماتهم المجربة بحسب شهادة الجميع، فقد كانوا كثراً في بلادنا وهم جزء من تاريخنا، التاريخ الحقيقي لأنهم نشروا الإسلام الأصيل، الإسلام الذي يريد أن يكون مطية للإيمان الصحيح وللتقارب وللحب وللعلم والتقدم والتسامح.

الفصل الثالث

الزوايا من أجل المحافظة على الثقافة الإسلامية

الزوايا: الأسس والأصل

إن الإسلام قد عرف حقاً ذروة المجد عبر تطور الثقافة والتربية والعلوم تحت إشراف علماء عظام، كانت الجزائر ملتقى طرق يعج بالرجال الكبار الذين لمعوا في العلوم الدينية والفلسفة والنحو والطب والفيزياء والماورائيات في فترة شهدت تعايشاً بين الثقافة الإفريقية والأندلسية، إن أولياء كباراً قد تركوا للمجتمع الجزائري معالم ثقافية وروحية واضحة قد أسهمت مع مرور الزمن في تثبيت أسس أمة غيورة على هويتها تثبيتاً أفضل، وقد بيّن عبد الحق الأشبيلي في قصائده وهو يعالج هذه الفترة الرائعة "تقديساً للعلم إلى درجة أنه ينفي أن يكون الجاهل على علاقة بجنس البشر".

ومع هذا فإن ذلك النشاط الثقافي والديني الذي استمر طيلة قرون وصل في النهاية إلى مرحلة تلاشٍ مهدت الطريق للانهيار وللاحتلال. أضف إلى ذلك الجو المتردي المتميز بانحلال الأخلاق وذوبان القيم، الصعوبات الناجمة عن ممارسات العثمانيين التي جعلت حياة الجزائريين أصعب بكثير مما كانت عليه، فإذا نظرنا من الزاوية الثقافية فإن الحضور العثماني كان أكثر من سلبي في الجزائر كما يثبت ذلك الدكتور سعد الله، إنه يقر بأنهم بالفعل دافعوا عن الإسلام في بداية مجيئهم إلى الجزائر وشجعوا التوجه الزهدي

وشيدوا الزوايا والمساجد والمدارس القرآنية ولكن تصورهم للدين كان ينبثق من التقوى الصافية مستبعداً هكذا أي فائدة تعود على الثقافة، إنهم لم يؤسسوا جامعات على غرار جامعات القرويين والأزهر أو الزيتونة، تلك الصروح المعرفية التي وفرت العلم وأنتجت العلماء والكتّاب وعلمت اللغة وشكلت الأذهان. وبالتالي فإن العثمانيين كانوا لا يتكلمون لغة البلاد ولا يتذوقون ثقافته ولا يصطحبون علماءَهُ كما كان يفعل سلاطين المغرب أو بايات تونس في زمن الحسينيين، كانوا لا ينظمون لقاءات علمية ولا محاضرات متبوعة بمناقشات مثلما فعل الأمراء الزيانيون والحفصيون. فلا غرابة إذن في أنهم لم يشجعوا لا رجال العلم ولا الشعراء، كانت الثقافة متواجدة فقط في دائرة محدودة: قصورهم الملكية.

برغم عدم الاكتراث المعلن من قبل أصحاب النظام العثماني، فإن "الجزائريين كانوا يولون احتراماً كبيراً لتلك المؤسسات المقدسة الموروثة من ماضي الإسلام البعيد والمجيد، إن تبجيلهم للخلافة المتمثلة في سلطان القسطنطينية يترجم جيداً مشاعر الإخلاص وارتباطهم العميق بالخليفة الذي كان يمثل الأمل الوحيد لتحسين أوضاعهم" حسبما كتب محفوظ سماتي. ولكن المثقفين الذين هم أدرى بالوضعية السياسية كانوا يرون الأشياء بطريقة مختلفة وبتمايزات أكثر دقة وأكثر تحفظاً، فالمعلم المختار حاج سعيد وهو محامٍ في قسنطينة قد عبر عن ذلك خير تعبير عقوداً بعد ذلك عندما كان عليه أن يرد على بعض الاتهامات التي ساقها ضده النظام الاستعماري:

"إسطنبول والخليفة هما بالنسبة لنا نحن المسلمين مثل روما والبابا بالنسبة للمسيحيين لا أكثر ولا أقل، بحيث إذا استثنينا بعض

التعاطف الناتج عن الاشتراك في الدين، فلا نشترك في أي شيء آخر مع الأتراك والفرس والمصريين".

فبقطع النظر عن تلك الكوابح لدى الشعب بسبب العامل الديني من جهة والتنازلات الوجيهة للمثقفين من جهة أخرى، فإن المعرفة قد تغلبت في العديد من المدن والمناطق المشهود لها بتقاليدها الثقافية، وقاموا بما كانوا يرونه لازماً للمحافظة على تراث السلف، إن المدارس والزوايا شكلت فيما بعد الحصون التي انطلق منها المجاهدون حملة العقيدة في العمل الحماسي والمثير للاهتمام والمتعلق بتربية الجماهير وتثقيفها، ومن ذلك الانجاز حافظوا على حركيتهم خلال السنوات الطوال في مواجهة الاستعمار الفرنسي الذي جاء بأفكار مهينة ليبعد الشعب عن مبادئه ويجعله يتخلى عن هويته الوطنية وثقافته الراسخة، وقد أثبت قائد أحمد في إحدى محاضراته العديدة ما يلي:

"إن أشنع شتيمة وجهت إليه كانت أنهم أرادوا منحه ثقافة لم تكن قبل كل شيء ثمرة نموه الاجتماعي والسياسي الخاص الذي يمثل نقطة الانطلاق الأساسية ليكون الإثراء بمساهمات خارجية مقبولاً وذا فائدة حقيقية".

فبالنسبة للشعب الجزائري، إن المحتلين الجدد كانوا قد جاؤوا بالتطعيم السيئ الذي كثرت فيه الصيغ الهجينة والعديمة الفعالية.

وبالتالي فإن المقاومة الشعبية، أمام لغة الإدارة الاستعمارية وأمام كتابته الاضطهادية قد أفشلت كل محاولات مسخ الهوية بفضل المدارس الدينية والمساجد وبخاصة الحركة السياسية الوطنية، وفي هذا الإطار بالضبط فإن بلادنا لم تعرف أبداً الانحطاط، ولكن

مرت أوقات عصيبة جراء عوامل شلل ولكن تمت الاستفادة منها بسرعة لتربية الجماهير وتثقيفها بالوسائل المتاحة.

إن الزوايا، وأفضلها، حسب قول بن يوسف بن خدة، هي التي كانت "عامل انتشار للدين، ولنذكّر بذلك، في أقصى المناطق في الجزائر... هي التي تمت بفضلها المحافظة على القرآن الكريم والمواد الإسلامية واللغة العربية في بلادنا ... هي التي كانت حصناً منيعاً ضد الفرنسة والتمسيح وتدهور الأخلاق، تلك االتربة الخصبة للاستعمار الثقافي ...هي التي رفع العديد من أنصارها لواء الجهاد ضد الاحتلال الاستعماري. السنوسية في ليبيا ضد الإيطاليين والمهدية في السودان ضد الإنجليز والتيجانية ضد الفرنسيين والإنجليز في إفريقيا السوداء وفي الجزائر والقادرية بقيادة الأمير عبد القادر، والرحمانية بقيادة الشيخ الحداد وأولاد سيدي الشيخ في الجنوب الوهراني، وليس من ذكرنا سوى البعض منها..." وكانت عديدة وقد برهنت بمسؤولية عالية، برغم اختلافات انتماءاتها الطرقية، عما تمتعت به من روح الوحدة، وقد أعطت فيما بعد أفواجاً قوية من الجنود التحقوا بحرب التحرير والاستقلال.

لنر ما هي تلك الزوايا: أصلها وتكوينها ومهمتها وما أعطته للمجتمع.

ينبغي بادئ ذي بدء ألا نقوم بالخلط، من ناحية، بين تلك الأماكن المخصصة للعبادة والتقوى والتي تعتبر مقاماً يتم فيها تعليم القرآن ومبادئ الفقه والشريعة الإسلامية وأحياناً القواعد النحوية ليستطيع المريد فهم بعض المواد، ومن ناحية أخرى بين ما يسميه الرجل العادي، المرابط، بما يحمله هذا الإسم من معنى ظلامي

وتعصبي، ودون أن يعرف حقيقة مهمته وأقل من ذلك أصله الذي حاولنا شرحه سابقاً.

صحيح أن الزوايا كانت تأوي غالباً رؤساء الطرق، وهي المكان الذي يرتاده المريدون ليجتمعوا ملتفين حول شيخهم، وأحياناً أخرى فإنها مؤسسة كبيرة مهداة مجانياً من قبل أحد المحبين الأثرياء أو بكل بساطة مسكن تخلى عنه مريد وجعله هدية لمجموعة القرية وأحياناً أخرى يكون مسجداً يخصص فيه جناح أو بكل بساطة زاوية منه للتعليم، في أغلب الأحيان، أخيراً، كان لهذه الكلمة قيمة مجازية تعني المسكن المتواضع الذي كان الشيخ يقوم فيه بالتعبد، ولكن الحقيقة الأصح هي أن الزاوية مؤسسة دينية ونوع من المدرسة الدينية تكونت في جو ازدهار الطوائف الصوفية التي عرفتها البلاد ومجموع العالم الإسلامي وهي مدعومة الوجود شرعياً حيث صارت "كائناً معنوياً متميزاً ومجموعة تطمح إلى أن تعيش حياتها الخاصة". ويمكن كذلك أن تعتبر مجموعة من المؤمنين كان المؤسس قد وجد صدى لكلامه ولتنظيمه داخلها، "فحول داره إلى دير: وهو تحول يتم بتكلفة زهيدة" حسبما قاله لويس بوتي، ويواصل قائلاً: "في الطابق الأرضي نبنى ضريحاً توضع فيه رفاة سلف موقر، ولجلب الأنظار يتم الاعتناء بألا يغلق الضريح إلا بباب من شباك حديدي يفتح مباشرة على الشارع. عندها لا يستطيع منزل المؤسس أن يتحمل التجول أو لأ وهذا ليس نادراً – عندما لا يملك المؤسس بيتاً فإنه يبني واحداً بما يجمعه من الهبات والتبرعات أو إنه يستولي على زاوية أو مسجد أو نادٍ ليصير فيما بعد الدار الأم للطائفة أو مركزها". وقال مؤرخ آخر ب.ج. أندري:

"إن أماكن الخلوة لتلك ذوات الشخصيات البركة تسمى زاوية (يعني ركنا، فقد كان سابقاً مقاماً مخصصاً للصلاة في عمق المبنى) وبمعنى أوسع كان لكل جماعة من الجماعات المنتمية إلى شيخ زاوية خاصة بها. إن الزوايا تسمى في تركيا تكية، وفي آسيا خنك وهي كلها مقامات وبالأخص تلك التي تضم ضريح قائد الطريقة، وتصير شيئاً فشيئاً مدارس أو نوعاً من الأديرة (رباط، ومنه المرابطون ومرابط أي أهل الرباط، وفي المغرب أيضاً المرابطون من المنحدرين من الزوايا الصحراوية). وكانت كذلك أماكن للالتجاء والاختفاء ونزلاً صغيرة ومحطات على كبرى الطرق التجارية".

وفي القرن الثالث عشر تقريباً كانت كلمة زاوية يقصد بها أصلاً مكان منعزل أو رباط، مكان يعيش فيه المعلم مع تلاميذه وقليل جداً من المستخدمين الذين يشكلون حاشيته، وهذا لا علاقة له بالرباط بعكس ما كتبه المؤرخ المذكور سابقاً (معسكر محصن) الذي يتكون لأسباب أخرى وبخاصة عسكرية حسب ابن مرزوق التلمساني وهو العالم اللامع ومستشار السلطان المريني في القرن الرابع عشر ميلادي.

صارت الزوايا إذن تلك المقامات التي يقودها مجلس إدارة وتخضع لتنظيم يغلب عليها عموماً نظام المدارس الداخلية، وتتركب من مبنى أو مبانٍ يتم فيها تعليم القرآن وتعاليم الدين، واليوم فإن هذا المفهوم للزاوية نشاهده كثيراً وبوضوح في إفريقيا الشمالية أكثر من غيرها، فيما خص المشرق كان يمتلك عدداً معيناً في القرن العاشر، فالقاهرة وحدها كانت تأوي العشرات، فقد كان للزوايا في هذه العاصمة أهمية معتبرة وقد لعبت دوراً اجتماعياً حاسماً في أوساط السكان، وقال الشعراني في هذا المجال: "أحسن وسيلة لمكافحة

المصائب التي تلم بحي أو بقرية هو دفع الناس إلى المصالحة ومساعدتهم على تحقيق الوئام فيما بينهم بحيث تمحّي آثار الحقد بينهم"، ويضيف قائلاً إن "الله عندما يرضى عنه عبده ويصير عالماً أو شيخ زاوية..." وتنهى الفكرة بالطبع بالمعنى الإيجابي.

في هذه المناطق من العالم العربي والإسلامي تم تحويل هذه المؤسسات عموماً إلى مساجد حتى لا تهجر أو حتى لا تحول إلى مباني تَعَبُّدٍ أخرى، فقد كانت تستعمل في الوقت نفسه مآوي للمسافرين فتقدم لهم يد المساعدة والدعم ولتعليم من منهم كان يريد الاستفادة من المعارف التي كان يجري تعليمها بصفة مطردة في تلك الأماكن، التي كانت تتحول بعد تأدية الصلوات المفروضة إلى مدارس للممارسات الشعائرية.

في الجزائر هناك أنواع كثيرة من الزوايا وذلك منذ عهد العثمانيين الذين – ويجب الاعتراف بذلك – قد شجعوا على إنشاء المدارس الروحانية لأولم تتوفر تلك الإرادة بالنسبة للجامعات – وسمحوا ببناء المقامات للمحافظة على تلك الممارسات ونشرها، وعليه فهناك زوايا مرتبطة مباشرة بطوائف بعينها وهناك زوايا تقود هي نفسها طوائف، وهناك الزوايا التي تتكفل فقط بتعليم القرآن واللغة العربية بصفة عامة، وهناك زوايا تقوم مقام دور استقبال للمسافرين والمساكين والشباب الذين يبحثون عن المعرفة ولكنها مع ذلك تقدم دروساً في جناح يقوم مقام مدرسة قرآنية، وأخيراً هناك زوايا أسست في ظل رجل صالح من بين الأشراف والذي يتحول ضريحه إلى مكان يحج إليه الأتباع، وبالتالي فإنها تأخذ التسمية التالية: "زاوية سيدي فلان" مثلاً، قال لويس رين في هذا المجال ولكن دائماً في أسلوب يتسم بالغرابة:

"في الدرجة الأولى يأتي المرابط صاحب الزاوية الثري نوعاً ما ووريث النفوذ الديني لأحد الأسلاف، شريف أو ولي، مبجل في البلاد. إن تأثيره هائل وقد يصل إلى التغطية على نفوذ بعض الآغاوات والقياد. ثم في درجات متوالية ننزل من السيد عالم الدين الكبير إلى أصغر مرابط ممن ليس لديهم إلا كوخهم وسبحتهم ويعيشون في فقر مدقع من الصدقة العمومية بجوار سلف مات معدنه معدن الرجال الصالحين".

ثم هناك المَعْمَرَة في بلاد القبائل وهي أنواع من الأديرة، ليست بزوايا ولا رباطات ولكن عملها وبرامجها ثابتة ثباتاً استثنائياً، فهي بدون مبالغة معاهد يتم فيها تعليم كل المواد العلمية بالإضافة إلى القرآن، إن هذه الصروح للمعرفة قد أنشئت وتعددت في منطقة بجاية وخاصة بعد احتلال المدينة من قبل الأسبان، إن السكان الأصليين البرابر والمجموعة من الأندلسيين الذين كانوا يعيشون فيها والذين تحصنوا في أماكن أخرى قد أنشؤوا هذه المعاهد في بني يعلى وفي بني أوغليس وفي أماكن أخرى من بلاد القبائل الصغرى والقبائل الكبرى اللتين تحولتا، وفي نسبة معتبرة مهداً للثقافة العربية الإسلامية.

ثم هناك أخيراً زوايا كان لها تأثير كبير وعميق وشهرة كبيرة لدى الجماهير وتكاثرت طقوسها في العديد من مناطق البلاد، ونذكر على سبيل المثال طريقة الرحمانية التي كانت أهم طريقة إلى غاية القرن التاسع عشر في زمن الشيخ الحداد، وكان لها وحدها 220 زاوية على جملة التراب الوطني.

وهكذا فإنه قد تم إحصاء الزوايا وأوليائها بصفة طبيعية بالتفاصيل تقريباً من قبل العديد من المؤرخين والعلماء الجزائريين، فابن مريم (صاحب كتاب البستان) ومحمد بن سليمان قد أحصيا

زوايا ناحية تلمسان، وابن حوا أحصى زوايا ناحية الشلف، ومحمد الجوزي أحصى ناحية غريس، والبوني عن ناحية عنابة. وأخيراً الفكون عن الشرق الجزائري وبخاصة عن قسنطينة وعنابة، أمّا فيما يخص الورتلاني فإنه قدم لوحة معتبرة عن كل أولئك الصالحين المتصوفين وزواياهم وأضرحتهم وكراماتهم وحتى عن مختلف الخرافات التي تحيط حياتهم. والفرنسيون كذلك أحصوها في بداية الاحتلال وهذا بالطبع لأسباب تتجاوز الأبعاد البشرية، الأنتروبولوجية أو الإثنية، في الواقع إن الاستعلامات كانت تلعب دوراً رئيسياً عبر "المكتب الثاني المشهور" الذي كان يراقب عن كثب كل الأنشطة وكل أعمال المجموعات السياسية والثقافية والدينية.

لِنُعَدِّدْ على سبيل التذكير البعض منها لنفهم أهمية تلك المؤسسات في المشهد الروحاني للبلاد منذ عهد العثمانيين.

كانت مدينة الجزائر تعج بالزوايا، فبالإضافة إلى زوايا سيدي عبد الرحمن الثعالبي ووَعلِْي دادح وعبد القادر الجيلاني، كان هناك زوايا أخرى تنشط بقوة وتستميل الأتباع والتلاميذ، ونذكر زوايا سيدي محمد الشريف وأحمد بن عبد الله الجزائري والجودي والسعدي ويوب والكتاني وجمعة والفاسي ويعقوب وبوعنان وبوعتيقة وقاضي والكشاش والصابرين ومولى حسن والعباسي وزاوية الأندلس والشبرلية ومحمد باشا وعمر التنسي. في ناحية مدينة الجزائر نذكر الزوايا التي بلغت شهرتها آفاقاً أخرى، والمقصود هنا زوايا القليعة والمربوسي وسيدي امحمد البركاني في المناصر قرب شرشال، البركاني كان محارباً كبيراً وكان أحد المرشحين لخلافة الأمير عبد القادر.

ومن بين الزوايا الثلاثين التي كانت موجودة وقتئذ في تلمسان، تميزت زوايا سيدي بومدين وسيدي السنوسي وسيدي الطيب الوزاني وكذلك زاوية أحمد الغماري.

وفي القبائل الصغرى والكبرى، كانت الزوايا كثيرة، كان عددها يتجاوز الخمسين وأهمها من بين التي ذكرنا فإنها كانت موجودة في تيزي راشد وزاوية بني عراب وفي زاوية سيدي التواتي.

وتعد ناحية قسنطينة كذلك زوايا سيدي عبد المؤمن والمناطقي والكتاني والمسيد وعفان وراشد ومخلوف وأولاد الفكون ورضوان خوجة (مخصصة للأتراك والقراغلة)، ولا يمكن أن نسكت عن إحدى أهم زوايا قسنطينة وهي زاوية سيدي الحاج الحملاوي الذي عينه الحداد خليفة روحياً له، لقد حلت محل الزاوية الأخرى التي ارتبطت بالطائفة التي أسسها السيد مصطفى بن محمد بن عزوز الذي ابتعد شيئاً فشيئاً عن الرحمانية. وفي الشرق دائماً كانت هناك من بين ما هو موجود زوايا خنقة سيدي ناجي وبني بومسعود ومحمد بن يحيى في أولاد عبد النور وزاوية مولاي الشقفة بين جيجل والقل.

وأخيراً في المناطق الأخرى من البلاد وخاصة في الغرب وفي الجنوب، فقد كانت أكثر عدداً ويفسر هذا بكون تلك "المناطق هي أكثر قرباً من المغرب الذي كان يَعِجُّ بالزوايا والمرابطين"، إن طريقة الطيبية وتحت تأثير شرفاء الوزان كانت لها زواياها في ندرومة والرمشي ومغنية وسبدو وعين تموشنت، وفي التوات في ناحية أدرار فقد كانت أكثر أهمية، وكانت مواقعها في تمنطيط، وفي التوات السفلي وفي القورارة، وسنذكر البعض منها: زوايا أولف ومهدية ورقان وزاوية الحاج بلقاسم بن الحسين، إن مريدي الطريقة

الدرقاوية كانوا متواجدين في ناحية وهران ولكن كذلك في سور الغزلان وثنية الحد، وأهمها زاوية سيدي عدة بن غلام الله وهي في أولاد لكرد، إن تأثير القادرية في نَفَطَة في القطر التونسي وجنوب تقرت في الجزائر قد لعبت دوراً من الدرجة الأولى في الصحراء الشرقية، فقد كانت لهم زواياهم في عين الصفراء وفي منطقة المزاب في غرداية والأغواط والمنيعة، ولا نغادر الجنوب دون أن نذكر زاوية مغار التابعة لنفوذ بوعمامة من زاوية أولاد سيدي الشيخ وكذلك الزوايا الأخرى المرتبطة بالطريقة الشيخية والتي كانت هامة جداً في الجنوب الغربي ومنطقة عين الصفراء والبيّض ومشرية وبني ونيف والعبادلة والقورارة.

فالقارئ يلاحظ أنّنا تكلمنا عن هذه الفرق والزوايا في الماضي، ومع هذا نشير إلى أن العديد منها ما زال موجوداً إلى غاية اليوم وما زالت تواصل تأثيرها على المناطق التقليدية.

الزوايا حصون للعقيدة والنضال

كل الزوايا كان لها الفضل بصورة فعلية في المحافظة على اللغة العربية وفي المساهمة بصورة حقيقية وفعالة في الكفاح ضد الاستعمار منذ الاحتلال سنة 1830 إلى بداية حرب التحرير الوطني سنة 1954. ورفعت بعض الزوايا راية الجهاد عالية.

إن زاوية سيدي عبد الرحمن بن يسعد المصباحي الخردوشي اليلولي الزواوي نشأت سنة 1030(هـ/1601م). لا تزال هذه الزاوية موجودة برغم الأهوال القاسية التي تعرضت لها في زمن الاستعمار وبخاصة في فترة الكفاح المسلح، وقد كان لها الشرف أن تنتج روضة

مزهرة من المثقفين الذين كان عليهم أن ينشروا العلوم عبر كل التراب الوطني ومحاربة الأعمال التخريبية التي قامت بها الإرساليات والدعاية الظلامية لأصحاب النظام الاستعماري، فمن بين أولئك الأساتذة المبجلين عبد الله بن الخراط اليعلاوي ومحمد بن يحيى الإراتني ومحمد بن بسعه ومحمد بن عنتر البطروني الحرزوني وغيرهم أمثال أبي القاسم الحسني البوجليلي والصادق البسكري الجنادي والسعيد الياجوري ومحمد الصالح الصديق.

زاوية الشيخ محمد بن عبد الرحمن بوقبرين الأزهري نشأت سنة (1128هـ/1716م)، وهو تلميذ الصديق بن عراب وسالم الحفناوي وحسن الجدي والشيخ العمروسي، قد تعرضت هي الأخرى للاضطهاد طيلة الفترة الاستعمارية، إن ذلك المؤسس للطريقة الرحمانية التي جندت العديد من الأتباع في بلاد القبائل وخاصة في العديد من مناطق البلاد، قد سلمت اللواء لمحاربين آخرين من أجل العقيدة ومنهم الوارث الأول وهو الشيخ الحداد خلال انتفاضة 1871.

إن زاوية بن سحنون في تاغرست (بني أوغليس) في دائرة سيدي عيش قد تأسست في القرن التاسع عشر من قبل الشيخ محمد السعيد بن سي السعيد أمقران بن سحنون. لقد كانت من بين أحسن الزوايا تنظيماً ومن أهمها في وادي الصومام الذي يعد مع بني أوغليس ستاً وعشرين زاوية تم تأسيسها في الأغلب خلال ثورة 1871 بهدف خلق دينامية من النهضة العلمية والروحية في أوساط الشباب الذين يمثلون الجهة الوحيدة القادرة على النهوض بالكفاح ورفع التحدي أمام محتل استوطن بالاعتماد على روحية الحرب الصليبية.

إن زاوية بن سحنون قد أوت لمدة أكثر من قرن أساتذة جزائريين وتونسيين مشهورين، والبعض منهم كان له الشرف الكريم لتكوين أجيال من المجاهدين من أجل العقيدة وتوجيههم (إلى الجهاد)، وهؤلاء بدورهم قد نشروا العلوم والتربية الصالحة عبر الزوايا والمدارس الحرة التي أسستها فيما بعد جمعية العلماء الجزائريين، إن مؤسس هذه الزاوية: الشيخ محمد السعيد السحنوني (مولود سنة 1840 تقريباً) وهو قريب من شخصية أخرى مبجلة هي المثقف والمكافح الشيخ محمد واعلي السحنوني وهو قائد معركتي إشريدان ضد جيش المارشال راندون (1857) اللتين برزت فيهما البطلة فاطمة نسومر، لقد نفي إلى كاليدونيا ولكنه التحق بالأرض المقدسة حيث دفن في البقيع بالمدينة المنورة، إن مسلمي اليمن والحجاز كانوا يسمونه شيخ العرب، وجاءت بعده شخصيات شهيرة ولامعة علّمت في تلك المؤسسة: الشيخ بلقاسم بن أحمد بن علي الورزديني وإبراهيم وأحمد العيادي وامحمد ومحمد الشريف بن الشيخ محمد السعيد (أولاد المؤسس) والكامل الحبيب السرياني التونسي والكثير من الآخرين.

أثناء حرب التحرير الوطنية، وفي سنة 1959 سويت الزاوية بالأرض. وبعد الاستقلال، عادت وانبعثت من رمادها لأن المؤسسة تم انتشالها من قبل أناس من تلك الناحية وأعادوا بناءها لتعود إلى نشاطها وتؤدي المهمة التي أسندت إليها من قبل مؤسسيها.

إن زاوية أبي القاسم الحسني البوجليلي موجودة في بوجليل بمنطقة القبائل الصغرى، لقد كانت في الأساس مدرسة قرآنية يعود تاريخ إنشائها إلى القرن الحادي عشر الهجري (السادس عشر

الميلادي) على يد جد مؤسس الزاوية المنحدر من بني ورتلان في الجنوب الشرقي لبجاية.

ولد أبو القاسم الحسيني سنة 1826 ودرس على يد الشيخ عبد الرحمن اليلولي في صدوق تحت إشراف الشيخ العلامة محمد أمزيان بلحداد الذي جعل منه، إضافة إلى ذلك، أحد رواد الطريقة الرحمانية. خلال ثورة 1871 صار مرشداً عسكرياً وفيما بعد مستشاراً للباشاغة المقراني. وبهذه الصفة حضر إلى جانبه معركة الصفعة الشهيرة في ناحية عين بسام حيث سقط هذا الأخير في ميدان الشرف.

وسجن الشيخ بلحداد فأخذ تلميذه أبو القاسم على عاتقه مواصلة المهمة وقاد طريقة الرحمانية وهو في كل ذلك قد بذل كل طاقته في تعليم الشباب وتجنيدهم.

وأسست زاوية سيدي علي أويحيى في قبيلة بني كوفي (دائرة بوغني) في القرن التاسع للهجرة، وقد كرست جهدها في دراسة القرآن الكريم والشريعة الإسلامية والتفسير واللغة العربية ومكافحة الأعمال الهدامة لدعاة الأنجلة. إن معلمي الزاوية وكذلك مجموع الأتباع والتلاميذ قد حاربوا بشراسة الظلامية والجهل والبدعة وتجندوا للمحافظة على ثوابت البلاد وقيمها ضد الاستعمار الذي ضاعف جهده لاستلاب الشعب وتحويله عن مطالبه الشرعية، ومن ناحية أخرى – ولا بد من ذكر ذلك شهادة للتاريخ – فإن العمل المرموق والفعال للزاوية حال دون أن يستتب الأمر للسلطة الفرنسية بالمكوث في المنطقة، وخلافاً لكل منطقة القبائل الكبرى ولكل القطر الجزائري الواسع حيث تم بناء مدارس فرنسية طيلة الـ 132 سنة من الاستعمار، فإن بني كوفي، أولئك السكان، سكان السفح الجليل

لِجرجرة قد رفضوا أن تستقر في منطقتهم مؤسسات مدرسية لا تستجيب لمنطقهم ومن باب أولى لثقافتهم، ومع هذا فإنهم سيتذكرون دائماً ذلك اليوم المشؤوم من سنة 1958 حيث تعرضت زاويتهم، صرح المعرفة والوطنية، للقصف بالطائرات الفرنسية وتم تدميرها عن آخرها، ومنذ فجر الاستقلال أعاد أبناء الناحية بناء حصن الممانعة ذاك، حيث نشأ رجال كبار حملوا القضية الوطنية.

كانت زاوية سيدي يحيى العدلي، التي تأسست تقريباً في القرن الخامس عشر الميلادي مؤسسة ذات شهرة كبيرة في ولاية بجاية وبالضبط في بلدية تمقرة، إن تلميذه القديم الشيخ أحمد زروق البرنوسي، الذي صار فيما بعد أستاذاً لامعاً في المؤسسة عينها، كان خير ممثل لثقافة تعطى بعناية وفي جو من الإيمان والارتفاع إلى الرقي، كما درس في هذه الزاوية علماء مشهورون آخرون، والمقصود هنا الشيخ عبد الرحمن الصباغ الذي ترك لنا شرحاً مشهوراً لـ"الرسالة الوغليسية" عن الشريعة الإسلامية وكذلك شرحه المعتبر لنهج "البردة" للبوصيري، والمقصود أيضاً الشيخ أحمد بن يحيى مؤسس زاوية آملو والشيخ سيدي أحمد الملياني الروحاني التقي والشيخ سيدي أحمد بن عبد الرحمن جد جد المقراني.

لقد تم تدمير هذه الزاوية في بداية الاحتلال الفرنسي، ثم دمرت مرة ثانية خلال انتفاضة 1871، ولم تتم إعادة بنائها إلا سنة 1937 من قبل الأتباع المخلصين في تلك الناحية لتستعيد مجدها مثلما كانت عليه منذ قرون.

في سنة 1955 بلغ عدد التلاميذ في الزاوية أكثر من ثلاثمئة تحت إشراف الشيخ محمد الطاهر آيت علجت الذي لم يتردد في سنة 1956،

عندما تعرضت إلى متاعب عويصة ثم للتدمير نهائياً مرة أخرى، في الالتحاق بجيش التحرير الوطني مع أساتذته وجزء كبير من تلامذته. وأصبح هذا الأستاذ الجليل ضابطاً لامعاً في جيش التحرير ورفيق سلاح للعقيد عميروش، لقد سقط أكثر من مئة شهيد في ميدان الشرف من هذه الزاوية المكافحة لتحيا الجزائر وينتصر الإسلام، في الساعة التي نكتب فيها هذا الكتاب ما زال الشيخ محمد الظاهر يواصل نشاطه وأي نشاط شريف؟ إنَّهُ يخطب كل يوم جمعة في مسجد برادو في حيدرة ويسهم إسهاماً نزيهاً وفعالاً في إيقاظ الشباب فينصحهم ويحثهم على العمل أكثر ليصنعوا خيراً مما صنعوا، أطال الله عمره !

لقد أعيد الاعتبار لهذه الزاوية بعد الاستقلال وكونت أكثر من خمسمائة تلميذ تحت إشراف الشيخ أحمد واعلي أكروفة وهو محاط من طرف سبعة عشر أستاذاً من الأزهر.

أسست الزاوية الحمامية في ناحية الأخضرية في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي من قبل الشيخ عبد القادر بن عبد الرحمن بن القاضي الحمامي الذي كان تلميذاً للشيخ أبي القاسم البوجليلي والشيخ الشريف الإفليسي الذي لقنه طقوس الرحمانية.

كان عدد تلاميذ هذه الزاوية أكثر من خمسمائة، وقد تُكَلِّفُ أَغْلَبَهُم بَعْدَ نِهَايَةِ الدراسة بحرفة التعليم النبيلة لتنمية الهوية الوطنية والإسلام واللغة العربية، ولم يكن ذلك ليعجب المستعمرين الذين دمروا عبر ردود فعل شنيعة المؤسسة وسلبوا ما كانت تحتفظ به من ثروات (وثائق ومخطوطات).

أسست زاوية أولاد بومرداس في بلدية تجلابين تقريباً في القرن الثالث عشر الميلادي، لقد كانت في طليعة التربية وكونت عدداً

هاماً من الشبان ذهبوا فيما بعد إلى بجاية لمواصلة دراستهم أو تلمسان أو إلى تونس. ولم تسلم هي الأخرى، على غرار مثيلاتها من زوايا المنطقة، من غضب السلطات الاستعمارية، فالتحق المعلمون والتلاميذ بصفوف جيش التحرير في الوقت الذي دمرت فيه مؤسستهم تدميراً كاملاً، ولم يتم بناؤها من جديد إلا بعد الاستقلال لتواصل مهمتها مع شبان المنطقة.

تأسست زاوية الشيخ الحداد، في بلدية صدوق بوادي الصومام، في القرن الثالث عشر للهجرة، وهي زاوية تاريخية مثل بعض الزوايا الأخرى، فمنها انطلقت انتفاضة 1871. في هذه الزاوية تم تجنيد خمسة عشر ألف مجاهد في يوم واحد لمحاربة الغزاة، ولقد تعرضت للتدمير عن آخرها نهائياً عقب فشل التمرد.

زاوية سيدي أو بكر في بلدية تيقزيرت، تأسست في بداية القرن السابع للهجرة، لقد قامت، على غرار المؤسسات الأخرى، بدور هام في التوعية الجماعية للسكان، وفي سنة 1956 تم إقفالها بقرار من السلطات الاستعمارية وحولت إلى مركز عسكري، ورجعت بعد الاستقلال إلى رسالتها الأصلية.

لقد رأت زاوية الشيخ الحواس، في ناحية عين أولمان النور في سنة 1870 وكان شيخها المؤسس قد أسهم إسهاماً فعالاً في انتفاضة 1871. وقد درس على يد الشيخ الحداد.

أسس الشيخ سيدي محمد بن أحمد النداتي زاوية بريارة في بلدية ثنية الحد، وقد ذاع صيتها في محيط ولاية تيسمسيلت الحالية، وتكوّن العديد من التلاميذ والأساتذة على يد شيوخ مثقفين وتعرضت هي الأخرى إلى ويلات الاستعمار وتم تدميرها مثل كل أخواتها

وسقط لها العديد من الشهداء من بين الأساتذة والمريذين، وبعد إعادة بنائها عقب الاستقلال، استعادت شهرتها في المنطقة.

إن زاوية مُغَار حيث حرَّض فيها الشيخ بوعمامة أولاد سيدي الشيخ على الثورة في الجنوب الوهراني بتوحيد الشيوخ بصلة السبحة (وهي رمز من رموز التواصل بين الشيوخ) وبنظرية جديدة، إن عدد مريديه حسب تقرير جنرالات الاستعمار كان يتجاوز الخمسين ألفاً في ناحية عين الصفراء والبيض ومشرية وبني ونيف والعبادلة، وقد امتد نفوذه من قورارة وصولاً إلى التافيلالت والجنوب المغربي.

زاوية الحاج بلقاسم هي زاوية تكنت باسم مؤسسها بلقاسم بن الحسين بن عامر بن موسى وتقع في تميمون. إنها قديمة جداً. يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرن السادس عشر الميلادي وهي مكان يؤمه الحجاج كل سنة بمناسبة المولد النبوي، ويتم الاحتفال بهذه المناسبة الدينية في جو خاص جداً.

وأسس مولاي عبد الله علي الشريف في القرن الثامن عشر الميلادي زاوية رقان التي أشعت على المنطقة مدة طويلة من الزمن، إلى يومنا هذا وهي تجمع أتباعها كل سنة في الفاتح من مايو من كل أنحاء الصحراء وحتى من أماكن أخرى.

إن الزاوية المختارية في أولاد جلال من ولاية بسكرة تم تأسيسها من طرف الشيخ المختار بن عبد الرحمن سنة 1812. وتوقف نشاطها عند بداية حرب التحرير الوطني بسبب تعرض أتباعها للاضطهاد الاستعماري.

تم تأسيس زاوية بن سيدي عيسى جلول في عين الدم في بلدية جندل في سنة 1895 وقد أعطت للثورة العديد من الشهداء.

لقد تأسست زاوية بوحمامة في بلدية عيساوية من ناحية تابلاط سنة 1470 ميلادية. فبعد أن أعطت أحسن ما فيها في إطار التربية، فإنها ضحت كذلك بالعديد من التلاميذ من أجل القضية العادلة، أكثر من تسعين من تلاميذها سقطوا شهداء في ميدان الشرف، وتستقبل الآن عدداً من التلاميذ يفوق عددهم ما كان في السابق، وهناك زاوية أخرى تأسست سنة 1700م وسقط لها ثمانون شهيداً أثناء الثورة، وكانت هذه الناحية مثل غيرها من النواحي، منبتاً للثوار.

أسست زاوية سيدي الحاج بحوس بمدينة المنيعة في نهاية القرن العاشر للميلاد مثل زاوية الحاج يحيى التي أسست في الفترة نفسها، إنهما تعملان إلى حد الآن بالشغف والتضحية عينهما.

وفي قسنطينة نجد زوايا الحناصلة والرحمانية والعيساوية، أما زاوية الحناصلة فهي من أصل مغربي لأنها أسست من طرف عامر أحنصال الملقب "داده سعيد الحنصلي" أو كذلك "سيدي السعيد الكبير" فهي من عمل سي سعدون الفرجيوي. وكان مُقَدَّمُهَا سيدي معمر مزابط من قبيلة التلاغمة، وقد خلفه في ذلك المنصب سيدي أحمد الزواوي وهو شخصية تنتمي إلى عائلة مرابطية تحدرت من نواحي قسنطينة منذ القرن السادس عشر في مشتى شطابة، وصار أكبر قائد للحناصلة ومنذ ذلك الوقت توالى أعضاء من عائلته على القيادة الروحية للزاوية، أما زاوية العيساوى فقد كانت موجودة في حي "السيدة" من المدينة القديمة وفي المسجد المسمى "جامع حفصية" .ولكن في الأغلب، كانت الحلقات تعقد في الدار المسماة "دار فمار" في سيدي بوعنابة اليوم وفيها كذلك تمارس الطقوس.

إن زاوية الهامل الموجودة قرب بوسعادة على أبواب الجنوب الجزائري قد أنشأها الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الهاملي أحد كبار المثقفين في الزهد وعالم في مجال النحو والتاريخ ومبادئ المنطق. لقد ولد في الحامدية (سنة 1233هـ/1817م). وفي سنة 1848وبعد أن اكتنز خبرة في التعليم دامت عشر سنوات، راسل الأمير عبد القادر ولقيه أخيراً في ناحية التيطري، قرر الرجل الصالح أن يلتحق بصفوف المحاربين، فصده الأمير عن ذلك وطلب منه مشافهة أن يعود إلى التعليم وأن يجند ويحسس الشبان لتحضيرهم للمقاومة ضد المحتل، ولكي يقوم بهذه المهمة على خير وجه فإنه نصحه بفتح زاوية لتعليم أحكام سبيل الله ولغة القرآن وعلوم الإسلام وهي الوسيلة الوحيدة لمحاربة الجهل والاستعمار والمحافظة على الهوية الوطنية.

رأت الزاوية القاسمية النور في شهر محرم 1280هـ/1863م. ومنذ ذلك الوقت عرفت هذه المؤسسة التي كونت الكثير من التلاميذ إشعاعاً استثنائياً سواء في داخل البلاد أم خارجها، ونظراً لتنوع المواد التي تدرسها ونوعية الدراسات المقدمة على حد سواء، من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة العالية، فإن الزاوية القاسمية للهامل قد كونت عدداً هائلاً من الإطارات الذين سخروا أنفسهم بعد ذلك في مهنة التربية الشريفة، كما أنها أعطت العديد من المناضلين الوطنيين الذين التحقوا فيما بعد بانتفاضة الشيخ الحداد والمقراني وانتفاضة الزعاطشة وبعد ذلك ثورة نوفمبر. كثيرٌ منهم عمل في مجال تأطير الثورة ودخل بكل بساطة كمواطن في صفوف المجاهدين، وبعد الاستقلال تحولت الزاوية إلى معهد للتعليم الأصلي والعلوم بقدرة استيعابية بلغت ألفاً وخمسمائة تلميذ وقد أطلق عليها اسم "معهد القاسمي". إن هذا المعهد، منذ افتتاحه أعطى الكثير للغة العربية وكان

له إسهام هائل في إطار تقييم وتثبيت ممارسات الإسلام الحقيقية والسليمة، في الوقت الذي كانت فيه الظلامية تَرْتَعُ في الأوساط الشعبية التي أضعفها الجهل.

ومع هذا كله فإن ضيق نظر السلطات في ذلك الوقت، عندما أغلقت المعهد وأمثاله بقرار سنة 1976 لتوحيد التعليم في زعمهم، كان له أثر على التلامذة والأساتذة فاق بمرارته أثر أي إهانة، فمن المحقق أنه لو أُبقي على هذه المؤسسات وشُجعت على مواصلة مهمتها في إطار التكوين الديني والتربوي والثقافي لما عرفنا تعدد تلك الخطب الشقية التي تنفث الخزي والإهانة والتي تغذيها النظريات الفاحشة لتنغرس أيَّما انغراس في جسم وفكر أوساط الشباب الذين كانوا مسالمين ومتسامحين إلى حد الآن فتطبق على وجه الإسلام الصافي والموحد طبقة مظلمة. فهل تم ذلك عن قَصْدٍ؟ لا نعتقد ذلك إلا أن الشيء المحقق هو أن القرار الذي كان محصوراً في الزمان والمكان قد اتخذ آنذاك تمشياً مع التوجيهات المعطاة في مجال التربية الوطنية، وفي كل الحالات وبالنسبة لجميع الناس المدركين للمضاعفات التي قد تنجر عن ذلك القرار، فإنه كان يعكس إمّا نظرة لتوجه "لائكي نوعاً ما" والذي كان موجوداً ضمن السلطة وكان له تأثير، وإمّا كان جهلاً مطبقاً بفوائد تلك المؤسسات وبالتالي يصبح القرار عندئذ قراراً تجريبياً أو على الأقل قراراً لم يحظ بالتفكير فيه ملياً وبروية.

واليوم وحسب وثيقة من وزارة الشؤون الدينية والحبوس فإن عدد الزوايا قد يتجاوز المائتين وأغلبها ينضوي تحت إشراف الرحمانية والشاذلية والتيجانية والقادرية والهبرية والدرقاوية والبوشيخية والطيبية والعلوية والرقانية والسنوسية والزيانية والإباضية وأخيراً العيساوية.

من الواضح أن الزوايا قد تكاثرت في فترات محددة من تاريخ العالم الإسلامي، وكان لها إسهام هائل في المحافظة على الثقافة والتقاليد والممارسات الإسلامية الصحيحة، وكان تكاثرها هذا على أساس أنها مؤسسات تربوية وتعليمية لسببين أساسيين.

السبب الأول هو أنه، بعد وفاة النبي محمد (صلّى الله عليه وسلم) وعندما دخلت الانقسامات على الإسلام مع بروز نظريات مختلفة تفرض عليه هكذا أن يُسَيِّرَ هذا الغليان من الأفكار والنظريات والنحل وأن يتماشى مع مجموع المدارس الشرعية، ويعتبر آخرون أن تتعدد هذه الطرق كان ولا ريب في ذلك، إلى جانب بعض الآثار السلبية الناتجة عن تجريبية وديماغوجية بعض الرؤساء وهو إسهام جاد في انتشار الإسلام إلى مناطق لم يصل إليها بالفتوحات.

والسبب الثاني جاء كرد فعل على مختلف أشكال الاستعمار ومهماته الدينية وبخاصة في الجزائر، إنه رد فعل بنظام متفرق حقاً، غير أنه كان فعالاً ضدّ التوسع الاستعماري الذي اعتُبر حملة صليبية جديدة.

إن هذه الزوايا كانت تتعرض لمضايقات إدارية مختلفة وقد ذاقت أشكالاً متنوعة من الاضطهاد والعلقم فيما بعد وخلال حرب التحرير الوطني، تعرضت الزوايا إلى كل أنواع التنكيل، وصل بعضها إلى حدّ الإغلاق التعسفي وإلى تدميره تدميراً منهجياً بقصفها بالقنابل وحرقها بصورة متتالية مما تسبب في دفن كنوز متمثلة في مخطوطات ومكتبات زاخرة بالكتب، إلى الأبد. إن المعلمين (الطالب في المعنى الشعبي) وكذلك التلاميذ لم يسلموا من حملات القمع، فقد تم توقيف أغلبهم أو قتلهم بتهم مشبوهة ومنع آخرون من الإقامة فتم

نفيهم إلى مناطق لا يمكنهم أن يواصلوا فيها مهمتهم التربوية، مما يعني أن فرنسا الاستعمارية عرفت أين تضرب، لأن تلك الزوايا باستثناء البعض منها، التي صارت محطات لسياسة بعيدة كل البعد عن ثقافتنا والتي قامت بعمل تخريبي ووالت الاستعمار فلا يجب أن تخفى هذه الحقيقة التي كانت في الأغلب حصوناً لكفاح عنيد من أجل مصير بلد غيور على ماضيه وعلى أصالته من بدايات البرابر إلى فتوحات الإسلام، ومن تلك الزوايا تحدّر العديد من الشخصيات الشهيرة والبعض منها كان من أتباعها الأتقياء. وهؤلاء كانوا مثقفين كباراً قد ألهموا وقادوا إصلاحات أدت إلى بعث نهضة ثقافية وروحية، وهنا يحضر ببالنا الشيوخ المبجلون عبد الحميد بن باديس والبشير الابراهيمي والطيب العقبي والعربي التبسي ومبارك الميلي والفضيل الورتلاني ورزقي شرفاوي والمولود الحافظي وأبو يعلى الزواوي وغيرهم.

في ظل تلك الزوايا المتعددة وتحت الإدارة المستنيرة لتلك الوجوه النيرة، تم الدفاع عن اللغة العربية بأقصى طاقة ممكنة وتواصل تعليمها وسط الجماهير برغم المحاولات الكبيرة للاستلاب وحملات النفي.

لقد تمت المحافظة على الإسلام في أبسط طقوسه وأكثرها سماحة وترسخت الوطنية كلما ازداد الاضطهاد شراسة وكلما صار الإقصاء دنيئاً، لكل هذه الأسباب كما أكّدنا على ذلك سابقاً، فإن عدداً مهماً من الزوايا قد تعرض لأسوإ الأخطار وصار عرضة للحقد الاستعماري.

إن زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي قد عرفت، بالأمس شراسة الجيش الاستعماري، وقد دفعت أثماناً باهظة ذات نتائج مؤلمة ومع

ذلك فإنها كتبت صفحة تاريخ مجيدة جراء التضحيات والأعمال السامية التي أنجزتها وقدمت أمثلة قيمة للأجيال القادمة، لقد تم تدميرها عن آخرها في سنة 1957 من قبل جيش مدعوم بالقوات الجوية، فكانت حصيلة الهجوم: أربعين فدائياً سقطوا في ميدان الشرف وكنز مكوّن من مؤلفات جميلة ومخطوطات رائعة، كلها أكلتها النيران، وقد عرفت زاويتا سيد يحيى العدلي في تمقرة وزاوية تمليلين المصير عينه، حيث أعدم الأساتذة بدون محاكمة أمام تلاميذهم بعد أن أُخضعوا لتعذيب وحشي، وثمة زوايا أخرى وليست من الضعيفة، قد تعرضت للأحكام الاستعمارية نفسها، إننا نذكرها مرة أخرى لإحياء الذاكرة الجماعية، ونذكر البعض منها، على سبيل المثال، وخاصةّ تلك التي ذاقت المرّ لأن الإدارة الاستعمارية قد أثبتت ضدها العناصر الأساسية لخرق القانون: التربية وإيقاظ الجماهير. يا لها من محاكمة مروعة ! والمقصود هنا زاوية سيدي علي أويحيى (دائرة بوغني) وأولاد بومرداس (تيجلابين) وسيدي وارث (ذراع بن خدّة) والشيخ عبد القادر الحمامي (الأخضري) وبن سحنون (إغزر أمقران بجاية) وبربارة (ثنية الحد) وبوحمامة والشلبي (تابلاط) وسيد محمّد السعيد (دلس) وكثير غيرها على امتداد التراب الجزائري والتي التحق طلابها وأساتذتها بجيش التحرير أو انخرطوا في جبهة التحرير أو سُجنوا وقتلوا بسفالة وجبن، إن عددهم يفوق الخيال.

لقد نشبت بين الإدارة الاستعمارية والزوايا حرب متواصلة سواء على المستوى الإيديولوجي أم الثقافي، كان الاستعمار يصرّ بكل ما أوتي من قوة لصرف انتباه الشعب عن اللغة العربية وعن الإسلام الحقيقي لصالح ممارسات ظلامية كان ينشرها بتواطؤ أشباه الأتقياء والمشعوذين، كل هذا يشهد على أهدافهم ألا وهي

السيطرة كلياً على البلاد وتشجيع اندماج الأهالي المحليين Indigènes، كما كانوا ينادوننا، اندماجاً بـ "العمل بالعمق" الذي كان يقوم به دعاة مسيحيون بأعداد مهولة، والكنيسة لم تكن بعيدة عن ذلك التآمر ضد شعب كان يرفض الأنجلة رفضاً باتاً، ونكتفي إثباتاً لذلك بهذه الرسالة الموجهة من سعادة الأَسقُف بَافِي (Pavy) إلى السيد هوتبول وزير الحرب مؤرخة في 23 سبتمبر 1850م:

"في اعتقادي العميق كأسقف، يتحتم علي أن أفعل كل ما هو باستطاعتي فعله لمحاولة إنجاز المهمّة العظيمة المتمثلة بتنصير العرب، ولكن في قناعتي كفرنسي فإنني أرى أنه لا بد من بذل كل الجهود من أجل الإتيان برجال يقرؤون القرآن إلى عقيدة الإنجيل".

إن الأميرال دو غايدون يؤكد في رسالة إلى سعادة الأَسقُف لافيجري:

"إن فرنسا لا تنجب ما يكفي من الرجال لإعمار الجزائر، فلا بد من العدول عن ذلك بفرنْسة مليونين من البرابر المعربين؛ وأكرر، فإن بذلتم في ذلك الدراية نفسها، يمكنكم الاعتماد علي".

ثم هناك تصريحان مسندان لاسْمَيْنِ كبيرين في الشعر الفرنسي، يعكسان الميول الواضح للتوسع الاستعماري الذي تشتم منه رائحة الحروب الصليبية.

فالأول لِلاَمَرْتِين كان يُحَذِّر معاصريه من التخلي عن الجزائر

"يعتبر خيانة للمقاطعة التي أعطتنا وسائل الفتح الأكثر عدلاً الذي، ربما لم تقم به أبداً أمّة؛ وقد تكون إهانة للدم الذي جعلنا أولئك الشجعان يضحون به في هجومهم ضد الهمجية..."

والثاني لفيكتور هيجو، ذلك الكاتب الكبير الذي أعلن الحرب على الاتفاقيات البالية ويستنتج هذه الخلاصة لفرنسا، بعد ثورة جويلية:

"ليصنع الجمهور من نفسه شعباً ولتُخْرِج المأساة الوطنية والشعبية والكونية الشعب من صمته العميق".

ومع هذا لم يتردد، برغم تلك الإرادة البطولية للنشاط، في التصريح بكل وقاحة بمناسبة مأدبة في ذكرى الاسترقاق: "أفرغوا ما هو فائض من السكان في إفريقيا تلك وحلوا في الوقت نفسه مشكلاتكم الاجتماعية وحولّوا عمالكم إلى ملاكين".

وبعبارة أخرى: اسلبوا وانتزعوا بالقوّة واغتصبوا وابتزوا وأخيراً حولّوا تلك الشعوب التي نحن في طريق استعمارها إلى رقيق، يا له من تناقض فصيح في خطاب ذلك الرجل الشهير!

إن جواب الشعب الجزائري كان قوياً وحازماً، إن وطنيته وارتباطه بمبادئ البلاد وثوابتها التي يشجعها ذلك التواجد الفعلي للزوايا وأماكن العبادة، إلى جانب الحركة الوطنية التي بدأت عروقها تظهر، قد لعبت كلها دوراً واضحاً في عملية إزالة الاستعمار. إن الأرشيف مليء بالأدلة عن الطريقة التي استعملها الاستعمار لتدجين شعب متجذر في تراثه الحضاري، لقد كتب العقيد روبان سنة 1901 في كتابه "تمرد القبائل الكبرى سنة 1871".

"كل تلك المحاولات لتحويلهم إلى المسيحية لم يكن لها مفعول كبير ولكنها كانت تزعج أولئك القبائليين الذين كانوا يعرفون العملية التي ابتدرها أسقف الجزائر: وبما أنهم حساسون جداً في مسائل الدين، فإن أولئك الناس أصحاب النوايا السيئة لم يفتهم أن ينبهوهم

إلى كونهم لن يتمتعوا دائماً بالحرية المطلقة التي تركت لهم في مجال العبادة... لم يكن هذا، بدون شك هو السبب الوحيد الذي دفعهم إلى الانخراط في طائفة الرحمانية ولكنه سيسهم في ذلك نوعاً ما".

إن الرجوع إلى الأصالة بالانغماس في الإيمان وثقافة الأجداد وفي القيم الحقيقية للإسلام قد كان له إسهام هائل لدى السكان في الوقت الذي كان الاستعمار يحاول أن يقتلع من وجدانهم أفكار دين كان يعتبره بالياً، ليقتلع جذورهم أو ليقضي عليهم بكل بساطة كما فعله أجدادهم الأوروبيون على خير وجه في أمريكا، ابتداء من القرن العاشر، وهذا يشكل حدثاً هاماً آخر في التاريخ يجب التنديد به واستنكاره، أين هم سكان أمريكا الحقيقيون؟ لا بدّ أن نسأل عن ذلك الفايكنغ الذين كانوا هم الأوائل الذين وطئوا تلك القارة تحت قيادة إريك ثورولدسون (إريك الأحمر)، ثم لحقهم الأسبان والفرنسيون والانجليز والنرويجيون، وقد يكون مناسباً أن يطرح السؤال نفسه على البريطانيين والهولنديين والألمان والاسكندينافيين الذين شكلوا أثناء الفترة الاستعمارية الشعب الأمريكي بالالتجاء إلى الاستعمار الاستيطاني والهجرة.

عندنا لم يجد الاستعمار خيراً من أن يستلب الشعب بتدنيس مساجده وتدمير قيمه واستيراد ثقافة أخرى ذات الأبعاد الاجتماعية والسياسية الخطيرة جداً، وبالفعل ففي مدينة الجزائر وحدها كان هناك، قبل الاستعمار 159 مسجداً ومصلى، وكانت تعد كذلك أكثر من سبع عشرة زاوية وهو رقم صرحت به الإدارة الاستعمارية سنة 1830 مع قائمة بأسماء تلك المقامات مما يدل على ما كانت عليه المؤسسات الثقافية من ازدهار قبل مجيء المستعمرين.

وهكذا فإن الاستعمار، بإصراره على الرغبة في إرساء نظامه الجديد، قد أسس بقرار يوم 7 ديسمبر 1830 للوصول إلى مبتغاه، فلم يتردد في الإساءة إلى المشاعر الدينية للمسلمين وذلك بسلب الملكية وتدميرها بحجة فتح الطرق العمومية أو توسيعها، أو لبناء مؤسسات كبيرة أو لتحويلها إلى كنائس أو لتخصيصها للمصالح العسكرية، تلك كانت حصّة المساجد والزوايا التي كان يرجع تاريخها أحياناً إلى قرنين أو ثلاثة قرون، إن مسجد كتشاوة، مثلاً، صار أوّل كاتدرائية في مدينة الجزائر بعد أن تم احتلالها بالقوة من قبل الدوق روفيقو، قائد الموقع العسكري، لقد تم احتلاله يوم 17 ديسمبر 1831 بعد أن علم روفيقو أن هناك تململاً في أوساط السكان المسلمين في مدينة الجزائر وأن الإمام كان يحتج بقوّة. فكان جوابه هو التالي: "إن الصليب ولواء فرنسا سيعلقان في المئذنة ويتم تحيتها بالمدفعية الأرضية والبحرية".

كان أحد الفرنسيين حاضراً في المكان ذلك اليوم وهو شاهد على ذلك الحدث المخجل والمخزي لـ "فرنسا الأنوار". وقد استشهد بكلامه ابن حسين مزالي في كتابه "مدينة الجزائر، اثنان وثلاثون قرناً من التاريخ". فلنستمع إليه حيث يقول: "إن فرقة من الخط الرابع كانت متموضعة في مدخل نهج فيناقر (الخل) ونصف سرية مدفعية كانت في ساحة السودان. أربعة آلاف مسلم تقريباً كانوا محاصرين داخل المسجد وقد اختبؤوا خلف الأبواب، وجه الجنود الإنذارات المعتادة في مثل هذه الحالة ثم تهيأت مجموعة من سلاح الهندسة لخلع الأبواب، بعد الضربات الأولى بالفأس قرر الثائرون فتح الأبواب وخرجت من المسجد ضجة عارمة...؛ وأطلق النار عليهم وتدافعت الحشود جارفة معها أعضاء اللجنة والعلماء. فشبك الجنود حرابهم

ليدفعوا بالمسلمين داخل المسجد فاستولى الذعر على هؤلاء ففروا من باب جانبي. فوجد في المسجد العديد من الرجال نصف مختنقين وآخرون جرحوا أثناء محاولة الخروج، وسقط المسجد بيد الجيش. فقرر الدوق دو روفيقو إبقاء كتيبة من المشاة في المسجد وطلب من السلطات العسكرية ملاحقة أعضاء اللجنة للمثول، وبالاضافة إلى ذلك رشحت أسماء السادة باربورقار وبلانسي وبودربة لمنحهم وسام جوقة الشرف". منذ ذلك اليوم لم تعرف مدينة الجزائر أي هدنة.

لنواصل هذه الشهادات، فقد قال معمر شهير مشؤوم في "مجلة إفريقيا" سنة 1898:

"سبعة قبور كانت تحتوي على عظام سبع شخصيات هامة، باشاوات أو آخرين ومنهم الحاج باشا الذي له الفضل في إنقاذ مدينة الجزائر من الحصار الذي فرضه عليها شارل الخامس، كانت هذه القبور موجودة في المكان الذي بنينا فيه تحصيناتنا، والتي نحن بصدد هدمها اليوم، إن عظام هؤلاء المسلمين الشهيرين تم رميها للريح وتم بيع شواهد القبور في المزاد العلني وهذا مما يؤسف له لأن تلك الشواهد كان عليها كتابات هامة".

د.ج. مونتاني D. J. Montagne وهو إشهاري فرنسي من تلك الفترة ردّ بوقاحة فيما يخص ذلك التدنيس وضد بعض النواب الفرنسيين الذين تحاملوا على تلك الأعمال الوحشية:

"إن هذا الحدث البسيط في حد ذاته قد أعطى الفرصة لارتفاع أصوات قد نراه مهزلة من طرف أحد الأحزاب الذي سيلفظ المستقبل حكمه بحقه. لقد ذرفت الدموع على أولئك العرب الذين دنست أشلاؤهم وتحدثنا عن الدين واحترام الأموات وصحنا ضد تدنيس

الحرمات، إن هذا اللين العاطفي المفتعل قد غش الكثير من الناس في فرنسا وظنوا أن الفرنسيين عندما وصلوا إلى مدينة الجزائر صاروا ندالاً... لا أستطيع أن أسكت عن هذه النقطة، إن هذه الشكاوى لا أساس لها من الصحة".

وبالفعل إن كلامهم كان عديم الأسس لأنه لا يمكن أن ننتظر تعاطفاً أكثر من ذلك من قبل الإدارة الاستعمارية، الصليب ضد الهلال، ذلك ما كان يقوله رجال الدين الذين كانوا يأملون في الوقت نفسه أن يسلبوا البلاد وأن يبشروا بالإنجيل وسط كل سكان المستعمرات الذين هم بالتعريف "وحوش" .إن ذلك الرهان كان من المستحيلات فيما يخص شعباً مسلماً مثل شعب الجزائر المؤمن إيماناً راسخاً والمخلص لمبادئه.

لقد أكد علي مراد أن "الحواجز السياسية والنفسية" بين الجماعتين قد تم وضعها و"من وراء التجريم الشامل للشرقيين أو – الأهالي – المسلمين في حد ذاتهم، وذكر النقائص الوراثية المرتبطة بذلك الجنس أو تلك الشريحة الاجتماعية، في الأخير فإن الإسلام هو الذي كان مسؤولاً في الأساس على الوضعية الاجتماعية الثقافية للشعوب الإسلامية".

لهذا فإن الثوريين والمناضلين الآخرين من أجل القضية العربية والإسلامية وكذلك رجال الدين، كلهم ثاروا ضد الواقع الاستعماري أو في منظور آخر فإنهم ثاروا ضد المظاهر السلبية للحضارة الغربية. لحسن الحظ فإن هذا الاحتجاج لم يكن ضد التقدم والقيم الجيدة للغرب – حتى لو كان هناك بعض الأفكار الرافضة التي نددنا بها – ولكن ضد رموز الاستلاب، لهذا وبالإضافة إلى كفاح بعض المناضلين

في إطار حرب التحرير هناك كفاح آخر وهو في نفس الأهمية أو أكثر قد جند فيما يخصه الجماهير المخلصة للمحافظة على القيم الأصيلة وعلى التقاليد العربية الإسلامية، إنه في ذلك الغليان الذي اعتبر نوعاً من المقاومة عبر المدارس والزوايا الممثلة لعشرات الطرقيات، فعبر كل هذا نشأت مجموعة من الأفكار والممارسات المتميزة قد برهن بواسطتها الأتباع المخلصون على أنهم – وبرغم الوحشية – ثابتون على حقائق إيمانهم وثقافتهم ومتجذرون فيها.

وفي هذا الإطار نورد استشهاداً آخر للأستاذ علي مراد في كتابه: "الإسلام المعاصر" يذكر فيه: "فبرغم قدم الوسائل العسكرية، إن الحرب المقدسة تنتظم شيئاً فشيئاً (المغرب العربي، إفريقيا – جنوب الصحراء والهند، إلخ) حيثما انهارت البنيات السياسية المحلية يقوم رجال بالبديل تحت راية الإيمان: مرابطون أو أشراف أو إصلاحيون من كل حدب وصوب، أو مهديون (مؤسسون لتيارات مسيحانية) يهبّون للمطالبة بإعادة التسلح المعنوي للأمة والرجوع إلى أصول العقيدة وإعادة تأسيس سنة النبي (صلّى الله عليه وسلم) على أنها هي سبيل النجاة للمسلمين".

وفيما يخص الأعمال التخريبية للارساليات الدينية، نذكر للكاتب نفسه: "إن هذا التواجد الدعوي كانت له نتائج مباشرة ألا وهي استنفار ردود الأفعال الدفاعية في الوسط الإسلامي، ولكن وفي نظر العديد من المسؤولين الدينيين، فإنها كانت ذات قيمة بيانية، من وجهتي النظر الخاصة بحماسة الانتشار في خدمة العقيدة، وبمحتوى تعليم العقيدة بالذات".

وهكذا فإن المليار ونصف المليار مسلم ومن بينهم الجزائريون كانوا يريدون استرجاع مكانتهم في التاريخ بعد أن نكد عيشهم، واضطهدوا ووصفوا بالعقم في المجال العلمي ووضعوا في خانة النسيان جراء سياسات أو ظلم يتمشى مع التعسف والإذلال برغم أنهم أعطوا الكثير للحضارة الكونية.

الفصل الرابع

العمل الضخم الذي قدّمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

كان المسلمون والعرب بخاصّة يريدون التخلص من السبات والخمول اللذين كانا يكبحان الحيوية الأسطورية التي كانت تشكل الصفة الغالبة على كل أعمالهم التي أثارت في الماضي غيرة العديد من الشعوب وبخاصة الشعوب التي كانت تعيش فترات الظلام من تاريخها، وفي الوقت ذاته فإن أوروبا التي كانت تعرف فترات من الاسترخاء والسكينة، بدأت ترجع إلى محاسن النمو بعد الفتور الذي أصابها منذ نهاية النهضة أو قل نهاية الغليان الثقافي والفني الذي لم يدم طويلاً في الواقع مقارنة بحضارات أخرى تركت بصماتها على البشرية جمعاء، ومن هنا كذلك فإن العالم الإسلامي الذي قرر هو الآخر أن يستيقظ من سباته ويعود إلى حيويته القديمة في كل المَجالات وبخاصّة في الميادين الثقافية والإيديولوجية والروحانية عبر حركات الإصلاح، تعرض إلى حملات شرسة ناتجة عن إصرار الاستعمار الأوروبي على مواصلة محاولاته إلباسنا الصورة الغربية أو إخضاع الجماهير إلى التبعية الثقافية وفي الوقت نفسه الاقتصادية، إن هدفه الواضح هو تحطيم قيم السلف لدى الأمة العربية الإسلامية وتثبيط حرية شعوبها وصرفهم عن هويتهم.

كان الاستعمار يستعمل عدة أسلحة؛ فبالإضافة إلى العنف الذي استخدم لاحتلال بلدنا، فقد اتبع توجهاً مراوغاً عندما مسخ الحقيقة وشوّه الأفكار القوية – العاكسة للفترة الطويلة والمزدهرة

في إطار التصورّ والاكتشافات – التي وقف عندها المسلمون بعد دراساتهم وأبحاثهم في تراثهم الواسع الذي هو في الوقت نفسه تراث الحوض الأبيض المتوسط. واندلعت، حرب لا هوادة فيها أسهمت فيها شخصيات كبرى: من الكاردينال الذي ينبغي أن يكون محترماً وملاطفاً إلى الوزير الذي ينبغي أن يكون محايداً ومواظباً على تطبيق برامج قطاعه، إلى الجنرال الذي تم إرساله للقيام بعمل واحد: الحرب التي لم تكن شريفة، كلهم كانوا يرون أن الإسلام هو ذلك العدو الذي يجب القضاء عليه... إن الإسلام كان يمثل السور الذي لا يمكن تجاوزه والحصن المنيع الذي لا بدّ من تحطيمه بأي ثمن.

كان عليهم في سبيل ذلك تحويل المساجد – وقد تحدثنا عن ذلك – لجعلها كنائس لنشر المسيحية وأنجلة السكان الأصليين وبخاصةّ الشباب، باستعمال عصابات من "الآباء البيض"، تم إرسالهم خصيصاً لهذه المهمة التي خُطط لها أن تتوسع في الزمان والمكان. وطرح على جدول الأعمال، تطبيق السياسة الاستعمارية في مجال "محو" الشخصية الجزائرية عبر تحريف وتزوير التاريخ وأخيراً الوصول إلى تفكيك وحدة الشعب الجزائري بتطبيق حكمتهم المراوغة" فرّق تسد".

ولبلوغ مراميهم، توجب عليهم البدء بمجال التربية التي عمل على زعزعتها بقوّة ثم الانتهاء إلى المجالات الأخرى الواقعة على هامش الثقافة والدين، لقد سبق لنا أن ندّدنا بهذه الوضعية القذرة التي أنهكت كاهل الاستعمار لأنه أهان واضطهد شعبنا، وتكرار الأمر مرّة أخرى يقصد منه تحسيس الشبان... ومن هم أقل شباباً – أو غير مطلعين بما فيه الكفاية – ليفهموا أن النتيجة التي توصلنا إليها في جويلية 1962،

ليست ثمرة لمفاوضات بسيطة؛ وليست فقط لفشل السياسة الاستعمارية في العالم وليست كذلك كما يدعيه أكثر من واحد من بين مَنْ يحنون إلى الجزائر الفرنسية بفضل كرم "أحد الجنرالات" وعطفه ولكنها ثمرة شجاعة شعب رفض رفضاً كاملاً الهيمنة وذلك عبر عمليات طويلة لإزالة الاستعمار منذ كفاح الأمازيغ الشجعان.

إن بروز رجال عظام في البلاد، منذ قرون، وشخصيتهم القوية والوسائل التي ابتكروها فيما يخص البنيات الاجتماعية – التربوية الثقافية والعلمية والدينية، والتعليم الذي بذلوه والتعبئة التي حافظوا عليها، كل هذه العوامل ساعدت بلادنا وشعبنا على عدم الغرق في التهميش والتقادم. لقد بقيت لغة الشعب وهويته حيّة إلى الأبد، لم يكن البلد بِكراً ولم يكن سكانه غير مثقفين.

كل تلك الإمكانيات كانت بمثابة الأرضية الصالحة التي ارتكزت عليها النهضة الإسلامية والحركة الوطنية في الجزائر باعتبارها امتداداً لحركة يقظة واسعة النطاق في العالم العربي، وبالفعل، فمنذ السلفي محمد بن عبد الوهاب ممثل المدرسة الحنبلية (1703 – 1792) إلى عبد الحميد بن باديس وآخرين كثيرين في العالم العربي مروراً بمحمد بن علي السنوسي الجزائري (1787 – 1859) والإمام محمد بن أحمد بن السيد عبد الله من السودان (1844 – 1885) وجمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد عبده وتلميذه رشيد رضا، كانت الجزائر تتابع باهتمام بالغ تطور الوضعية وكانت تسهم عبر مثقفيها وشيوخها ومفكريها الوطنيين في تلك الحركية المتعلقة خاصة بالتربية وإصلاح الأنظمة السياسية والتخلص من البدع والتطيرات، لتنقية ممارسة الإسلام ورفع مستوى الوعي لدى

المواطن، وأخيراً الكفاح ضد التوسع الاستعماري الغربي الذي كان يهدد استقرار العالم العربي ووحدته بفرض هيمنته في المجالات العسكرية والسياسية والثقافية.

كان المواطن الجزائري يرى بعين الرضا تلك اليقظة في المشرق. وكان الأكثر اطلاعاً، من بين رجال الأدب والشبان، وكذلك مجموع الوطنيين الذين لم يلقوا راية الكفاح منذ اندلاعه في زمن الأمير عبد القادر، قد جعلوا من تلك اليقظة مصادفة سعيدة واستمدوا منها حافزاً ممتازاً في كفاحهم اللاحق.

لقد نشأت قبل وبين الحربين العالميتين حركات جمعت كل الإصلاحيين والمجددين الذين كان لهم انشغال واحد وهو إعادة الاعتبار للإسلام في سنّته الصافية، وتطويره في إطار ممارسات سليمة، ومعارضة كل محاولات زعزعة الاستقرار من قبل الاستعمار على المستويين السياسي والثقافي، إن هذه الحركات كان لها مفعول كبير في نوادي الشباب وبخاصة الشبيبة التي كانت محظوظة بالاستفادة من التعليم الفرنسي الذي كان يُعْطَى بكثير من التقتير لأسباب لا تخفى على أحد، وكذلك من كان قد كتب لهم تعلم اللغة العربية التي كانت تدرس في بعض المدارس الحرة "المجددة" وفي العديد من الزوايا.

في تونس شهد المرء تأسيس الرابطة "الراشدية" سنة 1902، وقد استوحيت فكرتها من الرابطة "الخلدونية" .وقد جمعت قدماء تلامذة المدارس الفرنسية المسلمة، وفي قسنطينة دخل نادي "صالح باي" سنة 1907 ساحة النشاط الثقافي وبصورة حتمية حلبة السياسة بإيعاز من أعيان المدينة لتشجيع الدراسات الأدبية

والعلمية، وقد أسس الشيخ بن حبيلس من جهته "رابطة حقوق الإنسان الجزائري" سنة 1912 ونظم مهرجاناً في عنابة جمع أفواجاً من المواطنين الجزائريين الذين كانوا يهتفون: "يحيا العرب الجمهوريون".

ثم دخلت جريدة "صوت المتواضعين" إلى المعترك، كان مؤسسوها من المعلمين الشبان حملوا همّ الذود عن القيم الثقافية، وجاء دخولهم الساحة الإعلامية داعماً لنشاط حركة "الشبان الجزائريين" التي كان يقودها الأمير خالد، حفيد الأمير عبد القادر.

وفي سنة 1927 أقتحمت "اتحادية المنتخبين المسلمين الجزائريين" المشهد السياسي بعد أن هزتها المضايقات الكثيرة والقيود المفروضة على المفكرين من طرف الإدارة الاستعمارية، وكان من أبرز الوجوه في الاتحادية فرحات عباس والدكتور بن جلون، وفي سنة 1933 قرر المنتخَبون الجزائريون الاستقالة جماعياً؛ كان عددهم 950 منتخَباً ويحتجون على عدم استقبال وفد جزائري في باريس ليعرض مطالب الشعب الجزائري، فكانت حركتهم تلك مناسبة جيدة ليثبتوا وجودهم في وجه السلطات الفرنسية.

وقبيل تلك المناسبة رأى الأئمة السلفيون أن "من واجبهم أن يرجعوا الثقة للشعب في دينه ولغته، لغة القرآن المقدسة التي أهينت، فبدؤوا يلتفون حول إمام مسجد سيدي لخضر، المسمى الجامع الأخضر في قسنطينة، الإمام عبد الحميد بن باديس وهو من قدماء طلبة جامعة الزيتونة بتونس وقد حاول أن ينشئ لها سنة 1911 فرعاً صغيراً يعنى بتعليم الدراسات الكلامية في المسجد الذي كان مكلفاً به. إن هذه الشخصية الجماهيرية بعينها أطلقت، وهي محاطة بالشيخين

الطيب العقبي والبشير الإبراهيمي، سنة 1920 أول جريدة لعلماء الدين أطلقوا عليها اسم "المنتقد" وفي سنة 1925 أطلق جريدة "الشهاب". وفي سنة 1934 أسس الشيخ الأمين العمودي جريدة باللغة الفرنسية أطلق عليها اسم "الدفاع"، والشيخ العمودي رفيق لابن باديس في الكفاح، وأخيراً أنشئت جريدة "البصائر" في سنة 1936.

وكتبت جوليات بسّيس تقول إن الهدف من هذه الأعمال الأولى للأئمة كان "جعل الدين الحق ينتصر، على أن كمال الإسلام يتسم بالقيمة المثلى لبلوغ مهمة الظفر الكوني ومحاربة هيمنة السلطات الاستعمارية على الإسلام الجزائري بواسطة رجال دين مرتهنين لها، ليس ثمة من شك في أن تأثير الحركة قد طغى على الوطنية الجزائرية الناشئة وقد تركت بصمات عميقة عليها، إذ إنها في النهاية اتخذت شعاراً لها بثلاثية ابن باديس القائلة: الإسلام ديننا والجزائر وطننا والعربية لغتنا".

إن عمق المأساة التي كان يعيشها الشعب ومخاطر الشقاق التي كانت السلطات الاستعمارية تهدده بها وتغذيها عن قصد كانت أسباباً كافية لحث المناضلين الوطنيين المحنّكين على إنشاء جمعية ذات طابع ديني وثقافي ينبغي أن تتوسع في ما بعد لتصبح حركة وطنية شاملة، إن القانون التأسيسي لهذه الجمعية يبرز انتفاء الصفة السياسية الأساسي عنها ولا يسمح لأعضائها التعاطي بالشأن السياسي، كان ذلك بالطبع وسيلة تكتيكية لحماية الحركة من مضايقات الإدارة وإزعاجاتها، ولحماية العمل الذي قرر المسؤولون أن يكرسوا له حياتهم، وفي الواقع لا يمكن أن يكون الهدف إلا سياسياً.

يوم من أيام مايو 1931

لقد كان لعمر إسماعيل وهو من أعيان مدينة الجزائر الأثرياء مبادرة شجاعة وهي جمع كل علماء الدين وكل من لهم استعدادات للمساهمة في رفع المستوى الثقافي والمعنوي للشعب الجزائري، لقد أصبح "نادي الترقي" في تلك السنة للذكرى المئوية للاستعمار (إنزال الجيوش الفرنسية في سيدي فرج في سنة 1830) نادياً يرتاده المفكرون وبخاصّة أولئك الذين يحملون أفكار الإصلاح، كانوا يأتون دائماً لمناقشة الأوضاع في البلاد، ففي هذا النادي نشأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم 5 مايو 1931 بتحريض من عمر إسماعيل الذي انبرى لاستعمال كل نفوذه وأمواله للوصول إلى تجسيد ذلك القرار التاريخي.

وتم اختيار عبد الحميد بن باديس لقيادة الجمعية ويساعده في ذلك الشيخان الجليلان البشير الإبراهيمي كنائب للرئيس والأمين العمودي كأمين عام، وفي تركيبة مكتب المنظمة كان هناك الكثير من الأسماء المعروفة والمحبوبة من قبل الجزائريين لسمعتهم ولأعمالهم في مجال الدين والعلم والثقافة.

ولد عبد الحميد بن باديس يوم 4 ديسمبر 1889 في قسنطينة، وهو سليل عائلة كبيرة من الأعيان والمثقفين، فقد كان لأجداده تأثير كبير في مجال السياسة والفقه في المغرب العربي والأندلس المسلمة، ولم يكن عبد الحميد ينقصه شيء، حتّى لو أنه لم يتبع طريق جده وأبيه إذ كان الأول قاضياً ومستشاراً عاماً لدى سلطات الاحتلال في قسنطينة وكان قد تقلد وساماً من نابليون الثالث شخصياً، والآخر باشاغا ومندوباً مالياً وعضواً في المجلس الأعلى، فقد كان، والتاريخ يثبت ذلك أب الإصلاح في الجزائر.

إن هذا الاسم العائلي منتشر عند البرابر الصنهاجيين. إن عالِمنا المصلح ينتمي إلى هذه القبيلة المهمة وينحدر – كما يثبت ذلك أصله – من نسب كبير من رجال مشهورين قد سجلوا أسماءهم في أعماق تاريخ بلادنا وبلاد الأندلس، وبالفعل فإن نفوذ الصنهاجيين قد امتد على أكبر جزء من التراب الجزائري، إن قبائل صنهاجة البربرية كثيرة جداً، لقد بلغت حسب المؤرخين ومن بينهم ابن خلدون، أكثر من سبعين قبيلة ومن أشهرها من الشرق إلى الغرب ما كانت تسمى عنجقة وتلكة وكدالة ولمتونة ومسوفة ومندلة وبنو وارث وبنو يتيسن وبنو صليب وفشتالة ومزوارت ونوغة وبجاية وبطيوة (منها أسماء المدن الحالية) وبنو جعد وبنو حميد وبنو دركون وبنو زروال ولمدية (منها اسم المدينة الحالية المدية) ومتنان ومزغنّة (ومنها اسم جزائر بني مزغنّة) وإملوان (حمام ملوان) ومليانة (ومنها اسم مدينة مليانة الحالية) وتازروت وبنو خنوس وبنو عمران (مدينة بني عمران تحمل اسمهم)، وقد تكون القائمة طويلة جداً لو كان علينا أن نذكرها واحدة واحدة، وبالعكس، ما يجب معرفته هو أن كل هذه القبائل الكبيرة قد أعطت للثقافة العربية الإسلامية علماء لهم صيت ذائع وأعمال تستولي علينا اليوم وتذكرنا بأن الوقت ما زال متاحاً لنقدم ما هو أفضل وأن نكون متناغمين مع شعبنا، لقد كانت لنا الفرصة لذكر بعض العلماء الصنهاجيين في الفصول السابقة وسنذكر آخرين في الصفحات القادمة، ولنواصل مع ابن باديس.

لقد كان عمْر عبد الحميد ابن باديس ثلاث عشرة سنة عندما ختم القرآن عند معلمه الأستاذ محمد المداسي، وفي سنة 1903 كان تلميذاً عند أحمد بن لونيسي وتعلم عنده الأدب العربي ودعائم الإسلام

والتربية الخلقية وكذلك أهم المعارف العلمية، وفي سنة 1908 سلك طريق جامعة الزيتونة، وبعد أن اكتسب ثقافة متينة ونال شهاداته، بقي سنة في تلك الجامعة كما درجت العادة، ليتكلف بالتعليم في رتبة أستاذ مساعد، وفي سنة 1913 وبعد رجوعه إلى الجزائر اندمج في سلك التعليم وفي السنة الموالية أي سنة 1914، ذهب إلى مكّة وانتهز الفرصة لزيارة عدة بلدان عربية.

امتد كفاح ابن باديس على ثلاث مراحل: الأولى من 1913 إلى 1925 وقد خصصت للتعليم وتجنيد الجيل الشاب حول شعارات محددة ليستطيع تشرب الإصلاحات التي كان يأمل تطبيقها في الجزائر، اللغة العربية والهوية الوطنية واليقظة السياسية الوطنية والإسلامية كانت كلها هي الأهداف التي كان يريد نشرها في أوساط الشعب.

ومن 1925 إلى 1931، بدأ ينشر الأفكار السياسية التي جلبت بسرعة أغلبية الجزائريين، وقد تزامن ذلك مع مئوية الاحتلال، كان ابن باديس يريد الخروج من الإطار المحلي، أي من مدينة قسنطينة، مسقط رأسه، ليوسع دائرة نشاطه وينشر أفكاره عبر كل البلاد، فقد أنشأ في هذه الفترة جريدتيه: "المنتقد" و"الشهاب".

وأخيراً الفترة الثالثة الممتدة من 1931 سنة 1940تاريخ وفاته، وقد تميزت هذه الفترة بنشاط سياسي مكثف من أجل انعتاق الجزائر باعتبارها أمّة تصبو إلى سيادتها وإلى وحدتها الوطنيتين، وبني نشاطه السياسي على الكفاح:

1 – ضد الاستعمار.

2 – ضد أنجلة البلاد.

3 – ضد بعض الطوائِف التي كانت تعمل لصالح الإدارة الاستعمارية والتي كانت تنشر الظلامية.

4 – ضد أنصار التجنيس والإدماج.

لقد ترك لنا ابن باديس الكثير من الانجازات، وقد ترك كذلك كتباً تشهد على أنه متكون تكويناً اقتصادياً وسياسياً ممتازاً، إن الذين كان لهم الحظ في متابعة مقالاته الجادّة التي نشرها في الشهاب يعلمون أن تنبؤاته كانت كثيرة عبر تحاليل متينة وتنمّ عن ذكاء متميز، تكلم ابن باديس عن أوروبا وعن الانهيار القريب للاتحاد السوفيتي وعن الديون الفرنسية الأمريكية، وقد أعطى نظرته الدبلوماسية عن التقارب الياباني التركي وكذلك عن التقارب الألماني الفرنسي وعن المعاهدة الاسبانية الإيطالية وأخيراً وخاصةً عن القضية الفلسطينية، فقد توجب عليه أن يعالج في تحاليله التعاون الذي ينبغي أن يرتكز على المصالح المشتركة، كان يقول بأنه يمكن الالتجاء إلى رؤوس الأموال الخارجية في ما كانت هذه الأموال تستطيع أن تخدم النمو الاقتصادي والتنمية المتكاملة للبلاد، وفيما يتعلق بالاتحاد السوفيتي فقد كتب في جريدة الشهاب رقم 47 بتاريخ 7 صفر 1345 هـ (16 أوت 1926) تحت عنوان "روسيا في أزمة والمنظومة الاشتراكية في انهيار" بعد أن ذكر انحرافات البلشفيك وتهميش زينوفياف وتروتسكي، الخ.

"سيواجه الاتحاد السوفيتي مشكلات داخلية وخارجية ستكون السبب في زعزعة استقراره وتفكيكه". وفي الوقت الذي كان يرفض فيه القيصرية والشيوعية، فإنه كان يقترح الديمقراطية على أنها السبيل المضمون لنهضة روسيا.

وفيما يتعلق بالتقارب الياباني التركي، فقد كتب في تاريخ 27 أغسطس 1926 بمناسبة زيارة قائد البحرية اليابانية للمياه التركية:

"سبب هذا التحالف هو وحدة مصالح الأمتين الكبيرتين، العثمانية واليابانية على المستوى الاقتصادي والسياسي" ثم حلل ابن باديس بدبلوماسية لطيفة هذا التقارب الاستراتيجي في المنطقة.

وفيما يخص الأزمة الفرنسية الأمريكية التي أثارتها الديون، فقد لاحظنا في الرقم 43 من الشهاب المؤرخ في 23 محرم 1345هـ (2 أغسطس 1926) أن ابن باديس قد نمّا تفكيراً مالياً ونصب نفسه مدافعاً عن الفرنك الفرنسي ظناً منه بأن انخفاض قيمة الفرنك الفرنسي تضر الشعب الجزائري أكثر من الشعب الفرنسي.

فقد ظهر ابن باديس على أنه خبير في قضية دفع الدين الفرنسي للأمريكيين، وهكذا كان أبو الإصلاح الجزائري، في المقال المنشور تحت عنوان "ديون ومعاهدة واشنطن"، يناضل من أجل قضية البلدان الواقعة تحت أعباء الديون وكان يدعم فكرة تسوية فرنسية أمريكية لتلك المسألة.

وأخيراً وفيما يتعلق بالقضية المركزية العربية، لقد تكلم ابن باديس دائماً عن اغتصاب الأراضي الفلسطينية من قبل الصهيونية، وقد أكّد كذلك في عدة مقالات، وخاصة منها المقالة الأطول والأكثر غنى بالمعلومات ألا وهي مقالة أول جمادى 1357 (أغسطس 1938)، أن تعذيب اليهود هو عمل أوروبي وليس عربياً، وبهذا فإنه كان متوافقاً مع الدكتور جورج ليفي، نائب مقاطعة الرّون الفرنسية الذي كتب سنة 1944 تحت عنوان "الأسطورة العنصرية" : "ففي أعمال غوبينوا (بحث في عدم مساواة الأجناس البشرية: قد استقى

المتعصبون حججهم لتعذيب الأجناس والشعوب الموصوفة بالسفلى – مثل اليهود – ولاضطهادها وإبادتها، إن ذلك العمل الشعري قد أدى بالذين استوحوا منه إلى ارتكاب أقصى البشاعات وأقذر المجازر التي سجلها تاريخ البشرية، إن ذلك الإنجيل العنصري صار إنجيلاً للعنصريين المتوحشين" .كما يتفق مع (ويؤكد) ما نشرته الحركة الوطنية ضد العنصرية، وهي حركة أنشئت في فرنسا في الأربعينيات تندد بضراوة الهيجان المناهض لليهود وأولادهم ونسائهم، كان المنشور يقول: "في باريس يداهم الدوريون والميليشيات والشرطة المأمورة من الغستابو ودارناند نساء سجناء الحرب من اليهود، هناك خطر يتهددهن متمثل في إبعادهن إلى المعتقلات. كما أن الآلاف من الأطفال يبقون بدون أي حماية! وصلتنا من باريس أخبار شنيعة، في آخر شهر جانفي قد تم تنظيم مذبحة ضد السكّان اليهود"، وهناك الكثير مما يجدر قوله في هذا الصدد. لنرَ ما يفكر فيه اليهود عما يدّعى حول كره العرب لليهود، لقد أكدّ الأسقف شوركي في إحدى كتاباتِه التي ذكرها جان روJean Rous: "اليهود لم يكونوا أبداً، برغم خرافات الأجانب، مبغوضين في الأرض المغاربية". ثم يواصل:

"وهذا هو المكان الذي ينبغي علينا الوقوف فيه بوجه ما ادّعي أنه كره تاريخي لليهود من قبل المسلمين، فاليهود كانوا في النهاية أكثر سعادة في أرض الإسلام منهم في أغلب البلدان الأوروبية حيث كانوا بالفعل يواجهون حقداً لا شفاء منه، إن مثل هذا الشعور لم يوجد قط في تلك الأشكال المتطرفة في المغرب العربي"، ونتوقف هنا لأن الشهادات كثيرة جداً.

لِنَتَوقّف عند هذا الحد ونرجع إلى ابن باديس، بالفعل ففي المقالة المذكورة آنفاً، مقالة أغسطس 1938، عارض الانجليز لأنهم سمحوا لدولة إسرائيل أن تستوطن في الأرض العربية، في فلسطين، وخاصّة أنهم دنسوا الأماكن المقدسة للقدس.

لقد كنا وقتها على وشك اندلاع الحرب العالمية وكانت انجلترا تضاعف مجهوداتها، بعد حلّ اللجنة العليا العربية وإنشاء لجنة بيل Peel التي كانت تقترح تقسيم فلسطين، وبعد فشل محاضرة لندن، لتحضير الظروف، كل الظروف التي كان عليها أن تسمح لإسرائيل أن تحتل الأراضي العربية يوم 14 مايو من سنة 1948 بموافقة الأمم المتحدة.

ولد الشيخ البشير الإبراهيمي، نائب الرئيس والذي يعتبر الرجل الثاني في جمعية العلماء، في رأس الوادي في ولاية سطيف في شهر جوان سنة 1889. إنه سليل عائلة شريفة قد أثبتت، في ذلك الوقت، جدارة حقيقية في مجالي العلوم والأدب، لقد حفظ القرآن وهو صغير جداً. وسافر إلى المدينة المنورة وعمره اثنتان وعشرون سنة لمواصلة دروسه، وبعد ذلك بستّ سنوات رافق أباه إلى دمشق وهنا كرّس نفسه للمهمة الحماسية المتمثلة بالتعليم، كان أستاذاً للأدب العربي في ثانوية دمشق، المؤسسة الثانوية الوحيدة الموجودة في ذلك الوقت.

كان الشيخ البشير الإبراهيمي محترماً في تلك العاصمة ولم تنحصر وظيفته في الحقل التربوي وحده التي شغلت الكثير من وقته، بل كان قد أسهم إلى جانب العلماء المناضلين العرب في النهضة العلمية والثقافية وفي الحركات الوطنية التي بدأت ترى النور في الشرق الأوسط وهو مسلح بأفكار جديدة للإصلاح الذي

كان يبذل جهده لنشره وتعميمه عن طريق الدروس النموذجية والمنشورات العديدة.

كان الشيخ البشير أغزر إنتاجاً، في زمانه، في مجال الكتابة، إن مؤلفاته اليوم تشكل مراجع لمن يريد أن يستوحي منها للكتابة عن تاريخ الجزائر، سيجد بلا مراء، مواقف شجاعة لرجل كان يتحدى الخطر ويلتجئ فقط وراء إيمانه، في الوقت الذي كان فيه مفكرون آخرون يكتفون ببعض الانطباعات المحتشمة، فقد كان يكتب بقلمه:

"ويل لهم ! هل هي بداية حرب ؟"

كان ذلك أثناء الأحداث الدامية في الشرق القسنطيني في مايو 1945 حيث واجه بعنف في مرافعة تهز المشاعر وعبر العديد من الكتابات مرتزقة الاستعمار الذين تسببوا في إبادة كبرى أخرى في القرن.

إن ما كان يكتبه عن فلسطين كان يتميز بالوضوح والموضوعية، فقد كان أحد الجزائريين القلائل، مع ابن باديس بالطبع، الذي تناول هذا المشكل بذكاء ونفاذ بصيرة، كان يأسف لروح الانهزامية وحتّى الخيانة من قبل الرؤساء العرب وكذلك وقاحة المنظمات الدولية، ألم يُسَمِّ في إحدى كتاباته مجلس الأمن للأمم المتحدة "مجلس المخاتلة" وانجلترا "الحلقة المفرغة للشرّ؟"

وهناك موقف آخر لا ينبغي أن نخفيه عند هذه الشخصية الفذة: نداءاته للوحدة على المستوى السياسي. كان يكتب وهو يحث الأمّة الجزائرية :

"أيتها الأمة الجزائرية، إن هذه الأحزاب لا توجد إلاّ بِك، لأنهم يأخذون قوتهم منك، أنتِ مادتهم ودعمهم، لا بد أن تحثيهم على

الوحدة بكل الوسائل، إنهم يبسطون نفوذهم باسمك... فعليك أن تحثيهم على الوحدة باسمك، ولكن إذا اختلفوا فأنت الخاسرة في كل الحالات..."

الشيخ الطيب العقبي هو ثالث شخصية من العلماء، لقد ولد في سنة 1890 في سيدي عقبة في ولاية بسكرة، في السادسة من عمره هاجر الطيب الصغير مع عائلته إلى الحجاز، وبقي هناك زمناً طويلاً، كل فترة شبابه تقريباً، الشيء الذي سمح له بتعلم مختلف العلوم العربية وأن يرتوي من معين الإسلام ذاته بالاتصال مع المثقفين الكبار ويكمل معلوماته، لكنه اتهم من قبل النظام العثماني أنه شارك في حركة الوهابيين ونفي إلى تركيا، لكن هذا لم يمنعه من الرجوع إلى مكة وتولي إدارة جريدة "القبلة" والمطبعة الأميرية.

ولم يعد إلى الجزائر إلاّ في سنة 1920 بمعارف متينة وأفكار قوية للإصلاح وتصورّ جادّ للوطنية، وعلى غرار صديقه الشيخ البشير الإبراهيمي، فإنه تكلف بالتربية في بسكرة وخاصةً بتفسير القرآن وبنشر جريدة "الإسلام" وهي جريدة كان لها في سنة 1927 صدى خاص.

بعد إقامته لبعض السنوات في بسكرة، استقر الشيخ الطيب في مدينة الجزائر ليباشر كفاحاً أكثر صعوبة في إطار الحركة الإصلاحية، لقد عرف الخطيب العقبي بفصاحته الكبيرة فقد كان يلهب الجماهير بخطبه وعظاته في مساجد مدينة الجزائر، ولم يكن هذا العمل ليرضي المستعمرين فمنعوه من أي تدخل في الأماكن العمومية وبخاصة بعدما رفض الاقتراح الذي عرضوه عليه: منصب هام في الإدارة "الجزائرية".

الشيخ مبارك الميلي: ولد في الميلية سنة 1897 من عائلة متواضعة. تابع دراساته الأولى في ميلة والدراسات الثانوية في قسنطينة عند عبد الحميد بن باديس ثم انتقل بعد ذلك إلى الزيتونة، ليأخذ نصيبه مثل سابقيه من المعلومات والشهادات.

ثم علم في قسنطينة بعد عودته من تونس حيث كان أحد الرواد الأوائل من المدرسة الباديسية والحركة الإصلاحية الدينية، ثم علّم في الأغواط. ففي هذه المدينة المعروفة بتقاليدها الثقافية، كانت لديه كل الفرص لنشر علمه وأفكاره الثورية، كان عنده متسعٌ من الوقت، لأن الجو كان سانحاً، لتقديم عمل متميز للغاية عن تاريخ الجزائر، ربما كان هو المؤلّف النادر في ذلك الوقت الذي كتب من قبل مناضل جزائري يحكي الحقيقة عن ماضينا، بعد أن انتهى من مهمته في تلك المنطقة أقام مدّة قصيرة في بوسعادة قبل أن يرجع إلى ميلة، وفي قسنطينة أصبح تقريباً الذراع الأيمن لابن باديس.

ولد الشيخ العربي التبسي سنة 1895 في منطقة الجبل الأبيض المتواجد على بعد سبعين كيلومتراً جنوبي غرب تبسة، وكتب عنه محمّد علي دبوز يقول: "إن العربي التبسي كانت له هيئة توحي بالهيبة، كان يبدو عليه منذ صغر سنه وحسب أسارير وجه وبريق علامات شخصية قوية وذكاء حاد". إن تلك الملكات الطيبة جعلت منه تلميذاً ممتازاً في بادئ الأمر في زاوية خنقة سيدي ناجي الشهيرة وفيما بعد في زاوية نَفْطَة التونسية وهي المدينة المعروفة بثقافتها العريقة وبأفواج مثقفيها العديدين.

توجّه إلى الزيتونة مثل من هم في جيله، ثم ذهب إلى الأزهر حيث حصل على علامات تقدير أخرى، ثم رجع إلى تونس في الوقت

الذي كانت تتشكل فيه حركة الإصلاحيين الوطنيين فأنشأت "الحزب الدستوري الحر"، فانخرط في هذه التشكيلة السياسية وكان يعطي أحسن ما عنده من جهد.

ثم رجع إلى القاهرة مرّة أخرى وأقام فيها مدّة سبع سنين، ولكن عندما علم، بواسطة المراسلات والجرائد التي كانت تصله، بالعمل الإيجابي الذي كان ينجزه على مستوى الإصلاحات في الجزائر العلماء الذين رجعوا من منفاهم، قرر العودة إلى أرض الوطن والانخراط بصورة طبيعية في المهمة التي كان يعتبرها مهمّة مقدسة ألا وهي تحرير الشعب من القبضة الاستعمارية، يجدر القول أيضاً وللتاريخ أنه كان يرسل من القاهرة مقالات رفيعة المستوى إلى جريدة "الشهاب"، وعاد إلى مسقط رأسه سنة 1927 واشترك في نشاط حركة الإصلاح.

ولد الشيخ الأمين العمودي سنة 1890 في الوادي من عائلة مشهورة بتقواها وبثقافتها في العلوم الدينية، حفظ القرآن في المدينة نفسها كما أنه كان ملحقاً بالمدرسة الفرنسية، واستطاع بناء على حيويته وعناده أن يكتسب لغة الأجنبي ليستطيع محاربته بطريقة أنسب، هكذا كان يقول لأصدقائه الذين لم يسعِفْهم الحظ لارتياد مدرسة جول فيري، وبما أنه لم يرد التوقف عن تحصيله المدرسي عند هذا المستوى فقد أصرّ على الالتحاق بمدرسة قسنطينة أو كما كانت تسمى عادة الثانوية الفرنسية الإسلامية؛ وهي تلك المؤسسة التي كان مطلوباً منها، حسب رغبة المحتل، أن تكوِّن معاونين للإدارة الاستعمارية، ثم طرد منها بسبب نشاطه السياسي.

لقد اشتغل كعون باش عدل (وهو موظف للعدالة الإسلامية) في فجّ مزالة ولكنه لم يبق كثيراً لأنه شطب من سلك الإدارة الفرنسية

التي كانت ترى أنه داعية كبير للأفكار الجديدة (المقصود بها الأفكار الوطنية) ومشاغبٌ خطيرٌ. ثم رجع إلى بسكرة ليستقر بها كوكيل شرعي دون أن يتوقف عن نشاطاته السياسية، كان مؤيداً متحمساً وقريباً من الأمير خالد وكان عضواً مؤسساً لحركة "الشباب الجزائري"؛ وعرف تشكيلات أخرى منها "شبيبة المؤتمر الإسلامي" وفيما بعد الأحزاب السياسية؛ ولم يكن محترماً ومسموع الكلمة فقط ولكنه كان كذلك يعتبر: "وَلد صعب المراس".

وفي سنة 1931 كان أهم محرر للقانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين بعد أن التحق بالجزائر العاصمة بطلب من الشيخ عبد الحميد بن باديس.

لقد ترك الأمين العمودي العديد من النشريات إذ كان مؤسساً ومديراً ورئيساً للتحرير في جريدتين هامتين: "الجحيم" باللغة الوطنية وهي تبعاً لقوله جريدة "تتنفس مرةً في الأسبوع" – وهي فرصة سانحة لإظهار اشمئزازه من الاستعمار – وجريدة "الدفاع" باللغة الفرنسية، من أجل حقوق المسلمين الجزائريين، وهو كذلك شاعر بارع، إذ ترك لنا روضة مزهرة من القصائد الرائعة التي تشهد على مهارته كرجل مثقف.

وأخيراً لقد سجن عدة مرات أثناء نشاطه في جمعية العلماء بالإضافة إلى استنطاقاته المتكررة، وعليه فإنه كان يقول بنوع من السخرية كلما وصله استدعاء: "على كل حال، إن حقيبتي جاهزة دائماً".

التحق الأمين العمودي بالرفيق الأعلى شهيداً للثورة، يوم 10 أكتوبر سنة 1957. لقد اغتيل بجبن في عين العجيبة قرب البويرة من

قبل "اليد الحمراء" المشؤومة، أي في الحقيقة من قبل مصالح الاستخبارات الفرنسية.

ولد الشيخ أحمد توفيق المدني في تونس يوم أول نوفمبر سنة 1898 ويروي ذلك بنفسه:

"ولدت حوالي بضعة أشهر تقريباً من نهاية القرن الماضي وأنا سليل عائلتين جزائريتين أصيلتين محاربتين كانتا تعيشان وقتها في المنفى، لم أسمع من أبي وأمي إلاّ الرواية الوحشية القاسية التي تميّز بها الفرنسيون بعد جريمتهم في سيدي فرج سنة 1830. كنت صغيراً جداً وإن أحداثاً دقيقة عاشها شعبي وبلادي وعائلتي، كما رويت لي، من شأنها أن تدخل الرعب على أيّ كائن حي". (مذكرات الكفاح).

هاجر أبواه وهما من نسب شريف، عندما اشتدت الهيمنة الفرنسية وزاد قمعها في مدينة الجزائر، كان أبوه محمد المدني القبي الغرناطي رجل ثقافة وكان جدّه شيخ بلدية العاصمة في عهد الأتراك.

قام توفيق الشاب بدراسات جيدة وخالط الكثير من العلماء، كان كثير الاهتمام بالسياسة وكان الزمن وقتئذ زمن تقلبات كبرى في العالم ومواصلة سياسة الهيمنة في شمال إفريقيا، ولم يكن غير واع بذلك خاصّة وأنه كان ذا عقل وقّاد وفائق الذكاء، يتمتّع ببصيرة بعيدة وآراء صادقة.

ألم يصرّح لجريدة "العلم" المغربية فيما يتعلق بوحدة المغرب العربي:

"سيأتي يوم بعون الله تصبح فيه وحدة مناطق المغرب العربي الثلاثة واقعاً.. وأدعو الله أن يبقيني على قيد الحياة إلى غاية اليوم

الذي أرى فيه تحقيق هذه الأمنية وفي التفتح الكبير لمولانا أمير المؤمنين !".

تم سجنه في تونس بعد نشر كتابه "تونس الشهيدة" وملصقات ثورية قاسية جداً ضد "فرنسا، "ولم يتردد في خطبه في اتهام فرنسا على أنها مسؤولة عن الحرب العالمية في سنة 1914، إنه يتهم كذلك فرنسا في مقالاته (جريدة إفريقيا) بأنها دافعت بقوة عن السياسة الامبريالية بعدوانها على الأمير عبد الكريم وبرفضها فكرة المصالحة التي كان يقترحها هذا الأخير"، هذا ما أكد عليه تقرير من "الإقامة العامّة لفرنسا" مؤرخ في 9 جوان 1925.

دخل إلى مدينة الجزائر سنة 1925 بعد طرده من تونس من قبل الوزير المقيم العام الذي وبخه على أنشطته السياسية وحماسته الوطنية. كان وقتئذ أميناً للحزب الدستوري الحرّ إلى جانب المناضل عبد العزيز الثعالبي، كما أنه كان أميناً عامًا لـ "رابطة القلم" وعضواً في "الأكاديمية التونسية للعلوم" ومسؤولاً عن "فوج السعادة" وهو فوج للمسرح الثوري تحت إشراف حزب الدستور.

له منشورات عديدة وأولها كتابه "تقويم المنصور" .لقد كان أحمد توفيق المدني عضواً قيّما في جمعية العلماء، وكان مقتنعاً بصعوبة المهمة التي كانت تنتظر المناضلين، فقد صرّح بما يلي في هذا المجال:

"إن انحلال المجتمع وتدهور البنيات والتفكك والخضوع للمستعمرين وعدم الاستعداد للردّ على الاعتداء، كل هذه الانتهاكات لأوامر الله سمحت للعدو بأن يضعنا تحت سلطته وأن يدوس مثلنا تحت أقدامه وأن يلبسنا لباس الذل والإهانة".

وهناك رجال آخرون اتصفوا بالبسالة والصلابة نفسها في عملهم والإخلاص في التزامهم بالنسبة إلى وطنهم.

إن تأسيس الجمعية بمثل هذه التشكيلة التي تضم شخصيات شهيرة ورجالاً متشبعين بالعلوم، لم تكن مقبولة "لدى كل الناس" ولم يكن بإمكانها أن تحصل على رضا كل الأئمة والشيوخ وبخاصة بعض قادة الطرق والزوايا الذين كانوا يتمتعون بهيبة مشبوهة يستغلونها لأغراض شتّى. كان من بينهم من هم في خدمة الإدارة الاستعمارية ومن بينهم كذلك المشعوذون، بكل ما للكلمة من معنى، الذين وضعوا تحت سلطتهم جماهير الجهلة، وكان هناك آخرون، لحسن الحظ، ليسوا من النوع نفسه ولكن لم يكن لهم أيّ وزن وأي شهرة، إن هؤلاء وأولئك لم يستطيعوا العودة بسهولة إلى تجديد التعامل مع الحقيقيين أي مع رجال الدين والثقافة المحترمين الذين ينشرون إصلاحات سليمة، ولم يستطيعوا اتباع نهجهم ذي الدلالة السامية والحسم بالنسبة للمستقبل، لقد أثبت الشيخ البشير الإبراهيمي جهلهم وتواطؤهم وعملهم التخريبي:

"كان هؤلاء يخافون منا لأننا أقمنا ضدهم حمَلات للتنديد باستكانتهم واعتبرناهم مصيبة للأمة والدين بسبب سكوتهم أمام الأضرار والدناءات التي كان الشعب يعاني منها ولأنهم أصبحوا "عمُلاَءَ" لأقطاب الاستعمار فكانوا يذلون ويستعبدون إخوانهم باسم قيم لم يعَرفها الدين ولا الأخلاق".

وبالفعل فإن جمعية العلماء لم يكن في إمكانها أن تقبل هؤلاء لأن أسسها ومبادئها العامّة فيها ما يتعارض مع الكثير من توجهاتهم، ففي برنامج العلماء نجد من بين مشاغلها البحث عن الحقيقة وإثبات

القيم القديمة للشعب الجزائري وتَشبُّثِه بالفضائل الخلقية التي بشر بها الإسلام. أضف إلى ذلك أنهم كانوا يعملون من أجل مساهمة حقيقية في ترقية مختلف فروع المعرفة: الأدب والنحو والصرف واللغة العربية وتفسير القرآن والحديث والفقه الإسلامي في الوقت الذي كان فيه الذين ينددون بهم يعملون لعدم استقرار الشعب ودوام الاستعمار. "إن مؤسسة الطرقية بدعة، لم تكن موجودة في الأزمنة الأولى للإسلام، ومن ناحية أخرى فإنها مبنية على مبادئ مناهضة للتدين، فالطائفية التي تتميز بها تجد ترجمتها في الخضوع الأعمى للمرابط الشيء الذي يؤدي بالفعل إلى استغلال مهين وإلى استعباد كامل للأذهان وإلى الإذلال والتجهيل وإلى أمراض أخرى عديدة"، هذا ما كان يقوله عبد الحميد بن باديس عندما حرّر القواعد الأساسية لنظرية العلماء.

مهما يكن فإن الجمعية لم تجعل منها نقطة تركيز، وعياً منها بما تفرضه عليها مهمتها فإنها كانت تتمشى مع المُثل التي كان عليها أن تطبقها على مستوى الجماهير التي كانت في حاجة إلى هذا النفس الجديد. إن هدفها كان أن تستجيب للمتطلبات العاجلة والمباشرة لإصلاح وضع اللغة العربية وإرجاعها إلى مستوياتها الحقيقية التي كانت عليها في أوج الحضارة الإسلامية الكونية، ومهما كانت الخلافات، القيام بحرب على المستويات النفسية والفلسفية والسياسية بصورة منهجية ومنتظمة لإعادة تشكيل وعي الشعب وجعل الارتباط العميق بالإيمان هو إحدى الحلول للتخلص من الإمبراطورية الاستعمارية، فقد كانت هناك مادة؛ أليست هذه هي شروحات ابن باديس: "بلد موحدّ بالإسلام وبالله لا يستطيع الإنسان أن يفرقه"، أو كذلك عندما كان يتحدث عن الحرية: "إن الأوضاع تستطيع أن تشكلنا ولكنها لا تستطيع أن تمحونا".

أسس الجمعية

ولإثبات صحة النظرية التي قامت عليها الجمعية وكذلك استشرافاتها إلى المستقبل يؤكد الأستاذ بوصفصاف في هذا المجال:

"لا نبالغ في شيء إذا صرحنا بأن بعض البلدان المستقلة من العالم الثالث لم يتوصلوا إلى غاية هذا اليوم أن ينجزوا مشاريع ثقافية ودينية ووحدوية مثل التي أنجزتها جمعية العلماء في وقتها، وبالتالي فقد كان محقاً من قال إن جمعية العلماء كانت191

– دولة ضمن دولة – ولم يكن هذا على وجه الصدفة ولا بصفة تلقائية، إنها بالفعل حقيقة ملموسة".

ثم يلخص بعد ذلك أهم برنامج الجمعية في سبع نقاط:

– إحياء الممارسات الدينية وتصفيتها بتنظيفها من كل المساوئ والأوساخ التي غيرتها منذ القرون الأخيرة.

– العمل بشكل ملموس لإصلاح الثقافة العربية الإسلامية وتنميتها، وتسجيل أول انشغال وهو تعميم اللغة العربية التي كادت أن تغطس في النسيان.

– العمل على توحيد الشعب الجزائري تحت راية الإسلام والعروبة.

– النضال بلا هوادة لنشر الشعور الوطني ورفع المستوى السياسي للجماهير.

– بذل الجهود لإعادة الجزائر إلى أهلها يعني في وسطها الطبيعي: الأمة العربية الإسلامية.

– التجنيد بصفة ملموسة لإنجاز وحدة المغرب العربي والكفاح ضد العدو المشترك. إن هذه الوحدة لازمة إذا عرفنا أن مواطني المغرب العربي هم شعب واحد قسم مع الأسف من طرف الاستعمار.

– الدعم المادي والسياسي للشعوب العربية والإسلامية وخاصة الشعب الفلسطيني في قضيته العادلة ضد الامبريالية والصهيونية.

هذا هو باختصار جوهر البرنامج السياسي الذي لم يقدم أبداً إلى السلطات في تلك الفترة، ومن ناحية أخرى، لو تم ذلك لقامت الدنيا ولما قعدت لأنّه قد يؤول، بدون شك، على أنه تحدّ أو قل تمرّداً، وفيما يخص نظرية جمعية العلماء، فقد اقترحت مع القانون الأساسي الذي نشر للعموم، وإننا نلاحظ في "القواعد الأساسية" بعض النقاط التالية:

"إن الإسلام هو بامتياز دين البشرية، إنه يبشرّ بالأخوةّ لاسيما بين المسلمين ولكن يبشر به كذلك وبصفة متساوية كل الجنس البشري، إنه يقرر المساواة المطلقة في مستوى الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان بين كل البشر وبدون تمييز في العرق واللون، إنه يشجب الظلم في أشكاله المتنوعة ويندد باستعباد الانسان من طرف الانسان وكذلك الطغيان... وإنه ديمقراطي أساساً ولا يقبل الحكم المطلق بكل أشكاله".

إن أفعال وأعمال "السلف الصالح": صحابة النبي، وتلاميذهم هي التطبيق الأكثر تمشياً مع روح الإسلام وأحكام هذا الدين ومبادئه، إن تأويلات الرجال المنتمين إلى هذا الجيل هي الأكثر ضماناً والأكثر صحة، إن البدعة هي كل تجديد في مجال الطقوس والممارسات الدينية".

إن الممارسات التي تقضي ببناء القبب على القبور وإشعال الشموع فيها وتقديم الأضاحي بنية تقية، والتضرع للأموات التي

تضمنتها هذه القبور، كلها ممارسات وثنية مثل التي كان يتم بها العمل في العصر الجاهلي".

فأمام المصلحة العامة للأمّة يجب نسيان أي جدال وجعله في مؤخرة الانشغالات لأن ذلك من شأنه أن يغذّي الخلاف ويكسر الوحدة ويدخل بذور الداء. إنه لمن واجبنا المؤكد أن نتضامن ونرص الصفوف حتّى تنفرج الأزمة ويبتعد الخطر.

هل يمكن لنا أن نعتبر أن هذا البرنامج تم تطبيقه بالكامل؟ فبدون أيّ ادعاء نستطيع القول إن الجزء الأكبر منه قد تمّ إنجازه، وبصفة نظيفة، حتّى لو كان ذلك لا يرضي البعض ممّن يحب الفرنسية، وهم الذين لا يرضون بأي شيء قط والذين لا يحبون الجمعية وهم الذين يستهينون دائماً بالمكافحين من أجل العقيدة وينعتونهم بعدم الكفاءة وأنهم رجال لا وزن لهم ولا منطق، إن هذا الخطاب الحاقد يأتي من كون هؤلاء العلماء لم ينغمسوا في التزلف والخضوع كما يدعي ذلك البعض، بالعكس فإنهم واجهوا التحدي واشتغلوا بفعالية لصالح الأهالي الذين لا يزالون محتفظين بالذكريات الطيبة عن هؤلاء الرجال من ذوي المعدن الاستثنائي، وعن هؤلاء الرواد، رواد العلم والحرية والذين يشهد لهم التاريخ أنهم كانوا الباعثين لأهم أدوات التأثير على الوعي الاجتماعي والعمل الإيديولوجي.

كل هذه الانجازات التي تنبثق من المحفزات الثقافية والحضارية قد تم تطبيقها في بنيات عملانية وضعتها الجمعية على امتداد التراب الوطني وحتّى في فرنسا، وذلك برغم الرقابة المنتظمة المفروضة من قبل السلطات الاستعمارية على وسائل العمل ومنها المدارس الحرّة، والمساجد والمدارس القرآنية والصحافة والنوادي

وكذلك مقارّ الجمعية. إن هذه الرقابة الموجودة في كل مكان لم تمنع المناضلين من الذهاب إلى مهمتهم خاصةً وأنهم كانوا مقتنعين بأنه ينبغي الاستفادة من أقصى مدة ممكنة لتحقيق العديد من الأعمال وتعبئة الجماهير حول أهداف واقعية. كان ينبغي العمل بسرعة لإصلاح الأسس الرئيسية للهوية الوطنية التي اقتصرت في ذلك الوقت على تقييم الإسلام وبعث الثقافة العربية وتعليم تاريخ البلاد، وقد ترافقت تأدية هذه المهمة الرفيعة الشأن مع تأدية مهمة أخرى ليست أقل حساسية تتعلق بتوحيد كل التيارات السياسية والدينية عن طريق التقريب بين مدارسها من أجل خلق تلك الوحدة اللاّزمة التي كان من شأنها أن تطلق عملية تجديد ضخمة وناجعة لصالح شعب كان في حاجة إلى كل طاقاته وكل إمكاناته ليتحرر ويتقدم.

العلماء أمام المؤامرة الاستعمارية

كانت تلك الوحدة لازمة، ولا نريد دليلاً على ذلك إلا الآثار التي خلفتها تلك المؤامرة البشعة التي نسجها المستعمرون الذين أبوا إلاّ أن يفرقوا بيننا بعد أن اغتصبوا واحتلوا أراضينا، إن جوليات بسّيس المعروفة بأحكامها الواضحة على الاستعمار قد كتبت هذه الفقرة التي تتهم علناً صليبيي القرن التاسع عشر:

"إن الفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية في فرنسا وبُعد أن أضعفتهما الجمهوريات اللائيكية راحتا تبحثان عن أراض "لأنجلته". إن حلم القيام بحرب صليبية جديدة ضد ّالإسلام، بواسطة الاستعمار على تلك الأراضي الثرية ببقايا مسيحية عتيقة اندثرت منذ زمن، كان الموضوع الدارج في قرن الرومانسية، إن هذه "الأنجلة الجديدة للوحوش" عبر إعادة "تنصير" البرابر الذين "أسلموا بصفة سطحية" حسب الخرافة التي وصلت إلى حدٍ نسبت لهم فيه أصلاً سلْتِياً أو

غائلياً كانت تغذي "السياسة البربرية" لفرنسا التي لم تكن موجهة إلى حماية تراث ثقافي أو حضارة مهددة، وإنما كان القصد منها إضعاف المسلمين".

وبالفعل كان المستعمرون يقولون: إن البربر – وهم يشيرون إلى منطقة معينة – عوض الحديث عن أغلبية سكان البلاد أو الأكثرية الساحقة منهم "يتمتعون باستعدادات للاندماج" ويواصلون قولهم بالتأكيد أن إسلامهم خفيف وسطحي لأنهم بطبيعتهم أعداء للعرب".

دائماً وبروح التفرقة نفسها كان كتابهم يقولون وهم يقصدون تغذية الالتباس: "إن البرابر أو قل القبائل، كما سنسميهم فيما بعد، يشكلون في مجال نسبهم جنساً متميزاً تماماً عن العرب، إن أصل القبائل الذي ضاع في غياهب الأزمنة مثل ما هو الحال بالنسبة لأصل المغاربة، لم يكن بالنسبة للكتاب الذين حاولوا أن يلاحظوا ذلك، سوى مجال واسع للتخمينات والتناقضات... كل ما يمكن لنا قوله عن ذلك هو أنهم بتحصنّهم في جبالهم فهم غير قابلين للترويض أكثر من العرب، وما يحملونه من كره لسكان السهول، كما أنّ لغتهم خاصةٌ وهي مقسمة إلى العديد من اللهجات تبعاً لقبائلهم، وكذلك التمايز في خصائصهم الفيزيولوجية، كل شيء، حتى ألبستهم وعاداتهم الغريبة آلت إلى جعلهم جنساً على حدة".

وهناك كتاب آخرون كانوا يشيرون دائماً وبلغة مبطنة إلى شبه الاستقلالية التي يتحلى بها البرابر قياساً على ما هي عليه بقية الجزائريين وكانوا يسلطون الضوء على علاقاتهم الحتمية مع فرنسا، ولنستمع إلى الجنرال ب.ج أندري:

"وفي الأخير، فإن الفهم الروحي الحقيقي للبرابر القبائل، من شأنه تاريخياً ومنطقياً أن يسمح بالوصول إلى شراكة فرنسية

قبائلية حقيقية مقبولة بكل حريةّ ومبنية على خلق مثال أعلى مشترك وتأسيس مصالح مشتركة، إن القبائل مرتبطون بأراضيهم ونظراً للتزايد السكاني الكبير وقلة الموارد الموجودة في بلادهم فإنه يتحتم عليهم الهجرة ليستطيعوا إعالة عائلاتهم وذويهم، إنهم إذن في حاجة إلى فرنسا (...) ألم يؤكد جول سيزار على الخلُق المستقل والانفعالي والشجاع للقبائل الغولية. أليس هذا الخلُق من شأن القبائل ؟".

ألم يكن خطيراً الإدلاء بمثل تلك التصريحات وتوجيهها إلى منطقة واحدة وإيهامها بأن الشعب البربري لا يوجد إلاّ في بلاد القبائل (إن كلمة قبائل وتكتب وتنطق بعربية فصحى) وهم يعرفون بالتأكيد أن كل مناطق المغرب العربي، ويقول آخرون كذلك بعض مناطق الشرق الأوسط، هي في الأصل مناطق بربرية، أمازيغية، أسلمت وتعربت أثناء الفتوحات الإسلامية، منذ قرون ولّت؟ بالتأكيد كانوا يعرفون ذلك! كما أنهم يعرفون التفاصيل، لأنهم عملوا بمواظبة مع مترجميهم واثنولوجييهم، حول أصل الشعب الجزائري وعلاقاته مع العالم العربي منذ التاريخ العميق وخاصة انطلاقاً من بلاد البربر "للبرانس" و"البتر" وهما الفرعان الرئيسيان لبني "ماغديس"، أي الأسرة الأمازيغية.

ألم يكونوا هم الذين ترجموا "حكاية" أبي زكرياء الورقلاني وأعطونا بعض المعلومات عن البرابر – كان بودنا أن نعطيها بأنفسنا إلى الشباب – وهذه المعلومات لها فائدة رئيسية. ماذا يقول الراوي زكريا 1078(م): " لقد علمنا أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، استقبل مجموعة برابر لواتة أرسلها له عمرو بن العاص. فسألهم:

– من أي "جماعة أنتم؟

– برابر من لواتة.

فتوجه عمر بن الخطاب إلى الحاضرين.

– هل هناك منكم من يعرف هذه القبيلة من بين العرب أو غير العرب؟

فتناول الكلمة العبّاس بن مرداس السلمي قائلاً: "لدي" بعض الأفكار عنهم، يا أمير المؤمنين: إنهم ينتمون إلى نسل بار بن قيْس. وكان لقيس عدد من الأولاد ومن بينهم واحد كان يسمى بار بن قيس وكانت طباعه صعبة نوعاً ما، وفي يوم من الأيام دخل في شجار ضد إخوانه وفرّ إلى البادية، فازدهر فيها نسله وكان العرب يقولون تبربروا، يعني تزايد عددهم".

لنواصل في حكاية زكريا الورقلاني، وإليك ما سمعناه من أحد المتحدرين من نسل أبي بكر، فحسب الراوي فإن عليّ ابن أبي طالب قال: "يا معشر مكةّ، يا معشر المدينة، إني أوصيكم أن تحسنوا سلوككم نحو الله ومعاملتكم للبربر، لأن هؤلاء سيحملون إليكم من المغرب العربي دين الله بعد أن تتركوه يضيع، إنهم هم الذين لا يبالون بأحد إلاّ بطاعة الله".

وقال هذا المتحدر من نسل أبي بكر كذلك: "عندما تأتي ساعة الكفاح، نحارب... والبربر فيما يخصهم يحاربون لنصرة دين الله".

وقال أخيراً (صاحب الحكاية). لقد علمنا عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها أنها رأت شاباًّ له ظفيرتان، واحدة في كل جهة وكان جميلاً وأنيقا. فسألت:

"– إلى أي مجموعة ينتمي هذا (الشاب) ؟

فأجيبت:

– هذا بربري.

فقالت:

– يعرف البرابر استقبال الضيوف والضرب بالسيوف وتلجيم الملوك كما يلجم الخيل".

نترك القارئ يقيم هذه المعطيات الإعلامية التي لا ينبغي الاستهانة بها في رأينا، لأنها تعلمنا من جهة أخرى إذا قرأنا هذه "الحكاية" أن أجدادنا البرابر كانت لهم علاقات جيدة مع العرب وأنهم بالفعل حاربوا من أجل الإسلام تحت أوامر عمرو بن العاص، وأنهم كانوا يتبوّؤون الأماكن الأمامية في الجيش، وبقَوا مع هذا الصحابي الشجاع إلى غاية وفاة عثمان بن عفان الخليفة الثالث الذي اغتيل العام 656 م.

ولنعد الآن إلى المستعمرين الذين بذلوا كل ما في.وسعهم لخلق الخلافات في أوساط الشعب ولتغذية الأقلية بهذه الروح الانفصالية، ألم يفهم هؤلاء الجنرالات الرسالة التي وجهتها لهم قبيلة قوية من منطقة القبائل والتي ورد فيها بكل وضوح:

"لن نتخلى أبداً عن ديننا، وإذا أرادت الحكومة أن تفرض علينا ذلك نطلب منها وسيلة لترك البلاد، وإن لم نجد وسيلة فإننا نفضل الموت عوضاً عن اعتناق دينكم (...) أما فيما يخص تنصيرنا فإننا نؤثر الموت على التخلي عن ديننا."

لقد عمل الكاردينال لافيجري بمعية عدد من الجنرالات بدون انقطاع طيلة السنوات الأولى للاحتلال لخلق الخلافات وتغذيتها في وسط الشعب، ذلك الشعب الذي ينتمي إلى أصل واحد ترجع جذوره إلى شعوب المسايسيل والمسيلاس والجيتول وحتّى أبعد من ذلك حسب بعض المؤرخين، ألم يكونوا يعرفون أن المتحمسين الكبار للإسلام وللوحدة الوطنية، ومن ثمة التعريب، هم أولئك الأمازيغ النبلاء من وادي الصومام، ومن سفوح جرجرة وقممها؟ إن هؤلاء قد

برهنوا على ذلك جيداً بإنشاء العديد من المدارس الحرّة والزوايا (31 مدرسة و33 زاوية في بلاد القبائل فقط في تلك الفترة نفسها) كما برهنوا على ذلك بتعبئة ذلك الشعب الشجاع الذي فهم منذ البداية أن أيّ محاولة لتصفية الاستعمار لم يكن لها أيّ معنى إن لم تبق العلاقات دائمة مع ماضيه.

ألم يكن عبد المومن الكومي بربرياً من تاجرة قرب ندرومة؟ وأبو زكريا يحيى بن أبي علي الزواوي، ذلك المفسّر العظيم، ألم يأت من جبال جرجرة؟ وأبو الحسن يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي الشاعر والنحوي الذي ترك لنا مؤلفات متميزة والذي سحر بذكائه وثراء معارفه كلاً من دمشق والقاهرة، حيث عاش زمناً طويلاً، وعبد الرحمن الثعالبي الولي الصالح صاحب مدينة الجزائر الشهير، ألم يأتيا من القبائل الكبرى؟ وأبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله الهواري والمعروف باسم ابن خفاجة الأندلسي الشاعر الذي ما زالت أشعاره الحزينة تغنى اليوم من طرف أساتذة النوع "الأندلسي"، ألم يكن فخوراً بانتمائه إلى تلك القبيلة البربرية الهامّة قبيلة وريغة التي تحدر منها الهواريون وابن أجروم الصنهاجي المازيغي المغربي وهو النحوي الذي لا تنقصه الشهرة والذي ترك لنا تحفة "الأجرومية"، ألم يأت من قرّومة من دائرة الأخضرية الحالية؟ وعبد الحميد ابن باديس، ألم يؤكد أنه فخور لكونه بربرياً من صنهاجة؟ والعديد من الآخرين وهم برابر أمازيغ أقحاح مثل الشيخ الفضيل الورتلاني وباعزيز بن عامر ألم يأتوا من تلك النواحي الناطقة بالبربرية؟ ثم ألم يكونوا من المدافعين المتحمسين عن القيم العربية الإسلامية؟ وآيت حمودة، العقيد عميروش الشهير والولد الشجاع لجبل جرجرة، ألم يكن ذلك العضو المتحمس لجمعية العلماء؟ وأخيراً تلك العائلات الكبيرة من الحضر والذين كنا دائماً نناديهم

"الفحصيين" والذين كانوا يشكلون البارحة، قبل الاستقلال بكثير، السكان الحقيقيين لمدينة الجزائر والذين يمثلون اليوم تلك الشريحة التي ندعوها عموماً "أولاد البلد"، ألم يأت أغلبهم إن لم نقل كلهم من تلك المناطق البربرية لأزفون ودلس وشرشال ومليانة وسور الغزلان والمدية؟ لنتساءل من أين الأبطال "علي لابوانت" وحسيبة بن بوعلي وزهرة ظريف والعنقاء أو الكاتبة الماهرة آسيا جبار – واسمها الحقيقي إملهاين – لنفهم ثراء بلادنا ونبل أبنائه الذين لم يلقوا أبداً على أنفسهم ذلك السؤال التغريبي: هل ينحدرون من "آيت" لا أدري أو من "أبو" لا أدري ماذا ولم يخطر ببالهم أبداً تلك الحكايات المتعلقة بالجهوية عندما وجب الدفاع عن الجزائر، كل الجزائر.

لقد وقف مثقفونا وقفة رجل واحد ضدّ سياسة تقسيم الوطن، إنهم أثبتوا دائماً أن الأمازيغ والعرب قد جندهم الإسلام الذي جمعهم في بوتقة واحدة منذ قرون، إنهم شعب واحد يتحد مع الدين واللغة والتاريخ والمشاعر والأحاسيس والآلام والآمال، شعب لا يمكن أن نقسمه أو أن "نمزقه" بهذه السهولة.

لنعد إلى ابن باديس الذي كان يقول في إحدى مقالاته الصادرة سنة 1938 تحت عنوان "كيف صارت الجزائر عربية":

"لا يستطيع أحد أن يؤكد أن الشعب الجزائري لم يكن أمازيغياً منذ تاريخه القديم، لا يستطيع أحد كذلك أن يؤكد أن مختلف الاجتياحات قد قضت على أمازيغيته، وبالعكس كلهم يستطيعون أن يؤكدوا أن الجزائر كانت لها دائماً تلك القوة للتغلب على الغزاة وأحياناً لإدماجهم في شعبه. ولكن عندما جاء العرب لنشر الإسلام وتلقين الأخلاق الحسنة وتأسيس العدالة وتطبيقها على جميع الناس بحيث لا توجد فروق بينهم وبين من جاؤوا لإدخالهم في الدين

الجديد، فإن الأهالي الأمازيغ اعتنقوا الإسلام ورضوا بتعلّم العربية، وهكذا فإنهم وجدوا أبواب الرقي مفتوحة أمامهم، وتناظروا في مجالات العلوم والثقافة، وتحالفوا بعلاقات الزواج وأخيراً فإنهم اقتسموا السلطة وكذلك مرافق الحياة، إنهم معاً بَنَوْا الحضارة الإسلامية وشهدوا على عظمتها ورفعوا لواءها بواسطة لغة واحدة، اللغة العربية وأخيراً فإنهم توحدوا في مستوى الطقوس والدين، صاروا شعباً واحداً يعيش المشاعر نفسها والأفراح والآلام نفسها.

فهل هناك من فرق بعد هذا عندما دخلت الوحدة القلب واللغة؟"

هل يمكن أن تكون هناك شكوك بعد هذا التصريح من صنهاجي خالص؟ الحقيقة أن مشكل البربرية هذا لم يكن بالأمس ولن يكون اليوم عامل فرقة بين الجزائريين خاصةً وأنه من الواضح أن التاريخ قد سوّى هذه المسألة منذ أربعة عشر قرناً، عندما اختار الأمازيغ أولاد هذا البلد الأصليين معسكرهم ودينهم وثقافتهم مع الاحتفاظ بقيمهم الأخلاقية التي من أهمها: الحرية والكرامة اللتان هما من الركائز التي ينبني عليها الإسلام.

توجد حقيقة أخرى يجب ألا نخفيها وهي أن هذا "المشكل" الذي حضره لنا أقطاب الاستعمار بعناية فائقة لم يجد أبداً الصدى المؤيد على مستوى الشعب الذي رفض دائماً أن يؤيد مثل هذا "المشروع" الذي يقصد منه تقسيمه، ولا على مستوى العلماء الذين شعروا بالخطر وتجندوا لتشكيل "صخرة" ستتحطم عليها كل المحاولات المزعزعة للاستقرار والتي تمس الشخصية العربية الإسلامية، وبالفعل فبرغم ردة الفعل الإيجابية من قبل الشعب ومن جميع المثقفين، فإنهم كانوا يعرفون أن المهمة ليست مريحة، كانوا يعرفون أنه يتحتم عليهم أن يترجموا إلى أرض الواقع برنامجاً مكملاً للبرنامج

الطموح للحركة الوطنية التي بدأت تنتظم بكيفية ملموسة وفعالة قصد تأجيج حرب التحرير.

العلماء والحركة الوطنية

إن العلماء الذين كانوا يؤيدون هذه الحركة تأييداً لا يشوبه تحفظ لأنهم كانوا منخرطين فيه كأعضاء كاملي العضوية، قد كان لهم، مع هذا، أسلوب مختلف لتسيير الشؤون السياسية وهو أسلوب معتدل كما أكد البعض وذلك ليتمكنوا من تأدية المهمة على وجه جيّد.

"هل كانوا يرون في ذلك وسيلة تكتيكية تحفظ حركتهم الإصلاحية ومدارسهم من المضايقات الإدارية والمحافظة بهذه الكيفية على عملية تربية الجماهير التي كرّسوا لها أنفسهم" حسب تساؤلات بن يوسف بن خدّة، الرئيس الأسبق للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في كتابه: "أصول أول نوفمبر"؟

أمّا الآخرون، مثل مصالي الحاج فإنهم كانوا لاذعين في تصريحاتهم تجاه العلماء، خاصّة بعد "المؤتمر الإسلامي" الذي اجْتمع يوم 7 جوان 1936 في مدينة الجزائر! إن هذا الأخير الذي كان رئيساً لنجم شمال إفريقيا وقتئذ كان يخطب بصفة رسمية في تجمع يوم 2 أغسطس 1936 في ملعب العناصر ليقول بشيء من المرارة:

"حقيقة، إننا نوافق على المطالب العاجلة، المتواضعة والشرعية المدرجة في ميثاق المطالب الذي قدمّ لحكومة الجبهة الشعبية التي سنؤيدها بكل قوانا لنراها تتحقق برغم ضعفنا لأن أصغر مطلب وأزهده يهمنا بالدرجة الأولى لأنه يساهم في التخفيف من بؤس السكان الأشقياء. وهنا ألتزم باسم منظمتي أمام الشيخ ابن باديس المحترم أن أفعل كل ما يستطيع الإنسان فعله لتأييد هذه

المطالب ولخدمة هذه القضية النبيلة التي ندافع عنها جميعاً، ولكننا نقول بصراحة وبصفة صارمة أننا لا نوافق على ميثاق المطالب فيما يخص ارتباط بلادنا بفرنسا والتمثيل البرلماني".

إن مشروع بلوم – فيوليت المؤرخ في يوم 30 ديسمبر 1936 كان يمنح الجنسية الفرنسية للنخبة الجزائرية مع التقيد في إطار احتْرام قانون الحالة الشخصية، فأجاب الشيخ ابن باديس هكذا في مقال له نشر في مجلة الشهاب بتاريخ فبراير 1937 : "إن الأمةّ الجزائرية تعتبر مشروع بلوم – فيوليت على أنه جزء زهيد من حقوقه وهي تقبله اليوم على أنه خطوة أولى يجب أن يتبع تطبيقها وبسرعة خطوات أخرى..."

فبرغم هذا التنازل الذكي لأب "النهضة الدينية" الذي كان يظن أنه يرى في هذا الوعد المتواضع خطوة أولى نحو الحل الكبير، فإن فرنسا التي كانت تنفتح على حاضر يتناقض مع تقليدها الديمقراطي، حاضر متحجّر ومتصلب، رفضت بالجملة المقترحات التي تضمنها ميثاق المطالب، فهل كانت فرنسا تفهم أنّ "رواد المؤتمر الإسلامي كانوا يأملون أنهم بحيازة الجنسية الفرنسية مع الإبقاء على قانون الأحوال الشخصية، فإن الجزائريين سيتحررون من سيطرة المعمرين ومن جهازهم الاضطهادي (قانون الأهالي والقوانين الاستثنائية)"؟ بالفعل فإن فرنسا ظهر لها أنه لا ينبغي أن تثق بالجزائريين حتى ولو كانوا معتدلين أو كان لهم ذلك المظهر مثل عبد الحميد بن باديس، لم يكن في إمكانها فيما يخص هذا الأخير أن تسكت عن العمل الناجع الذي كان يقوم به مع مجموع الوعاظ المصلحين ضد الأنجلة وتجنيس الجزائريين وبخاصة في بلاد القبائل وفي منطقة قسنطينة وفي الأوراس، إن الأرقام والنسبة المئوية (1 % فقط في منطقة الأربعاء ناث إيراثن) بليغة بما يكفي لتفصح عن مدى ما بلغته مهمة

العلماء من ملموسية، لم يكن في إمكانها أيضاً أن تسكت عن تلك الصرخة التي خرجت من أعماقه لتذهب مباشرة إلى قلب الشباب الذي كان ينتظر الوقت المناسب لينخرط في معركة المصير:

"وإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب"

بالفعل فإن ابن باديس والعلماء الذين لم يستطيعوا، مثلهم مثل الشعب الجزائري كله، تحمل التناقضات الدائمة بين المبادئ الديمقراطية التي كانت فرنسا تتغنى بها قد حاربوا بكل ما أوتوا من قوة ووسائل، ذلك الرفض الذي ووجهت به رغبتهم في الحصول على الجنسية الجزائرية التي كان المستعمرون يعتبرونها ضرباً من التمرّد، لقد وقفوا ضد قانون 1947 الشهير الذي يجعل من الجزائر عمالة من وراء البحر والتي كانت فيها التباينات صارخة إلى درجة أنه لا ينبغي التفكير في أي "إصلاح" قد تكون تفاعلاته العديدة تشكل عقدة لا يمكن فكها، إنهم لم يستطيعوا السكوت أخيراً أمام ذلك التزوير المنظم للانتخابات الجزائرية من قبل "الإدارة" بهدف منع أي تمثيل وطني، وكان ذلك التزوير معترفا به من قبل الجميع وكان في بعض الأحيان يبرَّر على أنه ضرورة للدولة، "إن ذلك الفصام بين القانون المعلن في باريس وخرقه الدائم في الجزائر يهيمن على الوضعية الجزائرية." وفي المقال نفسه... "ومن هنا تلك المأساة للعديد من الجزائريين الذين سجنوا لأنهم نطقوا بكل بساطة بكلمة الحرية التي كانوا ينطقون بها عفوياً لأن التمتع بالحريات الديمقراطية لم يكن مقبولاً لديهم" حسبما صرح به جان روس، في المجلة الشهرية "إفيدانس" (évidence الحقائق الواضحة) الصادرة في أكتوبر سنة 1954، قبل اندلاع ثورة نوفمبر المظفرة.

وهكذا، فإنه لا يسعنا أن نكون متأكدين اليوم، كما هو الحال بالنسبة للمؤرخين، لنصرح بأن العلماء كانوا قليلي النفع خلال الثورة وأن مواقفهم كانت مفرطة في الخجل، كما أنه لا يسعنا أن نتهمهم بذلك الحكم الخطير الذي مفاده أنهم كانوا "خارج الموضوع". إن الرزانة والحكمة توصياننا بأن نكون أكثر عدلاً تجاههم وأن نرجع مواقفهم إلى الزمان والمكان لنفهم أبعاد تلك المواقف والأسباب الحقيقية التي جعلت المسؤولين وقتها يتخذون تلك المواقف، فقد قال محفوظ سماطي:

"إن السلفيين الجزائريين الشبان لم يعتمدوا صرامة في مواقفهم، لقد قاموا بتنازلات كبيرة مقابل أشياء قليلة في الواقع، كانوا يعرفون الوضعية الكارثية للثقافة في بلادهم؛ وبالتالي فإنهم أرادوا تحسين الظروف القاسية التي كان يعيشها إخوانهم في الدين، لقد تيقنوا من أن أي "تقدم" يبدأ بالتغيير الثقافي، وكرس أتباع المدرسة الإصلاحية جهودهم لإنجاز برنامجهم التجديدي".

ويشرح محفوظ سماطي أيضاً أن الشيخ ابن باديس يعتبر أن الكفاح من أجل المحافظة على اللغة الوطنية هو كذلك شكل من أشكال الكفاح من أجل الوطن.

يجب أن نفتخر – عوض أن نتبادل التهم كما نفعله الآن مع الأسف – أن استقلالنا كان ثمرة كفاح كل الشعب الجزائري وأن كل واحد أضاف لبنة إلى البناية بنزاهة وإخلاص، كل واحد حارب بكيفيته وفي حدود الوسائل التي كانت بحوزته.

لا بد أن نرد الاعتبار أيضاً إلى مؤسسات أخرى ونعيد رجالاً إلى مراتبهم، والمقصود هنا الطرق والزوايا، وهكذا فإن النزاهة الأخلاقية

تأمرنا بتحليل مهمتهم بإخلاص كامل لنؤكد أنه إذا كانت بعض الزوايا قد التجأت إلى الظلامية والعار والخيانة والخساسة، فإن زوايا أخرى وهي أكثر عدداً قد أدت مهمات إيجابية جداً وقد شكّلت، قبل نشأة الحركات الأخرى بكثير، الإطار المثالي للمحافظة على قيمنا وعلى هويتنا الوطنية.

إن ابن باديس والعديد من العلماء الآخرين قد كانوا رواداً للطرق المختلفة قبل أن يعلنوا رسمياً عن توجههم، والشيخ الجليل كان في قسنطينة رائداً متحمساً للرحمانية.

لقد تم الإثبات أنه قام بتصحيحات للوثيقة الرسمية لهذه الطريقة وأن النص المصحح موجود في الأرشيف بالإضافة إلى الأحكام التي حررها؛ ولكن بقطع النظر عن هذا، أين الضرر؟ فهل يجب علينا أن ننظر بعدم الرضا إلى كل من انتسب إلى طريقة أو إلى زاوية أو إلى جمعية العلماء؟ فلماذا نعطي صفة "الشيطنة" لهؤلاء وأولئك إذا كانوا لم يقوموا بأشياء مخالفة للأخلاق أو أنهم لم يكونوا خونة للأمّة؟ علينا أن نترك هذا المظهر للمؤرخين ليقولوا لنا غداً بأقلام جادّة ومطمئنة، ما هو مسار كل واحد.

وفيما يخصنا، فإن واجب الحقيقة يأمرنا أن نضع العلماء في فترتهم وفي سياقهم وأن نقول ما هي المحن والمآسي التي تعرضوا لها تحت النير الاستعماري، لأنهم برغم الإجراءات المانعة للخطبة في المساجد ومنع تعليم اللغة العربية والمواد العلمية في المدارس، مع المراقبة المشددة أو التهديد بالإغلاق، وأخيراً برغم كل الإجراءات التعسفية فإنهم، وفي جو من التحدي، قد لقنوا الشبان فضائل الإسلام ونشروا بأوسع ما أمكنهم تعليماً نظيفاً وتنافسياً وحاربوا

في الوقت نفسه الآفات الاجتماعية: الإدمان الكحولي والقمار والكسل والجهل وكذلك كل ما كان بطبيعته محرّماً دينياً أو منبوذاً أخلاقياً.

المدارس الحرة للجمعية

لنعد إلى ذلك العمل المتواصل لنعرف مفعوله في مستوى الشبان خاصةً والجماهير عامةً، بالفعل إن مهمة العلماء حاسمة، فكيف لا يمكنها أن تكون كذلك عندما نعرف أنهم واجهوا بادئ ذي بدء الأهم، أي تكوين الشبان وتحسيسهم وتعبئتهم والقيام في الوقت نفسه بكفاح آخر في مجال الأخلاق والدين وهو مرهق أكثر مما يمكنك تصوره.

إن إنشاء المدارس المجددة لم يكن بالأمر الهيّن وذلك لأسباب قد تحدثنا عنها من قبل وهي تتعلق بدناءة الإدارة الاستعمارية وكذلك بالقيود والضغوط التي كانت تمارسها على مسؤولي الجمعية، لذلك، لو لم يكن ذلك التمسك بالشجاعة والمثابرة لكان مآل المشروع الفشل ولتبخرت عندئذ الآمال وامتدت الفرنسة إلى كل البلاد وتلاشى نفوذ رجال العقيدة والقيم وطموحات الشعب، كان في الإمكان أن يتأبد ذلك إلى يومنا هذا، إذا ما ألقينا نظرة تأمل على بعض البلدان التي كانت مستعمرة في قارتنا.

لقد كان لجمعية العلماء الفضل في القيام بحملة جادّة لتحضير الشروط الموضوعية التي تسمح لها بخوض غمار التربية والتكوين بأقصى الضمانات، فقد بادرت في البداية بتنصيب اللجان التربوية والبداغوجية عبر التراب الوطني بهدف تحسيس المواطنين للمشاركة مادياً في فتح المدارس وإرسال أبنائهم لتعلم لغة القرآن، "إن الذي يبتعد عن اللغة العربية، فكأنه يبتعد عن الله وهكذا فإن الذي ليس له

ذلك الحب ّلله، فإنه يذهب مباشرة إلى عقاب شديد" هذا ما كان يقوله الذين كلفوا بتحسيس الشعب لهذه العملية الحماسية.

وكانت النتيجة أكثر مما كان منتظراً لأنه من 1931 إلى 1938 كانت الجزائر، وفي عمالتي قسنطينة والجزائر، 153 مدرسة عصرية حيث يتم تعليم كل المواد الأدبية والعلمية بالإضافة إلى القرآن، وكانت الجمعية في تلك الفترة تسيّر كذلك 76 مدرسة قرآنية من أصل 2542 مدرسة عبر القطر الجزائري علماً بأن العدد الباقي كان تحت إشراف مسؤولي الزوايا والأئمة المستقلين، خلال السنة الدراسية 51 – 1950 كان عدد المعلمين يقارب 700 وذلك فقط في المدارس المسماة حرّة، حسب المعلومات التي وفرّها توفيق المدني.

أما الأستاذ محمد الهادي الحسني وهو رجل ثقافة ومربّي مؤكد ومناضل مقتنع للقضية العربية فإنه أثبت في ندوة صحفية، أن عدد المدارس الحرة كان يتجاوز 400 مدرسة والنوادي الثقافية كانت تقارب الـ 200. وكان يشرح بالحماسة التي تميز بها أن الإدارة الاستعمارية بلغ بها الأمر أن منعت استهلاك الشاي في النوادي حتى لا يكون هناك "زبائن كثيرون" في تلك الأماكن، تصورٌ مضحك، عندما نعرف أن المناضلين والمنخرطين كانوا لا يعتبرون النوادي الثقافية للجمعية على أنها "مقاهٍ مورية"، ولكن على أنها أماكن للقاء والإثراء المتبادل والنضال.

لقد كان ذلك قليلاً أو بالكاد كافياً للاستجابة لطلب المواطنين الذين كانوا يريدون رؤية أبنائهم يتعلمون اللغة التي حرمهم الاستعمار منها ! وفي كل الحالات، فإن المجهود كان متوفراً، فإن العلماء وعلى رأسهم ابن باديس قد قاموا بما هو ممكن بشرياً لنشر الثقافة في أوساط الجيل الصاعد.

كان لا بد من العمل من أجل المستقبل وقد كانوا مقتنعين بذلك حتّى النخاع، لأنه انطلاقاً من الشبان، كانوا يأملون في رؤية الشرارة التي تلهب البلاد في ثورة شعبية وفي كفاح مشترك سيشكل عامل الوحدة ولأنه انطلاقاً من الشبان أيضاً تستطيع جزائر المستقبل أن تعيد بناء نفسها في جوّ من التقدم وبفعالية كفيلة بأن ترفعها إلى مستوى القوى العظمى.

إن العلماء كانوا يعرفون، وتاريخ البشرية يثبت ذلك، أن أكثر من قرن من الاستعمار، كما هو الحال في بلادنا، يمثل عبئًا ثقيلاً في الحياة الاجتماعية والثقافية لأيّ شعب من الشعوب، وكانوا يعرفون من ناحية أخرى أنه إذا كان الاستقلال السياسي والاقتصادي يسمح للبلد بأن يتخلص من الوصاية الأجنبية بصفة عامّة، فإنها لا تستطيع أبداً أن تضع نقطة النهاية "لرواسبها"، لأن الاستعمار يترك دائماً وراءه بنية تحتية تخدم مصالحه وجيلاً مستعمَراً أو حتّى أكثر من ذلك، فقد كانوا مدركين للسياسة المعتمدة التي طبقها الفرنسيون الذين بذلوا جهدهم، بناء على أهمية العنصر البشري، للقيام بكل ما يلزم لإدماج الفرد الجزائري (وكانوا مهتمين بالطبقة الأكثر تأثيراً) واستعماره روحياً: كان ذلك هو الشرط الوحيد الذي يسمح لهم بتأسيس هيمنتهم ليس على جيل فحسب، وإنما على سلسلة من الأجيال تولد في مثل تلك الشروط، لقد تكفل بهم الاستعمار مستعملاً كل الوسائل لإعماء بصيرتهم.

كان العلماء قد بدؤوا يعيشون تلك المواجهة وهي نتيجة لمسخ شخصية الفرد تدريجياً وجعله مختلفاً عن مجتمعه، كانوا يعيشون ذلك بكل مرارة لأنها مواجهة تحدث تناقضات بين شريحتين كانتا

تأخذان شكل نزاع بين طبقة "تميل إلى الماضي" (الرجوع إلى تاريخ الماضي دون أن تؤخذ في الحسبان البنيات الاجتماعية الجديدة) وطبقة أخرى تميل إلى "النظرة المستقبلية" (إسقاط بنية اجتماعية عصرية دون أن يؤخذ الماضي في الاعتبار)، كان هذا أحد نقاط الخلاف الذي كان ينبغي أن تحارب بالنسبة لرواد الثقافة، لأنها النقطة التي تنطلق منها كل المشكلات وبخاصة الإيديولوجية واللسانية.

وبالفعل فقد بذلوا جهودهم لاستكمال إطار التعبير وإعطاء المعنى الحقيقي للعودة إلى الأصول، علماً بأن الكفاح المشترك الذي يقوم به الشعب لا يسمح لِمِثل تلك التناقضات أن تبرز علماً بأن العربية كانت تشكل عامل وحدة، فصرخ ابن باديس في قصيدته الشهيرة "شعب الجزائر" يقول:

"من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب"

كان الكفاح متواصلاً وأخذ منعرجاً آخر ذا دوافع ملموسة: إحياء كل ما استطاع الاستعمار دفنه وتخصيب الأرضية لتندلع الثورة في كنف الوحدة والتعبئة العامّة، وهكذا فإن فتح المدارس الحرّة، التي عرفت حشداً كبيراً، قد أعطت الفرصة لمسؤولي الجمعية لتنظيم حفلات هامة احتفاء بفضائل الشعب وقيمه وفي الوقت نفسه ليخطبوا أمام الجماهير الحاضرة وليحثوهم على تكثيف النشاط.

مَن بين شبان تلمسان، من جيل سنوات الأربعينيات، لا يتذكر ذلك المهرجان الثقافي الذي جمع تحت رئاسة الشيخ عبد الحميد ابن باديس العلماء الكبار لهذا البلد بمناسبة تدشين "دار الحديث"؟ مَن بين شبان باتنة، خلال الفترة نفسها، لا يتذكر الاحتفال الضخم، حيث الزواج بين البيداغوجيا والأدب الثوري كان بمثابة التنبؤ بالمستقبل القريب عندما صرح الشاعر النابغة محمد العيد آل خليفة بما يلي:

"من باتنة، حيث اهتزت البشائر، فالأوراس والشلعلع مندهشان من ذلك"

مَن بين شباب بسكرة لا يتذكر ذلك الافتتاح البهيج لصرح المعرفة والوطنية وتلك الحفلة التي أشرف عليها الشيخ البشير الإبراهيمي حيث قال الشاعر السابق الذكر نفسه بكل وضوح:

"إني أراكم بدون جدوى تهتفون ضد الظلم

اذهبوا إن أردتم النجاح نحو العلم

إني أراكم بدون جدوى تشتكون من عدوكم

تحملوا مسؤوليتكم... وحاربوه"

مَن لا يتذكر ذلك النشيد إلى الحرية، وهو القصيدة الشهيرة لابن باديس التي يقول فيها:

أين أنت إذن، يا حرية؟

"إن الأمم تحتفل بك وتقيم لك الأصنام والخُطَبَاء يقدسونك، والشعراء ينشدونك والكتاب يكرسون لك مهاراتهم.

يسقط الأبطال ويهرق الدم وتدك القلاع:

من أجلك، ولكن أنت أين أنت؟

كم من أمة تحتفل بك بينما تضع أمماً أخرى تحت نير الاستعباد!

كم من الرجال، أولئك الذين يشيدون لك الأصنام،

ليس لهم من شعار إلا هدمك في القلوب والعقول.

بحثت عنك عند الأغنْياء، في أحضان قصورهم

فلم أجد عندهم إلا عبيداً منهمكين كلية في غرائزهم...

بحثت عنك في كتلة الأكواخ، بين المساكين،

فلم أرَ إلاّ أشخاصاً كبلهم الفقر والعذاب.

بحثت عنك عند "الأقوياء" فرأيت طغاة مكبلين

بسوء نواياهم المتعطشة:

وهم طامعون، بكل وقاحة، في ممتلكات الضعاف.

بحثت عنك عند "الضعاف" فوجدت الرجل منهوكا من تعسف الأقوياء.

فأين أنت إذن، يا حرية ؟

هكذا، إنك تملئين تلك الصدور التي تضيء الإيمان،

مبجلة من تلك النفوس التي لا يد لها إلاّ الخالق

ويخدمك بحماس متوقد الذين

قد آمنوا بالله وبرسله.

يا حرية ! أيتها الحرية الغالية ! إننا نهواك بلا حدود.

أو قل، إننا نهواهم هم فيك.

إن حياتنا مرهونة بحياتهم وموتنا يلتبس بموتهم

ومن وراء حياتهم أو موتهم الذاتية

فالمقصود هو الحياة أو الموت لفكرهم

نتوسل إليك يا رب أن تنقذ بهم مخلوقاتك

وتنهض بلداننا وأن تلحقنا بهم في عالم آخر،

في ذلك الإخلاص الذي لا ينقطع...

والذي نغذيه تجاه فكرهم

وبالفعل، لم يمر وقت طويل حتى حمل الشبان السلاح، وكلهم كانوا من أولئك الذين عرفوا تلك المدارس وتلك الزوايا وتلك المدارس القرآنية وشبان آخرون من بين الفلاحين والعمال والطلبة، وفي منتصف الليل من تلك الليلة الخالدة من أول نوفمبر أسمعوا للاستعمار ماذا كان باستطاعتهم أن يفعلوا.

الكتاب الثاني

فرسان العقيدة والحريّة

الفصل الخامس

فرسان العقيدة والحريّة

فيما يلي سنتناول مساهمة رجال العقيدة في الجزائر منذ قرون، منذ بداية رسالة السلّم والنور لسيدنا محمد (صلّى الله عليه وسلم)، سنرى كيف نشر هؤلاء الرجال الكلمة الطيبة والممارسات الجيدة وكيف كوّنوا رواداً مخلصين لتجنيدهم في معركة المصير، عندما يدعو الواجب إلى ذلك، إن مثال بلدنا برهان ساطع على مدى التجنيد الذي حصل أثناء حرب التحرير في أوساط الشبان الذين تخرجوا من تلك المؤسسات التربوية والدينية التي كنا نقول عنها بشيء من الوقاحة، إنها صروح يتم فيها تعليم أدب حكم عليه أنه روحاني وآسر وفيه شيء من البلادة، ولكن الواقع يحتم علينا أن ننفي ذلك الحكم المتسرع والملآن بالاحتقار وأن ندلي بالتوضيحات المفيدة لنرد الاعتبار لأعمال كل أولئك الذين ساهموا في المحافظة على الإسلام وعلى قيمنا وعلى حريتنا ونرد الاعتبار لذكراهم كذلك.

يتحتم علينا في هذا الفصل أن نعطي شروحاً تساعد على فهم موضوع لم يستطع البعض، بناءً على نقص في المعلومات الموضوعية والنزيهة، أن يفهموا حتى الساعة أهميته أو على الأقل فهم الدور الذي لعبه أولئك الرجال الصالحون وزواياهم في نشر الإسلام في بلادنا وحتى في أماكن أخرى، لقد سبق لنا أن قلنا ذلك، لذا فإنه من الأهمية بمكان أن نلح على ذلك المظهر إذا أردنا تعليم

الشبان من خلال تقديم بعض المعطيات ليفهموا كيف كان مسار أولئك المكافحين، فرسان العقيدة.

فالعديد من الكتب لا يمكن أن تحتوي أعمالهم الغنية والهامّة، وسيغفر لنا القارئ عملنا المتواضع، ولكنه سيفهم من بساطة الكلام وأحياناً بواسطة تكرار متعمد أننا أردنا أن نقترب منه أكثر عبر الشرح والأسلوب لنبلغ له بكل نزاهة حياة أولئك الرجال ومدارسهم المختلفة وما هو مسارهم وما هي طموحاتهم الرامية إلى بلوغ المثل العليا للتقدم والفلاح، أضف إلى هذا أننا كما فعلنا بخصوص الزوايا فإننا سنذكر البعض من بين الصالحين وبدون تمييز ولكن ببساطة لنقول مرة أخرى إنهم لم يكونوا في حياتهم أولئك الرجال الذين نقصدهم لنطلب منهم حجاباً نرى فيه شيئاً سحرياً وواقياً، أو لنطلب منهم بركتهم، إن هؤلاء الرجال لم يكونوا من أصحاب المعجزات الخارقة للعادة، كما كان يقدمهم المستعمرون وبعض المستشرقين غير النزهاء، كانوا مثلنا كلنا يعرفون وكما يلاحظ ذلك المغفور له رابح اسطنبولي أن:

"عهد عصا موسى المعجزة التي كانت تتحول إلى حيةّ قد ولّى إلى الأبد وأن إيقاظ الموتى من قبل المسيح الذي كان كذلك ينُطق الصبيان في مهدهم لم يعد يمرّ وأن القرآن والنبي محمد (صلّى الله عليه وسلم) لم يعودا يتوجهان إلى حواس البشر، ولكن إلى ذكائهم وإلى عقلهم لأن معجزة القرآن ونبيهّ لا تلتقطها الحواس، فلا بد للرجال والنساء أن يتحرروا من الجهل ليدركوا تلك المعجزة".

إن أولئك الرجال أصحاب عقيدة وثقافة واسعة قد جعلوا الإسلام يسطع في كل النواحي الواقعة تحت تأثيرهم وحتى إلى ما

يتعدى ذلك في بلدان أخرى زاروها ومكثوا فيها لنشر عقيدتهم أو للتعليم في جامعاتهم الهامّة. سنعطي العديد من الأمثلة في هذا الفصل وسنحكي مسار أولئك "الأسياد" المشاهير الذين وصِفوا بأوصاف لا تليق بمقامهم، لا سيما أنهم كانوا في عهدهم أقطاباً للعلوم وأعلاماً في المجال الثقافي وقد ساهموا في الوقت نفسه في إعطاء الإسلام حياة داخلية متقدة نشاطاً، وحسبما أثبت ذلك أميل ديرمنغام إثباتاً قوياً فإنهم: "ردوا بأفعالهم على بذخ حضارة اغتنت فجأة، وعلى برودة الشكلية الشرعية؛ وأصروا على خواء خيرات هذا العالم كما يذكر القرآن، وعلى خطورة المعصية والوعيد بالعقوبات الربانية وفي الوقت نفسه فقد انقادوا أحياناً بكل هدوء وطمأنينة إلى مشيئة الله والإعلان بوضوح نوعاً ما عن أولوية الداخل على الخارج وعلى تطهير القلب في الطقوس الشكلية"، وهكذا أمكن لنا احترام الذكاء والمعرفة والتفاني عبر علماء توصلوا إلى تلقين أحسن أشكال التربية وإقناع الناس سواء عندهم أو في مناطق متطورة حضارياً، أمكن لنا أن نعرف كيف نحترم الرجال القيمين وكيف نتخلى عن الجو الحالي الذي نحط فيه، مع الأسف، من قدر كل شخص نابغ وفي غالب الأحيان عن دراية بينما نعامل بوقار وشرف أناساً أنذالاً سيئين لا يستحقون أيّ اعتبار منّا؛ وأخيراً – وهذه هي الرسالة الأكثر أهمية التي ينبغي أن يفهمها الشبان – أن الإسلام ليس بالنسبة إلينا "اكتشافاً" من اكتشافات آخر القرن العشرين هذا، إن الإسلام عندنا منذ قرون وهو مغروس في حياتنا اليومية، فهو جزء منا لأننا ننتمي إلى هذه الأمة الهامّة، فبفضل رجاله الذين نقلوا لنا بساطة العقيدة وبفضل مثقفيه الذين بذلوا ما بذلوا من أعمال لنتمكن من روحياته التي تنسجم مع التأقلم بالظروف الاجتماعية الجديدة، فبفضلهم كلهم

بقي إسلامنا صافياً يعني أنه لم تمسه عدوى التيارات الفكرية أو الاضطرابات الناتجة عن تأويل الروحيات، إلى غاية هذه السنوات التي مع الأسف تمّت فيها مواجهات أحدثتها عوامل خارجية وداخلية للإسلام، الشيء الذي غير ذلك الجوّ الذي أسسه عقبة بن نافع رضي الله عنه.

قد يظهر أن اختيار الشخصيات اعتباطي نوعاً ما، ولكننا سنفهم كما قال أحد الكتاب المشهورين أننا لم ندّع زيادة ما على العمل الرائع لأبحاث المؤرخين والكتاب الجزائريين والأجانب، لأنه يظهر لنا أنه كامل كما أننا قد اطلعنا عليه في الغالب.

ملحمة عقبة بن نافع الفهري

"سيدي عقبة، يكفي ذكر هذا الاسم أمام الرجل البسيط في ناحية بسكرة لنفهم الاحترام والتقدير اللذين يحظى بهما لدى السكان نظراً لرتبته وتأثيره ويقول آخرون لكراماته المجربة، ولكن لا يتحدث أحد أو لا يقال إلاّ القليل عن المحارب الذي كان والذي بقيت أعماله العظيمة تراثاً مشتركاً لبلدان المغرب العربي الإسلامي، لا أحد يذكر تنقلاته عبر مختلف المناطق من السيرنايك إلى القيروان التي أسسها لتثبيت تأثير الإسلام في هذه الجهة الغربية من تيهرت إلى طانجة وإلى شواطئ المحيط الأطلسي كل هذه الأشياء جعلت منه ذلك الرجل الذي تكفي كل صفاته الحسنة لتبرير الاحترام والتبجيل الذي نوليه لذكراه".

عقبة بن نافع من عشيرة النبي

اسمه الحقيقي هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري القرشي، ولد قبل وفاة النبي سيدنا محمد (صلّى الله عليه وسلم) ولهذا

اعتبرته تقاليد تلك الفترة من بين صحابة رسول الله من حيث النشأة فقط وليس مثل سابقيه الذين لهم علاقات وطيدة في الحرب (إلى جانب الرسول) من أجل نشر الإسلام، فعقبة هو آخر صحابي تشرف المغرب العربي باستقباله وتبنيه وحبّه حسب دراسة للجامعي موسى لقبال، أمّا الشيخ العدواني فإنه ادعى أن صحابة النبي الذين دخلوا إفريقية كان عددهم 39 وكان عقبة هو السابع في هذه القائمة، ويذكر النويري، الذي ترجمه دو سلان، أن "أول دخول لافريقية والمغرب العربي من قبل المسلمين تم في سنة 27 للهجرة (647م) وقد لوحظ في صفوف الجيش عقبة بن نافع من قبيلة فهر".

كان عقبة ينتسب إلى عمرو بن العاص ذلك القائد الذي فتح مصر، فقد كان أحد أبناء عمومته المقربين، ولهذا فقد كان له الحظ أن يتعلم منه الكثير وخاصةً في الأعمال الحربية خلال تلك الحملة الأولى ولم يتجاوز وقتها 14 سنة، إن أصحاب عمرو بن العاص الآخرين مثل مخلد الأنصاري وعبد الله بن سعد بن أبي سرح قد عطفوا عليه لشجاعته وحيويته ومبادراته التي تؤهله لاعتناق مهنة عسكرية لامعة كما كتب له أن يتحمل الأعباء الثقيلة للمسؤولية التاريخية.

هكذا أراد الله، إنه أراد أن يكون في ذلك العالم المكي الصغير وفي أرض العرب الخشنة التي عرفت القمع الشنيع وتحملت الوثنية المنبوذة وعند شعب لم يقم أبداً بدور رئيسي على المشهد العتيق القديم، أراد الله أن ينشأ في هذا القرن السابع الميلادي رجال له لهم إيمان لا يتزعزع، ليجعلوا تلك الأرض مهداً لآخر وحي سماوي وينتشر على قارتين، سيغيرون فيهما المشاعر الدينية مع فرض كلام جديد في كل زمان. وهكذا فإن زمن العرب الذين نساهم التاريخ قد أتى

ليصيروا في نفس الوقت ناشري الرسالة ومحط ثقة وناقلي الأخلاق التي كان عليهم أن يبلغوها للبشرية جمعاء.

إنه وقت الفتوحات لإدخال قبائل المنطقة في الإسلام وكذلك الشعوب التي كانت تعيش في محيطهم القريب وفيما بعد الشعوب الأخرى التي كانت لا تعرف أيّ دين أو التي كانت تعتنق اليهودية أو المسيحية، وفي تلك الأثناء كانت أوروبا تعيش في القرون الوسطى بظلاميتها وحروبها الداخلية من أجل السلطة وفي دسائسها واقتتالاتها الأخوية، فالعرب وهم أقوياء بدينهم الجديد الذي ألغى الاستعباد وأدخل علاقات اجتماعية جديدة وفتح ذراعيه للمضطهدين ليسمح لهم بالتمتع بعدالة أكثر وبتوازن، واسترسلوا في مناطق كانوا يعرفونها جيداً بفضل العلاقات التجارية. ففتحوا مصر وبلاد الشام والعراق وبلاد فارس وآسيا الصغرى والسند والهند ووصلوا إلى مناطق أخرى قد تعذر الوصول إليها من ذي قبل مثل القوقاز وجزء من الصين.

عقبة المشيّد

في المغرب العربي قاموا بحملة المصير لتحرير الأمازيغ من الاستعمار الروماني البيزنطي، تحرير أولئك الأمازيغ الراسخين بعمق في هذه الأرض، إن القبائل البربرية كانت تمثل بانتفاضاتها خطراً دائماً على الجيوش الرومانية في جبالها وسهولها.

عقبة بن نافع وهو قادم من مصر وبعد أن عبر مصر والصحراء الليبية وبعد أن احتل إفريقية، البلاد التونسية حالياً، على رأس جيشه، بعد كل هذا أسس مدينة القيروان سنة 670 م وهي مدينة تجاوزت شهرتها كل التوقعات، لقد بناها في أربعة أعوام وبعد الانتهاء من البنيان قام بهذا الدعاء:

"اللهم املأها بالعلوم والمعرفة واجعل (اللهم) أن يحتفل بين جدرانها بالإسلام واحفظها من طغاة الأرض القاسين".

وبالفعل نجد في هذا الدعاء كل شخصية عقبة وإصراره، مهما كانت الظروف، على تأسيس تقاليد جديدة وردود أفعال جديدة منبثقة عن ثقافة سليمة ستنشأ بكل عروقها في المدينة التي بناها ليحسس ويجند أناساً كانوا متشبعين بممارسات وثنية والذين كانوا يعيشون خاصةً بشاعة الاضطهاد والذل الاستعماري الدنيء، إن تَمَشّي دعاة الإسلام لم يكن كلاماً فارغاً ولا وعوداً واهية، ولكنهم أتوا لبناء ما من شأنه أن يبقى في شكل آثار تمثل عظمة دين يبجل الرجل ويضمن انعتاقه، هذا يعني أن الفتوحات ليست اجتياحات ولا غزوات هيمنة ولكن اتصالات في شكل حملات للدعوة إلى الإسلام لإقناع ونشر نمط حياة سليم وأكثر توازناً مما كانت تتبناه الشعوب في عهد الظلامية.

لقد قلد عقبة في أعماله صحابة رسول الله القدماء الذين شيدوا مدناً لتكريم الإسلام ونشره، اتبع مثال سعد بن أبي وقاص الذي أشرف على بناء مدينة الكوفة وعتبة بن غزوان المازني في بناء البصرة وعمرو بن العاص في بناء الفسطاط، وهكذا فإنه وقع تحت تأثير شهرة عمرو، ابن عمه، الذي بنى ما أخذ فيما بعد من قبل الفاطميين وسمي بالقاهرة في زمن المعزّ، ففعل عقبة الشيء نفسه في إفريقية واختار مكاناً جميلاً داخل البلاد ليختَطّ مدينته، "بعيداً عن البحر بما فيه الكفاية خشية هجوم عليها من قبل اليونان وقريباً من السبخة ليتسنى لإبل المسلمين الرعي قرب المعسكر دون أن تكون (الإبل) عرضة للسرقة".

غرس رمحه في الأرض وصاح: "هاهنا قيروانكم !" من الكلمة قرية (يعني تجمع سكاني)، فحسب عبد الرحمن بن عبد الحكم فإن اسم هذه المدينة قد يعني "محطة للقوافل".

فأثناء بنائه للمدينة، فإن عقبة قد حدّث أصحابه بمشاعره قائلاً وهو يريد أن يستثير لديهم روح المنافسة ويتمنّى في المقابل الحيازة على فهمهم له وبخاصة أن يضعوا ثقتهم به:

"يعتنق الناس الإسلام بسهولة عندما يكون أمير على رأس الحملة ولكن عندما ينتهي من مهمته ويذهب، فإن هؤلاء الناس يعودون إلى وثنيتهم، ولهذا فإنه من واجبنا أن نشيد على هذه الأرض مدينة قد نستعملها لنعسكر فيها ونسكن وتكون مفخرة للإسلام إلى نهاية الدهر".

وهذا كان يعني كذلك أننا لو أردنا للدين أن يترسخ بصفة جدّية يجب أن نقيم في المناطق المفتوحة وأن نعمل بكثير من الحصانة وباستمرار لتحويل الذهنيات وتربية السكان طبقاً للأخلاق الإسلامية الجيدة.

الإسلام في المغرب العربي

"اللهم اجعل أن يكون الإسلام مُحْتَفًى به بقوة بين هذه الجدران" لقد استجاب الله لدعائه هذا لأنه لم تنقصه النوايا الحسنة والمشاريع الشريفة والإنسانية التي تنفتح على نشر الإسلام بثقافته الجميلة وتراثه الثري وعلى ترقية العلم والفكر وعلى التكفل بمن يقوم بتعليمهما، كان عقبة يريد أن يجعل من تلك المدينة مركزاً للقاء المسلمين ونقطة انطلاق لكل الحملات والفتوحات الجديدة ولكن كذلك مركز إشعاع للثقافة والمعرفة وقطباً جاذباً يجتمع فيه في الوقت نفسه علماء ومتدينون وزهاد ومحاربون، وبالفعل فإن مدينة القيروان، بعدما شيدت، فإنها صارت نقطة انطلاق لنشاط حضاري كبير ومنها نشر الإسلام في كل المغرب العربي، فقد رأت في حضنها

ميلاد روح التضامن بين المسلمين، أولئك المحاربين في جيش عقبة والمسلمين الجدد، إن هذه الروح تعززت عند البرابر في عدد من المناطق لأنهم وجدوا في هذا الدين الجديد كثيراً من الراحة.

كانت القيروان تكتسي أهميتها كلما ترسخت المؤسسات السياسية والدينية لإرساء سلطة شرعية في بلاد قد اعتنقت الإسلام، وهذا ما جعل أحد المؤرخين يقول:

"لقد اعتنق العديد من البرابر الإسلام، وهكذا فإن مشروع المؤمنين بدأ يتوسع وسط عالم لم يواجه الإسلام بأي رفض لأنه قد أحس بالثقة وتمت طمأنته بمشروع المجتمع الجديد الذي كان بالفعل مشروعاً حضارياً جديداً، فثبت الإسلام لدى تلك القبائل ثم انتشر إلى قبائل أخرى، في مناطق البربر".

وعليه فإن عقبة بن نافع وبناء على حكمته لم يكن يظهر ذلك الوجه المنفر من العنف الذي كان – مع الأسف – يظهر لدى قادة آخرين خلال حملات مصر وسورية، مما شوّه المفهوم المسالم الذي نزل به الوحي الإسلامي، كان يفضل دائماً الاقتناع والإقناع على الطرق التأديبية التي، ومما يؤسف له، ذهبت بحياته عندما التجأ إلى استعمالها لأوّل مرّة لدى عودته من إفريقية وعندما استولت عليه النخوة المفرطة كي يدخل إلى الإسلام بسرعة بعض القبائل التي كانت صعبة المراس، سنرى ذلك بالتفصيل فيما بعد، فقد كان يقول:

"إن جهادي مهمة حضارية لأخبر وأدخل في دين الله أناساً كانوا يعانون من الظلم وضياع الحقوق وكانوا منغمسين في الكفر المفرط. وبالتالي فإنه يجب عليّ عبر عملي العادل والتربية أن أوفرّ الثقة لتلك القبائل البربرية لأوصلها إلى الإيمان الحقيقي وأهديها إلى

سبيل النجاة وأن أهيئها إلى الحياة في عالم آخر مفعم بالأمل والفضيلة". لم يكن ليعجب أصحاب الخلافة في دمشق، فعزله معاوية بن أبي سفيان من قيادته بعد تحريض أو "تآمر" من قبل رفيقه القديم في السلاح، ابن مخلد الأنصاري حاكم مصر الذي كان يريد إرسال أحد أتباعه إلى المغرب (العربي) علماً بأن عقبة لم يكن ليخضع بسهولة إلى إرادته. وبالفعل لقد تم تعيين أبي المهاجر دينار وهو تابع من الأتباع وليست له درجة النبل التي كان يتمتع بها سلفه المخلوع لقيادة جيش المغرب. فبرغم الخذلان الذي تعرض له عقبة وبرغم ما تميز به خلفه من عدم اتزان، إلا أن كل ذلك لم يمنع من مواصلة التوجه الذي يقضي بالمضيّ إلى الأمام في المهمة التاريخية لنشر الإسلام التي تواصلت إلى غاية عودته، بعد سبع سنين، عندما خلف يزيد بن معاوية أباه، حينئذ قام عقبة بن نافع الفهري بحملة أخرى طويلة وحماسية كانت بالنسبة له مجموعة من الانتصارات غير المنقطعة إلى أن توفّاه الله.

من بغاية وهي معسكر بيزنطي تحت الأوراس وقرب خنشلة إلى منطقة الزاب وإلى أربة الرومانية قرب مسيلة وإلى وادي القصب وإلى وادي شلف ووادي مينة ثم تيهرت (تيارت)، قام عقبة في كل هذه المناطق بحرب لا كلل فيها ولا ملل ضدّ البيزنطيين وقد انتصر عليهم. كان الإسلام حينئذ يترسّخ بصفة أكيدة في كل تلك المناطق ولم تبد القبائل البربرية، على العكس مما قاله وما زال يقوله الغربيون، أي تحفظ على ذلك المشروع الرائع الذي غيّر حياتها بصفة جذرية.

لقد التفت حول كلمة واحدة وممارسة واحدة لأنها كانت مقتنعة اقتناعاً عميقاً بصحّة الرسالة وصلابة المبادئ.

إن الكونت جوليان بعد أن سلم نفسه لسيدي عقبة وهو في طريقه إلى المغرب الأقصى قد اعترف في طانجة وفي تعليق نزيه وهو يتحدث عن الفتح العربي:

"لقد كان الفتح مضايقة لطيفة، تجلب إلى الهداية عوض أن تفرضها فرضاً".

وفيما بعد اهتدت إلى الإسلام قبائل بربرية أخرى، وهي قبائل يؤكد عنها بعض المؤرخين العرب "أنها تشكل شعباً قد أعطاه الله العنف وعدم التبصر". فهل هذا التأكيد صحيح! وذلك التأكيد الآخر الذي يثبت أن انتصارات العرب كانت دائماً عرضة للتراجع وخلال ذلك التقدم في بلاد البربر لاحظنا الخلط بين التبصر والجرأة الذي ميز الفتح العربي ! في كل الأحوال فالنتائج يمكن معاينتها، إن العرب ليسوا غزاة مغتصبين ومهيمنين، لقد كانوا في الواقع متحمسين للعقيدة ولهذا فإن الأغلبية الساحقة للبرابر قد قبلوا بهيمنة المسلمين الجديدة، فهيبة سيدي عقبة لا غبار عليها وكذلك مهارته في المناورة، وبفضل هذه الصفات دخلت منطقة المغرب الأقصى أو ما يسمى بالمغرب حالياً في التاريخ الإسلامي علماً بأنه كان مركزاً منيعاً وممتنعاً على الفتح العربي كما كان ممتنعاً على الرومان بسبب عزلته الناتجة عن السلسلة الجبلية.

وبالفعل فإن برابر السوس الأدنى وهم من قبيلة مصمودة الكبيرة، قد هداهم الله للإسلام وكذلك برابر وليلي وهي مدينة قريبة من جبل زرهون بين واديين حيث بنيت مدينة فاس التاريخية قرب أحد الواديين، ثم جاءت قبائل أخرى لتضاف إلى صفوف المسلمين: قبائل التافيلالت وعندها بنيت المدينة الإسلامية سجلماسة، وقبائل الأطلس

العالي التي تنتمي إلى صنهاجة الجنوب الذين كانوا يتلثمون، تلك القبائل التي كنا نسميها فيما بعد "المرابطون" وأخيراً قبائل أغمْات وهي المدينة التي بنيت بجانبها مدينة أخرى أكثر شهرة وهي مراكش.

فلأن تلك السيادة العربية قد بلغت أوجها في التألق بواسطة رجال من الطراز الأول مثل سيدي عقبة فإن المغرب العربي كله قد تمت هدايته بسرعة، وهكذا فإن هذا الدخول بزخم في الإسلام، كان من شأنه أن يدفع ذلك الفاتح إلى غاية شواطئ المحيط الأطلسي وهنا وبعد أن أوقفه المحيط، فقد أشهد الله على نفسه أنه لم يستطع الذهاب أبعد من ذلك.

موت سيدي عقبة

بعد عودته من تلك الحملة الرابحة التي تبلور عبرها الإسلام وتدعم لدى السكان البرابرة في المغرب العربي الذين لم تكن تنقصهم فضائل السلف والذين أقسموا على أنهم سيحافظون على ذلك المكسب، فإن سيدي عقبة قد وقع في عدم التبصر عندما أرسل الجزء الأكبر من جيشه إلى القيروان وترك معه بعض الفرق في تهودا وباديس في منطقة بسكرة، لم يخطر بباله أن مغيبه من تلك المنطقة الحماسية في المغرب الأوسط، ولكنها كذلك مشاغبة، قد يتولد عنه مشكلات خطيرة للأمّة ومنها المؤامرة التي تم تحضيرها للقضاء عليه واغتيال نائبه زهير بن قيس البلوي في دينا على الشواطئ الليبية، وفيما يخص البيزنطيين فإنهم لم يستطيعوا نسيان إبعادهم بعد أن برهنوا على قوتهم وأسسوا قوانين في هذه المناطق التي كانوا يستخرجون منها فوائد جمّة، فإن سيدي عقبة الفاتح والقادم من أراض قاحلة، والذي يحمل الرسالة الربانية منذ فترة قريبة، جاء

ليلقي عليهم بِظلّه ويزعجهم في أعمالهم، فلا بد إذن من أن يختفي، فوضعوا جائزة لمن يقتله منتهزين في ذلك فرصة غيابه عندما كان في المغرب الأقصى بسبب الفتوحات، فحاول البيزنطيون بكل قواهم أن يجلبوا إليهم القبائل البربرية كي تتبنى قضيتهم، ولكن عمليتهم باءت بالفشل، لأن تلك القبائل قد اختارت طواعية الدين الإسلامي وكانت مقتنعة بصحة رسالته.

غير أن هناك نخوة الفاتح التي لامه التاريخ عليها بسبب بعض التدخلات غير المناسبة، لأنه أصيب بتعصب تَقَوِيٍ، ذهبت به جسارته للتهجم على قائد بربري كبير وهو كسيلة الذي كان في جيشه بعد أن اهتدى إلى الإسلام، ارتكب عقبة غلطة. قام بحركة – هي في رأيه بريئة – قد أولّها الآخرون على أنها إهانة خطيرة، إن تلك الحركة قد كانت السبب في تغيّر مجرى الأحداث وخلق أحداث أخرى، مع الأسف، أكثر بؤساً إذ رأت القبائل أنه مفروض عليها أن "تواجه بشجاعة الغزاة" للدفاع عن كرامتها.

ماذا جرى بعد ذلك بين كسيلة قائد البربر الذي لا يمارى، وعقبة؟

"أخذ عقبة (كسيلة) معه في حملته الكبيرة ولكن عوض أن يشهد له بالاعتبار الذي هو أهل له نظراً لمقامه ومدى تأثيره، فإنه لم يبخل عليه بالإهانات، وفي يوم من الأيام فرض عليه أن يذبح شاة وأن يسلخها أمامه، فبعد هذه الإهانة الخطيرة نجح كسيلة في الفرار، فباشر عقبة في مطاردته ولكن كسيلة بعد أن جمع البرابر الذين التفوا حوله، تراجع أمام عقبة إلى أن أحس بأنه قادر على سحق خصمه، وذلك ما حصل بسرعة"، حسبما ذكره النويري.

كانت المعركة في أوجها عندما رأى سيدي عقبة أنه محاصر بجنود كسيلة فقام بصلاة قصيرة ثم طلب من جنوده أن يرتجلوا. "فاستلوا سيوفهم وعلقوا أغمادها لأنهم شعروا أنهم لن يحتاجوها". حسب ما قال ابن خلدون، ومن هنا لا بدّ أن نضبط شيئاً وهو أن انتفاضة كسيلة لم تكن في مناهضة الإسلام ولكنها كانت بسبب الإهانة التي سلطت عليه، لا بد أن نثبت ذلك لأبنائنا ولمن لا يزال يلح على أن عقبة بن نافع كان غازياً وبالتالي أن العرب قد اغتصبوا هذا البلد وفتحوه بالقوة.

هكذا انتهت الحياة الجهادية لسيدي عقبة بن نافع الفهري، الرجل الذي لا يمل، سنة 64 هجرياً (684 م). كانت تلك النهاية المجيدة هي التي كان يرغب فيها لأنه قبل أن يغادر القيروان، جمع أبناءه وقال لهم ما يلي:

"لا أدري إن كنت سأراكم أبداً لأن رغبتي أن أموت في سبيل الله". وأكد ابن خلدون أن عدد شهداء تلك المعركة في تهودة كان مرتفعاً، لقد كانوا أكثر من 300رجل، البعض منهم قدماء صحابة النبي (صلّى الله عليه وسلم) والآخرون من أتباعهم ومن بينهم أبو المهاجر دينار الذي، برغم الخلافات التي تبعده عن سيدي عقبة، لم يستطع تركه وحده أمام محنة قاسية.

بعد وفاة الفاتح الشجاع سيدي عقبة، ظن البيزنطيون أنهم سيرجعون بقوة – بدعم من كسيلة – واستعمار المغرب العربي مرّة ثانية، ولكنهم لم يحسبوا حساب إخلاص هذا الأخير (كسيلة) وإخلاص القبائل البربرية التي أسلمت والتي كانت تؤيده، كما أنهم لم يحسبوا حساب تطور الوضعية في الإمبراطورية الإسلامية تحت

قيادة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي أحدث بلا مراء دولة عربية، فمر من التنظيم القبلي القديم إلى مستوى مملكة مركزية، إن ذلك الخليفة قد عين زهير بن قيس البلوي حاكماً لإفريقيا، لقد كان أحد نواب عقبة ولم يبرح مكانه في المغرب العربي، ومشى هذا الأخير نحو القيروان بعد أن تعززت صفوفه بالجيش والأسلحة، ليحررها من قبضة كسيلة الذي تحالف بصفة ظرفية مع البيزنطيين وقبائل البرانيس الذين هم من الأوراس ومنطقة قسنطينة، التقى الجيشان في وادي مامس وهنا قضى كسيلة نحبه في خضم المعركة، وتمت مطاردة جيش كسيلة إلى غاية وادي ملاق قرب مدينة الكاف.

بعد اختفاء زهير بن قيس الذي كان ضحية لمؤامرة بيزنطية والذي تم اغتياله في درنا على الساحل الليبي، أرسل الخليفة حسان بن نعمان الغسام إلى المغرب العربي فطهر قرطاج من الاستعمار البيزنطي وسمح للإسلام بالمكوث بصفة دائمة في هذه المنطقة من إفريقية.

عمل عقبة التقي

سيدي عقبة صار شخصية تراثية لمجموع المغرب العربي المسلم. فالأطلال والآثار الشاهدة على ذلك الرجل الفذ الذي عرفه تاريخ ناحيتنا لا تزال ماثلة هنا برغم التآكل والتجاويف وبرغم فترة الخمسة عشر قرناً التي مضت عليها والتي جاءتنا عبر فضائل الدين الصالح والطاهر، إن الأطلال والآثار متفرقة في كل المناطق، والجذور النبيلة والعميقة لفهر ولقيس ولقريش ماثلة كذلك منتشرة في كل مكان، لقد عرف سيدي عقبة، منذ البداية، كيف يوفق بين أهمية الثقافة ودورها وكذلك العلاقة التي يجب عليها أن توثقها مع الدين

وبين سلطة هذا الأخير، لقد تبعه مدّة طويلة بعد ذلك في القرن التاسع عشر رجل آخر للعمل بالتوجه نفسه والطموحات نفسها: الأمير عبد القادر بن مُحْيِي الدين الجزائري، أليس كل واحد منهما متحدّرا من نسب قريش حتى لو كان الزمن الذي يفرق بينهما هاماً جداً؟

ينبغي أن ندرس ما خلفه سيدي عقبة من الناحية الروحية والسياسية وليس هذا بالمهمة السهلة، يجب أن نحتاط إزاء النزاهة الذهنية لنقول لأبنائنا – الذين يشكلون الجيل الذي يجب أن يعرف التاريخ الحقيقي وبدون أي مركب وربما بكمية من الانفعال والفخر – أن سيدي عقبة كان أولّ من هدى سكان المغرب العربي إلى الإسلام وذلك عبر فتح سلمي وإقناعي وتوحيدي، فلو لم يقع ذلك الخطأ من قائد متحمس في المسار – وقد ذكرنا ذلك – لكانت مهمته قد تمت بصورة كاملة، ومع هذا فإن حصيلته مشرّفة جداً إذا ما قورن بآخرين حيث كاد بعض القادة الأفظاظ أن يشككوا في السمعة الاستثنائية للمهمة الملقاة على عاتقهم، وهكذا فإن الإسلام، بقطع النظر عن هذه السلوكيات، "إذ استطاع أن ينتشر بمثل تلك القوة وتلك السرعة في كل الجزيرة العربية في البداية ثم من المحيط الأطلسي إلى بحر الصين، فذلك لأنه أعاد معنى للحياة بالنسبة لشعوب أربكتها تفككات أممها وثقافاتها وإيمانها"، حسب ما قاله روجيه غارودي.

إن عمل سيدي عقبة عظيم، لقد فتح هذا الفاتح أبواب المغرب العربي وأدخل الإسلام إليه، أليس كثيراً ما أنجزه إلى جانب المساجد العديدة وتلك المدينة التاريخية، القيروان التي ما زالت إلى يومنا هذا رمزاً للإيمان ولعظمة الإسلام ؟

كما أن مجيء هذا الصحابي الأخير للنبي (صلّى الله عليه وسلم) إلى أراضينا لهو مفخرة لمن يدرك ويقدر هذه اللفتة من قبل

السلطة المركزية وهي لفتة تذكرنا أن انتماءنا إلى الإسلام يصعد بعيداً في التاريخ، لهذا في أغلب الظن، نجد أنه محلّ تبجيل محلي مكثف، إن الأسطورة تنسب إلى سيدي عقبة وكذلك إلى كل المحاربين الأتقياء من أجل الحرية والإيمان، شتى المعجزات التي ليست إلاّ كرامات في لغة الدين في ذلك العصر.

يذكر عبد الرحمن بن عبد الحكم، أثناء إحدى الحملات: "أن جيش عقبة كاد يموت عطشاً؛ فقام البطل للصلاة وفي تلك الأثناء حفر فرسه الأرض فتفجّرت منها عين".

ويذكر معجزات أخرى تتعلق ببناء القيروان: "إن موقع المدينة المختار كما ذكرنا ذلك كان يعج بالحيوانات الضارّة، فصاح عقبة: يا سكان هذا الوادي، ابتعدوا، يرحمكم الله ! وفي الحين أخلت الحيوانات الوحشية المكان".

إن الكاتب نفسه يذكر كذلك تلك المعجزات ويروي لنا مستعيناً بأمور خارقة للطبيعة فيما يخص بناء مسجد القيروان: "كان (المسجد) أولّ مبنى من نوعه يشيدّ في إفريقيا وبالتالي فقد كان من الأهمية بمكان تحديد وجهة القبلة بأكبر دقة ممكنة، وكان ذلك المشكل مزعجاً إلا أن عقبة رأى في المنام وجهاً يقول له: عندما يأتي النهار إنه سيسمع أمامه صيحة "الله أكبر"، التي لا يسمعها أحد غيره، عليه أن يتبع ذلك الصوت وفي المكان الذي تتوقف فيه ولا يسمعها فهنالك يوضع المحراب، وفي صباح الغد تمت تلك المعجزة وهكذا جرى توجيه المسجد الكبير في القيروان".

وبالتالي، فإن التراث الذي تركه سيدي عقبة عظيم، وذلك لأنه بادئ ذي بدء هو والعديد من أصحابه، شهداء الإسلام، قد تم دفنهم

في تهودة، تلك القرية الصغيرة التي صارت تحمل اسمه والتي توجد قرب بسكرة، وهي كذلك المكان الذي جرت فيه معركة المصير المشهورة، ثم أن ضريحه ما زال اليوم مقاماً يزوره العديد من الزوار وهو محترم، يأتي إليه المؤمنون للتأمّل والتدبّر في ذلك المكان المغمور ببركة الله، سيدي عقبة – والمقصود هنا المدينة – تعتبر مكاناً مقدساً لاسيما في المغرب ولكن كذلك في كل المناطق الإسلامية الأخرى وذلك باعتبار العدد الهام للشهداء الذي لا يوجد في أي مكان آخر حسب تاريخ تلك الفترة.

سيدي عقبة المدينة مكان مقدس للحج حيث يأتي المؤمنون لاسترجاع قواهم وحفظ القرآن والسنة وأخلاقها، والفقه وأسسه وكذلك علم التوحيد. سيدي عقبة مركز إشعاع للثقافة الإسلامية ومدرسة رفيعة المستوى لتكوين الشبان في الشؤون الدينية.

سيدي عقبة الرجل المقدام والمحارب ورجل الإيمان، أليس حاضراً في الذاكرة الجماعية لشعوب المغرب؟ وبالفعل لأن المحارب التقي برغم حملة ماكرة شنُّت الأمس واليوم من قبل بعض مريدي التفرقة وذوي الأهداف الانفصالية، فقد ترك أثراً لا مراء فيه في بلادنا، بذلك المنعرج الكبير للقرن الأول للهجرة، وهو علامة تطور ومنها تمَّ الطلاق مع العقليات الجهوية والقبلية في العالم القديم، بما في ذلك الجاهلية العربية قبل الإسلام وذلك دون أن يمس شخصيته القوية الجزائرية، وأخيراً وللردّ على كل منتقديه الذين ينعتونه في معنى أو في آخر أنه "معتد" أو كذلك "مُعَمِّر"، فإننا نوجّه لهم في شكل جواب كلمات لمصطفى لشرف وهو رجل واع ومتوازن وعاقل وملآن بالمعارف... عساه يتوصل إلى إقناعهم ! إنه يكتب: "عبر موت عقبة بن نافع وذكراه

اللتين استولى عليهما أعداؤه في ذلك الوقت وأبناؤهم من بعدهم يمكن لنا أن نفهم كيف نظر البربر طوال القرون الأربعة أو الخمسة أو أكثر من ذلك وكيف اعتبروا حركته رسالة تبشيرية، برغم التشدد والحماس الشرس الذي وضعه في قمة أخلاق تلك الفترة، عندما سقط عقبة في ميدان المعركة في تهودة، غير بعيد عن المكان الذي سيكون ضريحاً وبرغم أن كل رفقاء سلاحه تم القضاء عليهم أو شتتوا، فإن جثمانه قد حمل بصفة ورعة وأقيمت له جنازة في قبر شيدّ عليه فيما بعد مسجد لتلك المدينة الصغيرة التي ما زالت تحمل اسمه، أضف إلى ذلك أن العاصمة – وهي قاعدة العمليات التي أسسها (القيروان) – لم يتم هدمها ولا تخريبها من طرف المنتصرين عليه وذلك عكس أعراف الحرب في تلك الأزمنة البعيدة، وذلك لسببين: أولهما أن من بين البرابر في تلك المنطقة ممن كانوا مع جيش كسيلة كان هناك مسلمون بالرغم من أنهم حديثو الإيمان. وثانيهما لأن عقبة القرشي كان معتبراً وبحق من طرف المهتدين الجدد وحتى من طرف أعدائه على أنه تابع من الدرجة الثانية، أي خلف ومقربّ من الجيل الثاني من أهم صحابة النبي (صلّى الله عليه وسلم). لهذا السبب نفسه وعندما ألغت العائلة الصنهاجية الزيرية وصاية الفاطميين، التي أضحت اسمية، عندما استوطنوا القاهرة التي أسسوها على أنها المقر الجديد لإمبراطوريتهم، فإن ملكاً من هذه العائلة البربرية الحاكمة، المعز بن باديس، هو الذي أصلح ضريح عقبة بن نافع والمسجد الأول للإسلام المغاربي في القيروان وقد أهدى له هدية كانت عبارة عن مخطوط مصحف موقع بيده على صفحة العنوان، وقد أنشأ لصالح المسجد حبُسُاً".

وكتب مؤرخ آخر: "إن إنشاء حبُس في حدّ ذاته لصالح المسجد الكبير في القيروان له معناه، ويضاف إلى مجموعة من الأعمال حيث

يبرز فيها الأمير المعز بن باديس احترامه لما أسسه أحد صحابة النبي (صلّى الله عليه وسلم) المتمثل في سيدي عقبة.

عبد المؤمن الكومي موحد المغرب العربي

كان الأب منصرفاً إلى عمله... كان يصنع أواني من الطين، وكان ابنه نائماً نوماً عميقاً بجانبه، على مقربة منه وفجأة سمع الأب طنيناً كبيراً في السماء فرفع رأسه وإذا به يرى غمامة سوداء ظهرت وكأنها سرب من النحل، وبالفعل كانت سرباً رآه ينزل ويغطي جسم ابنه الذي كان غارقاً في نومه العميق ولم يستيقظ.

فعندما رأت أمه النحل يهاجمه صاحت صيحات اندهاش وكانت تخشى الأسوأ لابنها، فقال لها الأب:

– لا تَصِيحي !

فأجابته:

– أنا خائفة على ابني.

– لا تخافي إنها لن تمسّه بأي سوء !

وبرغم هذا فقد كان قلقاً ولم يعرف ما المقصود من كل ذلك، قام وذهب ليغتسل ويبدل ثيابه. ثم رجع بعد ذلك بقليل ووقف أمام ابنه النائم وهو حائر وحاول أن يعرف سرّ ذلك الاجتياح النحلي.

لم يبق طويلاً ينظر إلى الطفل في تلك الوضعية الخطرة حتّى طار كل النحل واستيقظ سالماً معافى.

ذهب الأب ليرى أحد جيرانه وهو معروف بحكمته وتحاليله المتميزة وبعد أن حكى له الحدث، أجابه الجار بهدوء وبكثير من

الاحترام: "سيكون لهذا الشاب مستقبل كبير ويتجمع تحت سلطته كل شعوب المغرب العربي ؟

من هو عبد المؤمن ؟

لا نعرف بالضبط تاريخ ميلاده ولكن المؤرخين يتفقون في القول إنه يرجع إلى القرن الخامس الهجري يعني في القرن الحادي عشر الميلادي.

ومع هذا فقد حاول عبد الواحد المراكشي أن يكون أكثر دقة فأثبت أن ولادته كانت في نهاية سنة 487 هـ في وقت يوسف بن تاشفين وكانت وفاته في شهر جمادى الثانية من سنة 588 هـ. وكان أبوه حسب المؤرخين قاضياً وواسع الاطلاع في الأدب حسب البعض، وكان خزافاً حسب البعض الآخر ويؤكدون أن انتماءه إلى تلك المهنة أقرب إلى الحقيقة.

وفيما يخص نسبه كذلك فإن الآراء تختلف ولكن أغلبهم يتفقون على أن عبد المومن سليل النبي (صلّى الله عليه وسلم).

إن أبا بكر الصنهاجي المعروف باسم البيدق وهو أحد أصدقاء ابن تومرت وعبد المومن نفسه، كان يقول: "إن الخليفة رضي الله عنه، هو ابن سليم بن منصور بن قيس بن عيلان بن مضر، جد النبي (صلّى الله عليه وسلم). جاء أجداده إلى تلمسان هاربين من النزاع في الأندلس واندمجوا بسهولة مع الجوار بعقد تحالفات".

ونفهم بدون عناء لماذا ينسبه الكثير إلى ذلك الأصل البربري، لأن كونه ولد في أرض المغرب العربي وفي تاجرة قرب ندرومة في وسط القبائل البربرية حسب المؤرخ نفسه، البيدق، فهذا يعطيه الحق

أن ينتسب إلى ذلك العنصر الإثني باعتبار علاقات الأرض والدم وبالعكس، كان المراكشي يؤكّد أن عبد المومن نفسه يثبت:

"إن أصلي يرجع إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار معد بن عدنان وأهل كومية الذين هم أخوالنا، لا حق لهم علينا إلا" لأننا ولدنا عندهم ونحن نعيش معهم."

لنر شهادات أخرى قد تكون مفيدة لنا، فالمؤرخ ابن أبي زر يموقع نسبه هكذا:

"هو أبو محمد عبد المومن بن علي بن يعلى بن مروان بن نصر بن عامر بن الأمير بن موسى بن عون الله بن يحيى بن وردزيغ بن سنطور بن نظور بن مطماط بن هود بن مدغيس بن بربر بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان".

وأخيراً، يشرح مؤرخ آخر معاصر، وهو بوزياني دراّجي، بكثير من التفاصيل في دراسته حول القبائل الأمازيغية في المغرب العربي أن قبيلة كومية الهامّة، وهي قبيلة من البدو، قد اختارت العيش في المدينة مثل قبائل متغارة ونفوسة ومغيلة، مقتفية بذلك أثر قبائل البرانيس: أوربه وأورغة وصنهاجة وعجيسة وكتامة ومصمودة.. وغيرها مثل أوداجة وهسكورة، وهي قبيلة من قبائلنا، وقد عاشت مدة قرون على أراضينا، وعبد المومن منها وهذا هو المهم.

وبقطع النظر عن هذا المظهر الذي لا يقل أهمية، فإن عبد المومن، وهو صغير جداً، كان يحب القراءة والدراسة، لقد حفظ القرآن في مدرسة تاجرة، مدينة مسقط رأسه، وتشبع بمبادئ الشرع الإسلامي وبخاصةّ قواعد أخلاق النبيّ (صلّى الله عليه وسلم). كان في غالب الأحيان يرافق أباه إلى تلمسان عندما يذهب إليها ليبيع خزفه، وهناك

كان ينتهز الفرصة ليتردد إلى المسجد، يؤدي صلواته، ويستمع إلى خطب ذات نوعية عالية في ذلك المركز الإسلامي والحضاري الشهير.

فقرر أبوه تسجيله في دروس ذلك المسجد الذي كان يقوم مقام معهد كبير، كان يريد أن يبلغ ابنه مستوى معتبراً في المعلومات، وهكذا فإن عبد المومن كبر في جو يعير العلم والثقافة أهمية بالغة.

يذكر ابن خلدون أن من بين أساتذته في المدرسة التلمسانية ابن صحيب السالت وعبد السلام البرنوسي، إمام زمانه وعلاّمة في مجال الفقه والسيرة النبوية والتفسير وعلم الكلام.

لم يتوقف عبد المومن عند ذلك المستوى؛ نظراً لما كان لديه من عزيمة صادقة، فقد كان مقتنعاً بأنه بإمكانه أن يذهب بعيداً، وعلى كل حال لم يكن هناك ما يمنعه من ذلك لأن استعداداته كانت جديّة ومعلوماته قويّة تسمح له بمتابعة دراسات عليا وتحصيل معلومات أخرى.

عندما بلغ عشرين سنة، عزم على الذهاب إلى المشرق كما فعل من قبله علماء المغرب الكبار، وهكذا فإنه اتصل بأساتذة كبار وكان تلميذاً مفعماً بالآمال، وصار عالماً ذا مكانة رفيعة وفقيهاً مرموقاً.

عبد المومن تلميذ ابن تومرت

انهمك عبد المومن بعد موت أبيه في سفر يوصله إلى مكّة، ليؤدي قبل كل شيء مناسك الحجّ وفيما بعد ليبقى هناك فيتمّ دراساته، فذهب إلى بجاية عاصمة الحماديين ومنها أبحر، وهناك وفي انتظار الذهاب شاءت الأقدار أن تجعله يلتقي بالإمام الأول للموحدين، المهدي بن تومرت...

كان ذلك في صلاة الصبح في مسجد "الريحانة" حينما رأى الأتباع يتزاحمون وهم يقولون: "لنسرع للالتحاق بالعالم."

فسأل عبد المومن الشاب:

– أي "عالم ؟

فأجابوه كلهم بكلمة واحدة:

– السوسي ! عالم المشرق والمغرب، وهو الذي ليس له مثيل في العلماء.

كان ابن تومرت حينئذ العالم السوسي بعد رجوعه من المشرق.

فارق عبد المومن عمه الذي كان يرافقه، ليقوم بذلك السفر ويلتحق بابن تومرت الذي كان وقتها في ملالة، وهي قرية صغيرة قرب بجاية، ويحكي المؤرخون أن ابن تومرت قد طرده تقريباً أمير الحماديين، لأنه استعمل العنف لردع سلوكيات وأعمال منبوذة، ويحكون كذلك أن انعزاله في تلك القرية –بقطع النظر عن ذلك الإجراء الذي قام به الملك الحمادي– كان عملاً بشعور مسبق، لأنه كان يحس أن شيئاً ما سيقع وأنه سيكون له أثر عظيم عليه وعلى مستقبله... وبالفعل فإن ذلك الشيء هو لقاؤه مع عبد المومن.

ويحكي أبو بكر الصنهاجي البيدق عن هذا اللقاء في زمانه بالتفاصيل فيقول:

"عندما أذعن عبد المومن للقاء الإمام، اتصل ببعض الطلبة ليرافقوه إلى المسجد الذي يخطب فيه، وبعد وصوله إلى المكان، استقبله ابن تومرت شخصياً وسأله بهذه العبارات:

– ما اسمك ؟

فأجابه،

– عبد المومن

– أبوك اسمه علي، أليس كذلك ؟

فرد عليه الشاب بنوع من الدهشة:

– نعم اسمه علي.

– من أين أنت ؟

– من ناحية تلمسان، ومن قبيلة كومية

– أنت إذن من تاجرة !

فرد عليه الشاب عبد المومن وهو أكثر دهشة:

– بالفعل !

– إلى أين أنت ذاهب ؟

– نحو الشرق الأوسط للبحث عن العلم.

– فالعلم الذي تريد الحصول عليه في المشرق وجدته هنا في المغرب العربي.

هذا ما ردده ابن تومرت بكثير من الثبات.

وهكذا، فإن الشاب عبد المومن بقي زمناً في ملالة، فأخذ أقصى ما يمكنه أخذه من النصائح وحسن تعلمه قرب أستاذه، ولكنه لم ينس في أي وقت من الأوقات مشروعه للسفر إلى المشرق ليدعم معلوماته ويعود متوجاً بالنفوذ كما فعل ذلك مشاهير المغرب.

توصل ابن تومرت، بعد أن علم بقرار تلميذه عبد المومن، بصعوبة، وبحيل مختلفة، إلى إقناعه بعدم القيام بمشروع ذلك السفر، من اجل أن يقنعه بالبقاء في البلد حتى يتحضرّ فيما بعد للاستيلاء

على السلطة التي ستؤول إليه بعد قليل، ألم تكن له علامات منذرة بذلك الحدث؟ بالفعل، فقد كان يرى فيه القائد الديني للموحدين في المستقبل، ذلك القائد الذي يفرض النظريات نفسها سواء في المغرب العربي أم الأندلس (ويقصد نظرياته، نظريات ابن تومرت). وكذلك تم الأمر، لأن عبد المومن – وبعد عدة سنوات بعد تخليه عن سفره – كان يرتوي من المعرفة لدى أستاذه ويأخذ أحسن التوجيهات، سواء على المستوى التربوي والعلمي أو على المستوى الاستراتيجي والعسكري، كان يسهم مع أستاذه في توحيد شعوب المغرب العربي وفي النهي عن المنكر والأمر بالمعروف.

وهكذا فإن عبد المومن الكومي بعد أن تحضر جيداً وبلغ درجة معتبرة من المعلومات استولى على رئاسة الدولة الجديدة، التي استطاعت لأول مرة في تاريخ المنطقة أن توحد مجموع بلدان المغرب العربي، فنشأت الإمبراطورية المسلمة في المغرب العربي، بعد أن وضعت تحت سلطتها إسبانيا المرابطية، وصارت تنافس إمبراطورية بغداد وإمبراطورية القاهرة. فحسب ابن خلدون، فـ "إن القادة الموحدين الأوائل استطاعوا بتفكيرهم تعزيز الإمبراطورية التي تمتد من طرابلس إلى النيجر، إن عبد المومن هو أوّل من اهتم بالتنظيم الإداري للمملكة، وأنشئت في عهده مدارس الإدارة الأولى."

عبد المومن: خليفة أسرة الموحدين

استدعي عبد المومن فجأة إلى ملالة (تينمال)، فقد شعر ابن تومرت بعد مرض طويل باقتراب نهايته، وكان لا يريد أن يترك إلاّ لتلميذه العزيز – الذي كان يعتبره بمثابة ابنه – مهمّة تدعيم بناء تلك القوة التي وضع أسسها معه، وبمجرد وصوله أعلن عن خلافته له ومات وهو مفعم بالأمل والثقة في المستقبل المخصص لإمبراطوريّته

الناشئة. وبالتالي وبعد موت ابن تومرت سنة 524 هجريا – وهو موت أبقي سراً مدة ثلاث سنوات لأسباب سياسية بالطبع – لم يعترف بعبد المومن كملك في حفل للمبايعة إلاّ في سنة 527 للهجرة، إن الخليفة الجديد باعتباره تلميذاً محترماً ومواظباً ومعترفاً بمناقب المرحوم المهدي – الذي كان قائداً قد نشر العدل وأسس للعقيدة الحقّة – استلم منصبه في روح من الاستمرارية، ألم يكافحا معاً ضد المرابطين، أولئك المتحمسين للإسلام السني والذي تمّ لومهم على التشبيه بالإنسان في الدين، وخوضهم في الفتوى وتساهلهم في الأخلاق؟

أسس عبد المومن أسرة الموحدين، أي "الذين يمارسون وحدهم وحدانية الله في كل صفاتها"، في سنة 1130م. ثم اتخذ لقب خليفة وأقام سلطته شيئاً فشيئاً على كل إفريقيا الشمالية والأندلس، وبقي مخلصاً لتعاليم أستاذه المهدي بن تومرت عبر أعمال هي امتداد لها سواء على صعيد الحرب ضد الرذيلة وحثّ المواطنين على تغيير سلوكياتهم بممارسة الفضيلة أو على صعيد بناء الإمبراطورية الذي ظهر أنه ضرورة مطلقة لمواصلة أعمال التربية وضمان تطور الإسلام في كل المناطق التي تم الاستيلاء عليها.

لقد كان له الكثير من الشجاعة لتسيير تلك الإمبراطورية الكبيرة لأنه كان عليه قبل كل شيء توحيد الدول المستقلة من طرابلس شرقاً إلى الأندلس غرباً، وفيما بعد استحداث تنظيم إداري جديد مهمته مراقبة تلك الأقاليم.

كان عبد المومن "إدارياً متيقّظاً وأكبر رئيس دولة إسلامية في بلاد البربر عبر التاريخ" حسب ما قاله ألفرد بَل في "الوثائق الحديثة عن تاريخ الموحدين".

لقد عيّن أحد أبنائه على أنه ولي العهد وبما أن الأول لم يرضه، فقد عين الثاني: يوسف، وهكذا وجد حلاً للخلافة، وأسس لأوّل مرّة في تاريخ العالم العربي الإسلامي نظام تعيين الخلفاء للدولة، وعين كذلك الولاة على رأس كل منطقة، وقال المؤرخون إنه فضّل أن يعهد بتلك المناصب إلى ذويه من أجل ضمان مراقبة شؤون تلك الأقاليم ويعين لهم من يساعدهم من بين الإطارات المرموقين، فقهاء ورجال علم ليقدموا لهم يد العون في تسيير الشؤون.

لقد عين أبا حفص والياً على تلمسان ويساعده في مهمته أبو محمد عبد الحق الكاتب والفقيه أبو الحسن عبد الملك بن عيّاش.

واستفادت الأقاليم الأخرى: بجاية وسبتة وطنجة وإشبيلية من التعيينات نفسها، وكان إداريون كبار يساعدون ولاتهم ويساندونهم.

شكل عبد المومن حكومته وعين على رأسها وزيراً أولاً و"مكلفين" بمختلف القطاعات على غرار الوزراء في وقتنا هذا، وهكذا فإنه عين قائداً للأمن لتفادي الاضطرابات التي يسببها بقايا المرابطين ثم بنو هلال الذين – كما نعرف ذلك – تغلغلوا في عمق مملكة بني زيري وفيما بعد في مملكة بني حمّاد، وبخاصة عندما عانى الزيريون من التهميش بعدما استولى المسيحيون على عاصمتهم المهدية، وفي هذا المجال نورد شهادة المؤرخ ابن الأثير الذي كان يتحدث عن شهامة عبد المومن، وبالفعل فبعد أن هزم عصابات الهلاليين في ناحية سطيف، أولئك الخصوم الألداء الذين تحالفوا مع الصنهاجيين – بناء على ضغط مصلحتهم المشتركة التي حملتهم على التوحد لطرد الموحدين من بجاية قبل أن يتوطنوا فيها بقوة – فإن عبد المومن استولى على جزء من نسائهم وإبلهم، لكن ما تم توزيعه حقا هو كل ممتلكات المهزومين، أما النساء والأطفال فقد احترمهم وأرسلهم إلى مراكش.

قال ابن الأثير في هذا الصدد:

"بعد أن وزع عبد المومن الغنيمة على الجنود، فإنه وجّه النساء والأطفال، احتراماً لهم، إلى مراكش، وأمر بأن يُتكلّف بهم وألاّ ينقصهم شيء، ثم طلب أن تتم الكتابة إلى القادة العرب المهزومين أن عائلاتهم محمية وتمت معاملتهم بكل كرامة عنده وأنهم هم أنفسهم يستطيعون المجيء ليأخذوهم وهو يضمن لهم استقبالاً مشرفاً".

وتابع قائلاً: "ذهب القادة العرب في وفد إلى مراكش، وتم استقبالهم فيها وأخذوا معهم عائلاتهم، وهكذا فإن عبد المومن قد جعل منهم أصدقاء وحلفاء." وقد تم ذلك عدة أشهر بعد المعركة.

ولم يكن الجيش على هامش تلك الثورة الكبيرة في بنيات الإمبراطورية، وبالفعل فإن عبد المومن قد أولاها كل العناية. لقد تم تعزيزها وأعيد الاعتبار للأسطول ثم أعيد تنظيمه. لقد أحدث ذلك وزناً عظيماً في توازن القوات في القرون الوسطى، ذلك الجيش الذي كان متكوناً من جنود يتحدرون من قبائل الأطلس الكبير قد تم تشكيله من جديد وتدعيمه برجال يتحدرون من قبيلة كومية (قبيلة عبد المومن) ومن قبائل بني ومانو وبني يلوسي وبني عبد الوادي المتحدرين من زناتة، ثم تم تعزيز الجيش كذلك بضباط من جيش الحماديين والبعض من بين ألمع ما في جيش بني هلال، أولئك الضباط الذين هزموا والذين أبرزوا قدرتهم أثناء معارك الأندلس.

والأسطول البحري أيضاً، كان قد استرعى اهتماماً كبيراً من قبل عبد المومن، كانت السفن توجد في كل الإمبراطورية، أكثر من 400 سفينة كانت راسية في موانئ المغرب العربي والأندلس، ويذكر أن صلاح الدين الأيوبي شخصياً كان قد طلب مساعدة ذلك الأسطول في زمن يعقوب المنصور ابن أخ عبد المومن.

عبد المومن: الخليفة التقي

كان الخليفة الجديد حريصاً على نشر تعاليم سلفه وأستاذه المهدي بن تومرت، وكان مهتماً بأن يكون كل رعاياه ملتزمين بتطبيق الإسلام تطبيقاً لا لبس فيه، وليبرز أنه أول من يبرهن على ذلك فإنه كان يحيط نفسه بكثير من التواضع ويعيش ما دون مقاييس حياة الملوك، كان يدرب أبناءه على ذلك التقشف بالذات الذي فرضه على نفسه وكان يعاملهم بقسوة فيما يخص الدين، ومن ناحية أخرى ألم يجعل لهم مساعدين من بين المسؤولين الشديدي التقوى والمشهود لهم بالسمعة الطيبة وبتجربتهم الكبيرة عندما عينهم على رأس الأقاليم؟

كان ابن الأثير يقول: "كان عبد المو من يبجل الدين ويفرض على الناس – على امتداد إمبراطوريته – تأدية الصلاة و القيام بكل شعائر الإسلام الأخرى".

وهكذا وفي رسائله التي وجهها للحكماء الموحدين المحترمين في قرطبة، فإنه يطلب منهم أن يتبعوا حرفياً نظرية المهدي بن تومرت ونشر تعاليمه في كل المنطقة ليتضاعف أتباعه، أما فيما يخص الرسالة الشهيرة الموجهة إلى مجموع المسؤولين في كل أقاليم الإمبراطورية، فإنها كانت تشبه نوعاً ما الميثاق ويطلب منهم عبرها بكل وضوح أن يحاربوا انحطاط الأخلاق وفسادها لأنها اتخذت حيزاً خطيراً، ومتابعة النظرية الموحدية الحقيقية. كما فرض ذلك على أهل قرطبة، للتخلص من المنكر والتغلب على الممارسات الفاحشة المحظورة دينياً، إن تلك الرسالة مسجلة في أخبار تاريخ الإسلام لأن الخليفة عبد المومن أصرّ على أن يفرض في أربع مواد من القانون القواعد التي يريد أن يرى تطبيقها:

1 – دراسة التوحيد الذي هو أساس الدين الإسلامي.

لقد طلب من كل الناس، علماء الكلام وطلبة ومواطنين بسطاء أن يعرفوا أصول التوحيد وأن يعملوا على تحفيظها أو على الأقل أن يشرحوها لمن ليست لهم القدرة على فهمها وحدهم.

2 – إجبارية القيام بالصلاة.

كان على الطلبة أن يراقبوا المواطنين وأن يلزموهم بفريضة الصلوات الخمس الأساسية، كما كان عليهم أن يفرضوا عليهم حفظ "الفاتحة" وسورة أخرى من القرآن الكريم.

3 – تأدية فريضة الزكاة بصورة منتظمة لأنها مصدر تغذية بيت المال لتغطية النفقات المخصصة للجهاد.

4 – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كان الخليفة يطلب في رسالته اتباع الأعمال الحسنة التي من شأنها توفير حالة من التهذيب الخلقي والانفراج، كان يلح على الجميع لمحاربة الخمور والمواد الأخرى المسكرة وضدّ السرقة والرشوة وانحلال الأخلاق وممارسات الجاهلية القديمة، يعني فترة ما قبل الإسلام.

كان عبد المومن خليفة متشدداً ومتصلباً في مستوى المبادئ ولكن عرف كذلك كيف يكون مرناً أحياناً في مصلحة الإمبراطورية، فمثلاً مع بني هلال أعدائه المشاغبين فإنه استطاع – بعدما حاربهم وهزمهم – مراجعة مواقفه نحوهم لأنه يعرف جيداً عنادهم على عدم الانقطاع عن الشغب. ولأن ذلك قد يكون مفيداً للإسلام حسب قوله، فقد كان عليه أن يتحالف معهم أثناء الحروب ضد الصليبيين وأثناء الحروب الأخرى من أجل فتوحات جديدة وخاصّة في أقاليم الأندلس، لقد أشرنا إلى ذلك سابقاً.

إن عبد المومن هو الخليفة الذي شيّد أكبر عدد من المساجد وفتح معاهد لتعليم الأدب والعلوم والفقه، وفي ذلك العمل العظيم، كان يعتمد دائماً على الشباب الذي عقد عليه الآمال لنجاح الإمبراطورية.

وفيما يخص الرعايا غير المسلمين، أي اليهود والنّصارى، فقد أعلن عن قرار:

"اعتناق الإسلام أو مغادرة البلاد".

وقد حدد لذلك أجلاً، وهكذا فإن العديد منهم اعتنق الإسلام والقليل منهم فضل المغادرة، إن هذا القرار قد تابعه المسلمون باهتمام كبير وصاروا يعبرون أكثر فأكثر عن احترامهم لعبد المومن الخليفة المتشدد، وبدأوا يبجلونه وبخاصةّ بعد انتصاره على الصليبيين.

قال ابن جبير الرحالة الأندلسي عن الإسلام في عهد عبد المومن:

"ليتأكد الناس أنه لا يوجد إسلام إلاّ في بلاد المغرب العربي، إن الناس في تلك البلاد جديون ولا توجد عدالة ولا حق ولا حتى دين حقيقي إلا عند الموحدين."

هكذا كان الخليفة التقي المحارب من أجل العقيدة والحرية، لقد كان ملكاً له من القوة وبعد النظر ما جعله يُوَحِّدُ المغرب العربي سياسياً ودينياً. وأخيراً قال كذلك ابن الأثير عنه:

"إنه جمع مسلمي المغرب العربي حول مذهب مالك الشرعي في إطار الفروع وحسب المذهب الشرعي لأبي الحسن الأشعري وفي إطار المبادئ الأساسية".

عبد المومن، رجل الثقافة

ولترقية الثقافة والعلوم، استفاد الموحدون من البنيات التي كانت في البلاد وفي أماكن أخرى في شبه الجزيرة الإبيرية، وجعلوها صروحاً للمعرفة ولتعبئة الشبان والمؤمنين. لا يمكن لنا أن نخفي مراكز الإشعاع الحضاري في المغرب العربي التي كانت ممثلة في تيهرت (تيارت) التي بنيت في 144هـ من قبل عبد الرحمن بن رستم، وفاس التي بنيت سنة 192هـ من طرف إدريس الثاني ومعهدها القرويين الذي لا يقل شهرة، وقد تم تشييده سنة 245هـ ومراكش التي بنيت سنة 454هـ من قبل يوسف بن تاشفين، وتلمسان وبجاية وورجلان والقيروان والمهدية وتونس، وفي صقع آخر: قرطبة وأشبيلية وطليطلة، وبالتالي فإن عبد المومن استفاد من البنيات التي كانت موجودة في تلك المدن وهي البنيات التي صارت وسائل لتأسيس تقاليد ثقافية في المغرب العربي والأندلس، وأنشأ بنيات أخرى وطورها وحسنها.

ومن بين تلك البنيات المستحدثة هناك معهدان لهما أهمية رئيسية: معهد للدراسات البحرية ومعهد آخر لإدارة الإقليم أي أنه نوْع من مدرسة للإدارة.

لقد أجمع المؤرخون على الكيفية التي عامل فيها الخليفة عبد المومن رجال العلم. كان يساعدهم كثيراً وكان يمنحهم كل عنايته، كان يحب الشعراء ويقربهم منه، كان هو شخصياً شاعراً موهوباً، كان بودنا لو قدمنا بعض المقتطفات لإبراز أسلوبه وملكته (ولكن كالعادة فإن الترجمة لا تستطيع أبداً أن تكون مخلصة لإبراز جمال لغة ثرية وأنيقة وفصيحة).

إن أولاده كذلك كانوا شعراء ماهرين على غرار أبي سعيد عثمان والي غرناطة وأبي عمران، والي مراكش.

نستطيع القول إن الشعر بالنسبة إلى أبنائه كان تقليداً تربوياً ضمن العائلة قبل أن يكون ثقافة تكتسب من أجل المتعة أو من أجل تنمية الخيال والإلهام.

كان عبد المومن مهتماً بصفة خاصّة بالعلوم الإنسانية، وكان يشجع المؤرخين والجغرافيين، لقد سبق أن ذكرنا أبا بكر علي الصنهاجي البيدق وعبد الواحد المراكشي وابن جبير (المذكور سابقاً) والإدريسي السبتي الذي كان رحالة لا يكل ولا يمل، وقد زار حسب الوثائق التي بقيت لنا بالإضافة إلى بلدان المغرب والمشرق الكثير من بلدان أوروبا وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، لقد استفاد من ذلك ليقوم بخلاصات هامّة لاسيما في المستوى الجغرافي ولكن كذلك في المستوى الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، فالملك النورماندي الذي كان يحكم صقلية استدعاه باعتبار أنه كان واسع الثقافة وكانت له قدرات في التنظيم. لم يغادر الإدريسي ذلك البلد حتى انتهى من عمله "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وهو عمل علمي مضبوط ضبطاً متميّزاً في إطار دراسة البلاد من حيث توبوغرافيتها وتضاريسها ومناخها ومواردها وحيواناتها ونباتها وسكانها وتقاليدها وأعرافها وحرفها ودينها وطقوسها، وأخيراً لغتها ولهجاتها.

كان عبد المومن يتكفل كذلك بالمنجمين وعلماء الفلك ويدفعهم إلى تعميق أبحاثهم، ومن بينهم نجد عبد الله بن محمد بن عبد الملك الفاسي البطرجي الذي تميز بأطروحته المتعلقة "بالأجرام السمائية"،

وهو عمل قيّم قدّره وتابعه علماء أوروبا أثناء النهضة، لقد تحدثنا عن ذلك خلال الفصل السابق حول الرجال والعلم والثقافة.

كان يولي انتباهاً خاصاً للهندسة والجبر والهندسة المعمارية لأنه كان يتحمس للعمران وكذلك لإنجاز هياكل ثقافية ودينية، إن المهندسين المعماريين أمثال الحاج يعيش المالقي وابن جازة كانوا يتمتعون في تلك الفترة بشهرة كبيرة، وكان هذان المهندسان من ضمن من بنوا مدينة "جبل طارق". أضف إلى هذا، وفي مجال الفنون الجميلة، فإن عبد المومن قد ثمّر ما بقي عالقاً لديه من أثر المرابطين مع زيادة لمسته الخاصّة، لقد أحاط نفسه بفنانين لإنجاز مبان رائعة مثل المساجد الجميلة في تازة وتنمال والكتبية في مراكش، كان الأوروبيون يقولون عنه وعن عهد تلاميذه:

"نعترف للموحدين أنهم فنانون من الطراز الرفيع... هم مؤسسو الرباط وبهذه الصفة هم أصل الفن المغربي، ولكن هذا الفن بدأ التحضير له في عهد المرابطين وإنه أسباني – مورسكي (مغربي) لأنه يحافظ على العديد من العناصر القادمة من الأندلس، إنه يتميز بدقة التقصيب".

وكان لعلماء الرياضيات مكان محترم في الإمبراطورية، نذكر منهم ابن الفرسون القيسي القرطبي وعبد الله بن محمد بن سهل الغرناطي وعبد المنعم بن محمد المراكشي وأبا عبد الله محمد بن الحجاج المدعو كذلك ابن الياسمين الفاسي.

لم تكن المرأة عند الموحدين وبصفة رئيسية في عهد عبد المومن على هامش ذلك الغليان الثقافي، لقد كان لها أيضاً حظها من الاعتبار في مجالات التربية والتعليم، لم يكن لها مثل هذا الاعتبار في زمن "المرابطين" حيث كان لها، مع ذلك مسؤوليات في الفضاء

السياسي والاجتماعي. وهكذا فإن كل نساء تلك الفترة كان لهن حظوظ التعلم نفسها وامتيازات الدخول إلى النشاط العلمي نفسها.

لم يكن هناك فرق بين زينب بنت يوسف بن عبد المومن – المثقفة في المجالات الفقهية والأدبية وعلم الكلام التي كانت تستشار في العديد من المرات لحكمتها وخبرتها الكبيرة في الحياة– ونساء أخريات عبر الإمبراطورية، فقد كنّ يساهمن بأحسن ما يستطعن لرفع مستوى الشعب في كل الميادين، إن هذا الجو من العمل والتنافس الذي صار طبيعياً عند الموحدين، بدأ في التوسع ما دام عبد المومن بصفته رجلاً واعياً وعازماً على بناء دولة قوية، قد جعل التعليم إجبارياً على كل الأطفال، البنات والبنين، منذ نعومة أظفارهم، ربما هو أول ملك في العالم اتخذ مثل هذا القرار في عهده.

وفي زمانه كذلك، لمع العديد من النّساء بذكائهن وكفاءتهن، ونذكر البعض من بين النساء الأديبات والعالمات:

ورقة بنت ينتان وأم العز العبدرية التي كانت تعلم القراءات السبع للقرآن وكذلك صحيح البخاري، وأم المجد مريم بنت الشيخ أبي الحسن الغافقي وهي معروفة بمدرستها للأجانب في سبتة وتشييدها لمكتبة هامة وحيدة من نوعها في المغرب العربي حسبما قيل، وكانت هناك أخريات قد تميزّن في عهد عبد المومن والمقصود بهن: خيرونة من فاس وهي عالمة متصوّفة وهي تلميذة للإمام عثمان السلاّجي المعروف بطريقته في التفكير، وأم عمر – وهي بنت العلامة طبيب القرون الوسطى أبي مروان بن زهر – التي لمعت مثل أبيها في مجال العلوم الطبية، والشاعرة حفصة بنت الحاج الركوني التي تحدث عنها بإسهاب لويس دي دجاكمو في كتاباته وبصفة رئيسية في: "الشاعرة الأندلسية في زمن الموحدين".

هذا هو عبد المومن، الملك المحنك صاحب الخلق الكبير والشخصية العادلة والمحترمة، إنه قائد قد شعر وهو صغير بأنه ستكون له سلطة ملكية وكأنه الوارث المحتمل للأسرة المالكة، كان مثقفاً ويحب رجال الأدب والعلماء، وأخيراً كان مجاهداً من أجل العقيدة وقد أثبت ذلك جيداً في عمله بلا كلل لتأسيس ممارسة صافية للإسلام كما أثبت ذلك في حربه ضد الصليبيين في الأندلس وضد النورمانديين خلال غزواتهم للمغرب العربي.

إن ذريته قد واصلت أعماله، ولكنهم لم يكونوا في مستوى صرامته هو، مع أنهم واجهوا بني غانية سنة 1184م في بجاية وانتصروا على ملك قشطيلية ألفونس الثامن سنة 1195م.

وفيما بعد، فإن إمبراطورية الموحدين بدأت تتفكك ابتداء من 1228م، وتخلصت إسبانيا من الخلافة، ثم تلمسان سنة 1235م لصالح بني عبد الواد، وتونس سنة 1236م لصالح الحفصيين، والمغرب سنة 1269م لصالح المرينيين، وانطفأت الإمبراطورية أخيراً بسقوط مراكش.

وأخيراً ما يجب أن نقوله للشبان كما أكد ذلك شارل أندريه جوليان إن الموحدين أحدثوا حضارة فعلية ولم يكتفوا مثل سابقيهم بأن يكونوا أعواناً لنشر الحضارة الأندلسية.

"حضارة متقشفة وقوية حيث القلاع والمساجد أكثر من القصور والحدائق والفلسفة أكثر من الشعر ولكن إبداعها وعظمتها لا جدال فيهما".

سيدي بومدين شعيب صاحب تلمسان

"في سنة 1447م كان سلطان تونس أبو فارس قد حاصر المدينة (مدينة تلمسان) وأقسم ألا يطلق العنان لجنوده في التخريب والسلب

حالما يستولي عليها، لقد أرسل المحاصرَون إلى المعسكر على ما تقتضيه العادة العلماء الأكثر احتراماً مصحوبين بتلاميذهم وألواحهم القرآنية، وبقي هذا التمشي بدون أي مفعول ولكن السلطان رأى مناماً رهيباً، رأى جمهرة الأولياء الحافظين للمدينة يتقدمون نحوه وعلى رأسهم نجد سيدي بومدين وسيدي بلحسن: أمّا الأول فإنه شتت ثلثي الجيش والثاني تكلف بالباقي، ففضل أبو فارس رفع الحصار والدخول إلى تونس".

هذا النص مستخرج من "البستان" لابن مريم الذي يحكي عن تاريخ العديد من الرجال المتقين الذين هم في الوقت نفسه يتشابهون ويختلفون ومن بينهم الرجل الذي كان له الدور الرئيسي وهو سيد مدينة تلمسان سيدي بومدين الذي يبجله سكان المدينة ونواحيها ويقومون بزيارته ثلاث مرات في السنة ويتم ذلك في تطواف متميز.

وجد شعيب أبو مدين ولي الله الرجل المبجل والتقي والمتصوف المحب لله، الملجأ في تلمسان التي كان يبحث عنها العلماء ويتغنى بها الشعراء، وسنفهم بسهولة لماذا بقيت هذه المدينة مركزاً للثقافة عندما نشاهد من هضبة لالة ستّي المشرفة على المدينة ذلك الماضي البديع الذي أسهمت شهرتها الدينية في جعلها قطباً لنشر الحضارة ابتداء من القرن الثامن الميلادي عبر كل المغرب الأوسط، ونفهم كذلك لماذا طبعت هذه الآثار للأبد على هذه المدينة ذات الحدائق الغناء، وبخاصةّ إذا عرفنا أن سيدي بومدين قال متعجباً: "يا له من مكان عجيب لينام العبد فيه نومة الخلود".

من بومارية أغادير إلى تلمسان، مدينة الأولياء والعلماء.

من بومارية – أغادير إلى تاغرارت مدينة المرابطين حيث جعلها يوسف بن تاشفين عاصمة لمملكة ميسورة تمتد من المحيط الأطلسي إلى الجزائر، إلى تلمسان الحالية، جوهرة المغرب الأوسط التي توطدت على أنها إحدى المدن الأكثر أهمية التي بادرت بقيادة فترة من التنظيم والنهضة وبفرض نشاط حضاري، بعد ذلك بكثير في زمن الموحدين. كان ابن خلدون يقول عن تلك الفترة:

"إن أمراء الأسرة المالكة الجديدة جلبوا إليها كثيراً من الناس ليرفعوا من عدد سكانها، واشتغلوا بتنافس كبير ليجعلوا منها عاصمة، لقد شيدوا فيها قلاعاً ومنازل كبيرة وقصوراً لم يبخلوا بالمصاريف اللازمة لتزيينها".

وفي زمن الزيانيين الذين نسميهم كذلك بني عبد الواد، وهم تلك الأسرة التي أسسها يغمراسن (وهو شخصية معتدة بنفسها وفاتنة برغم تقشفها)، عرفت تلمسان في القرن الثالث عشر استقراراً كبيراً، صارت ملتقى لمختلف الطرق التجارية بين البحر الأبيض المتوسط والصحراء من ناحية، وبين وسط المغرب العربي وجزئه في أقصى الغرب من جهة أخرى.

وبرغم الهجومات المتكررة للمرينيين ومنها الحصار الصعب في سنة 699 هـ (1299م)، دعمت تلمسان سلطتها وألحقت مناطق أخرى من المغرب وأسست عدة مدن صارت مراكز إشعاع للثقافة العربية الإسلامية، إن عظمة هذه العاصمة وقوة قرارها في كل الظروف ومراكز ثقافتها ووسائلها الدفاعية قد شكلت كلها استعدادات

سمحت لأبي حمو الثاني أن يكون أحد أكبر القادة ومن بين اللامعين الذين عرفتهم هذه الأسرة الحاكمة.

صارت تلمسان، تحت تأثير المرينيين الذين شيّدوا انطلاقاً من "رباطهم" في معسكر المنصورة مدينة حقيقية بقصورها ومسجدها، مدينة ملكية إلى غاية القرن السادس عشر ميلادي، إن هؤلاء كانت لهم الموهبة لأنهم، برغم ذهنيتهم الكفاحية وبرغم عداوتهم للزيانيين فإنهم قد زينوا المنصورة وبنوا مزارات سيدي بومدين وسيدي الحلوي.

في منتصف القرن السادس عشر قام صالح رايس بربط تلمسان بحكومة الجزائر وعُين بابا سفير أوّل حاكم لها، ومع هذا بقيت الفترة التركية من تاريخ تلمسان أكثر غموضاً من غيرها، ولكنه "يبدو من الممكن على وجه الخصوص أن الخصائص الحالية لسكان تلمسان قد تكونت في أهمها خلال تلك الفترة".

رجعت تلمسان إلى واجهة الأحداث في عهد الأمير عبد القادر عندما كان يحارب الغزاة، "تلمسان عندما رأتني مدّت لي يدها لأقبلها، نزعت الحجاب الذي كان يغطي وجهها واهتز كياني من السعادة، كانت وجنتاها حمراوين مثل الجمرة الملتهبة؛ والعدو نفسه عندما فارقها ذرف عليها دموعاً مرةً... كان لتلمسان أسياد ولكنها لم ترهم إلاّ اللاّمبالاة، كانت تغض من طرفها وتدير رأسها، ولم تبتسم إلاّ لي وحدي فصرت أسعد الملوك". هكذا كان يتكلم الأمير عبد القادر بصفته شاعراً ليحتفل بفتحه ويمجد سحر تلك المدينة العتيقة التي صارت منذ دخول الإسلام حاضرة دينية وثقافية.

هل سميت تلمسان (المسماة كذلك وليس عفوياً، مدينة الأنوار والعلوم) كذلك بسبب يغمراسن الذي لعب دوراً إيجابياً للغاية في

تاريخ المنطقة؟ بالفعل إن ذلك الملك البدوي الأصل قد صنع الكثير من أجل الثقافة والتقدّم، لقد شجع الحضارة العربية الإسلامية – وما كان يتكلم إلاّ بالبربرية – وجلب إلى عاصمته علماء شهيرين مثل أبي إسحق إبراهيم وهو العلامة المشهور من تنس، وقد كان يلقي بمحضره محاضرات في المسجد الكبير حيث كان يلح على الحضور شخصياً لتلك اللقاءات الرائعة، بقيت تلمسان "تلك المدينة المنورّة" عبر كل العصور، وفي كل الأحوال إلى يومنا هذا، لأنها بسبب سيدي بومدين وسيدي لحسن بن مخلوف الراشدي وأبي إسحق الطيار وسيدي وهاب وسيدي يعقوب، وأخيراً سيدي محمد بن علي، وهم رجال أولياء أو علماء، بسبب هؤلاء كلهم صارت مدينة مباركة، وهناك من يقول إنها "الحاضرة المحروسة جيداً سواء بسبب أسوارها أو بسبب الحماية اليقظة التي ضمنها لها العديد من الرجال المبجلين".

العبّاد أو سيدي بومدين

"ذهبت إلى مقام الولي الشيخ بومدين رغبة مني في التخلص من متاعب الشؤون الدنيوية وتكريس جهودي للدراسة ما داموا لا يعكرون علي اطمئناني"، هكذا كان يقول ابن خلدون عندما كان يريد الانهماك في الدراسة والتأمل، كان يلتجئ دائماً إلى تلك المدرسة أو إلى ذلك المقام للولي المبجّل شفيع مدينة تلمسان، سيدي بومدين.

اِسمه الحقيقي هو شعيب أبو مدين بن الحسين الأنصاري، ولِدَ في أشبيلية في الأندلس سنة 1126م في عهد السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ومات سنة 1197م في تلمسان. قام الشاب شعيب بدراسات باهرة في فاس وعزم على الحج إلى مكة، وبقي هناك مدّة ليستكمل معلوماته وينهل عند علماء آخرين ما قد يكون مفيداً له

ليبلغه إلى تلاميذه، وفي تلك الأثناء بدأ المذهب المالكي ينتشر في المغرب العربي، فتحتم على الولي شعيب الرجوع وهو في ذلك مدفوع بحبه للعلم والثقافة، فانهمك في التعليم في مدينة بجاية حيث كان العلم في تلك الفترة في واجهة الشرف، وكرس نفسه لتلقين تلاميذه – بنجاح باهر – القيم الإسلامية الكبيرة وكذلك النظريات الصوفية، كان التلاميذ يأتون جماعات جماعات ليستمعوا "للدروس العلمية المقوية التي يعطيها الولي والعالم المرابط الذي كان الناس يعجبون خاصةً بفصاحته وكلامه المتجانس". وعليه، كان يتم الاستماع إلى سيدي بومدين فوق منبر المسجد الكبير ببجاية، "كان يظهر عليه رائعاً حسب قول معاصريه، وخاصةً عندما يسترسل بقامته العالية ويضع يده اليمنى بصفة فاخرة فوق سيف الخشب، فيغرق الجمهور بالأمواج المتموجة من فصاحة كلامه المعطر مثل ماء السلسبيل أو التسنيم تلك العيون العذبة للجنة، ولكن بقدر ما هو لطيف ولذيذ عندما يصف عجائب جنات عدن وهي جنات الإقامة الأبدية...كان عنيفاً عندما يصورّ لنا لوحة من يوم الحساب والأهوال المريعة لصقر نار جهنم..." حسب ما أفاد تروملي في كتابه "الجزائر الأسطورية".

وبما أن بومدين شعيباً كان أندلسياً، فإنه وجد في بجاية الكثير من مواطنيه وكذلك وسطاً علمياً مناسباً.

"لقد بدا له الموقع المذهل لهذه المدينة الصغيرة أنه يتيح للنفس التمتع بأسباب المتع الشرعية في هذا العالم"، هذا ما قاله إميل ديرمنغام.

لقد اكتسب سيدي بومدين شهرة كبيرة بناء على معارفه العميقة وثقافته الفقهية المتينة، أضف إلى هذا أنه تمكن من الاتصال

بالصوفيين ومنهم من لا يقل شهرة، وهو عبد القادر الجيلاني مولى بغداد، وقد كشف له هؤلاء الصوفية بهجة النشوة الروحية ومتعتها، وفي مكة أتيحت له فرصة لقاء عبد القادر الجيلاني الذي عرف على الفور أنه عالم، فأدخله الطريقةَ التي كان يرأسها، وكلفه في الوقت نفسه بمهمة إدخال مريدين جدد من مناطق بلدان إسلامية أخرى، يسدد الله خطاه إليها.

عرف سيدي بومدين كذلك صلاح الدين الأيوبي، وكان له شرف الجهاد إلى جانبه، وكان ذلك سنة 1187م في معركة حطين الشهيرة ضد الصليبيين، حيث تغلب القائد العربي على ملك القدس غي دولوزينيان، بتُرِت ذراع بومدين في تلك المعركة، وأنهى حياته معاقاً ولكنه كان سعيداً لأنه قام بواجبه كمسلم، وسعيداً أيضاً حين علم بأن صلاح الدين انتصر كذلك على رتشارد قلب الأسد الذي تحتم عليه أن يستسلم ويتعاهد معه، يحكى كذلك أن هذا الرجل، رجل الإيمان والثقافة أوقف كل ما كان يملك في ذلك الجزء من العالم العربي للمغاربة الذين يأتون إلى الحج أو الدراسة. وهذه مظاهر مجهولة عن هذا الرجل، يجب أن نحكيها للشبان ليدركوا عظمة أولئك الرواد، رواد العقيدة والحرية والتضحية.

وهكذا فإن سيدي بومدين، مثل العديد من العلماء الذين عاصروه أو الذين عاشوا قبله أو بعده، قد تخلى عن كل ما يملكه في هذا العالم، لقد عاش زاهداً وكانت أيامه خشنة ومتقشفة، وقد عمل أحياناً كنسّاج لكن ملابسه كانت متواضعة ومصنوعة من الصوف وبسيطة، أي بدون أي زينة، كان أحد أفقر الطلبة من بين الطلبة الفقراء، يحكي إميل ديرمنغام ذلك الحدث الذي يكون قد عاشه خلال طفولته، عندما نزع معطفه في أحد الأيام أثناء درس الأستاذ، احمرّ

وجهه لرؤية ثيابه تسقط أشلاء، فقام الشيخ بِلَمَّةٍ بين طلبته وعقد بصفة خفية المبلغ الذي جمعه في أحد أطراف معطف شعيب، في تلك الليلة، عندما دخل الطالب لينام في مغارته في الزلاغ التي كانت منزله وكان يجد فيها عادة غزالة تنام قربه وتعطيه من حليبها، لاحظ شعيب في هذه المرة أن بعض الكلاب التي كانت متعاطفة معه في العادة، بدأت تنبح عليه، وأن الغزالة هربت منه. فتساءل لماذا؟ ووجد الدراهم وقال في نفسه: "إن هذا الوسخ كان معي وبدون علم منّي، فلهذا احتقرتني الحيوانات". فرمى الدراهم، وعادت الغزالة واحتفل به الكلاب في صباح الغد، فقال له الشيخ الذي حكى له المغامرة:

"كن سعيداً! إن مصيرك محتوم!"

وأكد المؤرخون أن استعداده الحقيقي لم يتأخر في الظهور حسب أساتذته العلماء منذ نعومة أظفاره، فالولي كان يتراءى خلف شخصية الطالب، فإن حب الزهد والحياة التأملية بدأ يغمر تلك الروح التي يبدو أنها كانت غير مرتاحة في جسم بشر والتي كان كل ميلها يتجه إلى التنزه عن الأمور الدنيوية والحاجة إلى الرجوع إلى العالم غير المادي، وهو وطنه الروحي، إن الكاتب الشهير لـ "الفتوحات" محيي الدين بن عربي كان يسمي أبا مدين "شيخنا وإمامنا...أستاذ الأساتذة" وكان غالباً ما يرجع إليه.

يذكر كتاب السير بعض النكت ومجموعات من الحكم والأشعار لأبي مدين، حسب أميل ديرمنغام، ونستطيع بواسطتها أن نكوّن فكرة عن منهجيته وتعاليمه و"طريقته"، حسب ابن عربي، فإن مواقفه الرئيسية كانت التقوى والتواضع، حيث إن التواضع الحقيقي يقتضي الاعتراف بالاستبعاد المطلق للأنا.

"إن الشيء الأخير الذي تتحرر منه روح الأحباب المخلصين لله هو حب "السيادة الذي لا يمكنه أن يتعايش إلا مع الجهل"، حسب ما قاله أسين بلاسيوس.

من نافلة القول أن نذكر أنه حفظ القرآن عن ظهر قلب وهو صغير جداً، وكان يرتله بتموجات عذبة إلى درجة أن "الملائكة المكلفين بحراسة السماء الأولى لايترددون في مغادرة أماكنهم ليأتوا لسماعه والتصفيق له"، حسب ما كتبه أحد المستشرقين.

وكان سيدي بومدين لمدّة طويلة في تجوال دائم من مدينة إلى أخرى، حاملاً الكلمة الطيبة وينشر بين الشبان الأساليب الجيدة والعلم المفيد، ثم رجع بعد أن تملكه الشوق إلى مسقط رأسه إشبيلية وإلى قرطبة، حيث مكث بعض السنوات وعلّم علم الكلام والبلاغة والفقه الإسلامي، وكزاهد جيّد فإنه كان يبشر باحتقار عالم الدنيا الذي يسميه "العجوزة" أو "أم الخبائث". وغالباً ما كان يقول:

"ما هي حياة هذه الدنيا؟ ليست شيئاً آخر إلا حدثاً قد يقع للتقي كما يقع للشرير".

وهكذا فإن حياته انتهت، و"أثناء سفر نحو مراكش حيث استدعاه الخليفة الموحدي، أصيب بمرض عندما وصل إلى سهل تشرف عليه مدينة تلمسان، فلاحظ ربوة يغلب عليها الاخضرار غير بعيد عن المدينة حيث تختلط الحدائق والمنازل والقبور، كان يقصد العبّاد وهي قرية قد قصدها العديد من الرجال الأتقياء ليرتاحوا فيها الراحة الأبدية"، فقال بومدين: "يا له من مكان رائع يصلح أن ينام فيه العبد نومه الأبدي. فمات الليلة التالية، فدفنه رفاقه بمساعدة أهل العبّاد الذين سارعوا إليه بعد أن جلبتهم شهرة الزاهد في قرية العبّاد التي تكنت باسمه فيما بعد.

سيدي بومدين، صاحب تلمسان، هو أكبر ولي وأكثر الأولياء تبجيلاً. ومن بعده صار رفاقه الذين ترسخ فيهم الإلهام الصوفي أصحاباً لأهل العبّاد قروناً من بعد في قبورهم التي تنطلق منها "رائحة البخور المتموجة في الأنهج البديعة والمتشابكة بعضها ببعض"، ومن بين هؤلاء، الهبّة الذي أدرك أن "لا أحد أقوى من الفقراء ولا أحد أشقى من الأغنياء".

أعمال سيدي بومدين

هو أحد الرواد الرئيسيين للصوفية في المغرب العربي، تميز صاحب تلمسان بالحكم الرائعة التي وصلتنا اليوم على أنها شهادة لامعة على نوعية الرجل والعالم والولي، إن تلك الحكم ما زالت إلى يومنا هذا موضوع تعليقات، وقد ألف سيدي بومدين كذلك الشعر على غرار أولئك الصوفيين الكبار الذين وصفوا حالات التعلم في تلك الحلقات التي يعرفها الفقراء، حيث يقومون بطقوس تطهير القلوب وغزو المعارف والقلوب بالحبّ.

إن هذه القصيدة الأولى التي نقدمها لكم مفيدة لأكثر من صفة، إنه يعلن بكيفية "صارمة ما ستسميه مدرسة ابن عربي (القرن الثالث عشر ميلادي) وحدة الوجود وهي نظرية تختلف عن مذهب الحلول".

ها هي بعض الأبيات المستخرجة من ديوانه الهام:

"قلُ الله! وتخل عن الدنيا وما يحيط بها إذا أردت تحقيق كمالي"

"كل شيء ما عدا الله، إن أحسنت إنجازه، هو العدم جملة وتفصيلاً"

"أعرفه جيداً فبدونه كل الخلق، وأنت معه، يتبخر ويمّحي"

"فكر وتفحّص إن استطعت أن ترى شيئاً آخر غير عمل من بين الأعمال"

"لاحظ أعلى وأسفل الدنيا بنظرة يدعمها الاستنتاج"

"ستجد أن كل شيء يشير إلى جلاله بصفة مباشرة أو بالتمويه"

"من الأعلى إلى الأسفل دون أن يستطيع أي واحد أن يصنع مثله، إنه هو خالقهم الذي يمسك بين يديه كل الأشياء"

والقصيدة الثانية التي نقترحها عليكم زجل، وهو شعر شعبي نوعاً ما مثل القصائد التي تأتينا من الأندلس والتي تم تأليفها بلغة نصف أدبية نصف عامية، وهي مستعملة لبحر مختلف تماماً عن بحور الشعر العمودي، وهو شعر من "النوع الذي استطاع، في بداية ذلك القرن الثاني عشر نفسه، أن يؤثر في الشعراء الجوالين الأوكسيتان".

إن موضوع هذه القصيدة خمرية، وهي مدح للخمر، ولكنها في الواقع تأملات عقلية يتحدث العالم فيها عن خمر ما ورائي، فالعديد من الصوفيين كانوا يستعملون هذا النوع من الشعر، والبعض منهم عبر صور مبتذلة ذات كمال باهر باستعمال مهارة مدهشة، كانوا يعبرون عن أغراض ما ورائية وصوفية تحت رموز الحب والخمر، فعمر بن الفارض (1181–1235م، القاهرة) "سلطان المحبين وقطب العارفين" كان من بين هؤلاء، وهكذا نجد أن كل الصوفيين والروحانيين يعتبرون الحب "البشري والسكر الخمري على أنها صور للحب "الإلهي، ألفى وأوميغا، ومبدأ وغاية، وجذر وانتهاء للوجود"، يذكر القشيري (1074م) في كتابه عن الحب" هذه الأبيات:

كان الناس سكارى في دورة الكأس في الدائرة

وسكري أنا يأتيني من الساقي.

أو كذلك:

إن الخوف والحزن يليقان بالعاصي المهووس

والحب يليق بالرجل الصارم والصافي.

ويكتب سيدي بومدين في السياق نفسه:

زارني حبيبي فصارت أوقاتي لطيفة فالحبيب سامحني

جاء موضوع شوقي يزورني، فبدأ دائي وسمح باللقاء

حضر في جلستي، دار الكأس، أنجزت رغبتي.

لقد شربنا خمراً مباحاً وتفتحت أرواحنا،

اِملأ كأسي، فيه فرحتي، أنا أشرب

يا من أنت قادر على الفهم !

أنا في ألفة حبيبي.

مصباحي قريب مني

يا له من خمر ! يا له من معايش ! يا له من شارب ! يا لها من موسيقى !

يا له من غناء !

إن أزهار الحديقة تضيئنا ببسماتها.

والطير فوق أغصانها قد خطبت فينا

إن كأسي ملأى والإبريق ملآن

بدون عنب طازج بدون زبيب

يا ضيوفي افهموا تلميحاتي، مدهشة هي حالتي.

صافية كأسي، لطيف مشربي، عذب مقامي.

دعني أسكر وأحبّ

كل يوم يأتيني بشيء جديد.

لا أتخذ مرشداً الجاهل الذي يقول لي: عليك بالتوبة.

كنا قد تحدثنا من قبل عن ابن الفارض، ذلك الشاعر الذي كان يجد المتجانسات الأكثر لطفاً، وكذلك فعل سيدي بومدين في قصائده الكلاسيكية، وعليه فإن الشاعر الثالث الذي سنعطيكم منه مقتطفات هو الشبيه المغاربي للشاعر المصري الكبير الذي ذكرناه سابقاً.

استوليت على عقلي وعلى بصري وعلى سمعي وعلى ذهني وعلى

أحشائي وعلى كلّي أنا شخصيا.

إني تهت في جمالكم الخارق للعادة وصرت أعرف

أين مكاني في محيط الغرام.

نصحتموني بإخفاء سري عندما انتهى إذعاني، عندما توقفت

عن تذوق لذة النوم في سريري."

قدمت لقاضي الحب وقلت له: عاملني أصدقائي بخشونة

واتهموا حبيّ بالمخادع"

ومع هذا، عندي شهود على حبيّ والأساتذة يؤكدون ادعاءاتي

عندما أجيء لأصرّح:

أرقي وحبيّ وحزني وأساي ورغبتي ونحولي وشحوبي ودموعي.

شيء غريب ! أبحث عنهم في كل جهة، وهم معي"
إن عيني تبكيهم وهم في حدقتي.
إن قلبي يشتكي الفراق وهم بين ذراعي.""
إذا طلبوا مني حقوقا على حبّي فأنا الفقير الذي ليس له شيء ولا عليه شيء"
إذا نفوني في سجون الهجر، سأدخل عندهم بشفاعة الشافع.

وهكذا، كان سيدي بومدين، عالماً كبيراً وزاهداً مثل كل الذين استغنى بهم المغرب العربي في تلك الفترة، هذا هو سيدي بومدين، رجل العقيدة ومحتقر الأبهة وكل الأشياء العظيمة في هذه الدنيا، إنه يبرز نفسه إلى جانب الفقراء والمساكين وهو نموذج للمربين، فقد كان له مريدون كثيرون، حسب المؤرخ المهدي البوعبدلّي، وصاروا مشهورين في العديد من المواد.

ولنعطي فكرة عن شهرة هذا العالم نذكر عائلتين قد سيطرتا مدة قرون على العلم في تلمسان، وكانتا تفتخران بآبائهما لأنهم كانوا في علاقة مع سيدي بومدين بصفتهم تلاميذه وخدامه، وهاتان العائلتان هما: آل مقري والمرازقة (من ابن مرزوق).

إن تلمسان، حيث كان يعلِّم مثقفين من بين مشاهير العالم العربي، كان لها شرف استقباله وتبنيه وحبه ودفنه، كما فعلت بالنسبة لآخرين قبله وبعده، فتلمسان هي كذلك، "مكان رائع للنوم بالرقاد الأبدي" كما قال ذلك سيدي بومدين.

سيدي عبد الرحمن الثعالبي
صاحب مدينة الجزائر الشهير

عبد الرحمن الثعالبي: مرابط حسب مجاز السلطات الاستعمارية لتلك الفترة ! هو رجل صالح، حسب العادات الشعبية والعقيدة النزيهة والمخلصة، وحسب ما تبقّى لنا من التاريخ، قروناً بعد وفاته، ذلك التاريخ، الذي مجّدَه بالتكريم والعظمة! سيدي عبد الرحمن كان كل ذلك في الواقع، لقد كان الواعظ والمعلم والباحث والرحالة وعالم الكلام والفيلسوف والشاعر والكاتب، وباختصار: العالم المتميز الذي جعل في اهتمامه التوفيق بين الصوفية والقانون، وتقديم أعمال رائعة ومنها واحدة متميزة النجاح، وهي تفسير القرآن الكريم: "الجوهرة البديعة في تفسير القرآن"، متبوعة بمختارات عن النهايات الأخيرة، وكان أيضا ذلك الرجل المتشبع بالحماس الذي لم يتوقف أبداً عن تربية الشبان وتنشيط المحاضرات وتخليد ذلك الغليان في الأفكار الذي يمثل كل قوة الإسلام. وهكذا ولنضبط معرفتنا به ونحمل الشبان على الاهتمام أكثر بتاريخنا وبتلك الشخصيات التي خلفت كنوزا للأجيال لا يمكن تقديرها وبالأحداث التي صنعتها وبالنشوة التي أثارتها بمفاخرها، فقد يكون من الإفادة بمكان أن نطلع على أرشيف تلك الفترة..... لنسافر إذن من أجلهم ومن أجلنا عبر الزمن.

مدينة الجزائر، مدينة سيدي عبد الرحمن

في عهد بني عبد الواد، عرفت الجزائر بعض الذهول عندما واجه أبو حمو الثاني مشكلات في الغرب مع المرينيين ومع الحفصيين في الشرق، ففي تلك الفترة بدأت تراجع مواقفها تجاه حماتها القدماء

وحاولت أن تفرض نفسها كمدينة مستقلة تحت سلطة الثعالبة الذين كانوا مستوطنين في المتيجة.

فمن ذلك العالم الصغير، أقصد المتيجة، برز العالم العلامة عبد الرحمن الثعالبي الذي جعله مصيره السعيد حافظاً أو حسب اللغة الشعبية الولي الصالح سيد مدينة الجزائر.

كنا في بداية القرن الخامس عشر الميلادي، في ذلك العهد الذي كانت فيه المدينة، أو ما سيصبح عاصمة، تتوسع كثيراً في المغرب العربي وحوض الأبيض المتوسط وتكثر من علاقاتها البحرية مع العديد من المدن الأوروبية التي كانت سفنها ترسو باستمرار في مرساها قبل هذا القرن بكثير، وثمة وثائق ترجع إلى القرن الثاني عشر تشهد على أن مرساها ورد في كل خرائطهم على أنه مرسى بحري كبير ومركز تجاري، نظراً للعلاقات الاقتصادية الهامة مع أوروبا وعلى وجه الخصوص إيطاليا وإسبانيا، ونظراً لموقعه الاستراتيجي أيضاً في البحر الأبيض المتوسط.

عرفت كذلك مدينة الجزائر في تلك الفترة إشعاعاً ثقافياً وعلمياً هاماً على غرار العواصم الإسلامية الأخرى في الشرق الأوسط والمغرب العربي، ألم يقل عبد الباسط بن خليل المالطي – (القرن الخامس عشر الميلادي) – عن مدينتنا، عندما سافر إلى المغرب العربي ليدرس الطب:

"دخلنا إلى الجزائر والتمسنا فضائل شيْخنا المبجل الأستاذ والعالم العلامة سيدي عبد الرحمن الثعالبي واستمعنا بانتباه كبير إلى كلامه المفعم بالأخلاق، ألقينا عليه بعض الأسئلة عن مواضيع حساسة كانت تشغل بالنا، ورد علينا على الفور بكثير من الثقة في

النفس والحكمة والوضوح، وبالتالي فإننا درسنا بكثير من الانتباه بعض أعماله وبصفة خاصةً تفسيره الجليل للقرآن، بصراحة لقد استفدنا منه كثيراً."

فبفضل العمل الجاد للولي سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وبفضل البذرة التي زرعها في كل مكان، فإن مدينة الجزائر عرفت –بعد ذلك بقليل في عهد بني مزغنة، تلك القبيلة الكبيرة من الصنهاجيين– ازدهار المدارس، والنوادي الثقافية والمساجد وعدداً معتبراً من الشعراء ومن رجال الأدب والفكر، وكان عادياً أن اللغة العربية، في ذلك الجو الثقافي، استطاعت أن تجد كل تفتحها، ولم يكن ثمة طيف من شك أنها ستكون يوماً مضطهدة أو منبوذة أو معرضة لمضايقات، هكذا فقد كان في مدينة الجزائر شارع مخصص لمؤلفات ومصنفات لعلماء كبار في المجالات الدينية والشرعية وكذلك في المجالات العلمية والأدبية، كان يرتاد ذلك الشارع كل مثقفي المدينة كما كنا نجد فيه الطلبة الذين كان عددهم يتزايد من سنة إلى سنة. إن أحد وزراء المغرب العربي، أبي الحسن علي بن محمد التمكروتي، عندما زار المدينة في القرن السادس عشر الميلادي وهو في طريقه إلى اسطنبول، قال:

"مدينة الجزائر مدينة كثيرة السكان...إن طلاب المعرفة ليسوا فقط كثيرين وإنما هم كذلك متعلمون بكثرة، فالكتب موجودة بغزارة، وفي كل الحالات إن عدد الكتب في الجزائر أكثر مما هو موجود في كل إفريقية. نجد في الجزائر كثيراً من كتب الأندلس".

نهج ابن شنب، المدرسة الثعالبية

لقد تواصلت تلك التقاليد الجيدة التي خلّفها عبد الرحمن الثعالبي إلى عصرنا هذا، وإذا تحدثنا عنها اليوم فلأننا نريد أن نعبر

عن امتناننا لذلك الرائد الذي أعطى اسمه لمؤسسة هي أهم من كل المؤسسات التي استطاعت أنظمتنا المعاصرة المختلفة إيجادها في إطار التربية.

كانت كل أنواع المواد العلمية والروحية تدرّس في المدارس التي أنشأها، من التعليم الأصولي إلى علم الفلك، إلى التاريخ، إلى الجغرافيا، إلى النحو، مروراً بتعليم الفقه، لقد أخذت المدارس أهمية كبيرة وتخصصت في مادة أو أخرى، إن تلاميذ سيدي عبد الرحمن الثعالبي كانوا كُثْراً عبر كل تاريخ مدينة الجزائر.

هم الذين واصلوا عمله وبرعوا وأبدعوا في تبليغ علمه وميوله الفلسفية ومنها ثقافته التي ذاع صيتها في المغرب العربي والعالم العربي. وهكذا ففي بداية القرن العشرين رجع إلينا اسمه بقوة عبر مجال المعرفة. في ذلك الوقت كانت السلطات الاستعمارية لا تقبل عموماً إلاّ فتح بعض المدارس القرآنية في المساجد أو قرب مرابط، بل داخل الضريح، إن هذه العملية المحتشمة لم تكن خطيرة على السياسة الاستعمارية لأن تعلم القرآن دون تعليم العلوم لا يزعج بأي حال من الأحوال فرنسا التي كانت تريد زيادة على ذلك طمأنة السكان المسلمين الذين تسهل إثارتهم كلما تم تحريك المسائل الدينية عندهم أن الإدارة لا تمانع في ممارسة الدين ونشر العقيدة.

ومع هذا بقي المهم: اللغة العربية، كيف ينبغي لفرنسا أن تسير ذلك المطلب الشرعي للشعب الجزائري الذي يريد تعلم لغته، التي تشكل المطية للمعارف الجيدة وثقافته العربية الإسلامية؟ كيف كان عليها أن تتكفل بذلك التعليم الذي صار أحد ثوابت الشعب الجزائري، التي لا تقبل التغيير ويستطيع الشعب عبرها تقوية شخصيته وتثبيتها؟

فإلى جانب المدارس الحرة لجمعية العلماء الجزائريين التي كانت تشيّد بصعوبة في بعض مناطق البلاد فقط، نظراً لعدم توفر الامكانيات، وبالتالي فهي معرضة لكل أنواع الصعوبات ومنها الإقفال التعسفي، إلى جانبها إذن فتحت أول "مدرسة لمدينة الجزائر" في عهد الاستعمار وكان الشبان الذين يرتادونها يسمونها مدرسة "سيدي عبد الرحمن"، لأنها تقع في حرم مقام سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وهكذا لا يمكن لنا أن نتحدث عن المدرسة وتأثيرها في فترة معينة من تاريخ بلادنا دون أن نكن شعوراً مفعماً بالتقوى لمن ارتبط اسمه ارتباطاً وثيقاً بذلك العمل العظيم الذي يستنطقنا بإلحاح – اليوم أكثر من الأمس – ليطلب منا كيف نستطيع إحياءه بكثير من الشجاعة من جانبنا على أمل أن نغيّر التوجّه في مستوى المنظومة التربوية التي أصبحت غير ناجعة وإعادة الاعتبار لتعليم الجميل في الماضي، الذي خرّج أحسن الإطارات وأحسن المسؤولين الذين عرفتهم الجزائر على مرّ الزمن وفي كل الأحوال، لا يمكن لنا أن نتحدث عن المدرسة دون الإشادة مرّة أخرى بالرجل الذي اختاره القدر للتمجيد قروناً بعد وفاته على واجهة هذه المؤسسة التربوية الأولى المتينة وذات النتائج الطيبة، فنعيد هكذا إلى الذاكرة بواسطة اسم معروف لدى كل العاصميين، أو قل كل الجزائريين فضاء كاملاً للمعرفة والتضحية والحب والتقارب والتقدم والإيثار والتسامح والعصرنة.

عبد الرحمن الثعالبي أو "الثعالبية"، هي التسمية التي نعرفها للمدرسة في نهج مارنقو، وهو اليوم نهج ابن شنب. كان ذلك هو الرمز الذي عنى الكثير، عبد الرحمن الثعالبي هو أخيراً ذلك الولي الكبير لمدينة الجزائر وهو الذي نحدد عبره اليوم موقع الجزائر العاصمة عندما نحتفل بأشعارنا وفي مدائحنا وفي ميراثنا وعندما نتغنى بالبهجة، مدينة الجزائر، "بلاد سيدي عبد الرحمن".

آثار سيدي عبد الرحمن: كنز للشبان

إن الجزائريين لم يتعبهم أبداً تعلم القرآن وفهمه وتأويله، سواء كان ذلك في أوقات السلم أم في زمن الحروب، في زمن اليسر أم العسر، لقد تعلموا القرآن منذ أول مفسر وهو هود بن محكم الهواري، المتحدرٌ من الأوراس ومنذ أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني (القرن الرابع عشر) الذي فسره مدّة خمس وعشرين سنة بكثير من التحكم والابتكار، ومنذ محمد بن عبد الكريم المغيلي (القرن الخامس عشر الميلادي) الذي برع في شرح الفاتحة وتأويلها وألّف: "الكوكب اللامع في علم التفسير"، ومنذ محمد بن يوسف السنوسي (القرن الخامس عشر الميلادي)، وأبي العباس أحمد بن عبد الرحمن المشهور باسم ابن زاغو التلمساني المغراوي (القرن الخامس عشر الميلادي) وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن الخطيب محمد بن مرزوق (القرن الخامس عشر الميلادي) وهو أحد أساتذة عالمنا المبجل عبد الرحمن الثعالبي وأبي عبد الله محمد الباهلي مفسر بجاية وأبي الروح عيسى الملكاوي الزواوي الذي هاجر إلى مصر وصار السيد الذي لا يمارى في الفتوى في جامعة الأزهر، أكبر جامعة في العالم الإسلامي في تلك الفترة، ثم قاضي مصر الأكبر شرف الدين بن مخلوف، وكذلك منذ أبي علي ناصر الدين المشدلي الزواوي من مشد الله وهو تلميذ العز عبد السلام ومحمد بن علي الخروبي وهو سفير السلطان العثماني والأمير أبي عبد الله الشريف وأبي زكرياء نايلي الشاوي الملياني (القرن السابع عشر الميلادي) الذي كان يسمى "آية الله الشهير في التفسير" والشيخ محمد بن عنتر، من أولاد علي أحرزون من قبيلة زواوة، الذي كان له الفضل في نسخ تسع وتسعين نسخة من القرآن

الكريم وتوفته المنية قبل أن ينهي النسخة المائة، ومنذ العديد الآخرين ممن تسنت لنا فرصة تقديمهم في فصل سابق.

ومع ذلك، فنحن متيقنون من أن الجزائر، مع هؤلاء ومع الآخرين الذين أتوا من بعدهم مثل الشيخ ابن باديس والشيخ بيوض، قد سجلت صفحة مشرقة في العالم الإسلامي، فرجال الدين أولئك، ومن بينهم كلاميون مشهورون وعلماء وفلاسفة، وكان من بينهم إمّا أساتذة أو تلاميذ لسيدي عبد الرحمن الثعالبي، قد حظيوا في فترة معينة بشرف أن يكونوا بحضرة أفضل وأهم مفسر عرفته مدينة الجزائر، انطلاقاً من بداية القرن الخامس عشر الميلادي ولا نبالغ إن قلنا كل العالم العربي.

وهكذا فإن العالم الكبير عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الذي ولد في وادي إسر، في منطقة القبائل الكبرى حالياً، سنة 784 هـ (1383م)، قد عرف مساراً مليئاً بالأعمال النافعة وكرس كل جهوده مدّة خمسين سنة لتعليم الشبان والمخلصين ولتربيتهم، وكانت جهوده كلها تتضافر نحو هدف واحد: مقاومة التفرقة والرد السريع على النظريات التي تحرف روح الإسلام. لا ينبغي أن نخلط بينه وبين سيدي محمد بن عبد الرحمن المسمى "الولي ذو القبرين".. إن هذا الأخير قد ولد حسب ما كتبه العقيد تروملي: "في القبيلة القبائلية آيت إسماعيل، وهي جزء من مجموعة غجثولة وتشغل اليوم الجزء الغربي من السفوح الشمالية لجرجرة، ويرجع مولده إلى الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادي".

فبين الرجلين فاصل زمني قدره أربعة قرون، وفيما يخص سيدي محمد بوقبرين وهو مؤسس الطريقة الرحمانية – وقد شرحنا

ذلك من قبل – فإن الأسطورة تنسب إليه عدة معجزات من بينها أنه يستطيع أن يزدوج في جسمين كاملين. "القبة التي تحتوي على بقايا سيدي محمد بن عبد الرحمن في الحامة مغلقة بجدار تمتد حوله مقبرة تظللها أشجار الزيتون الجميلة وبطميات وصبّارات. (...) والضريح الثاني للولي يوجد في آيت إسماعيل وهو كذلك مزار يأتي إليه كثير من إخوان الطريقة في القبائل الكبرى".

ذهب سيدي عبد الرحمن صغيراً جداً إلى بجاية، واستقر عند الإمام الكبير عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي، من قبيلة بني وغليس البربرية المتحدرة من وادي الصومام، ويروي عن سفره ودراساته في بجاية بـ "فهرسته" على النحو التالي:

"إن تنقلاتي أوصلتني إلى بجاية حيث نزلت سنة 802 هجرية، ولقيت فيها علماء كانوا مرشدين لي في العلوم وفي الدين وفي التقوى، كانوا تلاميذ الشيخ العلامة والتقي أبي زاية عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي وكذلك تلاميذ الشيخ أبي العباس أحمد بن إدريس الذين كانوا كثراً وأتقياء ومنضبطين في الممارسات الدينية، لم تكن لهم أي علاقة مع الأمراء ولا يقربونهم، فخلّد خلفهم وتلاميذهم ذلك السلوك، رضي الله عنهم".

ودرس كذلك على أستاذ آخر هو أبو الحسن علي بن عثمان المنقلاتي، ورحل فيما بعد إلى تونس وتتلمذ على الأساتذة الشيخ أبي المهدي عيسى بن أحمد الغبريني وأبي عبد الله محمد بن خلف الوشتلتي وأبي القاسم بن أحمد البرزالي القيرواني، وبعد تونس التي نال فيها شهادة أستاذية العديد من فروع المعرفة، استقبلته مصر حيث نال شهادة علاّمة لدى الأساتذة الشيخ البلالي والشيخ

البساطي والشيخ ولي الدين العراقي، وقد علمه هذا الأخير العلوم الإسلامية وخاصة ما يتعلق بالسنّة، ثم ارتحل كذلك إلى مكة فكانت فرصة له ليكون بحضرة عدد كبير من العلماء من العالم العربي والإسلامي، وبعد رجوعه إلى تونس ماراً بالقاهرة، كانت له فرصة لقاء أستاذه أبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني الذي ساعده كثيراً ونصحه ليقوم بأعماله في الكتابة والحوصلة على أحسن وجه.

واصطحب بين أسفاره العديدة الحافظ الدمياطي أثناء رحلة دراسية على امتداد النيل واستفاد من ذلك الوقت ليعمق معلوماته في مجال الحديث، الشيء الذي حمل الشيخ ابن زكري محمد بن سعيد بن أحمد – مفتي المالكية وأستاذ من الدرجة العالية في المدرسة الثعالبية في بداية القرن – على القول بأننا نستطيع تعريف سيدي عبد الرحمن على أنه "أكبر رحالة زمانه في تبليغ الحديث".

وبعد أن استقر في مدينة الجزائر، كرّس سيدي عبد الرحمن نفسه لدراسة القرآن الكريم وتأويله، لقد قام بذلك على وجه عالي المستوى بحيث كان أستاذه أبو عبد الله بن مرزوق فخوراً به وهنأه على ذلك وتمنى "ألاّ يغادر كتابه الممارِس الذي يحب كلمات الله لأن مضمونه ميسر الفهم وموجز في آن" .وكان عبد الرحمن الثعالبي نفسه راضياً عن ذلك العمل إذ يقول: "إن فرحتي عندما يتشرب المؤمن عملي، تفوق فرحتي الشخصية بإنجاز ذلك العمل".

يجدر بنا أن نلاحظ أن نسخاً من ذلك التفسير قد أرسلت إلى مكة والمدينة، وأرسلت نسخة منه إلى القدس، بالإضافة إلى تلك التي وزعت في مدينة الجزائر وبجاية وتلمسان وفاس، إن الشيخ مصطفى بن خوجة (القرن التاسع عشر الميلادي) قد قدم تفسير الثعالبي على أنه:

"ذخيرة للعلماء وكنز للطلاب".

وحذا حذوه مفتي مدينة الجزائر ابن زكري محمد بن سعيد الزواوي بقوله:

"وكيف لا نعتبره كنزاً وهو تفسير متميز للذكر الحكيم، وهو تفسير خال من أي شك ومن أي ضلالة ومن أي مغالطة؟"

فبهذا المجهود المتواصل، المفعم بالإيثارية والتضحية، استحق عبد الرحمن الثعالبي اسمه "سيد مدينة الجزائر الشهير".

عندما نطلع على هذا العمل المجتهد، يسعدنا أن نلاحظ بالنسبة لتلك الفترة، كما يؤكد على ذلك "تاريخ البشرية"،أن" "الفكر الإسلامي حاضر في التقدم العام للثقافة وذلك بفضل التطور الداخلي الذي استطاعت أن تبلغه".

سيدي عبد الرحمن في طريق الحقيقة

قبل أن نتحدث عن الزاهد أو الصوفي الذي مثله عالِمنا، ينبغي قبل كل شيء، وحتى يكون الفهم فهماً جيداً، أن نحدد مذهبه الذي تكثر فيه القواعد والممارسات المتسمة في الغالب بالطابع الصوفي، إن هذا المذهب، حسب طقوس القشيري، في رسالته الشهيرة، والغزالي (أبو حامد)، في تصوره لدين "مفتوح"، كان جزءاً من مجموعة من التيارات الإسلامية التي لن نكف عن إبراز أهميتها في إطار تقوية النظرية والعقيدة الإسلاميتين، إن تلك الوفرة من الآراء جاءت لتؤيد حديث النبي (صلّى الله عليه وسلم) الذي يقول فيما معناهُ:

"في اختلاف الأئمة رحمة للأمة".

إن هذه الحكمة تجد صداها الجيد في المجتمعات المتقدمة عندما تؤكد لأ ولها الحق في ذلك – أن "الضوء ينبعث من المناقشة" أو كذلك عندما اختاروا، قبلنا بكثير، التعددية في التعبير معترفين بذلك أن في تعدد التيارات وأنماط التفكير السياسي حسنات جمة.

وعليه ينبغي أن ننظر ما إذا كانت هذه المذاهب المتعددة والانقسامات والطوائف السياسية الدينية قد ساهمت، في المجال العملي، في تقدم الإسلام أو على الأقل في تطهير ممارساته.

كان الرازي يقول:

"إن المشكلات التي تفرق بينهم وكثرة المناقشات تؤدي إلى الحقد، برغم الدم المهرق وتخريب الممتلكات، فإن عدد الطوائف يتزايد بدون توقف، فلو اجتمع الناس بعيداً عن العراك ليسمع بعضهم بعضاً وليتحابوا ويتعاونوا لأنجزوا بذلك أمنيات نبيهم".

لكن وبرغم الشروخ الكبيرة والانقسامات المتكررة التي عرفها الإسلام، وغالباً ما وقعت في وظروف صعبة للغاية، فعلى العكس من ذلك فقد كان الجهد مخلصاً والتقوى لا نقاش فيها عند الصوفيين، لتلك المدرسة الهادئة والمعتدلة، تلك المدرسة التي ينتمي إليها عالمنا عبد الرحمن الثعالبي. إن هؤلاء الرجال يعملون على إرساء الاستقامة وهم في الوقت نفسه يؤكدون أن التقدم في الأبحاث سيساهم في أكبر مجد للدين وأن المنطق سيسمح بالمرور من المعلوم إلى المجهول، فبمفهومهم الفلسفي الذي لا يمكنه أن يكون في زمنهم أبداً في تعارض مباشر مع عقيدة الإسلام، كان هؤلاء الرجال يرون أنهم يستطيعون حقاً التمييز بين الخير والشر، إنهم دعموا الحقائق بأدلة عقلية، الأمر الذي لا يشكك فيه الوحي.

إن تقوى الزاهدين في الإسلام المجبول بالحب والعلاقة الشخصية مع الألوهية هو أصل الممارسة الروحانية الباطنية، فالمرحلة الأولى للحركة كانت ردة فعل تقية على المناقشات المملة للفقهاء الأوائل في زمن الأمويين في القرن السابع الميلادي، ويشرح المؤرخون أن العنصر الجديد في الإسلام الذي حول الزهد التقي إلى روحانية هو المثل الأعلى للحبّ الإلهي الذي عبرت عنه رابعة العدوية في نهاية القرن الثامن الميلادي في البصرة، إن ذلك التصوف كان يخفي في الوقت نفسه الخوف من جهنم والأمل في الجنة ليبرز الحبّ المجرد عن النفس، وعليه فمن الواضح أن هذه الثقافة الروحانية تمثل بعداً كاملاً من أبعاد الدين الإسلامي، ولم تتطور بكيفية لائقة إلاّ ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي بعد ظهور مختلف المذاهب الدينية عبر تصوّرات من كبار العلماء.

إن الزهاد وهم أوّل من جمع السنّة، عاشوا متعففين وعاش العديد منهم في الفقر التّام، وفيما بعد أعلنوا بصراحة عن مبادئ التقشف، كان أولئك الوعاظ من بين العلماء المتكلمين والشعراء الذين أنتجوا أعمالاً ذات جمال نادر وذات أهمية كبيرة في مستوى التماسك، كان ابن خلدون يقول عن تصورهم:

"إن الطريق التي اتبعها صوفيو المستقبل كانت دائماً تعتبر على أنها طريق الحقيقة والسلوك الجيد سواء من قبل صحابة النبي أم من قبل تلامذتهم المباشرين ومن خلفهم"، نحن لا نفعل أكثر من التذكير بذلك لأننا علقنا في السابق على طرق الصوفية.

سيدي عبد الرحمن الثعالبي لم يكن وحده في هذه التبعية التي بدأت، منذ القرن الحادي عشر الميلادي، تأخذ في التوسع شيئاً

فشيئاً في الأوساط الروحية لتصير مجتمعاً فكرياً له فلسفته. واستعمل لغة لا يفهمها إلا الخاصة في الظاهر ولكن عليها أن تخصص لبعض الكلمات العامّة مفاهيم تقنية، إن هذه الفلسفة كما قال عنها ابن سينا "هي تحسين الروح البشرية بمعرفة الإنسان"، وكان هناك صوفيون مرموقون قبله وبعده، فلا نذكر منهم إلاّ الأكثر أهمية مثل أبي حامد الغزالي، وهو من أبناء خراسان وطالب لامع في جامعة نيسابور، والذي كان تقريباً أكبر الصوفيين باعتبار مساره ومؤلفاته وباعتبار عظاته من أجل "دين مفتوح هو قبل كل شيء تطهير للقلوب وغزو المعرفة والحب"، وبعد أن جاب العالم العربي ألف كتابه الشهير "إحياء علوم الدين"، وحسين المنصور الحلاج كان كذلك صوفياً شهيراً عاش قبل الغزالي بكثير، لقد كرّس المستشرق لويس ماسينيون مجلدين كبيرين من أطروحته لذلك "الشهيد الصوفي في الإسلام"، أبو ناصر السراج، والقشري وابن الفارض، حتى لا نذكر إلا هؤلاء، كانوا كذلك من نفس المعدن، صوفيين كباراً تركوا آثاراً جميلة عبر مؤلفات متميزة بقيت لنا، مثل علم الكلام للأشعري مثلاً، أو ذلك الديوان الرائع الذي بقي مشهوراً في كل العالم العربي والذي تتسم أبياته بإتقان منقطع النظير إلى درجة أنها ما زالت تغنّى في الجلسات الانتشائية للدراويش في القاهرة وفي فاس، وتعبر عن أغراض ما ورائية وروحانية صوفية تحت رموز الحب والخمر.

في المغرب العربي كما في إسبانيا، زيادة على سيدي عبد الرحمن، فإن الأساتذة الكبار كانوا: سيدي بومدين ولي القطر الجزائري وهو من أصل أندلسي، وأبا الحسن الحرالي التجيبي وهو من أبناء مراكش وعلّم في بجاية وأبا عبد الله بن خليس من تلمسان والذي تلقى العون والمنة عن ابن يغمراسن الذي عينه أميناً عاماً لديوانه.

وهكذا لا يمكن لنا أن نغادر هذه الدراسة المتواضعة عن سيدي عبد الرحمن – متواضعة لأن المجهود الذي بذله من أجل الأمة الإسلامية في إطار النظرية الروحانية، لا يمكن أن يختصر في بعض الصفحات – دون أن نقول إنه كان ربّما من بين القلة التي كان همها أن توفّق بين الصوفية والقانون، كما لا يمكن لنا أن ننهي هذه الدراسة دون أن نعرض عليكم بعض المقتطفات من مصنفه المهم عن الغايات الأخيرة وبعض أفكاره محررة في أسلوب قل نظيره في جماله، وبرهنت في زمنه بداية علَى الخلُق الذي أبى إلا أن يبلغه تهذيباً لإيمان تلامذته وتدعيماً له.

وإليك الآن مقتطفات من كتاب العلوم الفاخرات، القاهرة (1317هـ – 1899م) بترجمة لوراس *Laurès* من وذكره إميل ديرمنغام...

في كل ساعة تموت...

إن الأمانات التي تسلمتها النفوس سيطلبها الله الواحدة تلو الواحدة حتى تكافأ نفوسنا على الكل.

إن أرواحنا لنا أمانات تسلمناها، فالموت سيحاول إرغامها على السداد.

لا بد أن نرجع ما استلفنا، كل مستلف لا بد أن يذعن لذلك.

إن الأغنياء الذين هم سفهاء غير مبالين بعظمة الله وجلاله لا يبالون بالمكان المرعب الذي نرجع إليه، حيث نتقاعد بصفة نهائية.

وما يشغلهم وحده هو الأعمال البشرية المهينة، القيل والقال الذي لا يفيد والدسائس والمداهنات التي تضاعف الثروات.

إنهم لا يعرفون أن الثروة امتحان، إنها مصيبة حقيقية وحساب خاطئ وتجربة موجعة، وتحرك بدون جدوى.

يا أيها الرجال المتبصرون ! أمسكوا فرصة النعمة التي منحها الله لكم فأعطاكم متنفساً.

أرفضوا مخادعة الرغبات الواهية والكذب والآمال الخائبة.

ها هي دونكم مفاجآت النهاية الأخيرة التي ستنزل عليكم بغتة.

إنك أنت، أنت نفسك، منغمس في سكرة اللذات وفي ذهول الهوى وفي غيبوبة اللامبالاة.

إن مقصات الثروة تتحرك في ثياب الحياة. إنها تصنع قطعا مبعثرة في وجودك، طوال ساعاتك. كل نفس من أنفاسك جزء منفصل عن مجموع النفس.

فمع اختفاء تلك الأجزاء، فإن الكل في الأخير هو الذي ذهب، لأنك جمَعْ، وستؤخذ في وحدتك كما في تنوعك وتجازى على الكل.

سيدي محمد بن عمر الهواري: سيد مدينة وهران

"كان يتمتع بالحكمة ويمشي على دربها؛ كان صارماً صواماً، وشريف واسع الكرم، كان يحب الأتقياء، يوفر لهم دعمه ويحيطهم باحترامه، أبداً لـ يتعد" الحدود التي وضعتها شريعة النبي، أظهر نفسه دائماً عفيفاً ومتجرد من متع الدنيا، وأخيراً كانت أفعاله دائماً سامية بمقدار معرفته السامية".

هذا ما كان المؤرخون يقولون عن ابن قبيلة هوارة البربرية الكبيرة محمد بن عمر الهواري الذي صار شهيراً في الاعتبار العلمي والتقوي.

مولده ودراسته

كانت وهران على الدوام عرضة للاستيلاء عليها من ظرف العزاة ثم تسترجع، فيتم إعادة بنائها على التوالي من قبل كل الأسر الحاكمة التي تنافست على السلطة في المغرب العربي، وبلغت وهران في القرن الثاني عشر في عهد الموحدين ازدهاراً كبيراً جداً حسب ما قاله كميل كاهل، أمّا عالم الجغرافيا الإدريسي، فإنه أعطانا هذا الوصف عن المدينة التي كانت أحد أربع أكبر موانئ البحر الأبيض المتوسط في إفريقيا:

"إن مدينة وهران الواقعة بجوار البحر، محاطة بجدار مبني بأيد ماهرة، نجد فيها دكاكين كبيرة وكثيراً من المصانع والتجارة فيها مزدهرة، إن موقعها قبالة المرية على الشاطئ الإسباني... في وهران نجد الفواكه بغزارة والعسل والسمن والقشدة والمواشي وكل شيء بأسعار معتدلة، إن السفن الإسبانية تتوالى بدون انقطاع في مرساها، إن سكان هذه المدينة يتميزون بنشاطهم وأنفتهم".

ففي هذه المدينة التي ترسو فيها السفن من بلنسية ومرسيليا وجنوة والبندقية لشحن مواد مختلفة، منها القمح والشعير والتمر والشمع والعسل والزيت ومواد أخرى نباتية مختلفة، في هذه المدينة وُلد الطفل الذي سيكون سيد وهران (مولى وهران)، وكان ذلك أيضاً في الوقت الذي كان فيه السلطان المريني أبو الحسن يأتي للإقامة – في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي – في هذه الحاضرة الممتعة.

سيدي محمد بن عمر بن عثمان بن مانية بن عياشة بن عكاشة بن سيد الناس بن أمين الناس الهواري من قبيلة هوارة، ولد في وهران، المدينة التي أعطت عدداً هائلاً من الشخصيات النيرة بصلاحها ومعرفتها، ولد في سنة 751 للهجرة الموافق لـ 1347 ميلادية.

منذ نعومة أظفاره كان للهواري مواهب وفضائل يتميز بها أولياء الله الصالحين، كان من ذلك المعدن، معدن الولاية، إن سيدي الهواري، حسب الشيخ ابن صفوان، كان متحدراً من مغراوة، وإليك الفقرة التي يتكلم فيها عنه:

"شيخ الشيوخ ونموذج المثابرة والصرامة، فإن سيدي محمد بن عمر بن عثمان بن صابي بن عياشة بن عكاشة بن سيد الناس المغراوي والمسمى بالهواري، إلخ، مات حسب المصادر صباح يوم السبت في ثاني يوم من ربيع الثاني 843هـ، وقد حفظ القرآن صغيراً وكذلك القواعد النحوية التي كان يستعملها بسهولة فائقة، كتب عنه رشيد بورويبة ما يلي:

"لقد كان محمد لا يشبه الأطفال الآخرين أترابه، كان لا يشارك في ألعابهم ولا يعير أهمية للشرب والأكل ولا يكذب أبداً، فبرغم عدم انتباهه ولا مبالاته الظاهرة، فقد حفظ القرآن عن ظهر قلب وهو في سن العاشرة، ففي هذه الفترة غادر عائلته وذهب إلى كلميتو حيث آواه شيخ علمه العقيدة الروحانية".

وبرغم أنه كان متقدماً كثيراً عن عمره باعتبار قدراته وذكائه فلم يكتف بما كان يعتبره غير كاف لبلوغ أدنى درجة في الثقافة والمعرفة الدينية، ذهب إلى وادي الشلف، وهو مكان آخر يفضله المثقفون ورجال العلم، حيث يوجد رجال عقيدة متميزون من بين أحباب الله، كان يذهب لزيارة ولي من أولياء الله ويتعلم عنده ما لم يتعلمه في مكان آخر.

بعد أن غادر تلك المنطقة تنقل في مناطق أخرى غير بعيدة عن مقره شرق وهران وغربها ثم انغمس في مناطق جنوب البلاد في الصحاري مسيّراً وحدته بشجاعة كبيرة، وكأنه يريد أن يمتحن

مقاومته ويتعلم ما قاساه الفقراء والمساكين، كان يتغذى مدة طويلة من النباتات والجذور في الأرض، كان يعيش وسط حيوانات وحشية ولا يخشاها، فالله القدير هو الذي أعطاه تلك النعمة، والمؤرخون يذكرون في هذا الشأن:

"أثناء إقامته في الصحراء غالباً ما كان يقع له عندما يذهب لطلب الاستضافة في دوار أو في قصر أن تأتي الأفاعي ذات القرن التي لها لسعة قاتلة أو العقارب في الليل تبحث عن ملجأ في ثيابه، فالرجل الصالح يكتفي بنفضها بلطف ليتخلص من ضيوفه وهي الحيوانات التي يعتبرها الناس الذين لا إيمان لهم أنها مزعجة جداً، وفيما يخصه لم يكن له أبداً أن يشتكي منها".

وبعد الصحراء، ذهب الشاب الهواري إلى بجاية، المركز الثقافي، ليدرس عند الأستاذين الشهيرين أحمد بن إدريس وأبي زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي، ذلك الأستاذ الذي تتلمذ عليه، فيما بعد الشاب عبد الرحمن الثعالبي الذي سيصبح سيد مدينة الجزائر، إن الشابين سيدي الهواري وسيدي عبد الرحمن الثعالبي عاشا تقريباً في نفس الفترة، فالأول كان يكبر الثاني ببعض السنوات، بالضبط أربع وثلاثين سنة، وفي بجاية سلمت له عدة شهادات (إجازات).

كان فضوله لا يعرف الحدود، لم يكتف بالمحاضرات التي تلقاها في بجاية، تلك الحاضرة الرائعة التي كانت تشع بأنغام الفنون والعلوم، ومن هنا توجّه إلى فاس وهي كذلك مركز آخر للثقافة، وتابع في هذه المدينة دروس أكبر العلماء طيلة سنوات عديدة، وأنهى دراساته خلال سنة 1374م في سن مبكرة أي سبع

وعشرين سنة، فكرس نفسه في فاس ذاتها لتعليم الصغار، علمهم القرآن والفقه الإسلامي والأدب العربي. ففي هذا العمر كذلك ألف كتابه: "السهو والتنبيه".

يشير المؤرخون وليس من غير أسس إلى أن: "دروسه كانت تجتذب كثيراً من الناس لأنه، حسب قول تلاميذه، لم يسمعوا أبداً إلقاء مثل إلقائه".

سيدي الهواري، المربّي والولي الصالح صاحب مدينة وهران

فبعد فترة ملأى بالتوجيه والتحسيس والنجاحات العديدة، قرر سيدي الهواري مغادرة فاس ليذهب إلى مكة ليؤدي فريضة الحج الواجبة على من استطاع، فأقام بمكة عدة سنوات ثم ذهب إلى المدينة المنورة وبعدها إلى بيت المقدس (القدس) "ليسجد في المساجد الثلاثة الأكثر تبجيلا في الإسلام والتي تكون الصلاة فيها تبلغ كل الفعالية". ثم ذهب أخيراً إلى دمشق حيث سكن في المسجد الكبير.

وبعد رجوعه إلى البلاد، عاد سيدي الهواري إلى وهران ليستقر بها نهائياً ويواصل بها العمل الذي اشتغل كثيراً من أجله، وهكذا وخلافاً للأولياء المبجلين الآخرين فقد حصل له الشرف أن يؤم الناس في المدينة مسقط رأسه، وبالفعل فإن الآخرين يأتون من بعيد جداً مثل الدعاة لأولئك المبشرين للمسيحية المكلفين بتلقين الإنجيل – الذين يقيمون وسط السكان الذين يتبنونهم بسرعة، لأنهم كانو يحسون بتلك الحاجة وتلك الحماسة لاكتساب المعرفة والتقدم وباختصار فإنهم كانوا يرغبون بشدة أن يضعوا أنفسهم في سياق الثقافة لتذوق سحر الكلام الربّاني لدى أولئك الأولياء.

فأسس من أجل هذا العمل الشريف مدرسة تردد عليها وأحبها كل مثقفي مدينة وهران وضواحيها والذين كانوا لا يملون من المثابرة في متابعة دروسها الممتعة، فقد قال عنه المؤرخون:

"كان يشرح ويوضح بسهولة عجيبة أصعب المسائل، الغامضة منها والشائكة، كان يملك "كذلك القدرة على الإطلاع على ما يختلج من أفكار في أعماق الرجال وكأنها مرتسمة على وجوه الذين يستشيرونه، غالباً ما تكون أجوبته على ما يطرح عليه من مسائل معقدة، وكانت تتناول العديد من العناصر بحيث يجد كل حاضر الحل الذي كان يربكه وذلك قبل أن يطلب ذلك من الولي والعالم العلامة."

سيدي إبراهيم التازي وهو التلميذ العزيز على سيدي الهواري والمكلف بمواصلة أعماله، كان عالماً في كل العلوم، وهو منجم للمعارف النادرة ونموذج للطيبة والكرم، كتب في يوم من الأيام رسالة إلى أهله الذين كانوا مقيمين بالمغرب يقول فيها:

"أحس الآن بتفوق دروس الشيخ محمد الهواري، اليوم أستطيع أن أعلم مختصر الفقه لسيدي خليل دون أن أحتاج إلى الإطلاع على الشرح".

كان سيدي الهواري يتمتع بذكاء خارق للعادة، وكانت دروسه تتميز بفصاحة عالية، وكان سكان وهران يتسابقون جماعات للاستماع إلى عظاته. كان قاسياً على الأغنياء، كان يشرح لهم نار جهنم وكل العقوبات التي يفرضها الله على المذنبين، وينصحهم بتأدية الزكاة، حتى ذكر المؤرخون أن الملائكة كانت تحضر دروسه وتأتي لتذوق حلاوة الكلام الإلهي قربه. ويضيف هؤلاء المؤرخون أنفسهم قائلين:

"لقد كنا نشك في ذلك شيئاً ما لأنه يطلق العنان لكلامه دون أن يبحث عن تخصيصه أو وضعه في مستوى ذكاء المستمعين العاديين

إلى درجة أن القليل من التلاميذ كانوا يفهمون المقصود بهذه الدروس التي لم تعد موضوعة من أجلهم".

ويضيف بورويبة أن الهدايا كانت تتدفق على الزاوية من كل حدب وصوب، وكان الرجل الصالح يوزعها على الفقراء أو يستعملها لصيانة تلك المؤسسة الدينية، حيث كان يتم استقبال كل المسافرين وخاصة الشرفاء بكثير من المودة، عندما يقدم شريف إلى سيدي الهواري، فإن هذا الأخير يتخذ أمامه هيأة خادم ويقوم لاستقباله ويمدحه أمام الحاضرين وأثناء المغادرة يعطيه مالا وملابس.. وفي المقابل، فإنه كان يتجنب مخالطة الأمراء ويطلب منهم أن يحترموا صلاحياته.

كان سيدي الهواري يصلي كثيراً وخاصةً في الليل، لأن ضجيج النهار يمنعه من التركيز والتفكير، وأكد شخصياً أنه كان يسهر كثير في الليل، وكان يعجبه أن يكرر ذلك:

"لم يرني أحد أغفو في الليل، إن الناس الذين ينامون يشبهون الأعشاب اليابسة".

إن قوة الطبع التي صنعها لنفسه بصلواته الطويلة ألهمت رعايا ومريديه وجميع السكان هيبة واحتراماً كانوا يقولون بأن "الل يستجيب دائماً لدعواته"، ومن هنا فإن العديد من التعليقات سارت مؤكدة ملكاته السحرية، تلك القدرة الخارقة للطبيعة أو بكل بساط ملكات الولي الصالح الذي يستعمل النعم التي أكرمه الله بها.

يحكى أن امرأة كان لها ولد سجين في الأندلس، فذهبت إلى الرجل الصالح لتشتكي من سوء حظها ولتتوسل إليه، هو الذي يستطيع أن يفعل كل شيء وأن يجد لها الحل، فأمر سيدي الهواري المرأة أن تحضر أكلة بالمرق واللحم وأن تحملها إليه، فالمرأة، كما

نشك في ذلك، أسرعت في الامتثال ورجعت بسرعة بالأكلة المطلوبة إلاّ أن سيدي الهواري كانت له وقتئذ سلوقية ترضع صغارها، فقدم لها الأكلة – وما فيها من اللحم – التي حضرتها أم السجين، ثم توجه إلى السلوقية قائلاً: "إذهبي الآن إلى الأندلس وأحضري لي ولد هذه المرأة"، فهمت السلوقية ولم تنتظر تكرار الأمر مرّة أخرى، فانطلقت كالسهم وسمح الله لها بأن تجد الوسيلة لعبور البحر بدون أي مشقة، وعند وصولها إلى الشاطئ الأندلسي لقيت الكلبة الرائعة الأسير الذي كان عليها أن تحضره، في ذلك اليوم – انظروا كيف تترتب الأمور – وكان الشاب العربي – الذي كان عبداً عند مسيحية – قد جاء إلى السوق ليشتري لها ضلعين من الضأن، لأن تلك المسيحية كان عندها ضيوف في ذلك اليوم. فبقفزة واحدة انتزعت السلوقية ذلك اللحم من يد السجين الصغير، ثم شرعت في جرها كما تحسن فعل ذلك السلوقيات عندما تريد ذلك، وانطلقت نحو الشواطئ، فخشي الوهراني الشاب عتاب سيدته، فبدأ يطارد ضلعيه، وهكذا قطعت السلوقية القناة، فقطعه الشاب وراءها، وأخيراً وصل الرجل والحيوان إلى شاطئ البحر، وقطعها الاثنان بقدرة الله، وكأنها وادٍ صغير في أيام الحر الشديد، ودخلا وهران دون أن يصابا بأي أذى.

والحقيقة أن سيدي الهواري لم يكن تنقصه الفضيلة أو الصفات الحسنة، ولكنه قد جعل غضبه على المتهورين الذين أثاروه. ويحكى – ويمكن أن يكون ذلك افتراء مشيناً سنعود إليه – أن "مدينة وهران قد دفعت الثمن باهظاً كلفة الابتعاد عن الطريق السوي... بعد أن سخط على سلوك الوهرانيين الذين أفسدهم الرخاء والثروة إلى أعلى درجات الفساد، فسلط عليهم تلك اللعنة صراحة:

– سيحضر الأجنبي إلى مدينتكم ويبقى فيها إلى غاية يوم اللقاء″!

إن كاتب ″حزب العارفين″ يلصق به ذلك التنبؤ ولا يخشى أن يقول ذلك بكلمات واضحة أن الشيخ الهواري قد باع وهران للكفار عندما طلب من الله الانتقام من سكان هذه المدينة الذين قتلوا له أحد أبنائه، حسب ما قاله المؤرخون، ومن غير أن ينقصوا من احترام ذلك الكاتب الشهير، فإنهم سمحون لأنفسهم مع هذا أن يلاحظوا أن سيدي الهواري الذي كان ضليعاً في علم الكلام، ومن كان يقوم بالأعمال الصالحة، ليس في حاجة إلى أن يطلب من الله مثل ذلك الطلب.

فأثبتوا أن الاتهام الموجه ضد سيدي الهواري افتراء، و″أنهم مرتاحون لتطهير ذكرى ذلك الولي المبجل من تهمة أكل عليها الدهر وشرب والتي لم ينظف منها حفدته الكثيرون أو لم يبرؤوا نهائياً″.

صحيح أن مدينة وهران تم احتلالها من قبل الأسبان مرتين في سنة 1509 على يد دون بيدرو نفارو، باسم كاردينال طليطلة، كسيمني دو سيسيزو، الذي موّل هذه الحملة، وفي سنة 1732 من قبل الدوق دومورتمار، مرسلاً من قبل ملك إسبانيا فيليب الخامس. لقد حكمه الأسبان مئتين وتسعاً وخمسين سنة، ولكن ما هو خطأ بصفة كاملة هو أن هذا الاحتلال ليس نتيجة للعنة سيدي الهواري المفتراة، كان للإسبان في برامجهم ذات الطبيعة الاستعمارية والمهيمنة، الاستيلاء على وهران واحتلالها، ولم يتم ذلك إلاّ سبعين سنة بعد وفاة شيخنا المبجّل.

سيدي الهواري الشاعر

كان سيدي الهواري يتمتع مثل بعض علماء البلاد بموهبة الشعر، وبالتالي فإنه كثيراً ما استعملها في مدائحه، في تلك

المقطوعات الشعرية الدينية، فقد حرر منها قصائد جميلة جداً ولكن، مع الأسف، فإن الأرشيف لم يكن كريماً معنا لنستطيع بدورنا أن نكون كرماء معكم فنقدّم لكم مآثره الغنّاء، برغم هذا وحسب المعلومات البسيطة التي تحصلنا عليها هنا وهناك، عرفنا أنه كتب قصيدة رائعة على شرف أستاذيه عبد الرحمن الوغليسي وأحمد بن إدريس وإلى أهل بجاية الذين جلْبَبَهُمْ بالمدح. إنه يذكر في هذه القصيدة تفانيهم وإحسانهم ونزاهتهم وإخلاصهم ومساعدتهم للأجنبي وتعاطفهم مع الفقراء، وفي قصيدة ثانية "التسهيل"، ودائماً فيما يتعلق ببجاية التي أثرت فيه كثيراً عندما كان طالباً في جامعتها، يقول:

"آه لو أصف لكم ما رأيت في بجاية بلد التقوى والعلم أرضي الحقيقية..." ونعرف له كذلك قصيدتين: "التبيان" و"تبصرة السائل".

وفيما يتعلق بـ "النسيان والتحذير"، فإن سيدي علي التالوتي الذي كان يقرأه كثيراً، فقد كتب بيده في آخر الكتاب:

"إن الكاتب يضمن في هذه الحياة وفي الآخرة لمن يقرأ بصفة مثابرة كتابه، أنه لن يخشى الجوع أبداً وأنه سيكون له دائماً ما يلبس ولن يتألم أبداً من العطش".

وأخيراً، وبعد حياة صالحة مرّت كلها في سبيل الله، فإن سيدي محمد الهواري مات في وهران في سنة (843هـ – 1439م) عن عمر يناهز اثنتين وتسعين سنة، ترك ولداً، عبد الرحمن بن محمد الذي صار أباً لذرية مزدهرة ما زالت إلى يومنا هذا محترمة من قبل الوهرانيين.

لقد شيّد مسجد على ضريحه سنة (1213هـ – 1800م)، أي ثلاثمائة وستون سنة بعد وفاته من قبل الباي عثمان بن محمد الملقب

بالأعور، الذي كان ولد محمد الأكحل الملقب بالكبير ووريثه، فحسب ما كتبه المؤرخون "فإن صومعة ذلك المسجد كانت مزينة بثلاثة طوابق ثلاثية النقوش المفصصة وشيدّت على قبة ولي الله، وهو الجزء الوحيد من المؤسسة الدينية الذي تمت المحافظة عليه لخدمة الشعائر الإسلامية".

سيدي إبراهيم التازي

كان سيدي إبراهيم يكرس نفسه بالكامل من أجل المصلحة العامة، وكان يصرف بدون حساب ودون أن يبالي بالمستقبل، فعاتبه أصدقاؤه على إسرافه وكرمه الذي لا يعرف الحدود، والذي تسبب له أحياناً في العسر والفقر في داره، كان يكتفي في جوابه حينئذ بقراءة هذه الأبيات لأبي العباس بن العارف:

"يلومونني عن الكرم ولكن السخاء هو طبعي ولا أدعي تغيير ما صنعته الطبيعة. ومن جهة أخرى فإنني لا أعرف ما يمكن أن يقارن بالكرم. فالكرم الحديث يستهوي والقديم ما زال يفرح ذكراه. دعوني أكنُ سخياً وعلى راحتي، لأن البخل مخز، ماالضير أن أدعى مسرفاً؛ فالرجل الكريم كل العالم له عائلة والذي تكون يده مغلولة فليس له أهل ولا أصدقاء، لماذا نخشى الفقر؟ لماذا نضع سوُراً حول الثروات؛ لنكن كرماء، أليس الكرم صفة من صفات الله ؟"

ابن تازة، وريث سيدي الهواري

عرفت مدينة وهران رجلين عظيمين كانا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة والمعرفة والمودة: الأستاذ والطالب؛ الطالب الذي أصبح الخليفة والمواصل للأعمال التي بدأها أستاذه، ولهذا فإن ما كتبنا سيكون ناقصاً إن لم نتحدث عن الشاب إبراهيم التازي الذي لم يوجد

في وهران أحد غيره، وفي الدرجة نفسها، قادرٌ على جمع الصفات والمعارف التي لمع بها أستاذه الشهير.

إبراهيم رأى النور في قبيلة بني لنت في منطقة المغرب الشرقي في تازة، وهي قرية تقع في خط حزام التل الذي استعمله البرابر وفيما بعد الأمير عبد القادر الذي جعل منها مركزاً للتموين، قضى طفولته في هذه القرية ومنها اتخذ لقبه التازي الذي نعرفه به، لا يمكن لنا أن نعطي بالضبط تاريخ ميلاده، وبالعكس نعرف أنه عاش اثنتين وعشرين سنة بعد أستاذه سيدي محمد الهواري، والتحق بالرفيق الأعلى في الثالث من شعبان من سنة (866 هـ – 1461م).

إن إبراهيم التازي كان تلميذاً مواظباً عند الشيخ الهواري، وتعلم عنده العلم والأخلاق، كان أحسن أصدقائه برغم فارق السن الكبير، صديق "تتعلق عطور مودته بزينة أكمامه وكل أعماله مرشوشة بماء إحسانه".

إن أحمد بن محمد بن علي بن حنون الكاتب الشهير لـِ "جماني" كان يقول عنه:

"منذ نعومة أظفاره، تميز سيدي إبراهيم بحبه للدراسة وعمق تقواه؛ وبالتالي فإنه لم يتخلف في تأدية فريضة الحج إلى المدن المقدسة والمحترمة، وقد منحه الله من فضله أن جعله في علاقة مع الأولياء المشهورين بمعرفتهم وبنفوذهم لديه، استطاع أن يتحدث معهم وأن يكتسب بمتابعة دروسهم النفيسة ملكة العلم الحقيقي والنفاذ إلى الأسرار وممارسة المعارف الخفية ذات الفائدة الكبيرة لإثارة خيال العامة".

زار سيدي إبراهيم بغداد بعد أن اجتاز بلاد الحجاز وأثناء عودته من تلك الرحلة الكبيرة والطويلة مرّ بتونس وأقام بها عند علماء

كبار″سلموا له إجازات تشهد على اتساع علمه الذي بلغ تقريباً الحدود القصوى للمعارف في ذلك الوقت″، حسب ما قاله مؤرخون نزهاء في كتاباتهم، ثم كان لا بدّ لها، أي مدينة تلمسان، من أن تستقبله ليتابع الدروس الأستاذية للعلامة الشهير ابن مرزوق، الذي أضاف له إجازة أخرى زيادة على ما كان عنده.

إن سيدي إبراهيم التازي، الشاب، الذي أصبح فيما بعد مثقفاً، وعقب تسلحه بشهادات جامعية متينة، تنقل إلى وهران، ″تحدوه في توجهه إلى تلك المدينة رغبته الحارةّ في زيارة سيدي الهواري الشهير″، أماّ سيدي الهواري الذي سمع أخبار الشاب التازي، فإنه استقبله استقبالاً ودياً كاملاً، وأراد أن يكون منزله له، وبسرعة استطاع أن يقتنع أن المعلومات التي كانت بحوزته عن ضيفه وكذلك مناقبه لم يكن مبالغاً فيها، وبالفعل فإن إبراهيم التازي كان يملك العلم في كل اتساعه، ″وتشهد على ذلك حزمة الشهادات التي نالها من كل المشاهير الذين درس على يدهم، أماّ أخلاقه فكانت بالتالي طاهرة إلى المستوى المطلوب في ذلك الوقت، أماّ تقواه المتوقدة فإنها كانت فوق كل مديح″.

لقد فهم سيدي الهواري مدى الفائدة التي يمثلها رجل من هذ الطراز، رجل كانت معارفه الأدبية هامةّ وكانت تتضاعف كل يوم أضف إلى هذا أنه كان يستعمل القافية بكيفية ممتازة لأنه كان كذلك شاعراً، إن قصائده (هي حِكَم لا يقل عددها عن ستة عشر بيتاً مزدوج وقد تبلغ المائة) كانت معروفة ومقدرة عبر الأمةّ الإسلامية وبصف خاصةّ في العالم العربي، ومع هذا فإن أشهر قصيدة له وأكثره انتشاراً هي تلك التي يذكر فيها ميله الكبير إلى الزهد، باعتبار هذ

القوة أو قل هذه الثقافة، فإن سيدي الهواري كان يفكر في إبقائه معه ليجعل منه خليفته، إلاّ أن إبراهيم التازي لم تكن له النظرة نفسها لأنه وفي تواضعه، كان يبدو له أنه يجب عليه أن يحسن معارفه قرب علماء آخرين، كان يحضّر للقيام مرة أخرى برحلة إلى الأماكن الإسلامية المقدسة قبل كل شيء ليؤدي مناسك الحج وفيما بعد يغتنم الفرصة ليتوقف في القاهرة ليتعلم أكثر قرب كبار علماء الأزهر الفصحاء.

إن الولي سيد وهران استطاع أن يثنيه عن ذلك المشروع، لقد قال له هذا الكلام:

"أنا كما تراني مثقل بالسنوات، والله لا يتخلف في استدعائي إلى جواره، بينما أنت لك (كل) فكري وتعرف ماذا أريد، أنت وحدك قادر على تعويضي ومواصلة أعمالي".

أضف إلى هذا أن سيدي الهواري لم يدّخر أيّ جهد ليحيط الشاب إبراهيم باحترام كبير، ويحث كل تلاميذه وكذلك محيطه على أن يحذوا حذوه، على أن يعطى لهذا العالم والشريك الفاضل كل التبجيل وكل الاحترام الذي يستحقه، عيّنه لقراءة القرآن في صلاة التراويح، لأنه كان من بين كل العلماء الموجودين هناك هو الذي يرتل جيداً وكان له صوت رقيق أو عذب.

إن عالم معسكر الشهير الحافظ أبوراس محمد بن أحمد (1737 هـ – 1823م) كتب مفتخراً بالمعارف الواسعة لإبراهيم التازي وهو يقول:

"إنه قارئ وشارح ممتاز للقرآن الكريم وكان متبحراً في معرفة السنّة ويمتلك قوة عقلية تجعل بعض الرجال دعائم للعلم، ترك لنا مؤلفات تبلغ الكمال وأشعاراً رائعة، وصلوات عمومية مذهلة في الإيمان وهي نعم روحية لكل البشرية، كان يعرف أسماء رجال

الإسلام الصالحين وسيرهم، وتاريخ العرب وأشعارهم والأدب والأدباء في أكثر أعمالهم تميزّاً، وسعة معرفته مثبتة في الرسالة التي كتبها من وهران إلى عائلته التي كانت مقيمة في المغرب...″

وهكذا، ومباشرة بعد وفاة الأستاذ، أخذ خليفته المعيّن مكانه بدون أيّ صعوبة، لأن الجميع كان معترفاً به على أنه على درجة عالية من التأهيل، لقد أعطى العقيد تروملي الوصف التالي للذي أصبح معبود وهران:

″كان يضيف إلى علمه العميق رفعة كبيرة في الخلق وامتيازاً ملحوظاً: فهو فقيه محنك ومشبع بنظريات الصوفية وهو منسجم بصفة كاملة مع الكتاب والسنّة ومتمتع إلى أعلى درجة بصفات نفيسة نسميها الكرم والاستعفاء والصبر؛ إنه يحب الكبار ويعرف كيف يتحمل طبعهم مهما كانت صعوبته؛ كلهم يبحثون عنه نظراً لأنسه وسحر حديثه؛ إنه يتذكر دائماً كلام النبي (صلّى الله عليه وسلم) الذي يقول ما معناه: ″لا تكن مراً وإلا فإنك ترمى مع البصاق بمجرد أن تذاق″؛ إنه جذاب وقصاص لا ينضب معينه لأنه اكتحل بِغبار الحكايات، فمن الواضح أنه مع هذه المجموعة من المناقب التي تقارب الكمال، فإن سيدي إبراهيم ما لبث أن أصبح في وقت قصير معبود الوهرانيين″.

التازي، الولي والمشيّد

كان شغف إبراهيم التازي في تحصيل العلم محركه منذ نعومة أظفاره، وفضلاً عن أن شغفه هذا لازمه طيلة حياته، فكانت حياته ملأى بالأعمال الصالحة سواء في مستوى الانجازات الملموسة في الميدان أم في مستوى المؤلفات التي بقيت كرامات نفيسة للبشرية،

إن ذلك الشغف بالمعرفة والرفعة، كما ذكرنا سابقاً، كان يلازمه منذ صباه. يحكى أنه عندما كان في بغداد، فإنه عاش مغامرة فريدة من نوعها لأنها تؤكد الإيمان والإرادة التي كانت تحدوه للتشبث بعالم الثقافة برغم انعدام الإمكانيات، والصعوبات التي لا تحصى، فالمغامرة بسيطة ولكنها مشحونة بالمعنى وفي الوقت نفسه بالتنبؤات:

"اقتربت منه امرأة عجوز، وبعد أن ألقت نظرة شفقة على ملابسه الرثة والمرقعة من كثرة الاستعمال والفقر، قالت له:

– بربيّ، أخبرني من أين أنت؟

فعندما أخبرها أنه من المغرب العربي، قامت بحركة تعجب وأضافت:

– ما الذي أتى بك من مثل ذلك المكان ؟

فأجابها:

– رغبة في تحصيل العلم.

فواصلت:

– حقيقة، أهذا هو السبب الوحيد؟

فأكد لها سيدي إبراهيم أنه الهدف الوحيد.

حينئذ أفرشت معطفاً كان تحت إبطها وأضافت:

– ما دامت الأمور هكذا يا ولدي! أرجوك، دس بقدميك هذا المعطف وانفض عليه غبار رجليك؛ سأحتفظ به هكذا منذ الآن ليكون كفناً لي عندما تأتي ساعتي الأخيرة: لأنه إذا كانت مثل هذه الرغبة

الشريفة أتت بك إلى المشرق من أقصى الغرب، إنك حقيقة في عداد أولئك الذين تم اصطفاؤهم وستكون الجنة مأواهم، ألم يقل النبي (صلّى الله عليه وسلم) عن تلك الإقامات: "إنها مخصصة ولاريب في ذلك إلى الذين صارت أقدامهم مغبرة في سبيل الله". (بما معنى الحديث).

كبر إبراهيم التازي في ذلك الجو الدراسي وتلك العادات المتقشفة. لقد كان يخشى المعصية، وبالتالي فقد كان مفعماً باللطف، كان مرتلاً وشارحاً ممتازاً للقرآن الكريم، وكان أرنو يقول عنه في المجلة الإفريقية:

ترك لنا مؤلفات تبلغ الكمال وأشعاراً رائعة، وصلوات عمومية مذهلة في الإيمان وهي نعم روحية لكل البشرية، كان يعرف أسماء رجال الإسلام الصالحين وسيرهم، وتاريخ العرب وأشعارهم والأدب والأدباء في أكثر أعمالهم تميزّاً... عند وفاة شيخه، أخذ مكانه وتمنطق سيفه ورفع راية للعلوم، وشيد لها مباني دائمة، وضمن لها قواعد متينة ودعم حقائقها الأولى، لقد كان زينة بلاده وعصره وشغل في وهران المرتبة الأولى في عالم الآداب وبرغم أنه لم يحمل لقب الملك، فإن كلمته كانت مسموعة ومطاعة".

إن مدينة وهران صارت مع إبراهيم التازي مدينة هامّة جداً، وسطع نجمها بفضله خير سطوع، فالعديد من الأجانب والعلماء زاروها وأقاموا فيها بعد أن جذبتهم شهرة صاحبها الجديد، شهرة علم وفضيلة وتقوى ولطف وكرم، أليس هو الذي هنأه معاصره ابن سعد مكيلاً له هذا المديح:

"لقد جعل من وهران سوقاً للشهرة والمجد، ورفع في هذه المدينة رايات الإسلام والإيمان؛ ونظم فيها احتفالات دينية ودع

الرجال لدراسة الأمور البشرية والربّانية ووطنهم في بلد العلم الذي كانوا تائهين بعيداً من قبله".

وبالفعل، فإن إبراهيم التازي لم يكتف بالبنية التحتية الثقافية والدينية التي أورثه إياها معلمه الهواري، بل أنشأ مؤسسة تربوية كبيرة على غرار كبريات المراكز الجامعية اليوم، والمدرسة التي كانت قائمة من قبل لم تعد تتسع لاستقبال الطلبة المتزايدة أعدادهم؛ القادمين من سائر أنحاء المغرب، وقد ترك لنا المؤرخون الغربيون هذه الشهادة:

"إن سيدي إبراهيم الذي أتته الثروة دون أن يبحث عنها، كان عليه أن يبني زاوية تحتوي في داخلها على معابد وحدائق ومدارس للتعليم العالي وشقق مخصصة للأجانب الذين يأتون لزيارتها، وحمّامات وخزانات مائية، ومكاتب ومخازن للسلاح، إلخ، لم يكن لهذه المؤسسة مثيل على امتداد المغرب الأوسط".

أضف إلى هذا أن ذلك المعهد كان يحتوي على مكتبة فيها العديد من الكتب العلمية وإلى جانب ذلك معرض دائم، نوع من المتحف يعرض فيه كل سلاح الجهاد حسب ما أورده ابن سعد في كتابه "النجم الثاقب".

وأخيراً، فإن سيدي إبراهيم التازي كان قد شيّد مدينة عصرية، لقد تكفل بتوصيل ماء الشفة وتشييد العديد من المؤسسات ذات المنفعة العمومية والمصلحة العامة، بالفعل فإن وهران كانت محرومة من الماء، وفي الوقت نفسه لم تكن هناك إمكانية لتفادي هذا المشكل الخطير الذي كان يعني الجميع، فإن التازي أنفق أمواله الخاصّة واستدان، حسب ما قيل، من التجار قروضاً هائلة لينفذ أشغالاً كبيرة

ومكلفة جداً لجر المياه من عيون عديدة كانت بعيدة عن المدينة إلى وسطها، وهكذا فإن التازي المشيّد، جهز وهران، المدينة التي تبنته، تجهيزاً رائعاً بتلك الماسورة المائية و"بالعديد من العيون جعلت من أرض الحاضرة المغبرة واليابسة واحة خضراء"، وأخيراً عندما سئل:

– "كيف دفعتم المصاريف الناتجة عن جلب القناة بينما لستم لا أميراً ولا ثرياً مشهوراً؟"

أجاب قائلاً:

– بفضل الزمن والأحباب".

ولنا كذلك شهادة أخرى لمؤرخين تتعلق بتلك الحاضرة الجميلة:

"في القرن الخامس عشر الميلادي كانت وهران تعد 25000 نسمة. وفي ذلك الوقت كان بالإمكان أن تعد" في عداد الحواضر الكبرى التي عرفت بعض الروعة، إن سكان مدينة وهران تزايدوا في القرن الخامس عشر الميلادي حتى صار الكثير منهم يسكنون خارج السور. ومع هذا فإنه مسموح لنا أن نتكهّن بأن هجرة الأندلسيين قبل الاستيلاء على غرناطة وبعده، قد شكلت الإضافة الرئيسية، كما هو الحال بالنسبة للجزائر".

سيدي إبراهيم التازي ولي كريم

لقد عرف كيف يستعمل استعمالاً نبيلاً ما جمعه من أموال، لم يكن مثل الشاعر المشهور، حاتم الطائي بكرمه الذي "كان يهب ثروته لمن كان في حاجة إليها"، أو ملك اليمن هو الآخر "الذي كان يقطع كل يوم العباءتين اللتين كان يلبسهما ليلبس عباءتين جديدتين في اليوم

التالي"، ولكن نفقات التازي كانت مع ذلك ثقيلة يصعب تحملها، ألم يعبر أحد الشعراء خير تعبير عندما وصف هذا الولي؟:

"إن آثاره تدل على أعماله

وإن الفكر يتخيله تماماً كأن العين تراه".

كان سيدي إبراهيم التازي متفانياً بالكامل من أجل المصلحة العامة. كان ينفق من غير حساب ولا يبالي بالمستقبل، فحسب عبارة ابن سعد، إن ابنه لم يرث شيئاً ولو جزءاً من ظفر من كل تلك الثروات التي مرّت بين يدي أبيه.

والحقيقة أنه كان كريما ومندفعا ووفير الإنتاج، إذ إن "من مهد سيدي إبراهيم ارتفع طائر بكامل نموه" بلا شك، كما أكد على ذلك أحد المستشرقين، ولكن ومع ذلك فإنه كان لا يحب الزهاد المتزمتين، أولئك الذين لا يعاشرون والذين لا يعيشون إلا من أجل طقوس التوبة وفي بعض الأحيان التقشف القاهر للنفس. إن عبد الوهاب الشعراني الفقيه المسلم الشهير قال عنه بعد ذلك بكثير:

"إن سيدي إبراهيم لم يكن يؤثر حياة التنسك، لقد كان يستنكر ويندد بالرجال الذين يعيشون في عزلة عن المجتمع، بعيدين عن إخوانهم والذين يجعلون عادتهم في قهر الجسد والوحدة المطلقة وهم يعيشون حياة عقيمة وغير مفيدة، وهم يأملون وبصفة جنونية أنهم بهذا النهج سيصيرون أولياء، كان يريد، فيما يخصه، العمل مع حياة بناءة، كان يريد الحياة المنتجة لصالح الدين والمجتمع".

ففي هذا الإطار، روى التازي نفسه مغامرة كان شاهداً عليها في الوقت الذي كان مقيماً في تلمسان من أجل الدراسة عند العالم ابن

مرزوق الذي كان كذلك ينظر نظرة ازدراء إلى أولئك الذين يتفانون في الزهد ليبلغوا الولاية، وكان يقول في الموضوع:

"التقى "سيدي ابن مرزوق ذات يوم برجل من هؤلاء الرجال وكان قد انعزل عن المجتمع ويعيش في عزلة مطلقة، مجتنباً أي اتصال مع إخوانه، مكثراً من الصلاة، متألماً من الجوع وكل ذلك قصد الوصول إلى الولاية، فنصحه سيدي ابن مرزوق بالخروج من العزلة والرجوع إلى مكانه وسط إخوانه، فأجابه الزاهد:

– لن أخرج أبداً من عزلتي.

فرد عليه الولي:

– تخلّ عن هذا القرار وتب عن إصرارك.

فرفض المعتزل إتباع تلك النصائح الحكيمة ومات جوعاً بعد يومين. وعندما أخبرت الشيخ ابن مرزوق عن موته فقال لي حينئذ:

– لا تصلّ على جثمانه، لأن هذا الرجل مات مجرماً وانتحر بالجوع".

وللانتهاء من الحديث عن هذه الشخصية التي لم تكتف بتربية وتعليم معاصريها أو تحسين أوضاعهم بالبنيات الكثيرة، نطرح على أنفسنا هذا السؤال: هل كان سيدي إبراهيم التازي شاعراً مثل أستاذه الهواري؟ بالفعل، لقد ترك أشعاراً عديدة يجب على المؤرخين والباحثين نفض الغبار عنها وتبليغها للشباب المتعطش لمعرفة البقايا الجميلة لأجداده، لقد تحصلنا على بعض المقاطع التي سنعطيكم منها مقتطفاً:

"ضع جانباً كمانك والنساء والصنوج والخمر

"فالعالم ومغرياته لا يمثل شيئاً وأيامه مستعارة

"ليس حكيماً من يفضل الدنيا، فهل نبيع النجاة بالخسارة؟"

تب ولا تستح من حب من يملك الجنة والنار.

"إن جمال الله هو أكمل الجمالات

"الله يملك الكمال، إن ذكر الله هو البلسم الذي يشفي أي جرح

"إنه أكثر فعالية من الماء الصافي لتهدئة وهج العطش".

إن إبراهيم التازي الذي يُحِبُّ –عندما نأتي لاستشارته – أن يكرر ما يلي: "لا تكن عدو العالم ولا صديق الجاهل ولا تصاحب الغبي"، وحسب "أبوراس" "لقد كان زينة بلاده وعصره وشغل في وهران المرتبة الأولى في عالم الآداب، وبرغم أنه لم يحمل لقب الملك فإن كلمته كانت مسموعة ومطاعة".

مات في وهران ودفن بها وقد خيم الحزن على أهلها، وبعد الاحتلال الإسباني، حمل جثمانه إلى قلعة بني راشد.

سيدي براهم الغبريني
"مولى المقام في شرشال"

"إن عينيّ ستنغلقان إلى الأبد؛ أرجو أن أجد في حضن الله كل الرحمة اللازمة لي؛ لقد تسلمت مهمة وتفانيت في إنجازها جسداً وروحاً؛ فباستطاعتك أن تجعل نفسك أهلاً لمواصلتها، عند وفاتي ستذهب إلى مدينة الجزائر، لتضع نفسك تحت إشراف مولاي، ومهما حصل لك لا تنفر، فزمن المحن قد يكون طويلاً وصعباً".

إن هذا الخطاب هو من سيدي محمد الغبريني، الذي أحس بنهايته تقترب، فنادى ابنه الشاب براهم، الذي كان يتابع وقتئذ

الدروس القيّمة لسيدي بن علي بهلول من مجاجة، وهي ناحية ثرية من نواحي الأصنام، لينصحه بمواصلة مهمته في شرشال، تلك المدينة التي جاءت فيها عظمة الرجل لتريح حياتنا اليومية المملوءة بالتخوفات الصغيرة والأنانيات المسكينة.

هل براهم الغبريني مرابط؟

زرت أحد الأصدقاء الذي استقبلني، كالعادة، بحرارة وبكثير من اللطف، كان منتصباً في قاعة استقباله بكيفية مريحة وكانت القاعة هي بمثابة المكتب وكنت أتمتع بالتذاذ كبير بلوحة كانت معلقة أمامي وهي بارزة جيداً وتغطي قسماً كبيراً من الجدار.

ما زلت أرى تلك اللوحة، مشهد جميل كله اخضرار تسترسل من أعماقه قبة ذات بياض ناصع تضفي عليه عظمة تلك الزاوية من الجنة التي تشرف على البحر الذي لا يفصل بينهما إلا شاطئ تغطيه الحصباء، شاطئ كان مخصصاً للنساء العفيفات القادمات من المدينة واللائي كن لا يردن الاختلاط مع الأوروبيات في أماكن أخرى واللائي كن يأتين للاستحمام بعيداً عن الأنظار الفضولية، ما زلت أنظر إليها، إلى تلك اللوحة التي تمثل مرابطاً، حسب ما يبدو لي، مستلقياً باسترخاء أمام البحر ذي التنهدات الشهوانية والخليعة فتخالها صوت قطعة حرير تمزّق. وأتذكر أيضاً ذلك الوصف المتحمس الذي سمعته من مضيفي، وصف غرامي وبأسلوب نبيل تكسوه غنائية شفوية ساطعة ورنانة لتلك اللوحة، التي يحبها أكثر من اللوحات الأخرى التي يصر على بقائها، لأنها تبث الحياة في ذكريات طفولته الأولى كما يؤكد على ذلك باقتناع وحنان.

فقلت له لأشبع فضولي ولأحصل على معلومات عن ذلك الموضوع الذي يشغلني:

– أليست القبة قبّة رجل صالح؟

– لقد قلت ذلك ! هو سيدي براهم الغبريني الذي يحيّي كل يوم غروب الشمس من وراء ضريحه الجليل وهو الشاهد الأخير على الروائع القديمة لتاريخنا المجيد.

إن مضيفي رجل ثقافة يحب التفتيش في أعماق ماضينا ويتفانى في البحث عندما يتطلب الأمر أن نخرج من أعماق النسيان مآثر أولئك الرواد، الذين كانوا رأس حربة التقدم في زمن كان العالم فيه يعيش أهوال الظلامية والجهل، كان يحدثني بحماسة ونخوة عن ذلك الرجل الذي هو سيدي براهم الغبريني، إلى درجة أني ظننت في برهة من الزمن أنه متحمس للمرابطية والطرق الدينية التي كنا نستهجنها بسبب بعض الممارسات الظلامية التي لا تتمشى مع قواعد الإسلام.

ولكنه بعدما كان يلح على مشاعر الإيثار والمعارف العلمية والثقافية والصوفية التي كان يحملها ذلك الرجل الصالح، سرعان ما غيرت رأيي عن مضيفي وبدأت أستمع إليه باهتمام.

"يا صديقي، إن سيدي براهم بالنسبة إلى مجموع الشرشاليين هو ذلك "المرابط الشهير"، إن كل المتحدرين من سلالة الغبارنة الكريمة نسميهم عموماً "دار المرابط" أو "أولاد المرابط"، مبرزين عن غير قصد الطابع الطرقي لعائلتهم المهمّة مخفين، مع الأسف، ذلك المظهر الآخر الأعمق والأنبل وهو مظهر العلم والثقافة وهي المظاهر التي كان يتحمس لها جدهم المدهش، لم أقل هذا للتقليل من السمعة الدينية للولي الغبريني وتجاهل قدرات الرجل التقي والصوفي، تلك القدرات التي عظمت سمعته، أقول هذا ليفهم الشبان أن أولئك المكافحين من أجل العقيدة كانوا قبل كل شيء علماء كباراً يلامسون بصفة عملية كل

المواضيع التي كانت تعالج في العالم في زمن كانت فيه الحضارة في أوجها، إن المكافحين من أجل العقيدة كانوا يباشرون المشكلات الفلسفية والعلمية والأدبية وغيرها من العلوم الإنسانية".

بالضبط، فإن سيدي براهم الغبريني لم يكن ذلك المرابط حسب المفهوم الذي أراد المستعمرون أن ينقلوه لنا؛ لقد كان في الحقيقة، وحسب مفهوم ثقافتنا، ذلك العالم الكبير الذي أرسل إلى منطقة معينة لتبديد الظلمات والجهل، وتكوين الشباب وتعليمهم وإعطائهم تربية جيّدة وإرْجاع المسلمين إلى الصراط المستقيم في تطبيق الإسلام الحقيقي.

الرحلة المضنية للشاب براهم

كلن عبد القادر الجيلاني أحد أولياء بغداد الكبار في العراق، وكانت طريقته دائماً منتشرة في الجزائر حيث العديد من الناس يخطئون في النطق باسمه، كل الناس يقولون تقريباً الجيلالي باللام، عوضاً عن النون، إن ذلك الرجل الذي كانت له ثقافة روحية واسعة قد أرسل مريديه المتحمسين إلى الجزائر لِيُعَلِّمُوا ويحيوا المهمة الدينية عند السكان الذين تشربوا بالفعل وبقوة الممارسة السليمة للإسلام، إن الأشخاص الذين يرسلهم كان يتم اختيارهم من بين الممتازين الذين قوّوا ودعموا عقائدهم بالممارسات الزهدية وكانوا يوجهون إلى الأماكن التي يعتبر فيه نشاطهم الروحي ضرورياً، قال المؤرخون عن موفَدِيه:

"كانوا يسافرون خفافاً وبدون أمتعة، ولكن متشبعين بإيمان متشدد، فيزورون المنخرطين في طريقتهم والذين يوجدون على خد سيرهم المرسوم لهم، ويصلون إلى المكان المقصود وهم مقتنعون تماماً بمهمتهم يحدوهم في ذلك تخليهم بالكامل عن الملذات".

في بداية القرن الخامس عشر، غادر أبو عبد الله وسيدي محمد الشريف وسيدي محمد الغبريني الساقية الحمراء ليذهبوا، الأول إلى وادي الشلف والثاني إلى مناطق الجرجرة والثالث إلى شرشال وبهذا صار الجدّ للعائلة التي تحمل اليوم اسمه.

لقد استقبل هذا الأخير جيداً من قبل سكان شرشال، لأنهم معتادون على استقبال العلماء الكبار في تلك المدينة التي مدحها هكذا أحد المثقفين الكبار:

"شرشال، شمس مجد على إيقاع عهود وممالك، عرفت كيف تصنع لأبنائها أحسن الحظوظ في الكفاح من أجل لقب الإنسان".

تم تبنى سيدي محمد الغبريني بسرعة، ومجهوداته عبر التعليم الذي كان يغدقه بحب وحماسة، لم يكن من دون صدى، لأن العديد من المريدين أتوا لمضاعفة صفوف هذه المدرسة التي تنتمي إلى طريقة سيدي عبد القادر، وهكذا وخلال كل الوقت الذي قضاه في شرشال، فإنه قسم وقته بين الدعوة وتربية الجماهير والأعمال الصالحة، وهو في كل ذلك يحظى بنصح مرشده الروحي ومستنيرٌ ومدعوم به، وهو ولي آخر له تأثير كبير في مدينة الجزائر ألا وهو سيدي محمد الكتاني.

قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلَى، نادى ابنه الشاب براهم وطلب منه أن "يضع نفسه تحت إشراف سيده الكتاني"، وذلك ما فعل الطفل المتفاني ما إن لفظ أبوه أنفاسه الأخيرة، وهكذا فإن الطالب الشاب قد تحمّل صعوبات جمّة، وكأنها بمثابة الامتحان له، وبالفعل فبعد وصوله إلى مدينة الجزائر فإن الشاب براهم بدأ يحس بأشد الصعوبات التي يتعرض لها كل الذين يطلبون المعرفة.

وأولى تلك الصعوبات، حسب المؤرخين، هي عندما رفضه سيد أبيه القديم بقسوة، ولم يتم قبوله إلاّ فيما بعد، عندما أخذته الشفقة بسبب إصرار الشاب وتوسلاته وصلواته، فقربه منه وقال له:

"في أي شيء يمكن لك أن تطمح أنت الذي لست شيئاً وليس لك أي "شيء؟ لا يمكن لي أن استقبلك في عداد طلبتي وزبائني، كما لا يمكنني أن آويك باعتبار أن كل شيء يدفع ثمنه غالياً جداً؛ ومع هذا وباعتبار أبيك، فإني أرضى بقبولك إن (وعدتني) بإرجاع مصارفي!"

فهل كان ذلك الداعية المرموق متشدداً وبخيلاً إلى تلك الدرجة؟

كان متشدداً بالنظر إلى المردود الطيّب، نعم! وذلك هو الذي ميّز نجاح أولئك الرجال المؤمنين، أمّا كونه بخيلاً، فليست العبارة المناسبة بالضبط، لأن متطلبات السيد طرحت عن قصد وبخشونة، وذلك لأنه كان يريد أن يلقن لطلبته ذلك الشعور بالمسؤولية والاعتماد على النفس مهما كلف ذلك.

قبل التلميذ كل شيء من أستاذه، وكل شروطه، وهكذا فإنه درس تحت إشرافه، وبنجاح، نصوص القانون وتحسن في التمارين الدينية واطلع على ممارسات طريقة سيدي عبد القادر الجيلاني، لقد كان المثال الجيد في المواظبة والنجاح. وبالموازاة مع ذلك النشاط الضروري لتحسين تربيته، فإنه قد فرض على السيد الذي قَبِل استخدامه عنده في أعمال الحقول، احترامه وإعجابه، وبالفعل فإن صاحب أعمال تركي اتخذ الطالب الشاب في خدمته، فتذكر هذ الأخير الكلمات الحكيمة التي قالها أبوه: "إن زمن الامتحان يمكن أن يكون طويلاً وصعباً"، ولهذا رضي بتحمل كل الصعوبات وتجاو قسوة العمل الذي لم يكن معتاداً عليه.

وتعلمنا الأسطورة أن الرجل الذي اشتراه – لأن الشاب براهم تم بيعه كعبد، حسب ما تقول الأسطورة – ما لبث "أن صار معجباً بصفاته وكفاءاته، والشيء الذي كان يدهشه أكثر هو أنه غالباً ما يجده في الصلاة، إلاّ أنه يعمل أكثر من عشرين عاملاً مواظباً، أما سلوكه فإنه كان مختلفاً جداً عن الناس الآخرين الذين كانوا في وضعيته إلى درجة أنه تسبب في الشكوك عن أصله وحاول توضيحها ولكن من غير طائل. كان سي براهم رقيقاً باعتبار إرادة أستاذه، وبالتالي كان عليه ألاّ يسمح بالتعرف عليه ولا أن يكشف عن نسبه، ذهب التركي يوماً ليرى حرثه واندهش لرؤية الدواب المقرونة تمشي بانتظام، وحدها بدون عامل، وكانت تعمل أحسن مما لو كانت تقودها يد مدربة، فبحث بعينيه عن عبده الغائب وتوصل أخيراً إلى رؤيته بعيداً منهمكاً في تأمل انتشائي (اغتباطي)، ففهم بسرعة خطأه: أن الذي ظنه مساوياً للزنجي كان رجلاً ينتمي إلى الله، فخشي على خلاص نفسه وردّ له حريته في الحين".

وطلب منه الشيخ الكتاني بعد ذلك أن يذهب إلى القاهرة يواصل تعلمه في أمور الله، وجاء دور الشيخ البكري في استقباله وتوجيهه بفعالية في الطريق المستقيم وتحسينه في الدراسة، إن هذا الأستاذ الجديد الذي فرض عليه أيضاً امتحانات أخرى في الصعوبة نفسها التي فرضها عليه أستاذه الأول، ليمتحن شجاعته وخضوعه، سرعان ما رضي بسلوكه المتواصل وطاعته التي لا تمانع ومعارفه لمتينة، كلفه سيدي محمد البكري بإرواء ظمأ المارّة.

"برغم أن هذا النوع من الشغل ليس من شأنه أن يجعله يتقدم كثيراً في دراسته ولا أن يمنحه العلم الذي جاء يبحث عنه من بعيد

جداً فإن سيدي براهم امتثل لأوامر الشيخ دون أن ينبس بكلمة وبرغم تفاهة المهمة التي كلف بها فقد أدّاها بكثير من الحماسة والضمير"، حسبما كتبه العقيد تروملي.

وبالفعل فإن الطالب الشاب كان تلميذاً مفعماً بالحماسة والمثابرة، لقد خطا خطوات سريعة لأنه كان ملهماً بإيمان صلب وبلغ في الوقت نفسه درجات العلم والتصوف، إن معهد البكري "كان محطة للعلماء المتميزين في البلدان الإسلامية (...) إلاّ أن الشيخ لم يغفل عن الشرشالي براهم. فعندما رضي بإذعانه وطاعته التي لا تشوبها شكوى ولا هدر وتقواه الشديدة، قرر الشيخ أخيراً أن ينهي الاختبارات التي أخضعه لها. فاستدعاه إلى جانبه وأراد أن يتكفل شخصياً بإكمال معارفه في كل الفروع المكوّنة لمجموع العلوم التي كانت تدرس في مصر، مركز الأنوار الإسلامية من القرن العاشر إلى السادس عشر الميلادي، بمساعدة أستاذ من ذلك الطراز يتمتع بمثل تلك الاستعدادات الرائعة، لم يكن في وسع سيدي براهم إلا أن يقوم بقفزات سريعة في كل الاتجاهات، وذلك ما حصل بالفعل".

وهكذا فعندما رأى الشيخ البكري أن تعلمه وتربيته قد انتهيا، فإنّه سرّحه وأعطاه مهمة مواصلة الأعمال التي كان أبوه رائدها الصالح والمجيد.

سيدي براهم ولي شرشال

عندما علم سكان المدينة بوصوله إلى شرشال، أرسلوا وفداً هاماً لاستقباله رسمياً فأحسنوا استقباله خير استقبال كما اعتادوا، سواء في المناسبات الاستثنائية أم العادية، وبالفعل كان عليهم أن يرحبوا بالرجل ويحيطوه بكل حبهم، إذ إنه بعلمه العميق وبكراماته،

أي تلك المظاهر لحكمة عجيبة، أن يبرهن لهم على سعة مناقبه، والشرشاليون، لم يقصروا لأن أحد أعيانهم السيد مكروس وهب له منزله وجزءاً من أمواله.

انهمك سيدي براهم مباشرة في العمل، كان عليه أن يفعل الكثير، خاصةّ وأن السكان الذين أرسل إليهم، هم سكان من الحضر، لهم ماض ثري ولهم غيرة على ثقافتهم، وبالتالي فإنهم لا يرضون بأيّ شكل من أشكال الاتصال التي سيباشر بها السيد والولي الجديد لمدينتهم طريقته ويتفضل بالسماح لهم أن يستفيدوا من دروسه، لقد كان الاتصال مباشراً وبسيطاً، على قدر ذلك الرجل البسيط والمطمئن والمفعم بالتواضع والمتبصر والكريم في الجهد والمتفاني في العمل.

فالكثير من المريدين وجدوا عنده ما كانوا ينتظرون، لأن الرجل الذي كان عليه أن يُحْيِيَ فيهم ذلك الحماس الديني، ذلك الحماس الذي يعرف – بعد مجيئه إلى شرشال واستقراره بها – أحسن تربة لمضاعفة العدد المتزايد للمنخرطين في الطريقة التي يمثلها.

كان سيدي براهم قد فتح مدرسة هامّة لجميع الشباب المجتهد في البلد وفي البداية للمتعلمين من النواحي المحيطة، كان يعلِّم فيها القرآن والحديث والعلم والأدب والفقه الإسلامي وممارسات الزهد بهمة خارقة للعادة وبمثابرة لا تعرف الكلل.

لم يكن لسيدي براهم ذرية، فالعقم أظلم بيته، لقد فارق العديد من الزوجات بالطلاق لأنه بقي بدون ذرية، إلاّ أنه أبقى في بيته أربع زوجات كما تسمح بذلك الشريعة الإسلامية، وأسماؤهن: زينب وحليمة وأم لحسن وفطيمة، كن عفيفات تراعين واجباتهن الزوجية وتحببن النظافة والصلاة، "كن يطهرن وكأنهن ينتمين إلى جنس الملائكة أكثر منهن إلى جنس البشر".

فعندما يئس أن يكون له ذرية، طلب من بنت أستاذه الشيخ سي محمد بن علي بهلول من مجاجة، تلك المنطقة التي كانت الثقافة فيها مزدهرة، أن تقرأ له طالعه، إذ إن لالاّ عودة كان لها بالإضافة إلى إطلاعها الواسع، موهبة قراءة الطالع، كانت البنت مارّة بشرشال في طريقها إلى مكة، وقد كانت وعدت الشاب براهم الغبريني، تلميذ أبيها المبجّل، بمرورها بشرشال عندما تذهب لتأدية فريضة الحج، فكانت المناسبة سانحة وعليه أن يتلقفها.

كانت الفتاة ذاهبة لوحدها، يعني بدون عائلتها، وهي ممتطية حصاناً تتحكم فيه بظرافة قصوى ويصاحبها بعض الفرسان الشجعان والمخلصين.

عندما وصلت إلى مدينة سيدي براهم، كان لها الشرف العظيم أن يستقبلها بادئ ذي بدء السكان الذين تقدموا نحوها تكريماً للمرتبة التي تستحقها وفيما بعد تلميذ أبيها القديم، الذي قدّم لها أمام شعب كامل شكره على لطفها المحترم، إن ذلك الاستقبال الشرشالي كان يشبه الذهول و"الحماسة التي بلغت أوجها، والتحيات والتهاني بالقدوم والمجاملات المبالغ فيها كانت كلها تسقط وكأنها باقات مزهرة فيحاء على الولية الشابةّ التي كانت تتقدم بهدوء ووقار وسط الجمهور الذي كانت تشق كتلته بصدر حصانها، وللحظة كان ذلك وكأنه أمواج صاخبة أو إرغاء مؤمنين ومؤمنات – اللائي كان أبناؤهن مربوطين على خصرهن – يتزاحمون حول الولية باحثين برغم تعرضهم لخطر الدوس تحت قوائم الدابة أو الاختناق تحت وزنها الثقيل محاولين لمس البرنس أو اليد اليمنى التي كانت تتركها من وقت لآخر مرتخية للشفاه المرتجفة للمتعصبين (...) ثم وصَل سيدي براهم للقاء لالاّعودة، فما إنْ وصل

إلى ثلاثين أو أربعين خطوة، أوقف حصانه وترجل مع حاشيته الكثيرة وذهب أمام زائرته الشريفة".

وقد وصفها ترومبلي صاحب الاستشهاد السابق قائلاً: "كانت على جانب عظيم وباهر من الجمال وكأنها ضوء النهار، عينان كبيرتان واسعتان وحدقتان سوداوان داكنتان تنبعث منهما أحياناً ومضات والحاجبان رقيقان مقوسان بلطف والأنف نبيل معقوف، والخدان أملسان ناعمان وكأنهما مساحة فضية وشفتاها حمراوان قانيتان تلمعان من البلبل (...) كيانها يتنفس وفي الوقت نفسه تحافظ على المرونة واللطافة والقوة (...) كانت متحمسة مثل معاصرتها الإسبانية سانت تيريز، حياتها مقسمة بين الدراسة والصلاة والابتهاجات الطويلة المتأتية عن علاقاتها المكتنفة بالأسرار مع الملاك جبريل، لالا عودة كانت بعبارة واحدة، "متمنية" أي شغوفة ومتحمسة ومتوقدة في المعنى الديني بطبيعة الحال".

إن بنت الشيخ، لتجيب على سؤاله، "بَشَّرَتْهُ بأنه سيكون أباً لبنت تتكرم عليها باسمها وتهديها خدامها من بني حوة"، سنة بعد ذلك تحقق التنبؤ نقطة بنقطة، صار سيدي براهم الغبريني أباً لبنت سماها عودة، وكانت فاطمة هي التي حملت بتلك البنت الموعودة.

وبعد سنوات توجه إلى شرشال سيدي محمد الشريف أحد أحفاد الرجل الذي حمل الاسم نفسه والمتحدر من الساقية الحمراء بصحبة سيدي محمد الغبريني، قادماً إليها من منطقة القبائل "ليقدم تحياته للرجل الذي أتته الشهرة من أخلاقه الفاضلة وقوته وعلمه الذي لا يضاهى وسلطته الخارقة للطبيعة"، صار الرجلان صديقين وتوثقت أواصر العلاقة بينهما إلى درجة عقد زواج جمع بين سيدي محمد الشريف والشابة عودة البنت الوحيدة لسيدي براهم.

ونتج عن هذا الزواج أولاد وأحسنهم محمد الشريف الصغير "الذي يئس بعد أن تزوج عدة مرات زيجات عقيمة، مثل جدّه سيدي براهم، من قدرته على مَنْ يخلف اسمه"، سنعطي فيما بعد شروحاً متعلقة بهذا الحفيد الذي عاش تقريباً المغامرة نفسها التي عاشها جده.

وهكذا فإن سيدي براهم الغبريني ذلك الولي الصالح، هو الذي ما زال سكان شرشال ونواحيها وسكان من مناطق أخرى يحتفلون إلى يومنا هذا بذكراه الطيبة، كعالم وفقيه ومريد في العلم الروحاني ورجل تقي ومتفان ورجل فاضل كله إيمان، كان هؤلاء السكان يتناقلون العديد من الحكايات عنه في ذلك الوقت، وتروى اليوم الكثير منها، هل هي حقيقية أم فيها إفراط ومغالاة أم إنها بكل بساطة أساطير محلية رائعة تزيد عليها ثقافتنا الشفوية الكثير من التطير والميثولوجيا! فهل هذه الحكايات تمثل فعلاً فلتات من أولئك الرجال الأتقياء الذين فرضوا لأنفسهم الاحترام بزهدهم وبخاصّة باستعفائهم أمام صعوبات الحياة وكذلك بإصرارهم على إذلال الجسد وبصلواتهم؟ كان ذلك ما نسميه في لغة الصوفية "كرامات"، ولكننا بالغنا بتضخيمها ربما لتحكى في شكل مفخرة عجيبة أو في شكل معجزات، ونحن نعرف أن المعجزات حسب عقيدتنا قد انتهت مع أنبيائنا العظماء، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

في هذا الإطار، وفي جوّ هذه الخوارق، يحكى أن سارقاً دخل عن طريق الكسر إلى حديقة سيدي براهم، وعوّل على سرقة الفاكهة، فعندما رفع ذراعيه ليمسك بالفروع رأى الأرض تهوي تحت قدميه، فبذل جهوداً هائلة ليتخلص ولكن بدون جدوى، "كان يبدو له أن مآله الموت المحقق، لكن عندما تذكر اسم ومناقب سيدي براهم، وتوسل إليه بصوت منهار

معترفاً بغلطته وراجياً مساعدته، لم يفتأ أن ظهر له، وبإشارة واحدة أخرجه من الأرض". إن تأثيره حسب ما كتب أحد المترجمين العسكريين خلال الفترة الاستعمارية كان بارزاً في كل البلاد، وخاصةً لدى أعضاء الديوان في مدينة الجزائر نفسها، فبطلب منه أمروا بإبعاد بعض الإنكشاريين الذين كانوا في ثكنة قرب برج الخميس الذي يبعد عن شرشال ثمانية وعشرين كيلومتراً، لأنّهم بتطاولهم وخشونتهم القصوى قد أثاروا احتجاجات حادّة وسط السكان.

وثمة حكاية أخرى، "فقد كان عليه أن يستعمل بنّائين، وكان ملتزماً بتوفير الطعام لهم بصورة كاملة، ولكن هؤلاء كانت تحدوهم سوء النية فلم يتوانوا عن الحط من قدره بادعائهم أنه كان بخيلاً وأنه يميتهم بالجوع. فبلغت كلماتهم غير اللائقة المرابط الذي أقسم أن يعاقبهم على كذبهم والوصول بهم إلى الاعتراف بذنبهم أمام الملأ، لهذا استدعى الأعيان إلى زيارة الأشغال التي كانت تنفذ وبحضورهم نادى عماله وأعطاهم الخبز والعسل في صحون مبسوطة وطلب منهم أن يشبعوا، فباعتبار الكمية القليلة من الطعام كانوا يخشون أن يلمسوها، وإذا بهم لاحظوا أنهم كلما أكلوا كانت الأطعمة تعوض بغيرها، وتواصلت تلك المضاعفة بغزارة إلى أنْ استطاع كل الأشخاص الحاضرين بدورهم أن يشبعوا، فنادى سيدي براهم البنائين الذين اقتربوا وهم يرجفون ولامهم على كلامهم الكاذب وغير المعقول، فخرّوا ساجدين يطلبون السماح ويعلنون بصوت عال عن توبتهم".

إن مثل هذه الحكايات كانت تحكى فيما يتعلق بأحفاده، فهل هذه أسطورة رائعة أم عمل حقيقي تلك الحكاية لِـ "سبع بن عودة"؟ فهل يجب علينا أن نأخذ على محمل الجدّ الحكاية التي يُذكر عبرها أن

سيدي محمد بن عودة من قبيلة فليتة، وهي قبيلة مهمّة معتزة بنفسها ومضيافة، حسب ما يقولون، وهي في منطقة غليزان، جاء فيها أنه أرسل خدمه إلى شرشال مصحوبين بأسد مهيب قد اكتسب منه على قدرات خارقة؟ فهل يجب علينا أن نؤمن بأن سيدي محمد الشريف الصغير، طلب منهم أن يدخلوا الأسد بكل حرية إلى حريمه وهو يأمل أن هذه الزيارة قد يكون لها فعالية وتسمح له بالحصول على موضوع رغباته الدائمة؟"

وفي كل الأحوال، فإن خلف براهم الغبريني رأى – سنة بعد ذلك – إنجاز أمنيته، لأن المرأة التي كانت عادة تنام في ذلك المكان الذي توقف فيه الأسد، أعطته الوارث الذكر الذي سمي الحاج بن عودة.

فعندما كبر كان سكان مدينة شرشال وسكان الجبل يعبدونه، لأن مواقفه الصريحة كانت تجلبهم، وكذلك شجاعته وتهوره وتصرفاته الجيدة والمتميزة ومهارته الاستثنائية في تسيير الفرس، أما براعته التي لا تقارن في استعمال السيف فقد صنعت له سمعة خارقة وأثارت بعض الانزعاج لدى الحاكم في مدينة الجزائر، وبالفعل فقد كان ذلك الوقت وقت الثورة ضدّ المحتلين الأتراك، وهي ثورة نظمها عبد القادر بن الشريف، وهو من ينتمي إلى طريقة سيدي عبد القادر الجيلاني وفكر في كل من ينتمون إلى هذه الطريقة وخاصّة قوة الغبارنة.

لقد أبحر الحاج بن عودة في تلك السفينة، ففكر الترك في التخلص منه ولم ينتظروا إلاّ الوقت المناسب لسجنه أو بصراحة "تصفيته جسدياً ". وقد توفرت لهم الفرصة أثناء محاكمة هامة وقعت في مسجد شرشال بحضور كل أعيان المدينة، وهنا تحداه

القائد التركي عندما ناداه من غير احترام وبأسلوب جارح، وبعد ذلك سجل التاريخ لحسن الحظ أن المحارب بن عودة قد أجاب باللهجة الموظف التركي نفسها الذي لم يتقبل تلك الوقاحة وأمر بإيقافه في الحين، "فثار غضبه وسخطه لسماع ذلك الأمر من القائد التركي، فأخرج الحاج بن عودة الخنجر الذي كان بحزامه فطعنه في بطنه عميقاً، فألقي عليه القبض واقتيد هو وخادمه إلى سفينة راسية في المرفأ، أبحرت متجهة نحو مدينة الجزائر بدون انتظار".

حكم على الحاج بن عودة بقطع رأسه، فواجه هذا الحكم كشهيد حقيقي وبثبات وهدوء ومرفوع الرأس، أما سيدي محمد السّعيد، ابنه الصغير فإنه التجأ مع عائلته إلى قبيلة بني زيوي حيث لم يدخل الترك أبداً، وهكذا وبعد سنوات قرروا مغادرة ملجئهم بعد أن أرسل لهم الباشا سبحته علامة أمان.

وفي الخلاصة، ماذا يمكن لنا أن نقول أكثر من هذا فيما يتعلق بعالمنا براهم الغبريني؟ لم يبق لنا إلا الكلام عن أعماله، كما فعلنا ذلك مع الأولياء الآخرين لأننا قد انتهينا من كل المظاهر المتعلقة به وكذلك عائلته، وعليه فإننا سنخالف القاعدة لأننا عوض أن نكلمكم عن أعماله التي كانت هامّة جداً حسب ما يقال، مما جعل منه عالماً ومثقفاً ذا نفوذ أكثر منه مرابطاً كما كان الاستعمار يقدمه مختزلاً إياه بأنه متعصب ديني، سنكتفي بالقليل مماً أعطينا وشرحنا فيما يخصه لجهة نفوذه وأثره وتأثيره عبر المنطقة وغيرها في كل أنحاء المغرب العربي، وأخيراً عن سلطته بالتحالفات التي أنجزها لينشر طريقته ويوسع مجال عمله.

يسجل التاريخ في كل الأحوال أن سيدي براهم الغبريني لم يقصر في شيء طوال حياته، اولا كطالب في مجاجة في الشلف وفي

الجزائر عند الشيخ الكتاني؛ ثم في القاهرة عند الشيخ الشهير البكري حيث أثبت كل ملكاته في المعارف ودوافع الكرم والشجاعة؛ وفيما بعد في مهنته كمربّ، أن قوته وأخلاقه الفاضلة قد أوصلته إلى السمعة والاحترام الكبير الذين حظي بهما لدى السكان وكل الذين انخرطوا في الطريقة التي كان يمثلها.

واليوم يجثو ضريحه في المقام، مقام الغبارنة، إلى جانب أقاربه سيدي محمد الشريف والحاج بن عودة الذي حمل جثمانه وجثمان خادمه إلى شرشال بخشوع كبير.

في نهاية هذا العرض ومثل كل الباحثين في أعماق التاريخ، إنه من واجبنا مع ذلك أن نعطي معلومات أخرى وطرح بعض الأسئلة، ليس لزرع الشك، ولكن لتنشيط المناقشة لنعرف حقيقة أصول تلك العائلة الشرشالية النبيلة.

هناك أسماء لعلماء كبار تتزاحم في ذاكرتنا، فهل هي أسماء متجانسة لأنهم عاشوا، زيادة على ذلك، في قرون مختلفة؟ لنا كل الحق في أن نعتقد ذلك وهذه الحالة تخص الغبرينيين، ولنوضح ما نريد شرحه، لنتكلم قليلاً عن الغبريني الآخر.

إن بلاد القبائل، وبالضبط منطقة عزازقة، أنجبت لنا عالماً كبيراً اسمه أبو العباس أحمد بن عبد الله الغبريني، لقد تحدثنا عنه كثيراً في الفصول السابقة، أثناء الحديث على رجال العلم والثقافة.

ولد ذلك الغبريني الآخر في عائلة بني غبرين سنة 644 للهجرة (1246م)، حفظ القرآن وهو صغير جداً ثم النحو العربي وعلم الكلام والفلسفة، وفيما بعد علوم المعرفة والحديث في بجاية وتونس. علّم في بجاية وفي الزيتونة في تونس ثم مارس مهنة قاض في العديد من

المدن، وفي آخر حياته المهنية أُرسل سفيراً يمثل السلطان أبا البقاء خالد لدى سلطان تونس محمد الواثق أبي عبيدة، وبعد رجوعه إلى البلد عندما انتهت مهمته، كان ضحية لمؤامرة نظم خيوطها خبراء في المجال، فسجن في بجاية وتم إعدامه سنة 714 للهجرة (1304م).

لقد ترك أعمالاً نادرة الروعة، ومنها بخاصة عمل قيّم عن علماء بجاية نشرها المرحوم محمد بن شنب في بداية القرن، وأعاد نشره رابح بونار سنة 1981م. ونذكر من بين أعماله: "عناوين المعارف وسير علماء بجاية في سنة 107 هـ" و"عنوان الدراية"، وكان ابنه أبو القاسم أحمد الغبريني عالماً كبيراً بعد متابعة الدراسة في بجاية وتونس.

فهل بوسعنا - بعد تلك المعلومات - أن نثبت أن غبارنة شرشال الذين هم بالفعل أبناء سيدي محمد الذي جاء من الساقية الحمراء وأنهم أسلاف غبارنة عزازقة؟

بالفعل، يمكن لنا الاستفاضة في ذلك الاتجاه، لأن العديد من العلامات تبرهن على ذلك، والأهم هو أنه عبر العلم والمعرفة والسلوك الحكيم والكريم لغبريني شرشال - الذي عاش قرنين بعد ذلك - وحتى أنه لم يشر إلى قبيلة بني غبرين أو إيث غبري في بلاد القبائل، هل هناك تشابه كامل مع شَبَهَ اسمه وخاصة في مجال الإطلاع والشرف؟ إنها إشارات لا تخطئ! لنواصل تساؤلنا.

ألا يمكننا أن نبحث عن علاقة القربى هذه في شجرة أنساب قد تم الاحتفاظ بها، على سبيل المثال، عبر موجات الهجرة للعلماء ورجال السياسة منذ سلالة الموحدين الذين كانوا يعملون من أجل إحداث مراكز إشعاع لنشر الإسلام الصافي؟

ألا يمكننا أن نفكر أيضاً أن ذرية أبي العباس أحمد بن عبد الله الغبريني قد هاجرت إلى الساقية الحمراء ذلك المركز الثقافي

والروحي، كما فعل ذلك أغلب علماء بلادنا ليتعلموا أكثر ويخدموا القضية عبر التعليم والدعوة؟

يمكن أن يكون هذا الاحتمال الأخير هو الأقرب إلى الحقيقة إذا رجعنا إلى تاريخ المغرب العربي، حيث كانت المدن مناطق ثقافية تجلب العلماء من كل فروع المعرفة وهم مبعثرون في مختلف المناطق، على غرار الحضارات القديمة أو المعاصرة، وهكذا فإن سيدي محمد الغبريني قد يكون من سلالة إيث غبرين وعلى وجه الخصوص من سلالة "القاضي"، أعني أبا العباس الغبريني الشهير، وهو العالم الفقيه والمؤرخ في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، وقد يكون آلُ بلقاضي وملوك كوكو متحدرين منهم (ذلك هو بالفعل معنى المسمى "العربي" لجنسه "البربري" إيت القاضي)...، ومن يدري؟!

وفي كل الأحوال فإن ابن خلدون قد تحدث عن ذلك في "تاريخ البربر"، الذي ترجمه دوسلان وذكر المناقب الكبيرة وتبحر القاضي الغبريني. كان من الواجب أن نقول ذلك لنحدد مكانة الشخصين، اللذين كانا عالمين كبيرين ورجلي عقيدة، تستطيع بلادنا أن تفتخر بهما، يبقى أنه على أبنائهم أن يقوموا بأبحاث ليضعوا أنفسهم مع خيط التاريخ، ويعرفوا أين يبدأ نسبهم أهو من آت غبرين أم من الساقية الحمراء، على كل حال، سواء تحدروا من الغبريني الأول أم أنهم أخذوا هذا الاسم بكل بساطة انطلاقاً من الثاني، فإن التاريخ لا يمكن أن يتجاهلهم لأنه أعطاهم أجداداً ذوي شرف عظيم.

سيدي أحمد بن يوسف
سيد مليانة

"إن العقل يبحث عن إدراك الأشياء، انطلاقاً من الأسباب بينما يتصورها الخيال، انطلاقاً من مظهرها المحسوس ومن محيطها، بيد أن حقيقة الله ليس لها سبب لندركها بخيالنا ولا محيط لندركها بإحساسنا. ومن ناحية أخرى فإن العجز عن الإدراك بالنسبة للعقل البشري، إدراك".. هذا من دروس سيدي احمد بن يوسف".

من هو سيدي أحمد بن يوسف؟

لم يكن متديناً ولا زاهداً، ولكنه كان رجل عمل كما تريد ذلك السنّة الإسلامية التي تقتضي أنْ:

"اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً

واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً"

هذا الرجل الذي صار اسمه ملازماً لمليانة، مع العلم أن جثمانه فقط جيء به من قرية الخربة (العامرة) قرب عين الدفلى ليدفن بها، هذا الرجل الذي حَطَّ إلى مستوى وضيع سمعة العديد من أولياء الناحية وغيرها، وأخيراً هذا الرجل الذي جعل بني فرح وبني مناصر ينسون عداوة وليهم سيدي سميان ليصيروا خدامه، لم يكن لهذا الرجل إلاّ انشغالان: خدمة الله وتقديم تعليم أخلاقي وكلامي، والمساهمة في تحسين مصير المغرب العربي الإسلامي، حيث شجع تفكك السلطة السياسية، الطموحات التوسعية للبرتغاليين والأسبان الذين احتلوا بعض السواحل. وبالفعل، ليس له من مليانة إلاّ الاسم الذي نبقيه، بينما هو لا يتحدر من تلك الحاضرة الغناء. تميز قبله

مثقفون مرموقون من هذه المدينة نفسها في مجالات الزهد والفقه الإسلامي والفلسفة واللغة العربية، ونذكر بعضهم على سبيل المثال: أبو العباس أحمد عثمان بن عبد الجبار الملياني (توفي سنة 644هـ/1246م)، زار المشرق واتصل بكل علماء تلك المنطقة، وبعد رجوعه علّم الفقه الإسلامي واللغة العربية، وأسس الزهد في بجاية، ثم استضافه أبو زكريا يحيى، مؤسس المملكة الحفصية ليصير عضواً في ديوانه في تونس ودفن في مليانة.

وعلي بن عمران بن موسى الملياني (توفي سنة 670هـ/1271م) كان ممتازاً في الفقه الإسلامي وفي الفلسفة، لقد شُبّه – وليس من غير تواضع – بأرسطو، ففي بجاية تخصص في التوثيق وصار فيها مشهوراً. إن هذين العالمين قد ذكرهما الغبريني العالم الكبير لمنطقة القبائل في إحدى مؤلفاته – لا ينبغي أن نخلط بينه وبين غبريني شرشال – (لقد وضحنا موقع الرجلين سابقاً).

وكان هناك آخرون، المثقف المتبحر أبو العباس أحمد الملياني (715هـ/1324م)، ولكن أكبرهم بلا منازع هو أبو زكريا يحيى محمد الشاوي الملياني (المولود بمليانة والمتوفى سنة 1096هـ/1685م ودفن في القاهرة)، تابع دراسته الابتدائية في مليانة ثم في مجاجة في زاوية الشيخ محمد بن محمد بن علي أبهلول ثم في تلمسان عند الشيخ المقري المبجّل، وصار في الجزائر أستاذاً محاضراً، وعلم في القاهرة في جامعة الأزهر وعين في المذهب المالكي، وأعطى محاضرات في دمشق وفي اسطنبول حيث صار أحد المقربين من سلطان تلك الفترة الذي كان معجباً بسعة اطلاعه وإخلاصه، الشاوي (نتساءل لماذا سمي بهذا الاسم بينما هو أحد أبناء مليانة) قد ترك

العديد من المؤلفات منها ما هو حالياً في أرشيف الرباط وتطوان وتونس واسطنبول والقاهرة وبوسطن في الولايات المتحدة.

أمّا فيما يخص سيدي أحمد بن يوسف، سيّد مليانة، العربي - البربري هو أحد الأولياء الأكثر شعبية والأكثر تبجيلاً، كان يقول بأنه، مثل الكثير من المغاربة، ينتمي إلى سلالة النبي حسب شجرته النسبية التي يؤكدها له محمد بن علي الطرابلسي ذلك المؤلف الذي كتب عن الطريقة الشاذلية.

إلاّ أن امحمد الحاج صدوق الذي يقول بأن أباه يسمى محمداً، يتساءل: "لماذا لا نعرفه شخصياً إلا بتسمية أحمد بن يوسف؟". فواصل قائلاً: لشرح ذلك قدمنا أسطورتين:

- لقد احتضنه منذ ولادته رجل يسمّى يوسف فرباه بحليب بقرته وعامله على أنه ابنه.

- قد يكون ابن منصور من قورارة الذي ما زال ضريحه في تبلكوزة مبجلاً إلى يومنا هذا، ويقال إن منصور عند ولادة الطفل، كان شيخاً عجوزاً الأمر الذي كان من شأنه أن يثير المزاح من حوله، ورداً على ذلك إن رمى الأب المسن الرضيع على مجمرة.

أول معجزة: احترقت القماطة وأخرج الرضيع سالماً، ومن ثمة رمى الأب المسن الرضيع في الهواء.

ثاني معجزة: سقط الرضيع بعيداً في الشمال في دار يوسف راشدي الذي ربّاه، ودائماً حسب الحاج صدوق يقال إنه كذلك الأخ من الأم (لِبَنْ) قَدَمَّهُ الذي ما زالت قبته معروفة في مقبرة غرداية، وبالعكس فإن أمه معروفة، وتسمى آمنة بنت يحيى بن أحمد بن علي

الغريسي، فهو إذن أحد أحفاد "صانع معجزات" أو قل ولياً آخر ما زال معروفاً اليوم باسم سيدي أحمد بن علي صاحب مقام قرب معسكر.

لا نعرف بالضبط تاريخ ميلاد سيد أحمد بن يوسف ولا مكانه ولكن نتوقع أن يكون مولوداً بين سنة 1432م و1440م. إلاّ أن المؤرخين يؤكدون أنه كان ابن 12 سنة عندما استولى الأتراك على القسطنطينية، وستين سنة عندما طرد المسلمون من الأندلس، ليس هذا مضبوطاً على أنه تاريخ ميلاد ولكن "ذكر هذه الأحداث تساعد على فهم سلوكه وحياته العملية"، إن البعض يقول إنه رأى النور في تبلكوزة وآخرون يقولون في تليوانت وأخيراً آخرون قالوا ولد في قلعة بني راشد قرب معسكر. وعلى هذا نفهم عبر المعلومات التي أعطاها تروملي في كتابه "الجزائر الأسطورية" أنه أصيل من الأندلس، ونستطيع قراءة الفقرة التالية:

"إن سيد أحمد بن يوسف هو أحد المغاربة (المورس) الأندلسيين الذين جاءوا بعد أن طردوا من إسبانيا بمراسيم الطرد الأولى، ليلتجئوا في تلك المشتلة الكبيرة للأولياء أي ساقية سيدي يوسف *Saguiet-El-Hamra* التي نعرفها، فغادر تلك المؤسسة الدينية في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وتوجه نحو الشرق مع بعض رفاقه المرسلين أيضاً في مهمة في تلك النواحي".

وبالعكس، فإننا نعرف أنه التحق بالرفيق الأعلى يوم العاشر من رمضان سنة 1527م في الخربة في بلدية العامرة على بعد 16 كلم من عين الدفلى، ويكون قد عاش 91 سنة ودفن في مليانة تلك الحاضرة المحصّنة حسب ابن محشرة (1191م) الواقعة في جانب الجبل المغطى بالريحان والمسمى بزكّار، فالمصير هو الذي حمل جثمانه

على بغلة ليتوقف هنا في مليانة "في مكان مهمل مستعمل لرمي النفايات وفي هذا المكان الغريب تم دفنه طبقاً لوصيته الأخيرة".

كان له أربع زوجات، منهن ستّي بنت عامر بن أحمد المشرفي الطبري، ثم كليلة بنت محمد الدرجي وعائشة المسماة زغلة بنت قادة بن مرزوقة وخديجة بنت محمد المريني، ومن تلك الزيجات كان للسيد أحمد بن يوسف العديد من الأطفال، ذكوراً وإناثاً، أربعة ذكور حسب ما قيل، وبنتين. وحسب الورثيلاني، الرحالة (1740م) الذي كان مع قافلة حجاج كان يقودها السيد أحمد بن الطيب من سلالة سيد أحمد بن يوسف والذي اتصل به في خنقة سيد ناجي، "أن ذرية أحمد بن يوسف كانوا يتمتعون بمودة سكان منطقتهم وأنهم كلهم يتميزون بالمعرفة والبركة"، إن هؤلاء الأبناء أنفسهم، حسب ما بقي لنا من الأرشيف، كانوا ما زالوا موجودين في القرن التاسع عشر الميلادي في فاس وتلمسان ومعسكر وفي ناحية المدية وحتّى في غدامس.

إن الربح في عقده يعلمنا أن السيد أحمد بن يوسف يكون قد قال فيما يخص أبناءه: "إنهم ستة – وهو يشير إلى أبنائه – وسيكونون ستمائة"، إن هذا، حسب الحاج صدوق، ينفي ذلك الخبر الذي نسمعه في مليانة أحياناً مفاده أن سيدي أحمد بن يوسف لم يتزوج أبداً وبالتالي إنه ليس له ذرية، إن أهل مليانة يذهبون إلى أن يجعلوه يقول: "إن أمور النساء معقدة وأحمد ليس للزواج".

غير أن الكاتب يواصل قوله إن كل هذا مفتعل، لأن هناك إرادة من شأنها أن تنفي عن العديد من المواطنين الذين يعلنون انتسابهم إليه الحق الشرفي والمزايا الناتجة عن ذلك، لقد جرى هذا في العديد من نواحي البلاد حيث وجد دجالون استفادوا من بعض الوضعيات

وخاصةّ من سذاجة السكان، فيقتسمون ما جمع من أموال الزائرين وأضحيتهم وهداياهم.

دراسته، مؤلفاته وأسفاره

إن تكوينه بقي تقريباً مجهولاً والأرشيف يكاد يكون غير موجود فيما يتعلق بهذا المجال، بيد أن ما هو مؤكد أنه حفظ القرآن في قلعة بني راشد في المكان الذي يحتمل أنه ولد فيه، ثم في راس الماء، وفيما بعد تكفل به عشرة أساتذة ومنهم بدر الدين بن الحاجب وابن عصفور وآخرون لا يقلون شهرة عن غيرهم، وكانوا من سورية ومصر والأندلس وإيران. ولكن مما لا مراء فيه أن الأكثر شهرة من أساتذته هو أحمد زروق البرنوسي الذي كان له الأثر الكبير عليه.

يحكى أن أحمد بن يوسف كان منذ نعومة أظفاره له إدراك خيالي خارق للعادة، في أحد الأيام طلب الأستاذ زروق من تلاميذه: "من يستطيع أن يقول لي شيئاً عن ابني الموجود في فاس؟"

فأجاب الشاب أحمد:

– أنا ! إنه أمام غرفته مع أمه التي تصلح وتمشط له شعره.

– وماذا أيضاً؟

– لقد ظفرت له شعره ووضعت له على قفاه شريطة من حرير تنتهي بشرابة.

فقال زروق:

– بارك الله فيك يا ولدي.

فأكد ذلك مسافر وصل بعد ذلك من فاس، حسب ابن مريم في "البستان".

تكوّن أحمد بن يوسف عبر القراءات السبع، يعني الكيفيات السبعة لتلاوة القرآن و"سيرة النبي" حسب "الشفاء" للقاضي عياض، و"الصوفية الإسلامية" حسب رسالة ابن عطاء الله تاج الدين. لقد تشرّب من أفكار الصوفية الكبار في المشرق الإسلامي، تلك الأفكار أتت من مالك بن دينار المسمى كذلك أبا يحيى الشامي (القرن الثامن) وإبراهيم بن أدهم (خراسان – القرن الثامن) وذي النون (مصر – القرن التاسع) الذين كيفوا سلوكه ونَظَّمُوا تصرفاته، كل "تلك الأفكار قادته إلى الانخراط في الطريقة الشاذلية وكان أستاذه – وفي الوقت نفسه صاحبه لأنهما كانا تقريباً من العمر نفسه – بصفته كفيله الذي ألبسه الخرقة لتكريسه وهو الذي أدخله في الخلوة للعزلة الدورية ومن أجل الجهاد الكبير الذي يقوم به ضد دوافعه المادية".

كان أحمد بن يوسف كثير التجوال كذلك، وهكذا لم تتوقف تنقلاته من مدينة إلى مدينة ومن بلد إلى بلد وذلك طيلة ما يناهز خمس عشرة سنة لأن الطريقة التي ينتمي إليها كانت تتطلب من مريديها السياحة طبقاً لحكمة النبي (صلّى الله عليه وسلم) أو ما معناه "سافروا تجدوا الصحة والثراء"، لقد قضى عدة سنوات في المغرب وبالضبط في الريف ثم في فاس وتازة ووجدة وفي داخل البلاد في تلمسان ووهران والشلالة وتيارت والونشريس وبجاية وفي بلدان عربية أخرى في القيروان وطرابلس والإسكندرية والقاهرة وجدّة ومكة والمدينة، أضف إلى هذا أنه في أسفاره كان يلتجئ إلى الجبال ويدعو إلى السلم والمصالحة بين القبائل المتحاربة، وفي الوقت نفسه يسعى للاتصال بالمثقفين للتشاور معهم.

فإلى وهران بالضبط، دخل مظفراً بناء على شعبيته، فقد ذكر ديستان هذه الزيارة بهذه الكلمات:

"بلغ سكان وهران خبر قدوم الولي إلى مدينتهم، فخرجوا للقائه جماعياً خارج أسوار المدينة، إن حاكم المدينة شخصياً خرج مع رعيته، إن حماسة الجمهور الذي احتشد حول الزائر الشهير مغدقاً عليه علامات الحب والاحترام التي لا يوجهها إلا رعايا أوفياء للملك وحده، قد أيقظت في نفس الحاكم شعوراً بالضيق؛ أبداً لم يكن للأمير عبد الله الذي كان يحكم وقتئذ أن يلقى مثل ذلك الاستقبال المظفر".

ومن نافلة القول، بالطبع، الحديث عن انعكاسات ذلك الدخول المظفر ونجاح الأستاذ بن يوسف الذي تحتم عليه مغادرة المدينة بعيد ذلك، إن قائد وهران أرسل رسالة إلى الأمير في تلمسان يقول له فيها: "يوجد عند الهوارة رجل خطير على حكمك".

فكان جواب الأمير هو التالي: "أرسله إلي أو اقتله".

فباعتبار تكوينه المتين، فإن سلطته كانت كبيرة جداً على مجموع تلاميذه ومريديه الذين كانوا يجتمعون تحت قيادته في حلقات للذكر الجماعي، مدعمة بالغناء والموسيقى، إن أحمد بن يوسف قد أعطى كثيراً للطريقة الشاذلية التي كانت تسمى قبله بكثير "الطريقة المديْنية" من اسم أبي مدين شعيب، سيد تلمسان الذي كان القطب الرابع عشر حسب الترتيب، بينما كان الشاذلي في المرتبة السادسة عشرة، و"مع هذا فإن الطريقة قد تكنّت باسمه بعد موته لأن ذيوع صيته، بدون شك، وتنقلاته ونشاطه الذي لا كلل فيه في خدمة هذه الطريقة والمعترف بها من قبل مريديه قد غطت على صيت من سبقه"، وبالفعل فإن أحمد بن يوسف كان له تصور أكثر مرونة للطريقة، فخلافاً للمريدين الآخرين، فإنه كان لا يحرم نفسه من الثياب الجميلة أو من السجاد الجميل أو من الأكلات الشهية، وكان

يسمح للتلاميذ بذكر الله باصطحاب العزف على آلات الموسيقى، كان يقول:

"إن نظريتنا تقتضي منا أن نعبد الله قصد أن نعمل صالحاً وبدون أسباب نفعية، إن الذي يمارس التدين خوفاً من النيران الغاضبة أو رغبة في امتلاك الحوريات يمكن تشبيهه بالعبد المملوك أو الأجير".

وهكذا بعد موت أحمد بن يوسف وبقرار من تلاميذه، صار القطب العشرين، إن هؤلاء التلاميذ أنفسهم واحتراماً لأستاذهم وعرفاناً له بالجميل، قد كرّموه بعد وفاته بتأسيس ستة فروع جديدة أو "طرق ثانوية" في جنوب البلاد وتسجيل اسمه على رأس تلك الطرق، والمقصود هنا الطريقة الغازية المؤسسة من قبل أبي الحسن علي بن القاسم الغازي سنة 1526م والطريقة الناصرية التي أسسها محمد بن الناصر الدرعي (1678 – 1606) والطريقة السهيلية، وقد أسسها محمد بن عبد الرحمن السهيلي وهو من الجزيرة العربية (ينبع) (1540م)، والطريقة الكرزازية المؤسسة في قرارة من قبل أحمد بن موسى الحسني، والطريقة الشيخية التي أسسها ابن محمد المعروف باسم سيدي الشيخ بين 1544 و1615م وأخيراً الطريقة الزيانية التي أسسها مولاي بوزيان الذي استقر عند القنادسة في ناحية بشار.

ذلك هو أحمد بن يوسف، ولكن قد يتساءل أي مثقف أو أيّ رجل بسيط عما إذا كان قد ترك مؤلفات بوسعها أن تزيد في رفع قيمته، قيمة الولي الصوفي وصانع المعجزات الذي ساهم في التجديد الديني في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر الميلادي؟

"إن كتبي هي أصحابي وتلاميذي"، هذا ما كان يقوله أبو الحسن الشاذلي، وكذلك الشيخ بيوض، العالم المصلح في وادي مزاب، الذي كان يقول لتلاميذه:

"إن دروسي مسجلة في رؤوس من يستمع إلي" وليس على الورق".

هل يجب علينا أن نفهم من ذلك أن "سيد مليانة" لم يترك أيّ مصنّف هام، وحتى لو كان الخلف ينسب له "الأمثال الهزلية عن المدن والقبائل"؟

ينسب إليه، وذلك له أساس، أغاني بالعربية الدارجة، ومنها عدد عن النبي (صلّى الله عليه وسلم) وواحدة خاصّة عن المعراج، والأغاني الأخرى تمدح الحب في كل صفائه، وهناك مؤرخون آخرون ينسبون إليه منتخبات تحتوي على رسائل كتبها إلى أحسن تلاميذه وكذلك رسائل بعثها إلى سكان فاس ومراكش وإلى سكان التوات في الجنوب الجزائري وإلى سكان بغداد والقاهرة، إلاّ أن الحاج صدوق يعلمنا أن مؤلفاً واحداً وكاملاً منسوب إليه، وقد تمت المحافظة عليه لأنه موجود في شكل مخطوط في المكتبة العامة لرباط الفتح تحت رقم 2792 وله عنوان: "رسالة في الرقص والتصفيق والذكر والأشواق".

إن الغربيين على وجه الخصوص الذين كانوا مكلفين بالقيام باحتلال بلادنا على أحسن ما يرام، كانوا يقولون وقد حدتهم في ذلك رغبة عميقة لاحتقار سكان المدن والمناطق المضيافة، حيث كانت الثقافة تشع أن سيد أحمد بن يوسف كان يضيف لمواهبه روحاً لاذعة قد تصل لتكون قاتلة أحياناً وكان يستعملها ليقارع به فواحش

معاصريه، وهكذا فإنهم كانوا ينسبون إليه "الثنائيات التي صارت أمثالاً شعبية".

علماً أنه كان ذا أخلاق فاضلة في زمانه، فهل يعقل حقيقة أن يتلفظ بمثل تلك الأحكام القاسية ضد سكان مستغانم ومازونة وتنس والبليدة وشرشال مثلاً؟ فالغربيون وحدهم هم الذين يمتازون بذلك النوع من الأدب المليء بالنقد الناقم والصيغ القاتلة.

إن حكايات تنس و"قطها" ومعسكر وشرشال غير المضيافتين، وأكثر من ذلك حكاية مليانة – حيث أراد أن يوارى فيها جثمانه والتي يهجوها مثل المدن الأخرى – ..ألم تكن هذه الثنائيات أساطير محضة، اختلقت ووضعت في أسلوب فاحش من قبل أشخاص هرموا يقضون وقتهم في القيل والقال أو آخرين كانوا يعتمدون التفرقة لينشروا الظلامية؟ إن الأجوبة توجد في ضمائرنا، وعلينا أن نؤمن أو لا نؤمن بتلك الترّهات خاصةً وأننا نعرف أن السكان الذين تم هجاؤهم من قبل الولي الصالح، رجل الثقافة، قد عاشوا في ظل العلماء الكبار واكتسبوا تلك التربية الرائعة في إطار الاحترام والتبجيل.

أحمد بن يوسف المربي

حسب سيد أحمد بن يوسف:

"الإيمان مركزه القلب بينما يتم التعبير عن الإسلام باللسان، يجب أن يعبد الإنسان الله بتجرد كامل وبدون حوافز، لأن الذي يعبده خوفاً من النار أو بأمل الحصول على محاسن الحوريات في الآخرة، فإن هذا الرجل مسكون بروح أسير أو أجير بسيط، وكذلك بالنسبة لمن يفعل ذلك من أجل المتاع المادي في الحياة الدنيا فهو أسير ومن يفعل ذلك من أجل الحقيقة الربانية فهو (أمير)."

لم يتوقف سيدي أحمد بن يوسف عند هذه المعاينات فحسب، بل إنه وسّع مع تلاميذه العديد من المفاهيم، وتناول معهم – نظراً لمعلوماته الواسعة – العديد من مساحات المعرفة، وحتى التي تنتمي إلى مجال العلوم الفيزيائية وعلوم الطبيعة، ألم يقل هذا ليثبت ما تقدمنا به:

"إن الله أطلعني على الطبيعة البشرية في شمولها؛ إنها مركبة من عدة عناصر: أرضية وسماوية وهوائية والحار والبارد والجمَلي والبقَري والضأني".

عرف هذا التلميذ القادم من مسراتة ويلل، وخاصةً من زاوية قلعة بني راشد، كيف يمنح – بعد موت أبيه – ذلك الصرح المعرفي وتلك المؤسسة التعليمية ذات الطابع الديني على غرار أديرة القرون الوسطى، وظائفهما التربوية بعد أن كانوا يتعاطون في تلك الأماكن تمارين الزهد والسمو الروحاني لتحسين حالة الأشخاص، وفيما بعد الجماعات، كان يقارن هذه الزاوية بسفينة نوح والكثيرون في وقته كانوا يقولون بكثير من الاحترام وحتّى التبجيل: "كل من دخل قبته وهو مريض استعاد عافيته؛ وكل من كان قلقاً استرجع أمانه؛ وكل من جاءه في حالة يأس وجد فيه العون؛ ومن جاءه حزيناً وجد الطمأنينة"، هذا ما قرأناه في البستان.

إن ما تربى عليه سيدي أحمد بن يوسف واتصالاته وأسفاره قد أسهمت في تكوينه وتقوية شخصيته، حقيقة إنه كان يعيش في محيط يتألف أساساً من فلاحين ينظرون إليه بعين الإعجاب، بل أكثر من ذلك عين المتحمس لأنهم كانوا يرون فيه ذلك الرجل الاستثنائي صاحب المواهب الخارقة للطبيعة، سيدي أحمد بن يوسف كان يشعر بذلك ويقول عن جدارة بيتاً من الشعر فيه ما معناه:

"قبل كل شيء أبحث عن الفكر حيث يوجد

"و لا يقلقني ألا تفهم الأبقار شيئاً"

حقيقة إنه كان يتألم من تلك السذاجة وتلك الطواعية التي تطبع السكان الذين آمنوا إيماناً صلباً بصحة بعض الأساطير، ورووها وصانوها لتعيش وسط من يأتي من بعدهم، نقدم لكم بعضاً مما ذكر في البستان وليس لها أي شبه بالحكايات الغريبة (حكاية قط تنس مثلاً) التي نددنا بها أعلاه، والتي نشك كثيراً أنها كانت ثمرة خيال عالم من طراز سيدي أحمد بن يوسف، وهكذا فإنه يحكى من بين هذه الأساطير، – فضلاً عن ذلك فإن الأساطير توجد في كل بلدان العالم الأخرى، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد –:

"أن نخيل أبي بكر، وبعد ابتهال من النبي، نبت لها أجنحة وطارت من مكة إلى المدينة لتضع جذوعها تحت تصرف مشيدي المسجد"، أو كذلك "أن أبا العباس بن بومعزة الراشدي دخل إلى فرن الخباز في تلمسان، وهناك استطاع التفريق دون أن تزعجه الحرارة، بين خبز المسلمين وخبز اليهود"، وأن بومعزة نفسه "كان يملك عنزة يذبحها كلما أتاه ضيف وقامت حية مائة مرة بعد الولائم المتتالية".

وبعبارة أخرى، ليس لنا ما نحسد عليه شعوباً أخرى في العالم كانت هي الأخرى تستمتع بحكاياتها وأساطيرها المحلية، فقد كانت لنا أساطيرنا وعبْر مجموع التراب الوطني والمغرب العربي، كانت المناطق تحكي ذلك مع القليل أو الكثير من المتعة ومع تضخيمها في كل مرة ومع إعطائها نبرة خاصة لتمريرها على أنها حكايات واقعية.

ومع هذا، وإلى جانب تلك الأساطير، فإن سيدي أحمد بن يوسف، مثل بعض الرجال الأتقياء أو الأولياء الصالحين، كانت له

"كراماته" التي كانت تنبذ الجهل السائد حولها، لهذا فإنه وضع كل ثقله في عالمه الصغير ليربي ويحسس ويكوّن مريدين كان عليهم فيما بعد أن ينشروا بدورهم الفضائل الجيّدة التي تعلموها من أستاذهم، إن تلاميذه كانوا كثيرين؛ نذكر منهم محمد بن أحمد بن علي بن عبد الرحمن الصباغ وهو أبو مؤلف البستان، شاب متمكن حسب ما يقال ومتعبد لا يعرف الكلل وشاعر ممتاز، ومحمد الشريف زهار مشهور بطيشه، ولكنه "كان مقتنعاً اقتناعاً تاماً بوحدة الله المفيدة إلى درجة أنه لم يتردد في القيام بمعجزة أنه رمى ثيابه في البداية ثم ارتمى هو شخصياً في المجمرة وخرج منها سالماً" .إنه مدفون في مسجد من مساجد قصبة مدينة الجزائر، ونجد في القائمة كذلك محمد بن عبد الجبار الفجيجي المسعودي التلمساني، الشاعر الصوفي الذي ألف قصائد رائعة عن النبي (صلّى الله عليه وسلم)، الذي انتشرت شهرته في كل المغرب العربي، وتوفاه الله سنة استيلاء الأسبان على تلمسان سنة 1547، وكان له كذلك من بين تلاميذه أبو الحسن علي بن عبد الله الفلالي الذي كان وريثه الروحي وممثله في المغرب الأقصى، فضلاً عن كثيرين آخرين ممن لن يسعنا ذكرهم خشية أن ننسى العديد منهم.

هذا هو سيدي أحمد بن يوسف كما كان، رجل دين وصاحب الرتبة العشرين في الشاذلية، الرجل "الذي دعم سلطته على الجماهير الشعبية وفي الوقت نفسه نبهّ وحذرّ أصحاب السلطة"، رجل السياسة الذي كان له نزاع مع بني عبد الواد في تلمسان وعلاقات جيدة مع خير الدين باربروس. قد خصص له معاشاً من "ثمانية أصواع"، لا ندري من أيّ شيء، كما ضبط ذلك الحاج صدوق، تقتطع هذه الأصواع من مداخيل الجزية التي كانت تدفع له كل سنة بمناسبة ذهاب الحجاج إلى البقاع المقدسة، إن تلك الهبات التي شكلت في ذلك

الوقت علامة تحالف، وقال البعض علامة ثقة، لم تدع سيدي أحمد بن يوسف يعيش تحت رحمة القرصان الأتراك، والدليل على ذلك الرسالة التي بعث بها إليه وهي ملأى بالتحفظات:

"إن سلطتك لا تمارس لا علينا ولا على أولادنا ولا على مريدينا ولا على أبناء مريدينا، وقد يكون من الحكمة أن تأخذ هذا في الاعتبار وإلا سيتم معاقبتك كما يلزم" (مقتطف من عقد الربح).

إن الجواب على تلك الرسالة الملأى بالقوة وحدّة الطبع كانت رسالة شكر، أرسلت له بينما كان في ناحية مزغران.

وبالفعل إن سيدي أحمد بن يوسف قد مارس السياسة، وكيف لا ونحن نعرف أنه رجل عمل يعيش في عالم إسلامي منحط في كل مكان "حيث لامبالاة قادته الذين كانت السلطة بالنسبة لهم هدفاً في حدّ ذاته، وتسمح لهم بالتخاصم بين الإخوة وحتى بعقد المعاهدات مع العدو".

أمّا السكان، فإنهم كانوا غير محميين على نحو جيد من قبل الحكام. وبالتالي فإنهم كانوا يلتجئون إلى رجال الدين الذين كانوا مثل سيدي أحمد بن يوسف، يبذلون قصارى جهدهم لمساعدتهم؛ وبالتالي فإنهم يصيرون مقاومين وكانت زواياهم تستخدم كملاجئ للمضطهدين وللمحاربين وللأتراك الذين جاؤوا يحملون المساعدة إلى المسلمين.

تم توقيفه مرتين من أجل نشاطه السياسي، وقد خرج من ذلك سالما – حتى لو أنه جانب الموت – وواصل عمله بالتفاني والإيثار ليرتاح في النهاية بالراحة الأبدية في مليانة، تلك المدينة الزاهية، في أسفل جبل زكّار الذي يشرف على السهول الواسعة والقرى العديدة

الآهلة بالسكان والتي تستقبل بذراعين مفتوحين في ضيافة متميزة كل الذين يزورونها.

إن أحسن شهادة على تلك الضيافة المتوارثة عن الأجداد توجد في الثناء على الاستقبال التقليدي للعديد من المثقفين والعلماء والمحاربين من أجل العقيدة والحرية والكتاب والشعراء؛ فابن خلدون تكلم عنها بكل حب واحترام، واستهوت الأمير عبد القادر، وكان ألفونس دودي في كل صباح عندما يفتح عينيه على مليانة، يقوم بحصاده اليومي للانطباعات الجيدة والأحاسيس الجديدة.

الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي

زاوية الشيخ مكان معين في بلدية زاوية كونتة في أدرار؛ مكان "يذكر التاريخ دون أن يسأله وعندما نغامر في مساءلته، فإن جوابه يصلنا ولكن كلماته مع تموجات الخمسين ليست إلا مقاطع متناثرة". هنا، في هذا المكان الظريف من صحرائنا الساحرة يوجد ضريح الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، ذلك الضريح الذي يحرس بحرص شديد وكأنه سرٌ غير قابل للانتهاك، تاريخ كم هو براق عن ذلك المحارب الماهر ورجل العقيدة، تاريخ لا يعرفه الشبان مع الأسف ولكن "ديار الطوب الأمغر توشوش (اسمه) عندما تنبعث الريح الرملية".

المغيلي، ذلك الطفل التلمساني، كان عالماً مصلحاً وعاش في زمان ابن تيمية وقد كان أيضاً ذلك الرجل الشهير الذي يمكن أن نعتبر أعماله على أنها عنصر هام في وحدة إفريقيا وخطوة نحو الوحدة الإسلامية الشاملة، كان يقول فيما يتعلق بهذه النقطة بالذات – لأنه مقتنع بذلك – "إن الارتباط وحده بالقرآن والسنة هو الذي من شأنه أن يضمن وحدة مجموع المسلمين".

المغيلي شيخ الإسلام

ولد الإمام المغيلي في تلمسان، عاصمة قديمة وأحد مراكز الحضارة، مثل بجاية وقسنطينة وتيهرت (المدن) التي أنجبت علماء مرموقين خلدهم التاريخ عبر أعمالهم ومناقبهم، ولد سنة 790هـ/1425م وفي سن مبكرة علمه والداه – وهما من السلالة الراقية – التصرفات الجيّدة ووفرا له أحسن تربية، وبِالفعل إن عائلته تتمتع بمرتبة من النبل نظراً لعلمائها ومثقفيها ومحاربيها الذين كانوا دائماً يكافحون من أجل القيم الإسلامية.

كان محمد بن عبد الكريم العالم رقم عشرين من سلالة المغيلي الذي يبدأ بلياس المغيلي (في السنة 50 للهجرة تقريباً، القرن السابع الميلادي) وهو ذلك البربري الذي دخل الأندلس برفقة طارق بن زياد.

بدأ بالقرآن ثم انكب منذ سن المراهقة على الكتب المرجعية في عصره، حفظ القرآن عند السيد أحمد بن عيسى المغيلي التلمساني المشهور باسم جلاب، الذي أعطاه البداية في الفقه ولقن له الأحكام الثرية لخليل وابن الحاجب وأحسن المقتطفات من كتب ابن يونس، ثم صار فيما بعد تلميذاً ليحيى بن يدير وكبر عند أبي العباس الوغليسي، في بجاية، حيث أقام عنده مدة طويلة يحدوه في ذلك الأمل في تحصيل معارف أخرى، وقد ساعده هذا الأخير في تكوينه بأن فتح له آفاقاً كبيرة وخاصة عندما فتح له باب مذهب الإمام مالك بن أنس والعديد من الشخصيات الأخرى المرموقة في عالم العلوم.

يقول العلماء إن الثقافة ليست لها حدود، وقد تحتم على الشاب المغيلي التنقل إلى مثقف آخر، الرجل الصالح، سيد مدينة الجزائر المشهور، عبد الرحمن الثعالبي ليكتشف المنطق، هنا عند هذا الشيخ

الذي لا يمارى في عصره، قد حالفه الحظ في أن يتعلم مبادئ الفقه وأن يوجَّه نحو التصوف وأن يقوي معلوماته ليصبح عالماً مسلماً نابغة وأخيراً ليتزوج بنت الأستاذ: إنه إقرار بالفضل للطالب الاستثنائي والإمام الذي طبقت سمعته الآفاق بعد الدراسات الصعبة.

عاش الإمام المغيلي في فترة شهدت بروز العديد من الأقطاب الجزائرية في إطار الثقافة والعلوم الإسلامية وخاصّة الفقهاء والمصلحين والمفسرين والكتاب والشعراء والمؤرخين، إن هؤلاء خالطوه في الأغلب واعترفوا – مثل آخرين قد أتوا من بعده بكثير – بقيمته في مجالات البحث والتصوف وتفسير القرآن والحديث؛ ومن بينهم من عاش في القرن التاسع وبداية العاشر للهجرة ونذكر العلامة قاسم بن سعيد بن محمد العقباني المتوفي سنة 837هـ. والعلامة محمد بن أحمد بن مرزوق المتوفى سنة 842هـ والصوفي الكبير إبراهيم التازي المتوفى سنة 866هـ والعلامة والفقيه محمد بن يحيى التلمساني المعروف باسم الحابك المتوفى سنة 867هـ، والعلامة محمد بن أبي القاسم بن محمد بن يوسف بن عمرو بن شعيب السنوسي المتوفى سنة 895هـ والعلامة أحمد بن زكري التلمساني المتوفى سنة 899هـ وابن مرزوق الكفيف المتوفى سنة 901هـ والعلامة أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة 914 للهجرة.

ناضل المغيلي المصلح السلفي من أجل مذهب ابن تيمية نفسه، العالم العربي الكبير، وعاش الاثنان في الفترة نفسها وفي بلدين مختلفين تفصل بينهما مسافة كبيرة مع الأسف، وبصفة طبيعية – لأن الاكتشافات العلمية لم تبلغ مرحلة العصرنة – لعدم وجود وسائل الاتصال، ومع هذا وبما أن المغيلي اتصل بالسيوطي يمكننا أن نتخيل أنه قد التقى أو على الأقل كانت له مراسلات مع ابن تيمية، أجاب عن

هذا عمار هلال في مقالته في المجاهد المؤرخ في 1985/06/20 م؛

"في المؤلفات الجزائرية التي لها علاقة بالعلوم الإسلامية: فقه وتفسير وحديث، إلخ... في القرن الخامس عشر، هل نجد أي إشارة إلى ابن تيمية أو إلى أعماله؟ ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال، ولكن ما يسمح لنا بالاعتقاد – خاصةً أن المغيلي لم يطلع بكيفية و لا بأخرى على نظرية ابن تيمية – هو أنه نفى نفسه في وسط الصحراء الجزائرية حيث كانت المواصلات حينئذ من الصعوبة بمكان".

ومع هذا فإن فتاتاً من المعلومات، وصلنا من تلك المنطقة الواسعة للشرق الأوسط تجعلنا نفكر بأن ابن تيمية قد تمنى كثيراً أن يعرف ابن عبد الكريم المغيلي لأنه سمع الكثير من الكلام الطيب فيما يخصه، كان العلماء العرب يقولون بأن علمه واطلاعه قد تجاوز حدود بلاده الجزائر وحدود المغرب العربي.

المهم أن كلاً منهما قد قام بعمله بدافع حماسته للإسلام حتى لو أنهما لم يلتقيا، والمهم كذلك هو أن الرسالة التي أرادا نقلها، وصلت تماماً إلى الذين أرادا استقطابهم ليصبحوا مؤمنين صالحين.

ففي هذا الجو من الثقافة والإيمان عاش العالم والسياسي الذكي المغيلي؛ لقد شرب من معينهما الرائع ومن رحيقهما العذب وقد أثر فيه ذلك كثيراً، هكذا عاش ذلك الرجل الألمعي ورجل التقوى والعدل ذلك الوطني ورجل الدولة الذي لا يكل.

الإمام المحارب

بعد أن أزعجه سلوك سلاطين تلك الفترة الذين كانوا يحكمون مملكة تلمسان، وبعد سخطه على أفعالهم وخاصةً على الكيفية التي يعالجون بها رعاياهم، وبعد أن أثر فيه سكون أو تغاضي المثقفين

ورجال العلم، هاجر الإمام إلى منطقة التوات (ولاية أدرار الحالية)، كان يلوم هؤلاء على "عدم امتثالهم لا في حياتهم الشخصية و لا في كيفية حكمهم إلى قواعد الإسلام".

في تمنطيط وأسملال وأولف وزاوية كونتة وفتوغيل، كلها أسماء تذكر التاريخ ولا تسأله... – لأن هذا التاريخ بخيل مثل الأرض التي شهدت على مجرياته ولا تعطي إلاّ بشح تلك الأشلاء التي نعيد بناءها لنقرأ ماضينا – فالإمام لم يستطع إيجاد الطمأنينة التي كان في حاجة إليها في تلك المنطقة من القصور والتوات وقرارة، الأرض التي استقبلته ليقوم بمهمة الدعوة من أجل نظام جديد.

إن الجامعي الجزائري عمار هلال يؤكد ذلك في أحد أعماله، فيشرح أن المغيلي بعيداً عن تلمسان، في الجنوب، ظن أنه وجد في القبيلة العربية بني سعيد ضالته، وبعد زمن فإن الحياة الهادئة التي كان يعيشها في التوات بدأت تتكدر فجأة عندما اكتشف التأثير السيّئ لليهود على السياسة، فحسب المغيلي فإن اليهود هم الذين كانوا يملون على الحكام التصرفات التي يقومون بها، وبالفعل فقد كان لهم تأثير ديني هائل.

لقد شيّدوا قصوراً كثيرة، ولم يعتبر المغيلي ذلك خرقاً للقانون، بالعكس فإن هذا العالم قد علم التسامح واحترام معتقدات الآخرين، ومع ذلك، فالشيء الذي كان يغضبه هو أنهم استولوا على كل السلطات والبعض منهم كان يواصل المهزلة فوصل بهم الأمر إلى انتحال شخصيات أئمة، وإلقاء الخطب في المساجد، أضف إلى ذلك حسب "ب. أمزيت" في مقالة قدمتها جريدة المجاهد:

"إن أولئك اليهود كانوا مستقرين في المنطقة منذ زمن بعيد وكانوا مستحوذين على السلطة الاقتصادية لأنهم يملكون كل كنز الصحراء: الماء".

فهل كانت تلك الأسباب هي التي دفعت شيخنا الكريم للقيام بحرب مقدسة حقيقية ضد اليهود؟ حسب تساؤل هذا الصحافي نفسه.

وبالفعل إن ما نعرفه هو أن اليهود في ذلك الوقت كانوا يخرقون القانون الإسلامي ويدنسون عدالته، لقد شن المغيلي عليهم حرباً بلا هوادة لوضع حد نهائي لتجاوزاتهم وتأثيرهم على حكام المنطقة، لقد ضيق عليهم الخناق وناقش كل من قام ضده بمن فيهم رجال العقيدة لأن البعض من علماء فاس – ويجب أن نقول ذلك للتاريخ – قد أظهروا كثيراً من التحفظ على هذا الكفاح في الوقت الذي وافقه عليه الكثير منهم ومن بينهم رئيس مجموعة الأئمة أبو عبد الله بن الغازي الذي ذهب إلى حد كتب له تذييلاً مفيداً جداً في نهاية مؤلفه – سنطلع على ذلك فيما بعد – لمساندته في نهجه ضد اليهود، أضف إلى ذلك أن المغيلي لم يستثن في انتفاضته، وهو النزيه في أقواله وأفعاله، المسلمين الذين أظهروا بعض التعاطف مع اليهود وقبلوا هذه الوضعية وكأنهم منهم.

وهكذا فإن رجل العقيدة والمحارب، عبر هذا الكفاح، كان يعرف "أن الحروب الدينية كانت مبتذلة في تلك العهود الموحشة التي تتواجه فيها الثقافات في دوران السيوف الضلعة"، ولكنه كان يريد أيضاً من وراء ذلك الإطلالة على "وحدة مهددة بالمعاهدات المفروضة قسراً".

إمام المسلمين في إمبراطورية صونغاي

واصل الشيخ المغيلي، ذلك المرتحل الذي لا يكل، تقصياته إلى غاية إفريقيا الغربية ليرفع عالياً صوت العقل، بالطبع المنطق الذي كان من أنصاره المتحمسين. في الحقيقة كان سلاطين إمبراطورية الصونغاي يطمعون فيه، بسبب شهرته في التوات، تلك الإمبراطورية

السودانية المرتبطة بوادي النيجر الذي تميز بثقافة ثرية بلغت أوجها في القرن الخامس عشر الميلادي.

إن رحلته تلك من أجل نشر الإسلام إلى أقصى حدود إفريقيا، قد سَهُلَ عليه، لأن بين تلمسان والمناطق البعيدة من الجنوب توجد علاقات تجارية وثيقة، والطريق كانت معروفةً من قبل القوافل العديدة التي كانت تجوب تلك القطعة الهامة من القارّة الإفريقية، أما المغيلي فإنه سيأخذ في جعبته شيئاً أكثر أهمية: أفكاراً كان عليه أن يزرعها والتي ستعتمد طيلة قرون.

وفي هذا المجال، أنجزت أبحاث تاريخية عن تأثيره في المالي بعد إنشاء مركز أحمد بابا سنة 1973م، وهو مركز يحتوي على العديد من المخطوطات عن أعماله، أضف إلى هذا أن مراسلاته ذات الطابع السياسي ونظرته في مجال الفقه الإسلامي التي بعث بها إلى أمير قاوو قد نشرت في "الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (سناد)" سنة 1968م. وأخيراً إن عمله كان موضوع أطروحة دكتوراه قدمها في جامعة لندن النيجيري حسن غاورسو وأستاذ الكرسي في غانا والانجليزي جوهن هوناك الذي صار رئيساً لمركز الدراسات الإفريقية في ن. وسترن في الولايات المتحدة الأمريكية.

كانت أرض السودان – هكذا كانت تدعى إفريقيا جنوب الصحراء – هي المرحلة الأولى التي بدأ عبرها الدعوة، هكذا وفي تلك المناطق الصعبة، فإنه قام ببذل جهود كبيرة للإقناع وعمل كثيراً وبشروط قاسية ليجذب إليه تلاميذ كانوا يأتون أحياناً من أماكن بعيدة ليتعلموا عنده.

فأوّل من دخل الإسلام هو سلطان طمبكتو ثم تبعه آخرون من بين أشهر الأعيان في الإمبراطورية مما أعطى اعتباراً كبيراً وأثار

انتباهاً خاصاً نحو الدين الجديد الذي عرف منعرجاً حاسماً في تلك المناطق التي لم يَمسسها الانتشار الإسلامي.

ومع هذا وبرغم الاهتمام المتزايد، وجد المغيلي أمامه وفي إمبراطورية صونغاي بعض التحفظات التي تعبر عن عراقيل محدودة "متعلقة بتعصب بعض قادة الطرق الدينية الذين سرعان ما فهموا أنه ليس من مصلحتهم أن يواجهوه، ومن ناحيته فإن المغيلي كان يتجنب أن يدخل معهم في معركة وذلك دون أن يتوقف عن الدعوة لإصلاحات اجتماعية ودينية للمجتمعات الإسلامية في إفريقيا".

حملته رحلاته إلى عبور العيّر، وهي سلسلة جبال الصحراء الجنوبية ليصل أخيراً إلى كانو والإقامة بتلك الإمارة الهامّة في إمبراطورية الحاوسة في شمال نيجيريا، حيث يوجد السلطان محمد رومفا – الذي كان من قبل أحد مراسليه – والذي جعل منه رجل أسراره ومستشاره الخاص.

وبدأ الإمام المغيلي – مغتنماً فرصة تلك العناية من قبل ملك كانو، واستعدادهُ لقبول تغيير البنيات – العديد من الإصلاحات في الأطر الدينية والإدارية والسياسية، وهكذا فإنه قد أنشأ بيت المال العام والعديد من المحاكم، والمجلس الاستشاري، وهي بنيات صارت فيما بعد غير مركزية ومقيمة في أغلب مقاطعات إمبراطورية الجاوسة، وحتى أبعد من ذلك في دويلات الكونغو التي كانت تحت الوصاية النيجيرية، وفيما بعد، وفي زمن احتلال تلك المناطق من قبل الاستعمار البريطاني، فإن الحكام الجدد قد قبلوا كل ما خلفه الشيخ المغيلي مع تعديلات طفيفة لتكون متمشية مع سياستهم.

فبعد تلك الإقامة في كانو، التي يصعب تحديد مدتها بالضبط، لعدم توافر الوثائق، انتقل إلى قاوو ليعيش إلى جانب الأسكيا الحاج

محمد بن أبي بكر الكبير، السلطان، والمثقف المسلم الكبير الذي لم يلبث أن اكتشف معرفته الكبيرة، إن هذا الأخير طلب منه أن يحرر له "رسالة عن المواقف التي يجب على الملك المسلم اتخاذها تجاه رعاياه المسلمين وكيف يجب عليه أن يحكم دون أن يكون في تناقض مع الإسلام وتعاليمه النقية"، لقد شرّعت تلك الفتوى باسم الإسلام التي بقيت شهيرة الانقلاب الذي قام به ملك قاوو.

وكتب عمار هلال أن محمد رومفا فعل الشيء نفسه، وطلب من المغيلي أن يلخص له كتابه "واجبات الملك المسلم تجاه رعاياه والشروط المعنوية والمادية التي يفرضها الإسلام عليه". فلبى المغيلي طلبه.

إن النص الكامل لـ "الرسالة" نشر في كتاب اللوري: "مختصر تاريخ نيجيريا".

لقد ترك "إمام المسلمين" في إفريقيا النائية – وقد سمي هكذا من قبل جميع المؤمنين الذين وثقوا به وبجلوه – آثاراً لا تمحى. لقد ترك كتابات تلح على ضرورة أن ينفصل المسلمون عن الكفار، وهي كتابات قد شكلت أهم الحجج المذكورة من قبل زعماء الجهاد الأكبر الغرب إفريقيين في القرن التاسع عشر الميلادي.

وهكذا بعد فترة طويلة من التجوال والجهود التي بذلت لتعليم الإسلام النقي والدعوة إلى العودة إلى السنة والقرآن، وهما الوسيلتان الوحيدتان للتجديد والتقدم على جميع الأصعدة، تحتم على الإمام المغيلي العودة إلى بلاده، في التوات، عندما علم بقتل ابنه عبد الجبار من قبل اليهود، ولكن قبل أن يستقر بصفة نهائية في هذه المنطقة التي أحبها كثيراً، كان عليه أن يؤدي واجباً يقوم به كل مسلم: الحج إلى المناطق المقدسة للإسلام.

التقى في طريقه إلى مكة بالعلاّمة جلال الدين السيوطي الذي كان له معه مراسلات عديدة حول "مفهوم المنطق". وبعد أن أدى شعائر الحج عاد إلى التوات لمواصلة أعماله: تعليم الكلمة السواء وبناء كل ما تم هدمه من قبل اليهود في غيابه، وبقي في تلك المنطقة إلى أن وافته المنية سنة 909 للهجرة في قصر بوعلي في زاوية كونتة، لقد عاش 119 سنة، وهو عمر نفاه بعض الباحثين والمؤرخين الذين ادعوا أنه عاش 80سنة.

مهما يكن فإن الإمام ابن عبد الكريم المغيلي قد ترك آثاراً لا تمحى، لاسيما في منطقة التوات وفي إفريقيا الغربية، ولكن كذلك في العالم العربي والإسلامي، والدليل على ذلك مناقبه وكتاباته تستطيع الأجيال أن تفتخر بذلك.

آثار المغيلي

لقد كتب ابن مريم، محرر "البستان"، وهو يتحدث عن رجال العلم والعقيدة الذين عاشوا في تلمسان، عن المغيلي ما يلي:

"الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، قمة القضاة والإمام المتميز والعلامة والباحث والوجيه ومثل الفضيلة والحبر والسني والذي كان من بين أذكى الناس في العالم من العلماء الذين يملكون قدرات كبيرة في العلم والتقدم والذين لهم معارف معتبرة في مجال الدين وهو المتميز والمشهور بحبه للنبي (صلّى الله عليه وسلم)..."

وكذلك خطاب ابن عبد الله محمد بن مصباح الحسني في "دوحة الناشر"، وفيما يتعلق بالمغيلي فقد كان فصيحاً، لقد وصفه تقريباً بالعبارات نفسها.

وقد فعل أحمد بابا الطمبكتي الشيء نفسه في مديحه الذي يمجد فيه المغيلي عبر "كتاب الابتهاج" في أسلوب خاص بأكبر شعراء الإسلام، لقد كتب عنه الكثيرون واعترفوا بقيمته وحميته وقوة طبعه، وقد اعترفوا كذلك بمنهجه التربوي الكبير عندما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

تشهد التقديرات الجيدة ورأس المال العاطفي – إن كنا في حاجة إلى ذلك – على الحماسة والجدية اللتين اتصف بهما عالمنا في حياته، سواء إلى جانب الناس المتواضعين أم الملوك، وهو دائماً متشبع بذلك الإيمان الذي لا يتزعزع، مثل أمثاله الذين كرسوا حياتهم "للدعوة" ولتعليم مبادئ الإسلام.

سنحاول فيما يلي إعطاء أكثر ما يمكن من المعلومات التي استطعنا الحصول عليها فيما يتعلق بآثار الإمام المغيلي متمنين ألا ننسى أهمها، ولكن القارئ سيفهم أن هذا ربما هو القليل من الأشياء التي نعرفها عن هذا الابن الشهير لتلمسان، كما كتب ذلك الصحافي ب. أمزيت عندما كان يغطي أول مهرجان ثقافي للتعريف بتاريخ منطقة الأدرار في مايو من سنة 1985م. فقد سجل ما يلي:

"من المؤكد أن مكتبات تلك القصور المؤلفة التي تحني ظهرها لريح السموم مدة قرون لتحمي نفسها من القدر، إن حياته مكتوبة على صفحات مهملة في كتب غامضة محفوظة بحرص شديد وكأنها سر لا تنتهك حرمته وأن ديار الطوب الأحمر هي التي توشوشه عندما تندفع الريح الرملية".

لقد كتب المغيلي العديد من المؤلفات التي سجّل فيها حياة المجتمعات الإسلامية في بلادنا وفي إفريقيا، لقد كتب ثلاثين مؤلفا تقريباً حسب ما يقال، ومن بينها بعض المؤلفات التي يعرفها العموم

والأخرى أي أغلبها ما زالت مجهولة لأنها لم تنتشر والظاهر أنها ما زالت "محفوظة، إن لم نقل قابعة، في مكتبات خاصةّ وعمومية في بعض الزوايا من شمال نيجيريا وفي ولاية أدرار".

ونذكر من هذه المؤلفات ما يلي:

– منهج الوهاب في رد الفكر إلى الصواب وهو رسالة في المنطق.

– البدء المنير في علوم التفسير.

– شرح بيوع الأجل من كتاب ابن الحاجب.

– مختصر تلخيص المفاتيح.

– تنبيه الغافلين عن مكر الملابسين بدعاوى مقامات العارفين.

– كتاب فتح المبين.

– رسالة مصباح الأرواح في أصول الفلاح. وهو موجه إلى علماء المغرب العربي.

ونضيف أيضاً تلك المناظرة التي قامت بينه وبين العلامة، قاضي التوات، أبي محمد عبد الله بن أبي بكر الأسنوني الذي كان يختلف معه في مسألة اليهود، وحول هذه المسألة بالضبط تجدر الإشارة إلى أن التاريخ سجل الدعم اللامشروط من قبل العديد من العلماء ورجال الدين للفتوى التي أصدرها الإمام المغيلي؛ ومن بينهم أبو المهدي عيسى بن أحمد المواسي الفاسي والإمام الكبير السنوسي والشيخ أبو عبد الله جليل التونسي.

هنا أيضاً ذلك المؤلَّف، الذي لا يقلِّ فائدة عن غيره لأنه تاريخي، والذي يأخذ شكل مذكرة ويسميه الشيخ المكي الحاج أحمد الإدريسي: "مصباح الأرواح في أصول الفلاح"....

لقد بعث المغيلي بهذه المذكرة إلى علماء فاس الذين قرأوها وعلقوا عليها ومدحوهُا، إن المقترحات التي تضمنتها الوثيقة والتي تمت الموافقة عليها شكلاً ومضموناً في مستوى أولئك العلماء من المغرب العربي قد تركت في تلك الفترة صدى إيجابياً.

لقد أبرز ذلك المؤلَّف كل صرامة المغيلي فيما يتعلق بمشكلات الدين وكذلك ذكاءه ونفاذ بصيرته عبر الدراسة والملاحظة، إنه يعلق على تجاوزات يهود التوات ويندد بانتهاكاتهم للشريعة الإسلامية.

إنه يشرح بأنهم بالغوا في تحدياتهم وأنهم ثاروا على الحكام بتحريض الأقوياء الذين كانوا في خدمتهم.

لقد كتب المغيلي كذلك أشعاراً يمدح فيها النبي محمداً (صلّى الله عليه وسلم)، ومنها على وجه الخصوص قصيدة تضاهي، حسب قولهم، قصيدة "البردة" الشهيرة للبوصيري، كما أنه كتب عدة مؤلفات عن الفقه الإسلامي، ومنها "البدر المنير في علم التفسير" و"تفسير الفاتحة"، ومؤلفات أخرى ليشرح العلم والسنة الحقيقية.

ومع هذا، فعندما نعلم كل تلك الأشياء الحسنة عن رجل لم يقصرّ أبداً، فإن سؤالاً واحداً يتبادر إلى ذهننا: ماذا فعلنا إلى غاية الساعة، ليفهم أبناؤنا أن أحد أجدادهم كان أكثر شهرة وأكثر أصالة وتماسكاً من أولئك الأبطال المفبركين الذين أريد بواسطتهم تزوير التاريخ واعتماد المنتحل عوضاً عن الحقيقي؟

لم تجر أية أعمال جادّة في هذا المجال لتعرف الأجيال الصاعدة ماذا كان ذلك العالِم الكبير والمصلح السلفي والمسافر الذي لا يكل، ومع هذا نعرف له سيرة قد حررها المؤرخ أحمد بابا الطمبُكتي في القرن السادس عشر الميلادي، وقد نقلها بحذافيرها مؤرخ آخر، ابن مريم في

مؤلفه البديع "البستان"، كما نعرف بعض الدراسات الحديثة التي أشرف عليها أساتذة جزائريون مرموقون ومنهم على وجه الخصوص عبد القادر زبايدية، وآخرون قد حاولوا إلقاء الضوء على فترة كانت إلى حدّ الآن مجهولة لدى العوام، وتلك المبادرة الأولى التي لا تقل إيجابية عن غيرها، وهي المهرجان الثقافي الأول لمعرفة تاريخ منطقة أدرار، وهي مبادرة قد تبقى يتيمة ولا تكون لها مواصلة، فهذا غير كاف بالطبع، ولكنه مشجع بما فيه الكفاية ليكلف الذين يشتغلون بالثقافة بتلك المهمة النبيلة ويحفّزهم لإعادة تركيب تاريخ رجل عظيم (بالحرف الكبير).

إلا أننا، وبرغم تلك الحالة التي تستدعي انتباهنا جميعاً، لكي نعمل بوعي وإدراك للمحافظة على التراث الثقافي والتاريخي، يبقى أنه بإمكاننا الاعتماد على البقايا الجميلة، أي الوثائق العديدة المبعثرة عبر إفريقيا ما تحت الصحراء، لنعيد تركيب عظمة ذلك العلامة وأبهته، ذلك الرجل الذي كان داعية لأفكار واضحة واسعة الأفق وسعة الأرض التي عاش فيها.

إن شذرات الأخبار المتبقية تعلمنا إذن أن المغيلي قد ترك عند موته، من بين الثلاثين مصنفاً حررها بيده، العديد من الأحكام في الفقه الإسلامي والفتاوى والبعض عن اللغة العربية والسياسة والشعر عدا عن المؤلفات التي تمت فهرستها، لقد ترك لنا كذلك وثائق عن تلك العلاقات التراسلية مع رجال العقيدة في العالم العربي والمغاربي وملوك إفريقيا الغربية، وكانت تلك الوثائق تتضمن حثّ الإمام لهم أن يهتموا بالإصلاحات أو النصائح لتسيير الممالك.

إن تلك الوثائق – حتّى لو كانت مبعثرة – تبيّن لنا بسهولة عندما نتصفحها بكثير من الانتباه والتبصر أن المغيلي كان من بين المثقفين

العظام والحيويين في عهده، كان يتمتع بشخصية قوية مما سمح له بأن يكون له تأثير على سكان السودان، تلك المناطق من إفريقيا جنوب الصحراء أو تلك الإمبراطورية لصونغاي وفي المغرب العربي؛ حيث كان من أندر الشخصيات الدينية التي لفتت الانتباه إلى انحراف المسؤولين، وندد بتقاعسهم عن التكفل بالشؤون العمومية؛ وبالتالي فإنه حذر قادة بلدان المغرب العربي من المخاطر التي يمكنهم التعرض لها إن هم أصرّوا على مواصلة السير على الطريق نفسه؛ ولكنّ المأساة شاءت أن يقع ما لم يتوقع في تلك الفترة، كما يعرف ذلك كل الناس، أي غزو الأسبان والبرتغاليين لبلادنا وحيث كان حكامنا قد فقدوا كل إحساس بالتوازن.

رسالة المغيلي إلى جلال الدين السيوطي

من بين مؤلفاته، نتوقف عند تلك المراسلة التاريخية التي خاض بها غمار المناقشة مع العالم المصري جلال الدين السيوطي حول مفهوم المنطق، إن تلك الرسالة المتميزة قد تم نشرها على نطاق واسع وعلق عليها رجال العلم.

إن النظرية الشرعية "للأمر بالمعروف" – حيث إن الموقفين المذهبيين بين العالِمين الجزائري والمصري قد شكلا موضوعاً لرسالة متبادلة عن دخول الحقيقة بالمعنى النهائي للرسالة – كانت مناسبة للمجادلة بينهما، وبالنسبة إلى الوحي – باعتباره إرشاداً ونوراً – فمن من الاثنين كان عليه، بموجب المنطق، أن يصحح نقائص التفسير التقليدي، بإعطاء الدين الإضافة اللازمة للروح؛ وهكذا فإن فكرة تبرير الوحي بالعقل تعني أن أيّ تقدم في المعرفة البشرية لا يمكنه أن يناقض عصمة الكلام القرآني؛ إن الله يتوجه إلى البشر بلهجة واضحة، وملائمة تماماً للبيان، فالتفسير القرآني ليس له أي

هدف غير إرجاع السنّة الأولى بأكبر نزاهة ممكنة في نظر الوحي، بينما التفسير الصوفي مجرد من كل دراسة نحوية، فإنه، بعبارة أخرى، تأويل رمزي لا يقبله التوافق المذهبي جملة وتفصيلاً، وبالعكس فإن التفسير الإصلاحي متفائل بالأساس؛ إنه يؤمن بفضيلة الكلام وبالتربية على أنها عوامل تغيير:

"إن الله لا يغير ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم" (صدق الله العظيم).

لقد كتب الدكتور بوجمعة هيشور، الباحث الجامعي ما يلي:

"إن العلم الديني باعتماده على المنطق والعقل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتوحيد أو علم وحدانية الله، ولهذا فإن منهجيات التفكير الفلسفي معرضة للنقد لأنها نسبية تماماً، إن السبل الأكثر باطنية هي التي تؤدي إلى معرفة الله والحقيقة المخفية، إنها بصفة أساسية بديهية أو حدسية لأنها تبحث عن الإشراق الروحي بممارسة التأمّل بشرط ألاّ يتم الانغماس في الباطنية الروحانية".

إذا عدنا إلى رسالتي المغيلي والسيوطي، ومنها ترجمة مقتطفات، سنرى كيف تستطيع تلك المدرسة من المتكلمين (مدرسة علم الكلام) أن تناقش المنهجية في مجال التفكير.

إن مشاعر التواضع العميق أمام عظمة الله – يجب على كل مؤمن أن يعترف بمعاصيه وأخطائه – علامة مميزة للموقف الروحاني للمتكلمين. فالأطروحة المتنازع عليها بين العالِمين الجزائري والمصري، تظهر في اعتراف هذا الأخير بتفوق المنهجية العلمية لمعاصره، قياساً على ما هو صحيح وما هو عبث في الفلسفة وعلم المنطق وهو ما طوره اليونان وما قسم العلماء المسلمين.

"علمت من شيء أني ما سمعت مثله

وكل كلام في حكمه يرجع إلى أصله

أيسمح للإنسان أن يعطي الحجة عن علمه

ليكون شافعاً عن الخير والشر في بعض أقواله؟

هل المنطق المعني هو التعبير عن عدالة أو حقيقة عندما يكون الحق مجهولاً؟

ألم تر أن هذه المعاني هي في كل الكلام وهل لك أن تقدم حجة غير هذه؟

بيّن لي أن الله يرشدك وأن هذا يدل على عكس ما هو منطقي؟

انفِ ما تضمنه شتائم الكافر للرجال حتى لو أثبت حقيقته

اقبِل الحقيقة حتى لو أتتك من جاهل ولا تحكم على غيرك بنفس مذهب هذا الأخير".

جواب السيوطي

أشكر الله صاحب العرش وأحمد كرمه

وأصلي على النبي وأصحابه

قد أبهرتني هذه القصيدة ولم أسمع مثلها،

أَجمِلْ بها قصيدة وأنا أعترف بنبلها:

سلام على الإمام، وكم أنا مدين له ومعترف بفضيلته....

نستطيع القول عن ذلك الاعتراف من السيوطي للعالِم المغيلي أن ينابيع المعرفة هي وراء الإدراكات الحسية للقوى العقلية، لا شيء متناقض بين العلم والدين، إن الحقيقة الدينية تأتي من النور الرباني

الذي يوضع في قلب كل مؤمن، إنها قضية أخلاق في آثار المغيلي المستوحاة من حكم سامية، إن هذا العمل لرجل يبدو أنه بإيمانه القوي، في قوّة العقل وتدينه يتجاوز مراسله الشهير، إن فلسفته ذات البصيرة النافذة والعلمية لرجل الكلام تكتسي شكلاً أكثر سمواً وأكثر دقة وبالتالي في ملاءمة بين العقيدة والعقل وبين الوحي والعلم.

إن الرسالة الموجهة للسيوطي مستنبطة من علم أصول الدين لفقيه كبير ذي السمو الفكري الهادئ، لهذا رأى علماء الشريعة الإسلامية ضرورة توسيع وتأويل الكتاب المقدس الذي كانت كل جملة منه وكل كلمة محل دراسة وتحليل وبرهنة وتفكير ومنطق.

وكختتام لهذه الدراسة المتواضعة عن الإمام المغيلي، نستطيع التأكيد أنه لم يكن فقط رجل دين ولكن أيضاً رجل سياسة وثقافة، كان عالماً طبقت سمعته الآفاق وتجاوزت حدود بلادنا، اليوم أيضاً عندما نتكلم عنه في الشرق الأوسط أو في المغرب العربي، فإننا كذلك نتكلم عنه كثيراً في إفريقيا الغربية وبصفة خاصة في نيجيريا والنيجر ومالي.

هكذا فإن العالم المتحمس والمصلح، "إمام المسلمين"، وبعد حياة طويلة كلها مكرسة لله ولراحة الغير؛ وبعد أن عاش حياة ملأى وهو يلمع بذكائه ومهارته الخارقة وفصاحته المثالية ووضوحه في الجدل وشهرة ولايته التي انتشرت بصفة واسعة في كل البلدان التي أقام فيها وعلّم، ذهب لملاقاة سيده وخالقه سنة 909 للهجرة، ودفن في التوات الذي أحبه كثيراً، في تلك المنطقة التي عرفت العديد من الرجال المفعمين بالمغامرات والمعرفة، في تلك المنطقة حيث، عندما ننظر إلى المشهد الطبيعي، "تتشاهد أعيننا وهي مرتبكة زفاف السماء بقيظ الحمادة وكأنه عرس كوكبي".

هل قلنا كل شيء عن محمد بن عبد الكريم المغيلي؟ هل إننا في بعض الأوقات لم نعامله كما ينبغي ولم نعرْه الأهمية التي يستحقها؟

بالتأكيد، بقي الكثير مما يجب علينا قوله عن هذا العلاّمة المرموق ليعرف أبناؤنا والأجيال الصاعدة أن أجدادهم قد أثَّروا في التاريخ، ذلك التاريخ البديع للرجال.

الأمير عبد القادر فارس العقيدة والمدافع الشجاع عن جزائر 1830

"إنك تمجد قوة فرنسا وتنتقص من قوتنا، ومع هذا فإن القرون تشهد على أن القوة الإسلامية قد انتصرت دائماً على أعدائها، إذا كنا ضعفاء في الخارج فإن قوتنا في الله لأنه قال ما معناه:

"إن قوتكم في ضعفكم نفسه، توكلوا علي"تفلحوا في أعمالكم، حافظوا على دينكم يحالفكم النصر وإذا خانتكم قوتكم فإنكم ستجدونها في عقائدكم".

إننا لا ندعي انتصاراً مستمراً؛ فالحرب لها حظوظها، اليوم لك والغد لنا، إن الموت بالنسبة لنا موضوع مسرة، فنحن لا نندم على الماضي، وليس لنا أي دعم إلاّ أسلحتنا وخيلنا، وصفير الرصاص له بالنسبة لنا أكثر من الصوت الرخيم، يظهر أنكم تحتقرون قوة العرب ومع هذا فإننا دائماً مستعدون للحرب، ارجعوا إلى التاريخ وسترون ماذا وقع في آسيا في نواحي دمشق".

هذه الكلمات هي للأمير عبد القادر الذي أجاب دي ميشال الذي كان يفتخر بقوة فرنسا ودعا في الوقت نفسه إلى مراجعة التاريخ وإلى إيمان شعبه.

لماذا نَعُدّ الأمير عبد القادر من محاربي العقيدة والحرية الذين نقدمهم في هذا الكتاب، والذين نعطي عنهم معلومات وشروحاً حسب ما نعرف وحسب الوثائق التي نطلّع عليها؟ لأن الأمير بكل بساطة "قد تلقى تربية دينية متينة جعلت منه مسلماً مقتنعاً وعالماً في الإلهيات مطلعاً.. وأنه كان في استطاعته أن يكرس حياته كلها لرسالته الدينية، ولكن الظروف المأساوية التي انغمست فيها الجزائر قد أعطت بعداً حربياً لشخصيته... تلك الشخصية التي اخترعت الدولة العصرية".

من هو الأمير عبد القادر؟

القطنة مكان معلوم، من هناك، من تلك القرية القابعة على الضفة اليسرى لوادي الحمام، قرب معسكر، خرج الطفل الأعجوبة... متعلم، متهور ومتمكن من ذلك الشرف الديني الذي يمجد عائلته ويعطيها نفوذاً هائلاً ليصبح رمز المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الاستعماري لبلادنا. فمن هناك من زاوية القادرية التي كان يسيرها السيد محيي الدين؛ أبوه، في هذه الزاوية رأى النور سنة 1808، عبد القادر وهناك تلقى دروسه الأولى بحفظ القرآن ومبادئ اللغة العربية، وبالتالي فمن تلك الناحية المنعزلة خرج هذا الرجل الذي صار فيما بعد أمير المؤمنين، و"رجلا كبيرا إلى درجة أنه فرض على عدوه الإعجاب به"، لنلق نظرة على نسبه الذي أعطاه لنا هو شخصياً في كتاباته:

"أنا عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن مختار بن عبد القادر بن أحمد بن محمد بن عبد القوي بن يوسف بن أحمد بن شعبان بن محمدّ بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن فاطمة بنت محمد النبي (صلّى الله عليه وسلم)، إن أجدادنا كانوا يقيمون في المدينة المنورة وأولّ من هاجر منهم كان إدريس الأكبر

الذي صار سلطاناً وشيدّ مدينة فاس. إن ذريته تكاثرت فتفرق أبناؤه. ونحن لم نقم في غريس قرب معسكر إلاّ منذ جدي. إن أجدادي مشهورين في الكتب وفي التاريخ بعلمهم وباحترامهم لله".

بما أن الشاب عبد القادر لم يرض بالبقاء في مستوى التعلم الابتدائي، فإنه توجه إلى أرزيو عند القاضي سي أحمد بن طاهر حيث تعلم العلوم الدينية والأدب العربي والرياضيات وعلم الفلك والطب، وبعد ذلك في وهران عند سي أحمد خوجة، ولكنه بقي مدّة قصيرة في تلك المدينة لأنه "اشمأز من الفوضى وانحلال الأخلاق وبتجاوزات الميليشيا التركية"، حسب الدكتور محفوظ قداش، رجع إلى القطنة ليكمل تربيته بين أهله وذويه وخاصةّ المثقفين ومنهم السيد محي الدين؛ أبوه.

كان كذلك يتعلم وُحده بمراجعة المخطوطات الضخمة، وكان لا يتردد على القيام بالبحث، إن فضوله ومحبته للعلم كانا يدفعانه إلى سهر الليالي الكاملة لتوضيح بعض النقاط الغامضة عن قضايا صعبة نسبياً في ذلك الوقت، قال الدكتور بوعمران عن ذلك:

"إن أفلاطون وأرسطو والغزالي وابن رشد وابن خلدون كانوا مألوفين لديه كما تشهد على ذلك كتاباته، إنه درس وطور ثقافته طول حياته".

عندما بلغ سن السابعة عشرة أي في سنة 1825، رافق أباه إلى مكة. دامت تلك الرحلة سنتين اتصل خلالهما بالأوساط الثقافية في الشرق الأوسط، كان له الوقت في مصر أن يلاحظ بإعجاب مجهودات الباشا محمد علي وأن يتشرب من المنجزات العصرية في إطار الفلاحة والدفاع الوطني، ولم يدخل إلى الجزائر إلاّ بعد أن أقام في بغداد وزار ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني، وهكذا فإن هذه الرحلة

"قد سمحت له بتقويم العديد من الحكومات وأن يتضح وعيه بالأمة الإسلامية، لا شك أنه حمل أفكاراً وآراء قد ساعدته على المهمة التي كانت تنتظره في الجزائر"، أيّ مهمة؟ هل كانت هناك مهمة ما زال لم يعرفها؟ ومع هذا فإن طموحه كان أن يكرس حياته للدراسة والتعليم، كان يريد أن يبلّغ لمواطنيه العلم الذي تلقاه لأنه كان يرى مهمته كذلك، مهمة الرجل المثقف في الإسلام. هل كان يعرف أنه بعد زمن قصير من عودته من الشرق الأوسط سيعيش بلده أحداثاً ستلقي على كاهله ذلك المصير المزدوج: رجل العلم والمحارب؟

لا نستطيع الجواب على هذا السؤال، ولكن ما يمكن أن نقوله بكل بساطة أن الشاب عبد القادر قد فهم منذ بداية الغزو الاستعماري أنه لم يبق له سوى خيار واحد: الكفاح من أجل تحرير البلاد من دنس الاحتلال الأجنبي.

"لقد عرف كيف يرى نفسه في روح شعبه، لقد أحس فيه نفس الحرية والكرامة والرغبة في الكفاح".

المقاومة وجدت قائدها

"إنكم، بالارتكاز على ضربة المروحة، ارتكبتم عملاً بشعاً وغير عادل ولا أخلاقي، لقد صادرتم جنسية وقطراً"، هذا ما قاله الدكتور فيتال في مراسلته مع إسماعيل أوروبان.

وبالفعل لم تكن حادثة المروحة إلاّ حجّة لاستعمار الجزائر، لأن الأهداف التوسعية لفرنسا سبقت ذلك بكثير، أي منذ أن هزم شارل الخامس أسبانيا أشنع هزيمة على شواطئ الآغا، عمر تلك المرامي ثلاثة قرون، منذ الوقت الذي كانت تحلم فيه بفتح بلادنا وجعلها

أرض استيطان فرنسية، ولنتكلم عن التاريخ لنقول لشبابنا إنه، قبل ذلك اليوم المشؤوم من جويلية سنة 1830م، وأمام قوة الإمبراطورية العثمانية، حاول التحالف المسيحي أن يكسر في العديد من المرات الجبهة الإسلامية دون أن يبلغ مراميه، إن الحرب مع الإسبان قد كانت أطول مواجهة في التاريخ، إنهم وبمساعدة الأمريكيين كانت لهم تلك الأطماع، أطماع الهيمنة وراودهم حلم احتلال المغرب العربي، ذلك الخزان للرجال والطاقات الذي سيجلب تَمَلُّكُهُ النصر النهائي لهذا الخصم أو ذاك".

وستلعب الجزائر دوراً كبيراً في ذلك باعتبار وضعيتها الممتازة والمبادلات التي كانت تقيمها مع العديد من بلدان حوض المتوسط، كانت مدينة بني مزغنة عاصمة لدولة نظامها يتحسن شيئاً فشيئاً وهي مستعدة للدفاع عن نفسها والانتقام من أيّ اعتداء، قال عنها ليون الإفريقي: "إنها كبيرة جداً وفيها أكثر من أربعة آلاف ضوء (عائلة)، إن أسوارها جميلة وقوية جداً لأنها مبنية بحجارة كبيرة"، إن الأستاذ مولاي بلحميسي الذي ألف كتاباً ممتازاً عن تاريخ البحرية الجزائرية من 1516 إلى 1830 يؤكد ذلك الوصف ويضيف ما يتعلق بالمرسى: "الذي صار مبرر وجود المدينة، وكان حتى النهاية مرسى الجرأة وآفة للأعداء وفاجعة لهم، هو القاعدة التي انتزعت من إسبانيا أغلب حصونها المحصنة وكرّس فشل سياستها الإفريقية".

وفي الأثناء فإن التحامل على المسلمين كان منتشراً في تلك الفترة: الحرب الصليبية كانت متواصلة، خاصّة وأن الانتصارات الإسلامية، براً وبحراً، كما يؤكد ذلك المؤلف المذكور سابقاً، قد جعلت عالم الصليب يقف ضد عالم الهلال وخاصّة الجزائر التي كانت

بحريتها ترد الضربة بالضربة، إن العداوة كانت تأتينا من النمسا التي كانت تحت هيمنتها بلدان كثيرة ومنها أسبانيا – قد قلنا ذلك – وصقلية ومملكة نابولي والفلاندر وجزء من أوروبا الوسطى، إن ذلك العالم المعادي "كان يمثل المسيحية المناضلة والنشيطة، والتي كانت تريد القضاء على "الخطر المحمدي" بإثارة العواطف ومضاعفة الصدامات"، وهكذا فإن الأسبان بعد أن استولوا على مرسى الكبير سنة 1505م، كانوا يطمحون في احتلال الشواطئ المغاربية لإضعاف الهيمنة الإسلامية أو القضاء عليها، وساعدهم تعصبهم على الطموح السياسي الاقتصادي ليخلقوا "من أشبيلية إلى صقلية الغنية بحبوبها الطريق الأسهل بمحاذاة السواحل الإفريقية" (حسب مونلو في كتابه: "الدول البربرية").

وبالتالي، فإن المواجهة دامت ثلاثة قرون، تدخلت فيها الكنيسة والملوك والطرق الدينية، كلهم تحالفوا ضد بلادنا تدفعهم في ذلك الحمى المناهضة للإسلام، مثل: القديس جان في القدس الذي خلف فرسان الهيكل وفرسان مالطة الذين تمّ دحرهم في الجزائر عند القيام بحملتهم سنة 1515م والذين خلّفوا وراءهم في الميدان العديد من الضحايا وأسطولاً بحرياً هاماً وأخيراً أخوية فرسان سان إتيان الذين نظمهم وحكمهم كوسم دوميديسيس Cosme de Médicis الذي وصفه توربي دلوف في "مكتبته النقدية" على أنه كان مبعث الرعب للعثمانيين وآفة الأتراك وهلع المورس"، إن هذه الطريقة لم تعرف انحطاطها إلاّ في القرن الثامن عشر.

وفيما بعد هاجمت فرنسا وإنجلترا وروسيا الجزائريين برغم تلك الفترة السلمية سنة 1534 عندما طلب فرانسوا الأول مساعدة

الجزائريين ضد الأسبان – تحالف الزنبق والهلال – ليحافظ على تاجه.

لقد تسممت العلاقات كثيراً في القرن السابع عشر لأن تجدد اليقظة الفرنسية صار يدعو مجاهرة إلى الحرب الصليبية في المغرب العربي. وقد نشر الكهنة – الذين أصبحوا قناصل – فكرة استعمال القوة لحل المشكلات مع الجزائر، كانت الوضعية تنذر بتصعيد النزاعات وتفاقم الوضع أكثر فأكثر. وفي عهد القنصلية ثم في عهد نابليون سنة 1808، كانت فرنسا تريد بأي حال من الأحوال الوصول إلى بلادنا بالوسائل الحربية، إن نابليون – حسب لوفيردو – كان يتطلع إلى احتلال الجزائر بخاصة، ولكن أيضاً المقاطعتين الأخريين تونس وطرابلس، ليؤسس في هذه البلدان مستعمرات عسكرية فرنسية.

لقد كان مؤكداً حسب مولاي بلحميسي أن "بونابرت كان يريد بهذه الواسطة حل بعض المشكلات الداخلية: شغل الجيش والتخلص من الجنرالات المنافسين ومن القادة المشاغبين وحمل هذه المناطق التي تساوي ربع أوروبا على الطاعة المباشرة وتوزيع امتيازات حول مدينة الجزائر لتعويض ضحايا الثورة".

إن التوتر بين البلدين بقي كاملاً إلى غاية الحصار وحملة 1830م، ولهذا وكلنا يعرف هذا، "فإن فرنسا باعتدائها لم تكن تهدف إلى التخلص من النزاع الناشئ عن سوء نية حكامها في مسألة الديون الجزائرية والتحدي الذي استطاع بواسطته القنصل العام إيقاع الداي، المفرط في عفويته والسريع الغضب، في الفخ"، حسب محمد الشريف ساحلي، إن فرنسا كانت تتهيأ منذ زمن لاحتلال بلادنا، لقد

كان لها مطامح توسعية حقيقية، كتب غراسي دوسان سوفير Grasset de Saint Sauveur في كتابه "قاموس الرحلات" وهو يخترق شوقاً لرؤية سلطة بلاده أو هيمنتها تمتد إلى بلدان أخرى من البحر المتوسط: "فمتى إذن تجتمع الأمم الغيورة على حرية البحار للقيام بحرب صليبية سياسية موجهة ضد"الأوباش الأفارقة الذين يشجعهم صبرنا على القرصنة""؟

إلاّ أن تلك التهكمات لم تقبل من طرف كل الناس، وبالفعل وبعد عملية الإنزال ارتفعت أصوات في مجلس النواب في فرنسا للتنديد بتلك الحملة "التأديبية". فالنائب ألكسندر دولابورد عبّر عن رأيه بهذه العبارات: "ولكن، في الأخير، هل هذه الحرب عادلة؟ لا ! حقيقة، و لا أخشى أبداً أن أقول ذلك، لا؛ فلا لجنة سياسية و لا مؤتمر أوروبي، كما كان يحلم به هنري الرابع، قد فكر أبداً في ذلك، كان قد لخص تلك القضية على الوجه التالي: الداي يطالب فنسرقه، ويشتكي فنشتمه، ويغضب فنقتله".

وهكذا ففي صبيحة يوم 9 فبراير، في تولون وبراست وروشفور وشاربورغ وبايون ولوريان، تم تسليم الأمر بتسليح الوحدات الحربية فوراً، ومن بين ما فيها: 11 سفينة و24 فرقاطة و7 كورفيت و27 بريك و7 كورفيت للهجوم و9 غابار و8 بومبارد و7 سفن بخارية و2 دونينغ و1 لنقل الأشخاص و1 بلانسال وفي المجموع 104 سفن، وفي الوقت نفسه كلف ضباط من البحرية بمهمة استئجار سفن تجارية في مرسيليا وكتلونيا وفي إيطاليا مخصصة لنقل العتاد الهائل التابع للحملة الفرنسية، وكانت مهمة الأسطول البحري العسكري الذي يقوده دوبورمون إنزال 40000 رجل على شاطئ مدينة الجزائر، أي ما

مجموعه 16 كتيبة من مشاة خط قتال وكتيبتان من المشاة الخفيفة شكلت القوة الأساسية لجيش الاحتلال، أُرْسِلَ دوبورمون بدلاً من المارشال الدوق دو راغوز الذي كان يتمنى – تعطشاً منه للشهرة – القيام بما عجز عنه شارل الخامس ولويس الرابع عشر. وقد كتب أحد المؤرخين في شأن العديد من الشخصيات المتميزة، والفرحة تغمره في أن يتمكن من نقل تلك "المعلومات النفيسة" للأجيال الصاعدة – أنها حظيت على شرف المشاركة في تلك الحملة، ومن بين تلك الشخصيات الأمير شفارزنبارغ الابن البكر للفيلد مارشال الذي قاد جيوش التحالف سنة 1815م، والأمير دوكارينيان والأمير بونياتوفسكي وابن أحد أثرياء المجر والبارون لوكلارك من برلين والكولونيل فيلوزوف المرافق العسكري للدوق الكبير ميشيل من روسيا والسير وشارك و. مانسيل قبطان سفينة في البحرية الإنجليزية في حملة إيكسموث سنة 1816، وهكذا كانوا يعتقدون – بعضهم يحدوه تعصبه الديني وحقده على الإسلام وبعضهم الآخر المطامع التوسعية – أن استقرار فرنسا على الشواطئ الجزائرية سيمنح لهم امتيازات ثمينة؛ فضلاً عن ذلك إن خسارة مصر وخسارة الامتيازات الإفريقية قد تسبب بزعزعة خطيرة للثروات؛ وبالتالي فقد ظنوا أن الوقت حان لإصلاح أوضاعهم.

سنة 1830 استولى الفرنسيون على مدينة الجزائر في الوقت الذي تفككت فيه سلطة الأتراك الذين تنازلوا عن الجزائر في صمت وإهانة. وأعلن الشيخ محيي الدين عن الجهاد بتجميعه لبعض القبائل في مقاطعة وهران، ولكنه كبير السن وتقلبات الحرب تتطلب كثيراً من الحيوية، فرفض القيادة التي عرضت عليه في ذلك الاجتماع التاريخي يوم 21 نوفمبر سنة 1832م في سهل غريس، حينئذ طلبت منه القبائل

مجتمعة: "إذا كنت لا تريد أن تحكمنا، أعطنا ابن الزهرة سلطاناً وهو رجل بارود".

لم يقبل إلاّ في اليوم الموالي بعد أن طلب منه ذلك مرّة أخرى وبإلحاح كبير وبعد أن اجتمع مع ابنه لمعرفة كيفية الحكم.

عندما سأله أبوه، أجاب عبد القادر بجلال ورفعة: "سأحكم والكتاب في يمناي وإذا أمرني الشرع لن أتوانى عن ضرب أخي من الخلف"، ففهم الشيخ مُحْيِي الدين أنه يستطيع أن يعتمد على ولده، وفهم خاصّة أن المقاومة وجدت قائدها الذي يشرفها.

فأعلِنَ عن عبد القادر أميراً وعمره أربع وعشرون سنة، وكانت كلماته الأولى بعد تقليده مقاليد السلطة واضحة إلى درجة أن مجموع القبائل قد فهم أن القضية المقدسة ستَسْمُو فوق كل المصالح الخاصّة.

"إذا قبلت السلطة فذلك ليكون لي الحق أن أمشي في أول الصف وأن أقودكم إلى معارك الله، فأنا مستعد لذلك ولكن أنا مستعد كذلك أن أكون تحت طائلة القانون لأيّ قائد آخر ترون انه أكرم مني وأكثر كفاءة مني ليحكمكم بشرط أن يلتزم بأن يتكفل بقضية عقيدتنا".

جمع الرجال بقليل من الإمكانيات، واضعاً كل أمله في الجماهير الشعبية التي يعرف أنها مرتبطة بالعقيدة وبالأرض، ونظم المناطق، وعين لها قادة واختار مساعديه وجمع السلاح اللازم للقيام بالجهاد وحدد الضرائب المتوجبة على القبائل وأخيراً ضَمن وحدة الأمة حول دولة عصرية.

فأكثر المهمات استعجالاً بالنسبة للأمير كانت في مجال تنظيم مقاومة الغزو بتجنيد قوات "حديثة الانضباط ضد أقوى قوة

في العالم، متمرسة منذ زمن طويل في فن الحرب وبحوزتها موارد هائلة".

كانت المعارك الأولى صعبة على الأمير وجيشه، ولكن الإيمان يتغلب دائماً برغم القوات المعتبرة للعدو؛ وبرغم بعض المؤامرات التي نسجها خصومه في ذلك الوقت لم يفهم رؤساء القبائل معنى الجهاد، وكانت لا تزال تُحَرِّكُهم وقتها خلافات داخلية، في تلك الأوقات الصعبة كان الأمير يرد سلباً على دعوات قادة الحملة معتبراً إياها مخجلة، لقد صرح خاصة لتريزيل:

"إن ديني يمنعني بالفعل أن أسمح بأن يكون مسلم تحت سيطرة مسيحي أو رجل من دين آخر، أنظر ماذا ينبغي أن تفعل وإلاّ فإن الله هو الذي يقرر"، ووقعت فيما بعد معارك أخرى أكثر ضراوة وأهمية، وكانت الخسائر من الجانبين، وأكثرها من الجانب الفرنسي، كانت الحرب ترخي بظلالها مشعلة نيرانها في كل البلاد، وكان الأمير منتصراً فيها، ولكن فرنسا ضاعفت جهودها بمضاعفة إرسال الجنود والجنرالات المتوحشين وبالقيام بالمجازر المروعة ضد السكان العزل، كان لا بد بالنسبة لهم من الاستيلاء على البلاد مهما كلف الأمر لاسيما وأنها تعرف أن في مدينة الجزائر وفي العديد من المناطق الأخرى ذات الوجود التركي المكثف، لم يكن هناك عمل في العمق وعملية تمركز كان من شأنها أن تنجز وحدة الأمة وانسجامها وتدعمهما، يؤكد محمد شريف ساحلي:

"أن الحذر البديهي الذي كان يبديه النظام التركي حيال الشعب، قد جره بصفة طبيعية إلى ممارسة السياسة القديمة "فرّق تسد"، وتشجيع الخصائص الجهوية والنزاعات المحلية".

لذا فإن الأمير، وعياً منه بكل ذلك، قد كثف الكفاح ولم يضع نفسه أبداً في وضعية أدنى من تلك التي اعترف له بها أعداؤه بعينهم.

ومن جهة أخرى، فإن المعاهدات التي وقعها والرسائل التي أرسلها إلى خصومه تثبت بسهولة تفوق الرجل الذي أصبح في غضون بضعة سنوات الملك الحقيقي للبلاد بأسرها تقريباً، ألم يقل الجنرال دامريمون إن:

"معاهدة التافنة يوم 30 مايو 1837 قد قوَّت الأمير أكثر من أي معركة باهرة؛ وأن الفرنسيين كانوا في موقع غير ثابت وبدون أي ضمان، ومنحصرين في حدود سيئة وأن السيادة الفرنسية لم يكن معترفاً بها"؟

عبد القادر ووحدة الأمة

كان هدف الأمير عبد القادر أن يؤسس لاستقلال العرب في الجزائر تحت سلطة واحدة، وفهم أعداؤه ذلك، كانوا يفهمون عمل الأمير عبد القادر وطبعه الوطني، وبالتالي فإن المعاهدات الموقعة مع فرنسا، المعاهدة التي وقعت مع دي ميشال يوم 26 فبراير سنة 1834 ومعاهدة التافنة ثلاث سنوات بعد ذلك، لم يكن لها معنى في نظر الأمير لأنها كانت حيلاً تسمح له بالاستفادة من بعض الهدن، فيصبح بعد ذلك أقوى على مواصلة الحرب ضد المحتل، إن بوجو والقادة الآخرين للحملة قد عرفوا مقاصد الأمير، إن الجنرال دوما الذي كان قنصلاً في معسكر كان يقول عن قناعة إن:

"الأمير لم يوقع إلاّ ليربح الوقت ويصلح ماليته ويجعل نفسه قادراً على إعادة الكرة بشراسة أكثر وبقوة أقوى من ذي قبل وكل شيء يدل على ذلك".

بالنسبة لهم، كان هدفه الوحيد تأسيس أمّة جزائرية، وعليه فإنهم لم يخطئوا في شأن هذا الرجل الذي صار في أعينهم الخطر

الدائم على سياستهم التوسعية، ذلك الرجل الذي يصبو إلى جزائر مستقلة وموحدة ودون ولاء إلى أي كان.

كتب المارشال فالي إلى وزير الحرب ما يلي:

"إن سلوك عبد القادر موافق للطبع الذي أظهره دائماً، طموح، وعدو في العمق للمسيحيين، يغتنم بسرعة كل الفرص التي تضاعف سلطته وتسمح له ببلوغ الهدف الذي يسعى إليه بكل مجهوداته: طرد الفرنسيين من كل التراب الجزائري وبسط سلطته من المغرب إلى تونس".

بوجو كذلك عبّر عن التخوفات نفسها وكان يقول لجنوده:

"لا بد أن تهاجموا القائد والهوية العربية من جذورها، لا بد من الإطاحة بالهوية وأن تدمرّ قوة عبد القادر وإلاّ ما استطعتم أن تفعلوا شيئاً في إفريقيا".

كان الأمير يتنقل في كل الاتجاهات ليستميل ويُقنِعَ وهو يذكر بمقتضيات الإيمان والجهاد وأخيراً ليوحد القبائل، في الشرق والغرب والجنوب، إن القادة الكبار والعلماء المسؤولين عن الطرق والزوايا، كلهم اعترفوا بسلطته، هناك البعض ممن أبدى تحفظاً ولكنه عوقب بقسوة على ذلك مثل قبيلة الزواتنة وهم أولئك القراغلة القدماء الذين استوطنوا في ناحية واد يسر.

كتب محفوظ سماتي يقول: "لم تقتصر مواهب الأمير على الشعر، إنه رئيس دولة حقيقي ومنظم وقائد رجال، كان يعشق التسبيح ولكنه كان يعرف استعمال السيف أيضاً، كان يريد دولة عصرية ولكن دون نفي الماضي، إن الأصالة والعصرنة مندمجتان كانتا على ما يبدو تكونان هدفه النهائي ولكي ينجز برنامجه كان عليه

لاسيما أن يتمتع بإرادة صارمة ولكن أيضاً بتأثير على محيطه وأن يقوم بعملية إقناع لحمل الجماهير الشعبية في نهج عصري".

من المؤكد أن الأمير تكفل في بداية الأمر بالتنظيم العسكري لتأدية مهمة الجهاد، ومع هذا فقد كان من الواجب عليه أن يهتم بالبنيات الاجتماعية التقليدية، وهكذا فإنه قرر تقسيم البلاد إلى ثماني مقاطعات (خليفليك) ليجمع بين احترام هذه البنيات والوحدة الضرورية لقيادة الحرب:

1 – السيد محمد بن حمادي كان قائد مقاطعة تلمسان.

2 – مصطفى بن تامي (صهر الأمير) في معسكر.

3 – الحاج محيي الدين الصغير ثم محمد بن علال وليد سي مبارك في مليانة.

4 – امحمد البركاني في المدية.

5 – أحمد بن الطيب بن سالم في حمزة.

6 – طبال بن عبد السلام في مجانة

7 – بلعزوز في الزيبان.

8 – قدور بن عبد الباقي في الصحراء الغربية.

وكتب محفوظ قداش يقول: "في المجموع 8 مقاطعات (خليفلك) مع ما يقرب من 59.000 محارب، منهم 6000 جندي نظامي، الشيء الذي يسمح بتأكيد دوره العسكري لأعوان حكومة منظمة للكفاح ضد الغزاة". أضف إلى ذلك أن المقصود هو أعداد الجنود في الجيش الذي تشكل تحت إشراف أعوان الحكومة في المقاطعات الرئيسية للبلاد، أما الجيش الذي كان مباشرة تحت مسؤولية الأمير فإن عديده يَتَكَوَّنُ

من 8000 رجل في سلاح المشاة، و2000 رجل في سلاح الخيالة و240 رجلاً في المدفعية، حسب الكاتب نفسه.

كان صنع الأسلحة في تقدم كبير، وكان الأمير يشرح ما يفعله هو شخصياً أو تحت إشرافه السامي ليضمن أداة الحرب لجيشه:

"كنت أصنع بارودي في تلمسان ومعسكر ومليانة والمدية وتاقدمت. لقد أسست في تلمسان مصنعاً للمدافع (...) ومن جهة أخرى كان عندي مصنع للسلاح في مليانة: كانت تستخرج الحديد من منجم كنت أقوم باستغلاله في الناحية (...) كنا نصنع فيه قطعة السلاح كاملة. وأخيراً أسست في مقر حكومة كل خليفة خياطين وصانعي السلاح والسروج ليصنعوا الثياب اللازمة لجيشي وليصلحوا الأسلحة ويصنعوا قطع السروج".

فبمثل ذلك النظام، لا شك أن همّ الأمير الأول هو إصلاح الدولة وتزويدها بمؤسسات قابلة للاستمرارية تسمح له بالاهتمام لاسيما بمشكلات المواطنين، ولكن كذلك وفي تلك الأوقات الصعبة أن يقاوم عصابات المستعمرين ويطردهم من البلاد.

لقد كانت تربية الجماهير والعدالة والمال العمومي والتنظيم المالي الجيد والصناعة الحربية والفلاحة وأخيراً الجيش في صف الاهتمامات الأولى للأمير.

وفيما يخص المالية، فإن الأمير كان يتخذ قرارات عادلة بصفة خاصّة لتنظيم الجباية وكان يبذل كل جهده ليوفق بين مصالح البلاد ومصالح المواطنين وكان يقول بوضوح:

"عندما نطلب من القبائل ما هو ضروري لصيانة البايلك، كنت أريد التوفيق قدر الإمكان بين مصالحها ومصالح الدولة، وكنت

أمرت خلفائي باستقبال دفع الضريبة أو المخالفات في شكل غلال أو سلع أو بغال أو جمال وخاصةّ الخيل (...) وكان الكل منظماً بحيث يتُجَنَب التبذير (...). إن القطعان الحاصلة من الزكاة كانت توضع تحت عناية القبائل وتحت حراسة القياد الذين كان عليهم أن يراقبوهم وأن يعينوا رعاة ليتكلفوا بالمرعى مع العناية اللازمة للقطعان (...) وأمرت أن يوضع في تراب كل قبيلة مطامر للبايلك، ويوضع فيها الحبوب الحاصلة من العشور أو الأراضي التي تملكها الدولة التي كنت أزرعها بواسطة التويزة، وهكذا فإنني كنت أعطي للعرب الحذرين دائماً البرهان على أني لا أقتطع شيئاً لحاجاتي الشخصية من الضرائب التي أجبرهم على دفعها للصالح العام وكانوا لي من الشاكرين".

إن الأمير كان عادلاً لأنه يحب العدالة، كان يسميها أم الفضائل ويضعها في المرتبة عينها مع العلم والشجاعة والاعتدال، كتب النقيب سان هيبوليت من معسكر يوم 14 يناير سنة 1835: "إن الأمير قد عمّم العدالة إذ إنه يستنكر أيّ ابتزاز ولا يطلب إلاّ الضرائب القانونية وبدون استعمال العنف"، وكتب الأمير في رسالته إلى الفرنسيين فيما يتعلق بالفضائل ومنها العدالة:

"إن الذي جمع هذه القوات الأربعة في كمالها يستحق أن يكون من بين المخلوقات ملكاً يطُاع أو أحد أولئك الرجال الذين تتم استشارتهم في آخر المطاف والذين تقبل قيادتهم".

وبالتالي، فإن بعض الكتاب الفرنسيين يعترفون له بتلك الخصال النبيلة، كيف لا نمدحه في مجال المساواة والنزاهة والعدل؟ إن واحداً منهم كتب سنة 1844: "تميز بحفاوة استقبال الضباط

الفرنسيين الذين يأتون إماً لزيارته أو لتأدية مهمةّ لديه، فكان يستقبلهم في مَخيطه الخاص ويحدثهم عن آماله ومشاريعه، ويقيم على شرفهم ألعاب الفانتازية، ويبْهرهم بكل ما تسمح به وضعيته وموارده الخاصةّ، وكان عمر عبد القادر وقتها لا يتجاوز ثمانية وعشرين سنة، كانت هيأته لطيفة وروحانية وكان لعينيه تعبير مدهش وكانت تصرفاته مفعمة بالأدب والوقار، كل شخصه كان جذاباً حسب الرائد بيليسبي، يصعب أن يعرفه الإنسان دون أن يحبه فعند رجوعهم وبعد أن سحروا بمثل تلك الحفاوة وبعناية من الذوق الجيد وبعد انبهارهم بالحديث الماهر والبديع لمضيفهم، فإن ضباطنا لم يبخلوا بتمجيد قوته وجدارته".

في مثل هذا الجو من العدالة والاستقامة، وحدّ الأمير البلاد بجعل الأغلبية والأقلية تتفقان لأوهم منذ زمن طويل مرتبطون بوحدة الدين واللغة والثقافة – على المحافظة على استقلال البلاد ووِحدة ترابها.

وباختصار، نستطيع القول إن الدولة في عهد الأمير كانت لها أسسها القانونية وسلوكها ومظاهرها الخلقية وإسلاميتها وعصريتها، كانت لامركزية الحياة العمومية والتنظيم الإداري وديمقراطية المؤسسات كلها شروطاً مجتمعة مناسبة لتؤدي إلى بروز دولة القانون.

عبد القادر فارس العقيدة

"لقد أقسمت أن أدافع وأنتصر لبلدي وديني حتى لا تكفيني أيةّ قوة، وكان يبدو لي دائماً أني لم أفعل بما فيه الكفاية".

لم يكن الأمير كما قدمه خصومه الاستعماريون، لقد كان مسلماً صالحاً يعرف بالضبط واجباته نحو الله والوطن، ألم يكن هو ذلك

الرجل الذي خرج من مدرسة حقيقية للعقيدة والتقوى؟ ألم يكن هذا ابن التقي محيي الدين ذلك العالم من طريقة القادرية الذي كان يعلم مريديه التصرفات الجيدة لبلوغ الكمال وممارسة الفضائل التي هي أساس الحياة الروحية. وبالتالي فإن تلك التربية الأولى قد جعلته يتبنى حياة بسيطة ومتواضعة وتقية، لنستمع إلى سي قدور بن رويلة الذي كان جندياً شاعراً وكاتباً خاصاً للأمير:

"الحاج عبد القادر لا يحب الدنيا، إنه يبتعد عنها أكثر مما هو مسموح به، ويطعم نفسه باعتدال وقناعة ويلبس دائماً ببساطة ويقوم الليل ليسلم أمره وأمر من يخدمه إلى الله العزيز: إنه لا يحب إلاّ الصلاة والصوم ليستغفر من أيّ ذنب، إنه يخشى الله وهو مؤدب مع كل الناس، وهو لا يحب أن يظهر عظمته مع عباد الله: فهو شريف ولا يريد إبراز ذلك؛ إنه نزيه ولا يقبل أبداً أن يأخذ شيئاً لنفسه من المال العمومي؛ إنه يقيم العدالة لأوضع المسلمين، وهو لا يغادر المسجد إلا قليلاً".

وحسب روني د. خوام، كان عبد القادر رجلاً ذا فكر كله ماورائي، وكان يغذيه لألاسيما – بمبادئ التعاليم الإسلامية التقليدية، ولكن كذلك من الفلسفة اليونانية الكلاسيكية والأفلاطونية الجديدة الإسكندرية، والعرفان الشرقي، وهو رجل من القرون الوسطى إذا أردنا، ولكنه يفكر ويتكلم مثل ابن عربي أو القديس توما الأكويني، كان هو شخصياً فيلسوفاً وشاعراً وأحد المفكرين الأكثر ثقافة في عصره.

وكان دائماً – حسب الكاتب نفسه – أحد أولئك "الروحانيين" المسلمين الذين يعتبرون أن الاستقلال الحقيقي للعقل يمرّ بالتخلي عن الثروات الوهمية لهذه الدنيا، وكان مقتنعاً بعد أن لقن الصوفية بأن التقليد والحرية – عوض أن يتنافرا – تسميتان للواقع نفسه.

كان الأمير عبد القادر مسلماً صالحاً وعالماً إنسانياً، كان يقول: "إن واجبي كعاهل هو أن أحث على العلم والدين" .بالنسبة له فإن الدين ينسجم مع العلم، وهو عكس ما يراه بعض العلماء الغربيين الذين يحددون "علمهم" بـ "ميدان التطبيق العملي"، مهملين بذلك روح التفكير الذي يسمح وحده بتناول الوقائع الحقيقية للأشياء، لقد كتب إلى الفرنسيين في رسالته الشهيرة... وهي رسالة متميزة وتحفة، حسبما قاله الأجانب الذين كانوا يعترفون بشجاعته وحكمته:

"لم يأت الأنبياء ليتجادلوا مع الفلاسفة، و لا ليبلغوا علوم الطب والكواكب والهندسة، لقد جاءوا لتكريم تلك العلوم ليكون الاعتقاد في وحدة الله غير متناقض فيها وأن نُرجع إلى قوته وإرادته كل ما يقع في العالم".

فالإسلام بالنسبة للأمير – كما نلاحظ ذلك – دين تقدم، لقد كان الرجل الذي قد بيّن أكثر من أيّ رجل آخر أن الدين لا يقصي العلم، وأن العلم لا يقصي الإنسانية؛ وأن الإيمان لا يقصي التسامح، وأن البراغماتية لا تقصي الروحانية، ومن هنا فإن "العصرية والعصرنة" كانتا لا تخيفانه، بل بالعكس فإن العلم كان له في فَهمِه "معنى حالياً على خلاف العادة"، من المفيد أن نكون عصريين، كما كان يردد ذلك.

إنها حرية فكر لا يمكن تخيلها، ذلك هو الإسلام عند الأمير، أمير المؤمنين الذي كان لا يبقى منغلقاً في برجه العاجي خلافاً لبعض الفلاسفة، والذي كان يعلن تفوق العصريين على القدماء، كان يرى في النزعة التي تثلب المعاصرين – حسب محمد شريف سهلي – مظهراً لشعور حقير: الحسد، ويذكر في هذا المجال كلمة لشاعر عربي (ما معناه):

"لمن يحتقر المعاصر ويظن أن الحظوة إنما هي للأقدمين

قل له إن القديم كان حديثاً وهذا الحديث سيصير قديماً"،

ويختم الكاتب بأن عصرية الأمير تتأكد في كونه يقدر روح النقد حق قدرها ويدافع عنه ضد مبدأ التسلط.

لنعد إلى التعصب الذي كان يلصق به من قبل جنرالات الحملة ومن قبل بعض المؤرخين الذين لم يفهموا شيئاً من العمل المرموق لذلك المحارب الوطني، كانوا يريدون عن طريق الكتابة وبكيفية رعناء تطهير الأعمال اللاإنسانية، كما أكد ذلك محمد بوسلامة، كانوا يقولون فيما كتبوا وبطيش لا مثيل له، مثل الدكتور بونّافون: "فمع شعب في أقصى التعصب وأقصى الجهل والعداوة للمسيحيين، لا بد أن نغادر البلاد أو أن نخضعه بالقوة".

لقد كتب ليون روش، الذي كان يعرف الأمير جيداً، لأنه كان كاتباً لديه لمدة من الزمن، ما يلي:

"إن العرب، حلفاءنا، يخفون خلف خضوعهم الظاهر حقداً موروثاً يحمله المسلمون ضد المسيحيين، ولا نستطيع أن نبقيهم تحت الطاعة مدة طويلة من الزمن إلاّ بالخوف والقوة".

وهكذا فإن ابن البلاد، وبالتالي الأمير عبد القادر، وصف بالمتعصب وبالجاهل وبالعدو للمسيحيين، ألم يعرف كل هؤلاء أن الأمير كان منفتحاً في مجال الحوار؟ ألم يسجلوا جيداً تصريحاته الشجاعة:

"لو أراد المسلمون والمسيحيون أن يولوا لي انتباههم، لأوقفت كل نزاعاتهم: ولصاروا داخلياً وخارجياً إخواناً"!

وكذلك هذا التصريح الآخر:

"إذا جاءني من يريد معرفة سبيل الحقيقة – شريطة أن يفهم لغتي بكيفية كاملة – فإني سأقوده بسهولة إلى سبيل الحقيقة، لا بدفعه إلى تبني أفكاري ولكن ببساطة بوضع الحقيقة نصب عينيه بحيث لا يستطيع ألا يعترف بها".

وأخيراً لكم المثال الأكثر شهرة والذي ينفي ذلك الظلم في حق الرجل، الشخصية المرموقة، ألا وهو دفاعه عن المسيحيين المهددين بالموت أثناء فتنة دمشق، لقد سلك سلوك المسلم الصالح الذي تضيء عقيدته حياته، لتصير إيماناً مفعماً بالحماسة وفعّالاً في مصير البشرية، لقد كتب عنه شارلز تشرشل:

"إن الأمم المسيحية قد غمرت عبد القادر بشهادات بأرفع الشهادات تميزاً عرفاناً وإعجاباً به، لقد أتته من كل حدب وصوب الرسالات والهدايا والأوسمة وأرسلت له فرنسا الوشاح الأكبر لجوقة الشرف، وأرسلت روسيا الصليب الكبير للنسر الأبيض وبروسيا الصليب الكبير للنسر الأسود واليونان الصليب الكبير للمنقذ وتركية المجيدية من الدرجة الأولى، وأرسلت له إنجلترا بندقية ذات سبطانتين، وأمريكا مسدسين..."

وهكذا فإن العالم كله، حكومات وشعوباً، "اعترف له بأنه ليس بطلاً من العالم العربي والإسلامي فحسب، وإنما كذلك إحدى الشخصيات العالمية المرموقة في عصره".

علينا أن نتوسع في هذا الحادث، لأن الأمير في حياته، كان لا يقبل أن نتكلم عنه بكثير من التفخيم، لأنه لم يفعل إلاّ واجبه كمسلم، لنعد إلى البلاد لنفهم تصوره للدين باعتبار مشكلات الساعة التي كانت متمثلة في الجهاد والتربية والعلم، كما كان يسمي ذلك وممارسة العدالة.

ففي مراسلته مع خليفته في سيباو، أحمد بن سالم الذي وضع سلاحه وانسحب إلى مكة، حسب محفوظ سماطي، فقد أبرز له الأمير – دون أن يوبخه على هذا الضعف – إلى أي مدى تكون الصلاة ثانوية حتى ولو كانت في البقاع المقدسة بالنسبة لقضية أكثر نبلاً مضمونها الجهاد لتحرير شعب، الانسحاب من المعركة للتفاني في التقوى لا يعتبر عملاً تقوياً.

"أنت الذي تكرس نفسك للصلاة في البقاع المقدسة إذا رأيتنا في الجهاد ستعرف أن صلاتك عمل لا جدوى منه"، هذا ما قاله الأمير في ديوانه.

وفيما يخص الإسلام والعلم، فإن الأمير كان أوّل سلفيّي المغرب العربي، ولكنه كان سلفياً عصرياً يهتم بالجهد ويرى فيه بكل بساطة الوسيلة التي تفتح للإنسان الطريق إلى الكمال، إن محمد الشريف سهلي يشرح ذلك فيما يلي:

"إن موقف الأمير يذكر بموقف الإمام الغزالي... ومع هذا فإن عبد القادر يميل إلى الحث على البحث والجهد الفكري في وقت صارت فيه الثقافة العربية لا تعيش إلاّ بالذكريات".

وكتب سماطي أن الأمير، باعتباره مولعاً بالأفكار الكبرى ومعجباً بالاكتشافات الكبرى، فإنه كان يظهر اهتماماً خاصّاً بالمشاريع الكبرى لقرنه، ففي باريس وبعد أن تم الإفراج عنه، لقد جعلوه يزور في اليوم نفسه متحف المدفعية والمطبعة الوطنية، فصرح بحكمته المعهودة:

"في هذا الصباح رأيت صاعقة المدفعية، والآن ها هي أمامي مدافع الفكر".

إن الأمير كان منطقياً مع نفسه، فلو كان متعصباً أو متطرفاً طبق تعاليم الدين ضد مساجين الحرب، فيما يتعلق بالمعاملة بالمثل ضدّ العلماء الذين كان ينبغي - نظراً لوضعهم ومعلوماتهم - ألا يرتكبوا أخطاء. لننظر إلى حالتين:

الأولى هي شهادة عدوّ كبير للإسلام والعرب، وهو الماريشال سان آرنو الذي كتب في رسالة بتاريخ 16 مايو سنة 1842، بعد تحرير مساجين فرنسيين بدون شروط:

"أمر غريب ومسر للغاية قد وقع، لقد أرسل إلينا عبد القادر، بدون شروط وبدون مبادلة، كل مساجيننا، إن اللفتة جميلة من قبل متوحش. إن أولئك المساكين قد وصلوا إلى البليدة وعلى رأسهم الملازم الشاب من قيادة الأركان ميراندول الذي أسر في معسكر، إنه متحمس للأمير وعموماً كل المساجين الذين اقتربوا منه هم في الحالة نفسها".

ولكن سان أرنو لم يعرف "أن الحرب بالنسبة للأمير ليست إلا ضرورة مؤلمة حاول أن يعطيها وجهاً آدمياً بأن يظهر دائماً لأعدائه أنه كريم وطيب مع أعدائه"، حسبما كتب محمد شريف ساحلي، ألم يكن على علم بتلك المراسلة التي وجهها أحد المساجين الفرنسيين في سنة 1842 ومفادها أن:

"عبد القادر تعامل معي برفعة نفس لا توجد في البلدان المتحضرة من أوروبا" ثم يواصل: "إن الأمير يطلب من الأسقف: "أرسل كاهناً إلى معسكري وسوف لن ينقصه شيء؛ سأسهر على أن يكون مكرماً ومحترماً كما يليق بمن ينعم بكرامة رجل دين وممثل للأسقف، إن هذا الكاهن يمكنه أن يتكلف بأشخاص ويراسل ذويهم ويوجد لهم الوسائل لقبض الدراهم والملابس والكتب".

أليس هذا درساً كبيراً لتسامح رجل كريم ولطيف والذي تذكره نزاهته الفكرية وتواضعه الديني بتلك المقولة التي يجب تكرارها: "إن ديننا يحث على الحوار والتعاون والعفو"؟

والثاني تصريح للأمير، صريح وواضح، يبرهن فيه بفعل نبيل ومهم على احترامه للثقافة لأنه يعتبرها عنصراً أساسياً في الضمير الوطني.

"كنت أحس بالأهمية المعتبرة التي تفرض علينا المحافظة على العلم، ولهذا فقد حصل لي في العديد من المرات أن أعفو عن طلبة قد استحقوا الموت، لقد كان يلزمنا في بلادنا وقت طويل ليصبح المرء عالماً مما جعلني لا أجرؤ على القضاء في يوم واحد على ثمرة عمل طويل جداً".

الأمير الفيلسوف والشاعر

لقد ترك لنا الأمير العديد من الكتابات، ربما يكون هو أحد أندر أمراء المؤمنين الذين عرفوا الاستعمال الجيد للسيف والقلم، إذ برهنت كتاباته على طبع المثقف الرجل الذي لا ينقصه شيء من القوة أو الدقة، فأسلوبه عميق وقوي وبسيط أحياناً، وفي الغالب استعاري، وقد كتب كثيراً في السنوات السبع عشرة من الكفاح التحريري، لقد كتب كثيراً الحكم والأشعار والرسائل لمختلف رؤساء القبائل وقادة المناطق ورجال الكنيسة وللملك لويس فيليب ولجنرالات الجيش الفرنسي، وفيما بعد ومنذ سنة 1847 وفي منفاه جلبت أعماله انتباهاً كبيراً لأنها وحسب عباراته، كانت تبحث عن شدّ الانتباه إلى المشكلات الأساسية، "مشكلات تتجاوز طوارئ الأحداث الحالية والانتهازية السياسية، بقدر ما يبَحث تحليل هذه المشكلات بالضبط على شرح الحاضر وتعبئة المستقبل".

"المواقف" مؤلف رائع في التصوف للأمير، وضع فيه كل عمله لروحاني، وفيما يخص "رسالته للفرنسيين" يمكن أن تعتبر تحفة عمل عبر أفكاره الأساسية فيها لصالح عالم أكثر اتزاناً، سواء في تصوره الديني أم في تصوره للتقدم، إنها رسالة مكتوبة بأسلوب دقيق غير مباشر، وبالتلميح والاستعارة، أسلوب ليست الحجج عبره منتقصة القوة. وقد أعطينا منها بعض المقتطفات.

أما الشعر، وقد أكدنا ذلك، فإنه يشغل حيزاً مهما في حياة الأمير.

ونعطي فيما يلي بعض النماذج منه:

"تسائلني أم البنين وإنها لأعلم من تحت السماء بأحوالي
"ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني أجلّي هموم القوم في يوم تجوالي
"وأغشى مضيق الموت لا متهيبّا وأحمي نساء الحي في يوم تهوالِ
"يثقن النسا بي حيث ما كنت حاضراً ولا تثِقنَ في زوجها ذات خلخالِ
"أمير إذا ما كان جيشي مقبلا وموقد نار الحرب إذ لم يكن صالي
"إذا ما لقيت الخيل إني لأول وإن جال أصحابي فإني لها تال

إلى أن يقول:

"فلا تهزئي بي واعلمي أنني الذي أهاب ولو أصبحت تحت الثرى بالي"

فالأمير وهو الذي يحب الحياة البسيطة والطبيعية ويحب البادية أكثر من أيّ منطقة أخرى من البلاد، غنّى "من سجنه شساعة الصحراء وسكر الحرية التي لا تحدها حدود، ولكنه لم يقبل بأيّ حال من الأحوال حياة البدو وهو المؤسس للعديد من المدن".

"يا عاذرا لامرئ قد هام في الحضر وعاذلاً لمحب البدو والقفر

"لا تذممن بيوتاً خف محملها وتمدحن بيوت الطين والحجر
"لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر

إلى أن يقول:

"نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً وأي عيش لمن قد بات في خفر"

هذا ما كان عليه الأمير عبد القادر الجزائري، البطل الوطني والصوفي الكبير في الإسلام العصري وأحد الشخصيات الفذة في القرن التاسع عشر لأنه كان المفتاح لكل المغامرة الاستعمارية في الجزائر وفي الشرق الأوسط.

استسلم عبد القادر والكفاح متواصل

إن النظام الاستعماري قد تكلم كثيراً عن هزيمة الأمير عبد القادر، في الواقع لم يستسلم الأمير للفرنسيين بالكيفية والأسلوب الذي أرادوا حكايته في كتبهم التاريخية، يجب علينا أن نرجع الحقيقة إلى مكانها ونلقن شباننا الملحمة المجيدة لشعب لم يستسلم أبداً ولم يعرف الهوان أمام تقلبات الدهر.

– عبد القادر استسلم وهو معترف بقوة فرنسا، هذا ما قيل لأبنائنا في المدارس الابتدائية.

– عبد القادر هزمه الجيش الفرنسي كما هُزِم العرب في بواتييه.

ومع ذلك فالأرشيف هنا، والأحداث التي زعزعت فرنسا وحملتها ما زال في إمكانها أن تشهد على أن كفاح الشعب الجزائري تحت راية الأمير ما كان لينتهي إلاّ مع رحيل آخر جندي فرنسي، لولا سياسة الأرض المحروقة تلك التي رفعها الجنرالات إلى مرتبة العقيدة، بالإضافة إلى خيانة أمير مسلم من "الجوار"، وعليه كيف ربح

الفرنسيون الحرب؟ وأي حرب مقصودة؟ الحرب المقدسة لأ وبنوع من التلطيف كدنا نكتب حرباً سليمة – التي قام بها الأمير عبد القادر أو التي جعلت مؤرخاً فرنسياً اشتراكياً يقول:

"إن الجنرالات لم يحرقوا البلاد خفية ولم يذبحوا أعداءهم وهم يكتبون مقطوعات إنسانية، فقد جعلوا كلهم من ذلك مجداً..."؟؟

بالنسبة إلى عبد القادر، فإن استعمال السلاح كان وسيلة لإبعاد الجائرين عن بلاده، وبالنسبة إلى عساكر الاستعمار فإن استعمال السلاح كان يتناغم مع الإبادة، الأول كان يحارب على رأس 10.000 من المشاة وألفي فارس. والآخرون وصل جيشهم إلى 106.000 رجل.

الأول كتب إلى الملكة أميلي زوجة لويس فيليب:

"عوض أن تبعثي لي أبناءك الأمجاد لمحاربتي، فإنهم لن يأتوا إلاّ لمساعدتي على إرساء أسس حضارة تكونين قد ساهمت فيها..."

والآخرون سان أرنو وبوجو وتريزيل وبليسييه، كانوا يقولون لجيشهم: "نخرب ونحرق وننهب ونهدم الديار ونقتلع الأشجار..."

أو كذلك: "وإذا انسحب أولئك الأوغاد إلى مغاراتهم، إفعلوا مثل ما فعل كافينياك، بالصبيحة: أحرقوهم مثل الثعالب".

وهما مع الأسف تصوران مختلفان ووسائل غير متكافئة ! بالفعل، فالتاريخ الحقيقي الذي يكتب بنزاهة كما قلنا ذلك في أحد الفصول السابقة يجب أن يحكي بالتفاصيل عن ذلك الاحتلال بالقوّة لبلد لم يكن يأمل إلاّ في حياة مطمئنة وموحدة، يجب أن يشرح التاريخ بالبراهين والحجج أن تلك الحرب لم تكن مثل كل الحروب الكلاسيكية، ولكنها كانت "صليبية لمصلحة بعض المستفيدين"، أي

النوع الكلاسيكي من الحرب الإمبريالية. لقد كتب محمد الشريف سهلي في كتابه الهائل عن الأمير عبد القادر ما يلي:

"كان لا بد من سبب مقبول للإمبريالية الفتية الطامعة في الاستيلاء على مصادر المواد الأولية وفي أسواق جديدة (...) لو كان الفرنسيون يقبلون بفتح الأرشيف عوض أن يسدلوا حجاباً مريباً على تلك الخيانة، حينئذ لتكشفت لنا أشياء مدهشة".

وهكذا وفي سنة 1847، أعلن الأمير عبد القادر عن استسلامه، بعد أن كبّد العدو خسائر ثقيلة مدة خمس عشرة سنة من الكفاح، انتهى أخيراً بالسقوط ليس لأن العدو كان قوياً بعديده وسلاحه وأنه انتصر في "الحرب" المزعومة وإنما لأنه فكر في مصير أهله الذين أرغموا على المجاعة وتحتم عليهم الفرار أو الاستسلام، ومن ناحية أخرى فإن بوجو يعترف له بالعبقرية العسكرية والسياسية الشيء الذي لم يملكه هو نفسه بصفته "منتصراً في تلك الحرب"، كان يقول عن الأمير:

"نستطيع القول – ومن مناقب عبد القادر – إنه لم يقع أبداً أن تَتِمَّ انتفاضة في بلد ضد المنتصرين بمثل هذا التحضير الجيد والتنفيذ الدقيق".

وبعد استسلامه فإنه وقع ضحية للثقة التي أولاها للكلمة التي أعطيت له، وخُدِعَ مرّة أخرى فوجد نفسه في السجن في حصن لامالغ في تولون. واصل كفاحه في السجن، وبعد ذلك في منفاه، بمقاومته الضغوط القوية التي كان يتعرض لها.

طُلِبَ منه أن يلعب دوراً أساسياً في الجزائر المحتلة وحتّى في الشرق الأوسط عندما اقتُرِحَ عليه ليكون سلطان العرب، فإنه رفض

تلك "العروض" التي ظهرت له أنها إنكار لماضيه وبدأ يفكر ويكتب في عزة وكرامة.

"لو كان باستطاعة كل كنوز الدنيا أن توضع في جناح من برنسي وأن يقترح علي" أن أضعها في الميزان مع حريتي، لاخترت حريتي، فأنا لا أطلب لا عفواً ولا معروفاً، أطلب فقط أن تنفذ الالتزامات التي هي في حقي، كنت قد طلبت كلمة جنرال آخر ابن ملك، ففرنسا التزمت معي كما أنا ملتزم معها، فلن أرد لكم كلمتكم سأدفنها معي عاراً عليكم"، هذا ما كتبه للفرنسيين.

لقد لاحظ سجانوه والضباط السامون الذين كانوا يزورونه في حصن لامالغ تلك العزّة وتلك العظمة في النفس، نقدم لكم مراسلة رسمية من العقيد دوما بتاريخ 29 جانفي سنة 1848 موجهة إلى العقيد ريفي:

"إنه هادئ ومستسلم ويحسب الأيام التي ستأتيه بالقرار الذي ينتظره. إنه آخر ممثل للتشخيص الديني، إنه يذُكّر بنكران الذات الذي تميز به سان لويس في قرطاج، إنه في الوقت نفسه رجل حرب ورجل قناعات، الحرب خانته فصبر على المحنة بالإيمان، إنه لا يطلب شيئاً ولا يريد شيئاً ولا يشتكي أبداً ويجيب بلطف لا يكدّره شيء على كل ما نقوله له وعندما يتحدّث مع من هو أقل منه فإن ابتسامته تأخذ تعبيراً خاصاً من العطف، وعندما نسمي له أعداءه الأكثر شراسة، الذين ألحقوا به أكبر ضرر ممكن، يحاول أن يسامحهم بجعل تلك الأخطاء على ضرورة الظروف، وبعبارة أخرى فإنه رجل سامٍ ! ليس لدينا شيء في فرنسا – برغم ثرواتنا وقوتنا – قادرٌ على إغرائه، إنه لا يريد شيئاً من أشياء هذا العالم. فقد كان يقول لي في هذا الصباح: العالم

الآخر وهذا العالم إنما هما مثل الشرق و الغرب، فلا نستطيع الاقتراب من واحد دون أن نبتعد عن الآخر".

فاطمة نسومر، الحاج أحمد المقراني، الشيخ الحداد : محاربون من أجل العقيدة والحرية

"كلما سقط قائد، رفع الراية من بعده قائد آخر"، هذا القول لسعد زغلول، المناضل المصري.

اختفى الأمير عبد القادر من المشهد السياسي الجزائري، فحل محله آخرون لاستمرار تلك الروح وإفهام المستعمرين أن الشعب لا يموت أبداً مع اختفاء أحد قادته، ومن ناحية أخرى فإن الشعب الجزائري قد أثبت دائماً هذه الحكمة عبر كفاحه المتواصل منذ ماسينيسا إلى المحاربين الشجعان زيغود يوسف وبن مهيدي وغيرهم.

ومع هذا فإن الموضوع الذي يشغلنا الآن هو: ما هو إسهام هؤلاء الرجال، رجال العقيدة، في صالح المجتمع الإسلامي، أي ما هو دور الدين في انعتاق الشعب وفي تحريره من الطابوهات والممارسات الظلامية وأخيراً في الكفاح ضد الاضطهاد والإذلال.

الإسلام دين كفاح ودين تقدم، ولن نكف عن ترداد ذلك؛ ليس ديناً رجعياً متخلفا يقود بالضرورة إلى الكوارث مثل التي عشناها في آخر القرن العشرين، حسب الغربيين الذين ما زالوا يغذون الحقد ضد الإسلام. ففي هذا الإطار تحدثنا عن الأمير عبد القادر ثم عن المحاربين من أجل العقيدة والحرية، سنذكر أيضاً آخرين من القرن نفسه عرفوا كيف يضمّون مهمتهم الحماسية الخاصّة بنشر الممارسات السليمة للإسلام إلى المهمة الأخرى التي هي أكثر لزوماً: الكفاح من أجل الحرية.

لنر الذين كانوا وماذا أعطوا للبلاد والعباد.

فاطمة نسومر

ولدت فاطمة نسومر بطلة جرجرة في قرية قرب عين الحمام، سنة 1830م، أي في العام الذي تأكد فيه منطق الامبريالية بكيفية جلية، باحتلال بلد بالعنف والوحشية، واسمها الحقيقي فاطمة سيد أحمد، إن لقبها نسومر أتاها من كونها متدينة جداً، وقوية جداً، وأنها تسكن قرية سومر، كان والداها متدينين جداً، كان أبوها يسيِّر المدرسة القرآنية المرتبطة بالزاوية الرحمانية لسيدي محمد بن عبد الرحمن بوقبرين.

حفظت بطلتنا القرآن وهي صغيرة جداً، وذلك بالاستماع إلى تلاميذ أبيها وهم يتلون السور المختلفة، كانت ذاكرتها عجيبة حسب ما يحكي عنها من كانوا يتابعونها عن كثب، ويضيفون أنها كانت فتاة فائقة الذكاء، وبعد موت أبيها سيَّرت بمعية أخيها سي محند الطيب المدرسة القرآنية وتكفلت على وجه الخصوص بالصغار والفقراء، أضف إلى هذا أنها – باعتبار تدينها الكبير وحكمتها العجيبة وذكائها الثاقب – كان لها سمعة طيبة في كل منطقة القبائل.

لم يكن في عمر فاطمة نسومر إلا ست عشرة سنة عندما احتلّ جيش فرنسا منطقة القبائل الكبرى والصغرى، كانت تقريباً نهاية عبد القادر وخلفائه ومنهم أحمد الطيب بن سالم ذلك البطل الذي كان يسدد لجيش الحملة الفرنسي ضربات قاسية والذي كان يهدد حضور فرنسا في منطقة الجزائر نفسها.

تم الاستيلاء على المنطقة على غرار المناطق الأخرى من البلاد، ولكن بعد كفاح بطولي مرير، فالجنرال راندون قد لاحظ ذلك التجنيد

وذلك الرفض للأمر الواقع، لأنه تعرض لخسائر كبيرة في مواجهة محاربين شجعان ومتمرسين ومستعدين للتضحية إلى آخر نفس من طاقتهم، ومحاربين قد فهموا أن واجبهم المقدس كان في جعل الإسلام ينتصر وتحرير البلاد وضمان الحرية لمواطنيه، ومن بين هؤلاء نذكر إلى جانب بن سالم، الشريف بوعود ومولاي إبراهيم ومحمّد زعموم في الناصرية وبلقاسم أوقاسي في مقلاعة والحاج عمر في بوغني والشريف بوبغلة في ذراع الميزان، ومع هذا فإن الانتفاضة التي كانت تحت قيادة لالا فاطمة نسومر تبقى مهمة أكثر لأنها كانت كاملة التنظيم، وباعتبار شجاعة تلك البطلة المكافحة ونبلها، ألم يسمّها العدو جان دارك الجرجرة؟ ولكن فاطمة نسومر لم تقبل تلك المقارنة، لأنها لم تكن تريد أن تُشبَّه إلاّ بأولئك النساء الشهيرات في الإسلام واللائي لمعن بإسهامهن الهام في الحضارة والدين الإسلامي، وبالفعل فقد كانت تريد أن تشبه خولة بنت الأزور التي حاربت إلى جانب النبي محمد (صلّى الله عليه وسلم) وصحابته.

استبسلت فاطمة نسومر في معارك دامية لرد العدو، وهي مسلحة بإيمان لا يتزعزع. لقد سجل التاريخ مواجهة وادي سباو سنة 1854م حيث قامت تلك المرأة الشابة ذات الأربع والعشرين سنة بإعطاء درس في الشجاعة والثبات لجيش يفوقها عدداً وعدّة، مرّات ومرات، وبالفعل لقد كان ذلك خلال تلك المعركة التي كان يقودها محمد الأمجد بن عبد الملك الملقب بوبغلة، والتي كادت أن تدور لصالح الجيش الفرنسي، فتدخلت بطلتنا على رأس جيش من الرجال والنساء فاستولت على الوضع وأعطت المثل في التضحية الكبرى التي لا يعطينا التاريخ منها إلا أمثلة قليلة، إن أصداء ذلك الانتصار الباهر انتشرت في كل بلاد القبائل، فالمساجد والزوايا والمدارس

القرآنية كانت تصدح بالأغاني والمدائح على شرف بطلة الجرجرة، ولم يقبل الجنرال راندون تلك الهزيمة وطلب من سكان عزازقة أن يسهلوا له المرور ليبلغ معسكر فاطمة نسومر وإنهاء "أسطورتها ومضارها"، كما كان يردد ذلك مراراً، إن أولئك السكان باعتبارهم مسلمين ومواطنين جيدين أجابوا رسوله:

"إذهب إلى من أرسلك وقل له بأن آذاننا لا تستطيع سماع اللغة التي تطلب منا الخيانة".

وكان رد فعل الجنرال كالآتي:

"ماداموا لا يسمعون نداءنا فأسمعهم دوي المدافع".

ومن هنا، فإن سكان المنطقة صاروا يدعون "إعزوقن" يعني بالبربرية "الطرش".

لم تتوقف فاطمة نسومر برغم سقوط عزازقة بعد اضطهاد شرس من طرف جيش راندون، فجندت السكان وقادت أيضاً معارك أخرى، لقد كان دائماً على لسانها هذه الشعارات:

"تعالوا لتحاربوا من أجل الإسلام والأرض والحرية، إنها ثوابتنا وهي مقدسة، ولا يمكن أن تكون محل أي تنازلات أو مساومات".

إن شخصيتها القوية كان لها الأثر الكبير على كامل بلاد القبائل التي برهنت بتضحيتها وثباتها وبشجاعة أبنائها أثناء كل المعارك، وخاصة مواجهات إشرادن وتاشكريت، حيث تعرض جيش الأعداء لخسائر فادحة، ووقعت تلك المعركة الأخيرة يوم 18 جويلية سنة 1854م وانتهت بحصيلة ثقيلة من جهة العدو: 800جندي مقتول ومن بينهم 56 ضابطاً و371 جريحاً.

ففهم راندون أنه أصبح من المستحيل أن يواصل في الخسارة في الحرب في تلك المنطقة التي كان يعتبرها من بين أصعب المناطق الجزائرية، فطلب هو شخصياً فترة هدنة قبلتها فاطمة نسومر التي جعلت منها – وهي الإستراتيجية الذكية سياسياً وعسكرياً بالنسبة لشباب سنها – فترة تستغل لتحسين التنظيم وتعزيز الصفوف. فتم حرث الأراضي وزراعتها ونصبت مصانع للأسلحة في كل الأركان من تلك المنطقة التي جلبت أطماع قوات الاحتلال، إلا أن تلك الهدنة على غرار الهدن والمعاهدات السابقة الموقعة سابقاً مع الأمير عبد القادر وتلك الكلمة التي أعطيت له من طرف الجنرالات وابن الملك لويس فيليب، لم تحترم من قبل الفرنسيين الذين نقضوها بعد ثلاث سنوات وبالتحديد سنة 1857م، بعد أن حَضَّروا جيداً جيوشهم وقرروا شن هجمات ضد بعض المدن الكبيرة التي كانت بالنسبة لهم إلى حدّ ذلك الوقت صعبة وعصية على السقوط، ففي تلك السنة بالذات، برغم مقاومة شرسة وشاقة، حسب محمد الشريف ساحلي، كانت القبائل الكبرى على وشك السقوط تحت ثقل العدد، استدعت لالا فاطمة نسومر، التي كان تأثيرها ينشط محاربي الحرية، المسبلين من أجل مجهود أخير وعالٍ، المطلوب كان الإبقاء على ثلاثة مواقع لها أهمية إستراتيجية كبرى.

كانت لالا فاطمة نسومر وهي واقفة على ربوة ولابسة حائكاً أحمر ومحاطة بنساء من المنطقة تقود المعارك وتشجع بالصوت متطوعي الموت الذين دخلوا التاريخ كأعلى تجسيد للوطنية الجزائرية.

الأربعاء ناث إيراثن عرفت مصير عزازقة نفسه بعد أن أبدت للقوات الاستعمارية ما يستطيع أن يفعله المحاربون تحت قيادة

فاطمة نسومر، فسميت المدينة بـ "فور نابليون" وفيما بعد وإثر سقوط هذا الأخير سنة 1870م سميت بـ "فور ناسيونال".

وهكذا ومن معركة إلى معركة، استطاعت بطلتنا المتوثبة والثابتة والمنفلتة والخطيبة أمام جماعة المحاربين – وهي تصيح لهم: "الجهاد الجهاد من أجل الإسلام والأرض والحرية والكرامة!" – أن تعطي للانتفاضة بعد الأمير عبد القادر روح المواصلة وطعم التضحية، لقد تمت مخادعتها هي كذلك من قبل الجنرالات الفرنسيين مثل كل قادة هذه البلاد، فتم إيقافها سنة 1857م وسجنت في الإيسر ثم في تابلاط. أما ثروتها التي استعملت في النفقة على تلاميذ زاوية أخيها فقد تم تبذيرها من قبل الجنود الفرنسيين، وكذا مكتبتها الغنية بأحسن الكتب العلمية والدينية لأجدادنا، قد أتلفت تماماً.

لالا فاطمة نسومر المؤمنة المحاربة، التحقت بالرفيق الأعلى سنة 1863. كانت ما زالت شابة ولم يكن في عمرها سوى ثلاث وثلاثين سنة، ولكن آلام السجن وعدم استطاعتها التحرك ضدّ الاعتداءات والإهانات التي كان يتعرّض لها الشعب والدين، آلماها إلى درجة أن صحتها تدهورت، ومع هذا فإنها ماتت على أمل أن يرفع الراية محاربون من أجل العقيدة وأن يدخلوا في نهج صحابة النبي (صلّى الله عليه وسلم) ليشملها الله في عفوه وسلامه.

الحاج محمد بن الحاج أحمد المقراني والشيخ عزيز بن الشيخ الحداد

إن انتفاضة 1871م كانت مواصلة لعملية إزالة الاستعمار التي بدأها محاربو الحرية الشجعان وبصفة خاصّة الأمير عبد القادر، لم تكن ثورة محلية ولا حادثاً منعزلاً، كانت انتفاضة عامّة في سائر المناطق والقبائل. لقد كتب محفوظ قداش في هذا الشأن:

"إن الشعب الجزائري كان مصاباً كما لاحظ ذلك بوجو، بـ "حمى العصيان"، لقد تصاعدت الحرارة بكيفية استثنائية سنة 1871م كما كان الكر كذلك بعض السنوات من قبل بين 1839 و 1847 مع عبد القادر وسنة 1845 مع بومعزة، وسنة 1857 مع شرفاء القبائل وسنة 1864 مع أولاد سيدي الشيخ".

وبالفعل، فإن انتفاضة السكان لم تتوقف أبداً وذلك منذ بداية الاحتلال سنة 1830م، لقد بدأ ذلك في وقت الأمير عبد القادر ومع أحمد باي في قسنطينة ثم مع محمد بن عبد الله المسمى بومعزة في جبال الضهرة ومع الشريف بوبغلة في ناحية ذراع الميزان ومع فاطمة نسومر في الجرجرة ومع الناصر بن شهرة وبوشوشة في الجنوب الشرقي ومع بوعمامة وأولاد سيدي الشيخ في الجنوب الغربي، وأخيراً مع الباشاغا المقراني والشيخ الحداد ومع انتفاضات الحنانشة تحت قيادة الشيخ الكبلوطي في ناحية سوق أهراس وأولاد عيدون في الجنوب القسنطيني وكذلك النمامشة وأولاد عبيد.

كل هؤلاء القادة وخاصّة قادة ثورة 1871، رجعوا إلى الدين على أنه سلاح لتعبئة الشعب، وهذا معقول، لأنه حتى لو كانت الأسباب الحقيقية تستجيب لوضعية اجتماعية وسياسية واقتصادية كانت في مرحلة متقدمة من التدهور فإن الشعب كان مدركاً بطبيعة الحال أن الأسباب الدينية تبقى هي أحسن محفز للتحسيس، وإنه في تقاليد البلاد أن الجهاد مهمّة مقدسة، قررها الله القدير عندما تكون البلاد محتلة بالقوة والاضطهاد.

إن هذا يبرهن من جهة على أن الطريقة الرحمانية، المنتشرة في تلك المناطق، كانت قوية جداً ومحترمة، وكذلك طريقة الدرقاوية التي تأتي

في المرتبة الثانية، ومن ناحية ثانية أن المخلصين لم يحاربوا من أجل "شرفاء المجانة و السادة الدينيين من صدوق" الذين خسروا امتيازاتهم، كما كان الاستعمار يكرر ذلك، ولكن من أجل حياتهم وحريتهم.

وهكذا، وعلى عكس ما كتبه أحد المؤرخين، فإن العرب والقبائل، بتطوعهم إلى جانب الاستعمار، "فإنهم مثل الفانديين والبروتون، كانوا يموتون من أجل قضية ليست قضيتهم"، ولهذا فإن انتفاضة 1871م، لم تكن ثورة من جزء من بلاد القبائل، كما أكد ذلك محفوظ قداش، ولكنها حركة عامة في إطار المقاومة العسكرية التي تمتد من سنة 1830 إلى نهاية القرن التاسع عشر.

"لعبت الرحمانية بالفعل دوراً حاسماً في الانتفاضة، وكان تأثيرها كبيراً إلى درجة أنها جندت أكبر جزء من البلاد، تقريباً من تبسة إلى المتيجة مروراً بالقبائل الصغرى والكبرى، فأمام سرعة انتشار هذه الانتفاضة واتساعها غير المنتظر تحتم على الفرنسيين التخلي عن بلاد القبائل وهضاب نواحي قسنطينة وسوق أهراس، – باستثناء باتنة وسطيف – وكذلك الحضنة ومسيلة وبوسعادة وكذلك ناحية مليانة وشرشال حيث رجع بنو مناصر إلى القتال تحت قيادة مالك البركاني.

بدأ الباشاغا المقراني اتصاله بأصدقائه وعلى وجه الخصوص الشيخ الحداد الذي زاره بصفة سرية يوم 8 يناير في صدّوق وتبادل معه وجهات النظر عن انطلاق الأعمال الحربية ضد المحتل، وكذلك فيما يخص إعلان الجهاد، وهكذا وبعد تشجيعات الشيخ وموافقته، اجتمعت عائلة المقراني لتثبيت النقاط الأخيرة وأعلن الجهاد في مجانة يوم 14 مارس سنة 1871. وقد اتخذ المقراني احتياطاته باعتباره فارساً جيداً للعقيدة وطبقاً للقواعد المعهودة لدى الأمم

المتحضرة بأن أرسل استقالته من منصب الباشاغا وكذلك رسالة إلى الحاكم العام في الجزائر، ماك ماهون، يعلمه فيها بقراره التاريخي، واستولى منذ اليوم التالي على برج بوعريريج واحتلها.

ويوم 9 أفريل بلغت الانتفاضة أوجها، بدخول الشيخ الحداد في المعركة، إن الوثائق الفرنسية تشهد على اتساعها وتقر "أنها بلغت إلى حد اليوم ما بعد باتنة في الشرق وما وراء دلس غرباً".

لنر على وجه الخصوص من هو الشيخ الحداد، سنذكره بصفة مطولة لأنه يمثل طريقة كانت تمتزج بإيمان الشعب وارتباطه بالقيم الخلقية والدينية.

محمد أمزيان بن علي بن الحداد، رأى النور في سنة 1790، قرب جبل سيدي علي أوشتوك، أمام جبل الأكفادو، فبعد المدرسة القرآنية والدروس الابتدائية والثانوية حيث تعلم اللغة العربية ومبادئ الفقه في الزاوية الرحمانية التي أسسها محمد بن عبد الرحمن القشتولي الأزهري (المسمى بوقبرين، وقد تم ذكره) تخصص ابن الحداد في علوم الزهد وخاصةً عبر تلك الطريقة المنتشرة في الجزائر، فدرس عند الأستاذ الحاج عبد القادر بن المختار التفيشي الذي كان له معه – مع الأسف – بعض الخلافات، فأعاد دراسته فيما بعد عند الأستاذ علي بن عيسى مدة ثماني عشرة سنة وهي فترة معتبرة "طهر خلالها نفسه" حسبما أكّد ذلك الدكتور عمار طالبي، ثم اتخذ أيضاً أستاذاً آخر: الحاج المهدي السكلاوي الإراتني الزواوي، وكانت هذه المرحلة الأخيرة من الدراسة هي التي جعلت منه السيد الجديد للطريقة الرحمانية، السيد الذي بلغت سمعته وتقواه الآفاق العريضة.

سيّر الشيخ الحداد زاوية في منخفض القرية، تكفّل بتلاميذه وخصص بقية وقته للتفكير والدراسة في خلوة روحية في عليّة كان

لها وقتئذ أكثر من أربعة قرون، استرسل في طرق الزهد وكتب كثيراً، ومن بين أعماله نذكر الرسالة الشهيرة "رسالة في التصوف" وشرح المؤلف المتنوع لابن رشد.

إن الرسالة المذكورة ما زالت لحد الآن وثيقة مرجعية ممتازة للتأمل، تتكون من توطئة تعرّف مفهوم النظرية ومن اثني عشر فصلاً وخلاصة. ففي التوطئة – وبمعزل عن التوجيهات الكبرى للإسلام – نلاحظ أن الشيخ الحداد قد أطال الكلام عن وضعية المسلمين، في تحليل نقدي، وعن تقواهم وممارساتهم في الوقت الذي بدأت فيه الأهواء الطائشة والآراء غير المعقولة تتكاثر وحيث التفكير العلمي السليم لا يجد أرضية ملائمة ليتقدم. وفيما يخص محتوى الرسالة، فإنه يحلل في أغلب الفصول في مختلف أشكال الذكر وفضائله: إنه الوسيلة الأكثر فعالية لمحاربة الهجمات الموجهة إلى الذهن وضدّ اللهو والتشتيت الناتج عن هموم الحياة اليومية. هذا يعني أن الذكر هو أحسن وسيلة لصقل القلب وجعله شفافاً، حسب الشيخ عبد القادر عيسى.

وقد استوحى الشيخ الحداد كثيراً من الأساتذة الكبار في مجال الزهد. كان دائماً يرجع أعماله إلى الإمام أبي حامد الغزالي ومحيي الدين بن عربي والقشيري ومصطفى البكري وزروق الفاسي والشيخ السنوسي التلمساني وعبد الرحمن السيوطي وعبد الرحمن الثعالبي ومحمد بن محمد علي الزواوي البخاري وآخرين لا يمكننا أن نذكرهم جميعاً، إن زهد الشيخ الحداد كان قوياً جداً ولم يتوقف عن محاربة أصحاب البدع .والذين كانوا بتطرفهم يدخلون في لعبة الظلاميين، وبالتالي فإنه يشرح ذلك جيداً في "رسالته".

هكذا كان الشيخ الحداد، رجل تقي من العارفين ومحارب من أجل العقيدة والحرية، الحرية؟ بالفعل لأن الدفاع عن الأرض يتطابق مع المكافحة من أجل العقيدة، وعن هذا قال أحد الفرنسيين:

"مازالت هناك كلمات سحرية تهز البلاد فكلما حدثناه عن الجنسية وعن الإسلام والأرض المقدسة التي يجب أن ننظفها من الكفار، نجد أنه مستعد للتحرك".

وهكذا وفي يوم 8 أفريل 1871م أعلن الشيخ الحداد في صدّوق عن دعوته للجهاد، كان ذلك بعد صلاة الجمعة، وسط جمهور من المخلصين، فأعلن عن قراره في مرافعة طويلة ضد الاستعمار ولتطبيق القيم الإسلامية واحترام المسلمين وأخيراً لإقامة العدالة، يجب أن نحارب. وأنهى كلامه بحركة تذكرنا بسيدنا موسى، ألقى عصاه على الأرض وهي نوع من التحدي لجيش الاحتلال.

كل القبائل، من المتيجة إلى سكيكدة، استجابت للنداء بالإضافة إلى مريدي الرحمانية الذين كانوا كثيرين، في تقرير من الفرنسيين نستطيع أن نقرأ فيما يتعلق بالتحضير للدخول في هذا الكفاح:

"تزايدت زيارات الحج إلى صدّوق أكثر فأكثر والتعصب الديني – بعد أن استيقظ كما رأينا ذلك – تفاقم بنسب مقلقة، إن جماعات الحجاج الذين يذهبون عند الشيخ الحداد تحت قيادة مقدميهم كانوا يتبعون الطرق وهم حفاة ومظاهرهم مخيفة وهم يصدحون بأذكارهم؛ والنساء أنفسهن يذهبن عند الشيخ ولسن أقل حماسة، إن شيئاً ما كان يحضر".

كان الشيخ الحداد يعرف أن الشعب لن يتردد في احتضان الانتفاضة لأنه سيتحرك بإيمانه وبارتباطه بالقيم الأخلاقية والدينية،

وكان يعرف كذلك أنه يتحرك بحبه لمسقط رأسه وبالدفاع عن الحرية والاستقلال، كان كامل الثقة في شعبه، كان يحترمه كثيراً ويثق في عبقريته الخلاقة وفي فضائله النضالية برغم ظروفه المعيشية الصعبة في ظل الاستعمار، أليس هو الذي قال ذات يوم للباشاغا الأرستقراطي من الشلاتة والذي كان لا يحب كثيراً تواضع وبساطة مريدي الرحمانية الذين كانوا يحيطون به، كان يقول إلى ذلك العميل الذي كان يكره الشعب وأكثر من هذا قد كان يرى بعين غير راضية الانتفاضة ضدّ المحتلين:

"ليس عيباً أن تكون ابن جزار أو خماس أو حداد أو حمال، فالعيب هو ألاّ يعرف الإنسان أصله".

في تلك الفترة كانت الطريقة الرحمانية تتقوى دائماً.

إن سيدها الشيخ الحداد فهم أن الدين فرض نفسه كسلاح فعال لمحاربة العدو، وأدرك أنه لو لم يكن الدين لربحت الكنيسة المباراة في الجزائر ولنجح لافيجري وكهنته ودعاته في أنجلتها، وهكذا فإن ذلك الشيخ ذا الثمانين سنة باعتبار مقامه واحترامه وقوته الروحية استطاع في غضون خمسة عشر يوماً فقط من إعلان الجهاد، تجنيد مائة وخمسة وعشرين ألف محارب (125.000) أي قدرة كبيرة لشيخ محترم وطريقة قوية على التجنيد.

انخرط الإخوان من الرحمانية قلباً وقالباً في المعركة، ولم تكن من غير تأثير إيجابي على حرب التحرير، لأنه من جبال الزكار إلى شرشال غرب العاصمة ومن جيجل إلى القل شرقاً ومن الحضنة والمسيلة وبوسعادة وباتنة وبسكرة وتقورت وورقلة وعين صالح في الجنوب هناك حماسة واحدة حركت المحاربين من أجل العقيدة

والحرية؛ الذين أضرموا النار في البلاد وأعطوا الأمل للسكان أنهم لن يعيشوا بعد اليوم بشاعة الاضطهاد والاستعمار.

ومن جهة الفرنسيين فإن دخول الرحمانية في حركة إزالة الاستعمار، قد تم تأويله على أنه عمل خطير على مصالحهم وبالتالي على حضورهم في البلاد، في كل كتاباتهم باستثناء البعض لأ وقد أعطينا بعض المقتطفات – وصفوا هذا التدخل على أنه تعصب ديني من الإخوان أو أكثرِ من ذلك أي أنه عنصرية وحاولوا أن ينزعوا عنه صفة الوطنية.

وذهب آخرون إلى أبعد من ذلك فاعتبروهم مشوشين يعملون لفائدة بعض القوات الأجنبية، ألم يعرفوا أنهم هم الأجانب في البلاد وأنهم هم المحتلون غير الشرعيين، هم الغزاة والمعتدون؟ ألم يعرفوا أن إخوان الرحمانية هم الأبناء الحقيقيون للبلاد؟ وأن مساهمتهم في كفاح التحرير واجب مقدس وفرض على كل مواطن هو أهل لتلك التسمية؟

فردّ الشيخ الحداد على تلك الهجمات الكلامية التي قام بها العدو بتبصر وحكمة مؤكداً أنه إذا كان الكفاح التحريري للبلاد تعصباً دينياً "فنحن سعداء أن نكون متعصبين نحن وأجدادنا وأبناؤنا، إذا كان بالفعل استعمال الدين وسيلة فعالة لتحسيس الجماهير وحملهم على الكفاح التحرري لطرد العدو من بلادنا وبالتالي تصبح متعصبة دينياً، نحن كذلك سعداء أن نعتبر متعصبين نحن وأجدادنا وأبناؤنا."

واصل الشيخ الحداد كفاحه على رأس تشكيلة متينة عازماً ومعتمداً على إيمان لا يتزعزع بمساعدة ولديه امحمد وعزيزّ، حارب من أجل مثلين عاليين: تحرير البلاد من الغزاة الأجانب وانتصار الإسلام والحقيقة، لقد حارب من غير توقف برغم إعاقته – كان

مشلولاً – إلى أن تم إيقافه في ناحية بجاية يوم 13 جويلية سنة 1871 وهو كذلك اليوم الذي أعلن فيه مالك البركاني – وهو أحد خلفاء الأمير عبد القادر – الجهاد في سوق الحد في منطقة شرشال عند بني مناصر، وحينئذ ظنت السلطات الفرنسية أن ما أطلقت عليه اسم "الثورة من أجل المحافظة على الامتيازات" – حسب كلامهم – قد انتهت. ولكن المقراني بقي هناك وهو القائد العسكري والسياسي للانتفاضة التي انتشر تأثيرها في كل البلاد.

توفي الشيخ الحداد يوم 29 أفريل سنة 1873 عن عمر 83 سنة ودفن في مقبرة بقسنطينة لأن السلطات الفرنسية رفضت تحويل الجثمان إلى صدوق ليدفن إلى جانب ذويه وذلك برغم وصاياه الأخيرة، فقد رفضوا الاستجابة لنذر الشيخ الكبير لأنهم خافوا من عودة جثمانه إلى منطقة مسقط رأسه.

هكذا انتهت حياة رجل تقي ومحارب ومثقف كرّس نفسه، مدّة سنوات طوال للتعليم والدعوة والكفاح من أجل ثوابت وقيم بلاد لم تستسلم أبداً أمام العدوان.

قبل أن ننهي هذا العمل، لنَعُدْ وبكيفية مختصرة جداً، إلى دراسة أولياء آخرين في بلادنا، ونكرر مرّة أخرى أن هذا التعداد ليس تفصيلاً ولا كاملاً، إنه يبرز ثمرة أبحاثنا والصعوبات التي تعرضنا لها للحصول على مثل هذه المعلومات، نعطي فيما بعد قائمة ونستسمح مسبقاً قراءنا الذين قد نخيب أملهم في عدم وجود أسماء أولياء معتادين لديهم، إذا تمّ ذلك فإننا نفهم خيبتهم لأن إميل ديرمنغام كان يقول:

"ليس هناك شعب لم يضع بطله المقدس في أصل نشأة الحاضرة، أو في مبدأ المحافظة عليها أو في قمة مثلها الأعلى".

في كل الحالات وعبر القليل ممن نقدم سنحاول أن نكون دقيقين على قدر المستطاع، لأننا لا يمكن أن نجد في الأرشيف كل المعلومات المتعلقة بتلك الشخصيات التقية، إن هذه المعلومات تبقى نادرة جداً وغالباً ما تكون مبعثرة وكأنها مطروحة عشوائياً إن لم تكن بكل بساطة حكايات غريبة ومضحكة تحكيها سذاجة الناس الشرفاء؛ ولكنهم بسطاء إلى درجة أنهم يؤمنون – مع الأسف – بالمعجزات. سنعطيكم وفي إطار بسيط المعلومات الأكثر صحّة المتعلقة بهؤلاء الرجال الذين اصطفاهم الله والذين لم تساو فضيلتهم وخلقهم وتفانيهم وتضحيتهم وكفاءتهم وتواضعهم وميولهم للإحسان إلاّ صدق إيمانهم بالله العلي القدير.

سيدي الحلوي الذي يوجد ضريحه في أسفل باب زيري، وُلِدَ في إشبيلية في الأندلس حيث كان قاضياً، وكنّا وقتئذ في القرن الثالث عشر الميلادي، غادر موطنه وتوجه إلى تلمسان التي كانت في عهد الموحدين وملكها يغمراسن.

اِسمه الحقيقي أبو عبد الله الشودي، كان يبيع الحلويات والعجائن الحلوة ومن هنا لقبه الحلوي، ولكن اهتمامه الحقيقي كان متوجها إلى الدين والأخلاق إلى درجة أن الناس الذين كانوا يستمعون إليه عندما ينطلق في الكلام يذهبون وهم مغمورون بالإعجاب وبفصاحته ومعارفه في مجال العلوم، وبالتالي فإن مهنته صانع الحلوى لا تهمه إن لم يكن ذلك من أجل العيش بتواضع، إن المستشرقين يؤكدون أن "العديد من المعجزات (في الواقع كرامات) قد أسست شهرة ولايته".

وصلت شهرة سيدي الحلوي إلى الملك الذي كلفه بتربية ولديه، إن تلك المهمة لم تعمر طويلاً لأن غيرة وزيره منه قد جعلته لدى الملك ساحراً

كبيراً، فقطع رأسه وفيما بعد عندما ظهرت الحقيقة أعيد له الاعتبار وبني له ضريح يليق بعلمه وبالطبع لتصليح الخطأ الذي ذهب ضحيته.

إن المبنى الصغير أو القبة التي تحتوي على أحجار ضريح الولي قد بنيت على الهضبة نفسها التي نفذ فيها حكم الإعدام بحقه، إلى جانبه، المسجد الذي بناه فارس بن أبي الحسن والذي يشكل عملاً ممتازاً حيث نقرأ على جبهة محرابه: "مسجد مقدس للشيخ الحلوي".

سيدي السنوسي الذي ذكرناه من بين العلماء في الجزء الأول، كان كذلك ولياً وزاهداً، إذ كان يعيش وكأن عين الله لا تبرحه، "كان يكره الأمور الكبيرة في هذا العالم وكان يظهر البشاشة مع الفقراء والمتواضعين مقدماً بذلك نموذجاً للحقيقة واللطف في كل الظروف. يصفه التقليد بأنه يمشي بكل احتياط احتراماً لحياة كل الحشرات الزاحفة على الأرض؛ كان يوبخ المعلمين الذين يضربون الأطفال أو الحمّارين الذين يسيئون معاملة دوابهم".

إن ذلك الزاهد كان أحد أمجاد الفكر الإسلامي، لقد ترك أربعين مؤلفاً حيث يقتسم الطب وعلم الفلك والمنطق والنحو من جهة، والدراسات الدينية والصوفية من جهة أخرى انشغالاته، فالعالم الحق حَسبه هو الذي يجد الغموض في الأشياء الواضحة وينير الأشياء الغامضة بقريحته وسعة اطلاعه ودقة تعليمه.

سيدي دحو قطب الراشدية وهو مشهور بلقب سيدي دحو بن زرفة أكثر من اسمه الحقيقي، في الواقع إن دحو تصغير لاسم عبد الرحمن. أمّا ابن زرفة فبسبب المرأة التي ربته والتي كانت تسمّى هكذا، سيدي دحو سليل أسرة شريفية أجداده ينتسبون إلى مولاي إدريس الأكبر الذي يرقد ضريحه في مقبرة جبل زرهون المشرف على فاس،

يرجع نسبهم إلى أبعد من ذلك لأن نسبهم (اثنان وأربعون جداً) يتوقف عند سيدنا الحسين بن الإمام علي كرّم الله وجهه ورضي عنه، وبالتالي إلى لالا فاطمة الزهراء بنت النبي (صلّى الله عليه وسلم). أمّا إدريس الأكبر، فإن خلافات مع السلطة الأموية دفعته لمغادرة دمشق، فالتجأ إلى المغرب الأقصى، حيث تابعه الأعداء وقتلوه، لقد مات مسمماً.

سيدي دحو هو ابن علي بن عثمان ولالا ملحة، كان أبوه رجلاً مثقفاً وحافظاً ممتازاً للقرآن، وقد تميز أحد أجداده، وهو السلطان حمو، بشؤون الدولة عندما جلس على عرش الأندلس، ومن بين أهله الأقربين هناك أبناء عمومته الأشقاء الذين تمت تربيتهم في "خيام كبيرة"، ومنهم على وجه الخصوص سيدي قادة بن المختار، جدّ الأمير عبد القادر والذي هو مدفون قرب معسكر.

عبد الرحمن الذي صار فيما بعد سيدي دحو، ولد في فاس وقضى شبابه الأول في الدراسة والتأمل، كنا في القرن السادس عشر الميلادي. وبعد رجوعه مع عائلته إلى الجزائر حسن معارفه عند أساتذة كبار. تعلم العلوم الدينية وصار مفسّراً مشهوراً، لقد ترك لنا مخطوطاً نفيساً في تفسيره للقرآن والذي يوجد حالياً في مكتبة سيدي بوعبدالله في بطيوة، تلك المكتبة التي حافظ عليها وصانها المؤرخ المهدي البوعبدلّي.

وهكذا وبعد قضاء حياة مليئة بالأعمال الصالحة والتفاني من أجل قضية الإسلام وبعد سنوات طويلة تسابق الرواد فيها من كل الناحية ليتعلقوا بشفاه الولي الفصيح ليتلقوا منه تلك الدروس العالمة والمقوية، توفي عن سن متقدمة ودفن في مكان يقال له "غابة الزقور" الواقعة بين عين فار ومعسكر، إن ضريحه يستقطب العديد من الزوار،

في الخريف من كل سنة تأتي مواكب كبيرة لتتذكر الأعمال الصالحة لذلك الولي المبجلّ.

سيدي عبد العزيز من الشارف، كان يسمّى سيّد الكلمة ولا يتردد الناس في تشبيهه بسحبان ذلك الخطيب الذي صارت فصاحته مضرب الأمثال والذي يستطيع أن يخطب في الناس مدة نصف يوم دون أن يستعمل مرّتين الكلمة نفسها، كان يستقبل في زاويته أولياء آخرين: سيدي عيسى بن محمد من سور الغزلان وسيدي محمد بن عالية وسيدي يزيد الغوثي من بوسعادة وسيدي أحمد بن يوسف من مليانة.

كرس سيدي عبد العزيز وقته كله للصلاة، وفي حمل رواده على القراءات الصالحة، كان يقضي أيامه في المسجد أو المدرسة التي كانت بجانبها ليعلِّم ويتذوق براحة كبيرة نجاح أحد تلاميذه عندما يسمعه يُرَتِّلُ دروسه بصوت واضح وصاف، "هنا يغمض عينيه ويتصورّ أنه يسمع الملائكة تغنّي" حسب ما كان يقول.

كان سيدي عبد العزيز ولياً وليس صانعاً للمعجزات كما يقدمه بعض المترجمين من بين المستعمرين، الذين يبحثون عن الخبر المثير والغريب، فقد نسبوا إليه ذلك اللقاء الشهير مع سيدي عبد القادر الجيلاني الذي جاء إلى زاويته حسب الأسطورة التي كانوا يتداولونها، إن هذا الأخير حسب قصته "طلب من الله روحه لوقت معين ووضعها في ظرف تلميذ" ليكون له الحظ في حضور دروس الولي دون أن ينتبه هذا الأخير إلى ذلك، أو أيضاً تلك القصة المضحكة الأخرى التي تحدثنا عنها في البداية في مقدمة هذا المؤلف، حيث ابتلع سيدي عبد العزيز وادي مزي الفائض بمعجزة وهكذا خلّص الولي بني لغواط.

سيدي عيسى بن أحمد كان الولي الأكثر تبجيلاً في المنطقة الواسعة التي تبدأ من بوسعادة إلى سور الغزلان، وهي المنطقة التي لا تزال إلى يومنا هذا ملأى باسمه.

أتت عائلة سيدي عيسى التي كانت تعيش في القرن السادس عشر الميلادي من الجزيرة العربية، ويقول البعض إنها من سلالة بني أمية (من قبيلة قريش) القبيلة التي ولد فيها النبّي محمد (صلّى الله عليه وسلم)، وكان له أخوان: سيدي بوعبدالله الذي استقر في منطقة الهجرة جنوب مستغانم وسيدي رابح في ناحية تيارت.

اشتهر سيدي عيسى بعلمه وبتقواه المتوقّدة، كان الولي الأكثر شعبية في المنطقة الموجودة جنوب جبل ديرة، عاش زمناً طويلاً وكرّس نفسه للدراسة والصلاة ولكل الأعمال الصالحة، كان معاصراً لسيدي الشيخ. عند وفاته ترك لأحد أبنائه، عبد الوهاب، الذي قام نحوه بملاحظة محترمة لأنه لم يفهم تقسيم أملاكه:

"أمنح لأبنائك العلم والمعرفة" يا له من ميراث جميل بالفعل!

سيدي الشيخ أو باسمه الحقيقي عبد القادر بن محمد، كان – بدون مجادلة – الولي الأكثر تبجيلاً في كل الجنوب الجزائري، يتحدر من ذلك الرجل الشهير جداً، رجل الإيمان، سيدي معمر بن عالية.

رنّ اسم سيدي الشيخ في كل الصحراء، وكل حدث وفعل اشتهر بهما بقي شاهداً على الماضي المتميز لذلك العلاّمة والشخصية الحكيمة التي انتشرت سمعتها التقية وثبوت أصلها المعترف به في ذلك الجزء من المغرب العربي، إنه ابن سيدي محمّد بن سليمان بن سماحة الذي ترجع أصوله إلى بنت النبي محمد (صلّى الله عليه وسلم) المحبوبة لالاّ فاطمة الزهراء، لقد ولد تقريباً

في سنة 1544 م. وقام بدراساته الأولى عند الحاج بن عامر، وهو ولي آخر من المنطقة وتنقل فيما بعد إلى الساقية الحمراء ليكمل دراسته عند عالم آخر، الشيخ عبد الرحمن: "صار الطفل كاملاً: لقد تسلم حجرة الشبّ والحزام"، حسب أحد المؤرخين، وعندما بلغ خمس عشرة سنة، اتخذ أستاذاً آخر، سيدي محمد بن عبد الرحمن بن أبي فحص بن يحيى بن سليمان، مؤسس الزاوية "مولى السهول"، الذي كان يمارس الشاذلية، عندما انتهت تربيته سبع سنين بعد ذلك، وعندما وُجِدَ أنه حازم في إيمانه، فرض عليه أستاذه الاتصال بعلماء آخرين ليرفع من ذكائه ولتكون معلوماته واسعة في الإطار الروحاني، وحينئذ فإن "العلماء الأكثر شهرة كلفوا بتنمية فروع كل المعارف البشرية عند عبد القادر" .ودرس فيما بعد في الزاوية المشهورة في عهده، حسب مؤرخ آخر، وتعمّق في النظريات الصوفية وبعد أن ساح في التوات وتافلالت، أنشأ زاوية مغار، ثم زاوية الأبيض التي سرعان ما ذاع صيتها.

وحسب المؤرخ نفسه فإن عمله الصالح في إطار القانون والعدالة عوض بسرعة فوضى الزمان، كان لسيدي الشيخ تأثير كبير لأنه كان مناصراً للمقهورين وحكَماً سيّداً في كل القضايا، وكان يمنح بركته للجميع سواء كانوا كباراً أم صغاراً أجانب أم حجاجاً، فوصفه سيدي إبراهيم ابن الفجيج وهو معاصره على النحو التالي:

"كان يتمتع عبد القادر بذلك الجمال الخاص" بالرجال الذين طبعهم الله بخاتمه، وهكذا لا نستطيع التقرب منه دون أن نشعر بصفة طبيعية أننا مجذوبين نحوه: كان وجهه ذو البياض الكمد مضاءً بعينين سوداوين لا يمكن تحديد تعبيرهما واللتين أحياناً ومثل البرق، ترسلان وميضاً، كان صوته متناسقاً ونافذاً.

إن لطف نظراته يطمئن النفس وصوته الواضح والصافي يؤثر في الذهن بكيفية تحمل إليه الطمأنينة والثقة، وأخيراً فإن ظاهره وأناقته كانتا نبيلتين ومتميزتين وكانت أذواقه ذات بساطة قصوى، وبالتالي واقتداء به فإن مريديه أرادوا كلهم حمل سبحة مزركشة بحبات المرجان وذلك هو علامة ثرائهم".

وأخيراً، فإن أعمال سيدي الشيخ كانت هائلة، وقد كان له كذلك مواهب الشاعر الكبير، إن قصيدته الصوفية "الياقوتة" هي تحفة في المنطق والأناقة، إن هذه القصيدة التي "تنتهي بالإشارة إلى السلسلة التي لم تنقطع لاعتماداته، اعتمادات الشاذلية، ويقول وهو يتحدث عن الله نفسه أنه يؤسس المبدأ لكل الأشياء، إن هذه السلسلة من قواعده السنّية" كان لها العديد من الشارحين، وأشهرهم كان محمداً بن معروف، وهو منخرط في طريقة الدرقاوية، وكان يعد نفسه إماماً، ترك سيدي الشيخ أيضاً العديد من المؤلفات والدواوين ومن بينها العديد من الأعمال عن الصوفية وعن مناقب أجداده.

مات في زليتن سنة 1630 حسب البعض وفي سنة 1619 حسب الآخرين، إن مريدي طريقة الشاذلية والطريقة الفرعية لسيدي الشيخ، والطريقة الشيخية كانوا كثيرين جداً في فترة معينة، وهم الآن أيضاً كثر في كل المنطقة الصحراوية، أي ابتداءً من الهضاب العليا حتى قرارة والتوات، إن ضريح سيدي الشيخ هو "مبنى يتجاوز في أبعاده وفنّه المعماري كل المباني من هذا النوع التي نلقاها على كل التراب الوطني".

سيدي الحاج بلقاسم بن الحسين، وُلِدَ في قرية أوصيف قرب تيميمون سنة 921 هـ (القرن السادس عشر للميلاد). هو من عائلة شريفة إذ يرجع نسب أجداده إلى خليفة الإسلام عثمان بن عفان ودرس عند علماء كبار مشهورين مثل علي بن إبراهيم ومحمد بن

سليمان الجزولي الذي كان أخيراً تلميذاً لأبي الحسن الشاذلي والعالم المبجل عبد السلام بن مشيش، أستاذ الفكر الصوفي في ذلك الوقت.

شيّد المحبوب من الله سيدي الحاج بلقاسم مسجداً في أوصيف، وأعطى دروساً واستشارات في ذلك المقام الإسلامي، مع أنه كان يعتزل غالباً في الخلوة ليتفرغ بصفة كاملة لعبادة الله. وأسس كذلك مدرسة صارت فيما بعد زاوية تخرَّج منها العديد من العلماء، ستون تقريباً، ونذكر منهم أبا أمحمد بن أحمد الجزولي، سيدي عبد الله وسيدي أحمد بن يوسف.

وترك لنا سيدي الحاج بلقاسم عدة مؤلفات، أحدها في التوحيد وآخر عنوانه "منهاج السالكين" وآخر عن "معجزات النبي عبر السماوات السبع" أو" الشعائر المقدّسة للحج"..الخ.

كان أولاده مثله موجهين للعلوم والأعمال الصالحة، وقد أسس حفيده محمد عبد الكريم مدرسة قرب بوسعادة وبعد أن علَّم فيها القرآن وألقى دروساً في الوعظ والأخلاق على تلاميذه، هاجر إلى القيروان حيث أسس أيضاً مدرسة أخرى.

توفي سيدي الحاج بلقاسم وهو ولي الله وقد ترك لنا زاوية هامّة، كما قلنا ذلك سابقاً، كانت محلّ العديد من الزيارات إلى غاية يومنا هذا كما ترك لنا لأكل سنة – حفلة ملأى بالألوان، بمناسبة المولد النبوي.

سيدي الحاج أحمد بن يوسف التنلاني ولد في القرن الحادي عشر للهجرة (بداية القرن السابع عشر الميلادي) في قبيلة من نواحي أدرار، لقد قدمه مؤرخ التوات عبد القادر بن عمر بن عبد الرحمن المشداوي في كتابه على النحو التالي:

"كان أحد قادة العلم، علاَّمة كريماً وكفؤاً وفاضلاً، لقد كان زاهداً عالماً كبيراً في مجال علم التفسير والحديث، لقد تخصص كذلك في التاريخ ومن ناحية أخرى فإنه تحكم في العديد من مجالات الثقافة الأخرى، لقد ترك لنا في هذا الإطار بالذات عدداً من المخطوطات ومنها وصيته الشهيرة التي أهدى فيها كل أملاكه إلى زاوية تنلان ومخطوطاً آخر عنوانه "التوددّ" الذي كتب فيه تاريخ التوات وسكانه وأصولهم وكذاك تعليقاً مطولاً عن عدد من الأعيان السامين في المنطقة، إذ توجد نسخة من هذا المخطوط حالياً في فرنسا، لقد كان كذلك شاعراً ممتازاً، فقد خلَّف لنا عدداً من القصائد ومنها على الخصوص واحدة مهمّة جداً يحكم فيها على الذين يمارسون الربا في علاقاتهم التجارية وعنوانها: "إنارة البصائر في علم ما تفعله السماسر."

التحق سيدي بن يوسف بالرفيق الأعلى سنة 1078هـ، مخلفاً وراءه رأس مال معتبر من الرجال، كلهم مهتم بالعلوم والثقافة، ومن بينهم بولنوار بن عبد الكريم بن سيدي أحمد وهو مؤسس الزاوية الشهيرة في منطقة أولاف، والتي صارت فيما بعد تحت سلطة الشيخ مولاي هيبة وسيدي عومر بن عبد القادر وسيدي الحاج أحمد التنلاني وسيدي الحاج عومر بن عبد الرحمن مؤسس زاوْية أخرى، زاوية مهدية جنوب أدرار.

سيدي نايل: ولِدَ سنة 1565م تقريباً في ناحية فقيق، له شرف ديني مؤكد يرجع إلى مولاي إدريس الكبير، من ذرية علي ابن عم النبي محمد (صلّى الله عليه وسلم)، كان سيدي نايل حاكماً لمنطقة سوس على الشواطئ الغربية للمغرب بعد سقوط الأندلس، والذي وضع أسس الملك في فاس.

وقد استقى مبادئ التقوى في مخالطته أولياء الجنوب المغربي وتحصلّ على شهرة كبيرة في الولاية، كان أحد المؤرخين يقول:

"تقول التقاليد بأن سيدي نايل كان قوياً في البلاط وأن ملكه السلطان حسن، كان يمنحه كثيراً من العناية والتقدير، ثم وقعت خلافات خطيرة بين المغرب وتونس، وقرر السلطانان الاحتكام إلى السلاح لإنهاء النزاعات فاختار حسن سيدي نايل لمساعدته بصفته أول ملازم في هذه المغامرة والحملة البعيدة".

فانهزم سلطان المغرب ومات في الحرب، فقرر سيدي نايل أن يستقر في جبال فليتة في ناحية منداس وذلك خشية مواجهة الانتقام بعد الكارثة إن هو دخل إلى المغرب، ومع هذا فإنه لم يبق كثيراً فتنقل إلى جهة بوسعادة في العتبة قرب عين الريش وصعد إلى الشمال سنوات بعد ذلك واستقر في شعبة وادي اللحم، فمن هنا أتت قبيلة أولاد نايل وفي هذه الناحية لقي ربه وبنيت له قبة على ضريحه.

اتصل سيدي نايل بالعديد من العلماء في العلوم الدينية في مصر وسورية وأخذ بدروسهم القديمة، إن الأسطورة تنسب له العديد من المعجزات وموهبة التنبؤ بالأشياء قبل وقوعها، كما هو الحال بالنسبة لكل الأولياء، وإن محبي الأساطير والمثيرات يصل بهم الأمر إلى القول إن القوي القدير كان قد منحه نظرة مزدوجة تسمح له برؤية الأمور الروحية واللاّمادية، كانوا يقولون: "كان يرى في ماء الحوض الذي يتوضأ فيه المؤمنون قبل الصلاة أخطاءهم تتساقط وقد تم غفرانها لهم".

وفي الواقع لم يكن سيدي نايل سوى رجل علم وتقوى عميقة، لم يكن لا كاشف غيب ولا صانع معجزات ولا ساحراً.

سيدي عبيد بن خضير: كان رجلاً صالحاً في النمامشة، ربّما في القرن العاشر الميلادي، اختار في البداية جبل "فوا" ليجعل منه خلوته وعاش فيه أربعين سنة من التأمل، وهناك بنى منزلاً بسيطاً وبادر فيه بممارسته الدينية الأكثر خشونة وقسوة، فأتى الحجاج من كل حدب وصوب إلى خلوته ليستشيروه "آملين أن يمسهم منه جزء من تلك النعم السماوية الموزعة والذي كان محطة لها"، ولكنه بعد أن ملّ حياة الناسك قرر التنقل إلى السهل وأن يسافر فيما بعد إلى الجنوب، فزار منطقة وادي غير والسوف بصحبة ابنه عبد الملك، حيث تجمع حوله رواد جدد بسبب شهرة ولايته ومعارفه الواسعة وفضائله، وبعد تنقلاته الطويلة رضي بأن يرتاح على ضفة وادي قنطاس وما زالت القرية تحمل اسمه اليوم.

وبعد سنوات سكنتهُ من جديد حماسة الأسفار، فبرغم سنه المتقدمة فإنه قرر السفر إلى المناطق التي كان قد زرع فيها كلام الله، فتوفي في شعاب مسكيانة، وإن الولي سيدي عبيد، مثل سيدي الشيخ، قد أوصى ابنه أن يحمل جثمانه على ظهر جمل و"ترك كل الحرية للحيوان الذي يعرف الله قيادته جيداً إلى المكان الذي يريد أن يرتاح فيه عبده في رقاده الأخير". فتوجه الجمل وكأنه معجزة إلى النمامشة إلى المكان نفسه الذي عاش فيه سيدي عبيد أكثر من أربعين سنة من الصلاة والتعبد.

واليوم فإن سلالته التي كوّنت قبيلة كبيرة وهامةً ما زالت تسكن المناطق الواسعة للجنوب الشرقي وتسمى بأولاد سيدي عبيد.

سيدي عبد الرحمن بن منعتقي: وهو مشهور في قسنطينة، حيث وصلها من المغرب في أواخر القرن السادس عشر، قضى 17 سنة من حياته في الدراسة والبحث، ولأنه زاهد مقتنع فإنه كرس الوقت

المتبقي له للصلاة والدراسة، "إن اشتهاره بالولاية قد تجاوز جدران قسنطينة، وكانت الجماهير القادمة من كل منطقة الشرق تتدفق عليه لاستنشاق – عوض الكلام لأنه نذر بالسكوت – الروائح المفيدة التي تنبعث دائماً من أجسام الأولياء، والتي يكون استيعابها مفيداً للصحة الجسدية والذهنية "، توفي سيدي المنعتقي سنة 1611م ودفن في المسجد نفسه الذي تلقى فيه دروسه الأولى "مسجد الفرانين".

إن أحد مريديه المتحمسين، وهو "قائد الباب"، قد بنى له مسجداً كبيراً عوضاً عن المسجد القديم الذي تآكل من القدم مع احترام الخلية الضريحية التي يرتاح فيها الرجل الصالح، ما زال اليوم المسجد يسمّى: "مسجد سيدي عبد الرحمن المنعتقي".

سيدي قاسم ولِدَ في الحضنة، كان رجلاً تقياً وذا علم غزير "يرمي أشياء هذه الدنيا وراءه بعيداً ولا يهتم إلا بأمور السماء، كان يتنقل من خيمة إلى أخرى لإحياء الجذوة الدينية".

عاش الولي في نقاوس، إن مترجم الاستعمار ش. فيرو يحكي هذه الأسطورة المتعلقة به، حيث كان يقال إن سبعة شبان من المدينة ذوي شهرة واسعة وأخلاق ممتازة اختفوا فجأة دون أن يُعْرَفَ ما حدث لهم. وبالطبع حزنت مدينة نقاوس عليهم وبكاهم آباؤهم. فبعد ذلك بكثير، أي بضعة سنوات، عندما وصل سيدي قاسم إلى المدينة، اصطحب أحد أعيانها فتوجها معاً إلى أحد الأمكنة التي توضع فيها النّفايات، وهنا وبخ الولي مرافقه بكيفية قاسية: "كيف تتحملون أن ترمى النفايات في هذا المكان؟ فتشوا وسترون ماذا تعطي هذه النفايات" .وبالفعل فقد وجدوا فيه الشبان السبعة مستلقين على ظهورهم وموضوعين الواحد إلى جنب الآخر، وكان يظهر أن أولئك الشبان منغمسون في النوم عوض الموت، إن هذه المعجزة قد أحدثت

ضجّة في كل شرق البلاد. وهكذا فإن مسجداً قد بني في مكان الاكتشاف نفسه ويحمل اسم "جماعة السبعة الرقود".

كان سيدي قاسم علاّمة قد لقّن علم البيان واللاهوت وعلم الأبعاد، وبعد حياة مليئة بالأعمال الصالحة، التحق بربه سنة 1623م ودفن في المسجد الذي أسسه.

سيدي حملة قد عاش تقريباً في القرن الحادي عشر وهو من سلالة شريفة إذ يرجع أجداده هو كذلك إلى النبي محمّد (صلّى الله عليه وسلم) عن طريق مؤسس العائلة الإدريسية التي حكمت المغرب، لقد كان ولياً كبيراً، إن فضائله وتقواه المتوقدة قد أكسبته احترام مريديه وسكان القبائل من بوسعادة إلى مسيلة.

كان سيدي حملة – زيادة على استشاراته النفيسة – يتعاطى الأعمال الفلاحية. كان يتمع بحماسة كبير لخدمة الأرض وإحيائها، ينسب إليه مثل غيره من الأولياء موهبة صنع المعجزات، يحكى الكثير عن المناقب كان بطلها وبقيت لنا كأساطير تنعش بعض المظاهر من ثقافتنا الشعبية.

وعندما توفي سيدي حملة دفن على الضفة اليمنى من وادي مسيلة، إن ضريحه يستقبل الكثير من الزوار.

سيدي علي بن موسى نفوناس : جاء من الساقية الحمراء في القرن الخامس عشر ليستقر في معاتقة في نواحي تيزي ووزو، سيدي علي كان بحراً للعلم والثقافة، لنر كيف كان يصفه أدريان ديلبيش، وهو ترجمان قديم لدى الجيش الاستعماري:

"على مسافة خمس ساعات مشياً عن تيزي ووزو وفي قبيلة معاتقة، نلاحظ وجود زاوية كانت من قبل مشهورة جداً بالعلم الذي

يلقن فيها وبالمناقب الدينية التي وقعت فيها، وصحيح القول إنها كانت في ذلك الوقت تحت إشراف العلامة الطاهر جداً والكامل جداً، المصباح الساطع والنجمة القطبية اللامعة والمشعل الملتهب في الظلمات، ودكتور العلم الحقيقي وسلطان أهل الآداب والفائق الشهرة سيدي علي بن موسى أو كما يسمّى في المنطقة سيدي علي نفوناس يعني سيدي علي صاحب البقرة" أتاه هذا اللقب من "أعجوبة" كان هذا الرجل الصالح استعملها يوماً بالاعتماد على موهبته وقدراته الشهيرة على صنع المعجزات.

عند موت سيدي محمد بن يوسف أستاذه، خلفه سيدي علي نفوناس على رأس الزاوية واستولى على الكرسي الخالي للمتوفى.

وهكذا فإن الأمور تغيرت بالعين المجردة، علّمت الزاوية الفقه والمنطق واللاهوت والرياضيات وأخيراً، حسب أحد المؤرخين، "الدراسات التي تتناول تقريباً كل فروع المعارف العلمية التي كانت تُعلَّمُ في ذلك الوقت، وإذا أضفنا إلى مناقب الولي القدرة الخارقة التي كان يتمتع بها، فإننا لن نندهش أبداً من الانتشار الذي ميزّ شهرته كولي وعالم، ويبدو لنا أن الأمر طبيعي "أن ترى الناس يتهافتون حوله من كل القبائل الموجودة بين بجاية وسطيف وسور الغزلان ومليانة، والعديد من التلاميذ الذين يتحرقون على سماع كلامه والمشاركة في الاستماع إلى دروسه".

استطاع سيدي علي نفوناس في زمانه أن يشيد زاوية هامّة على غرار الثانويات الحالية والحصول على بعض الأبنية التي كانت نواة حبوسة، قبل وفاته كانت الزاوية تملك من بين ممتلكاتها 480 شجرة زيتون و340 شجرة تين والعديد من الأراضي القابلة للزراعة.

لقد كانت له علاقات وثيقة مع سيدي علي بوناب والشهير سيدي عيسى بن محمد، مات سيدي علي بطريقة مأساوية بعد أن خنقه أحد مريديه على أمر تافه، وهو قساوته حسب ما قالوا. إن أناس معاتقة بكوا مدّة طويلة ولي نعمة المنطقة وهم يعتبرون أنه خسارة كبيرة للعلم والآداب، إن ضريح سيدي علي نفوناس تزوره قبائل كل منطقة الجرجرة.

سيدي علي مبارك: هو من قبيلة هاشم التي هي من قبائل غرب البلاد، وكانت تسكن سهول غريس في منطقة معسكر، وباعتباره مسافراً لا يتعب فإنه قرر الذهاب ليتصل بالأندلسيين الذين طردوا من إسبانيا خلال القرن السادس عشر والذين استقروا في بعض المدن من بلادنا، كان يريد لقاء هؤلاء الناس والتحدث إلى الذين كان يقال إنهم بحور من العلم والذين وصلت شهرتهم إلى أعماق بايلك الغرب.

أخذ معه خادمين من قبيلته لمرافقته في ذلك السفر الحماسي والمتعب، ولكنه افترق عنهما في مليانة، لأنه لم يبق معه ما يكفيه للإنفاق عليهما ثم واصل سيدي مبارك وحده حتى مدينة القليعة حيث وصل ولم يبق معه أي مورد، ولكن كان عليه أن يعيش ويبقى أطول وقت ممكن في هذه المدينة ليتابع الدروس العلمية لهؤلاء العلماء العظام الذين أتوا من بعيد جداً، بعد أن استولت عليه الحاجة وبدأ الجوع يمزق أحشاءه، تحتم عليه أن يتخذ قراراً لم يكن راغباً فيه، لا من حيث أذواقه ولا من حيث عاداته: اشتغل خماسا عند ملاك يسمى إسماعيل بن محمد الذي اكتشف بسرعة أن عامله له قوّة لا توجد إلاّ عند رجال من ذلك المعدن، معدن الولاية، وبالفعل فإن سيدي مبارك الذي كان ضعيفاً على مسك المحراث، كما أكدنا ذلك، كان يقضي وقته في الذكر والصلاة، ومع هذا فقد قال أحد المؤرخين:

"شيء عجيب! إن عمله كان يتم؛ فالثوران المربوطان في المحراث كانا يسطران أثلامهما ويتجنبان بمهارة إماً الحجارة وإماً نباتات النخل القزم أو الأدغال الصغيرة البطمية التي كانت تعترض طريقهما (...) فالشيء المهم والمؤكد بالنسبة لسيدي علي هو أنه تكلف به "شخصياً".

وعرف مالك الأرض إسماعيل بن محمد قوة سيدي علي وحرره من ذلك العمل وأحاطه بكل علامات الاحترام اللائقة بمن اصطفاهم الله.

ولقد انتشر الحديث عن كرامات سيدي علي في كل مكان في القليعة وفي كل المتيجة، وتهافت المؤمنون من كل مكان ليستمتعوا بالكلمات النفيسة ويغمروه بالهدايا، ولكن سيدي علي لم يكن طموحاً ولا طامعاً في الدراهم ولا من باب أولى مغامراً، إن كل من استطاع جمعه – من ثروة – استعمل لبناء زاوية صارت مشهورة في كل الناحية المحيطة.

لقد أثبت سيدي علي أنه عالم من الدرجة الأولى باعتبار الدروس النفيسة في اللاهوت والفقه التي كان يلقيها على تلاميذه الكثر، وأثّر كثيراً بشهرته في الباشوات الأتراك في تلك الفترة والذين جاءوا لزيارته وطلبوا منه استشارات وقدموا له هدايا ثمينة، وهكذا وبعد حياة طويلة في العمل والتفاني وتعليم دين الله الحنيف فإن سيدي علي مبارك توفي في سنة 1630م. ووضع جثمانه في زاويته في القليعة نفسها وشيدت قبة ذات أسلوب معماري أنيق على ضريحه الذي ما زال إلى يومنا هذا مزاراً يقصده المريدون من كل الناحية.

فبفضل سيدي علي مبارك، حسب ما أكده المؤرخون، فإن القليعة، يعني القلعة الصغيرة، استحقت اسم المدينة محاكاة بالمدينة التي دفن فيها النبي محمد (صلّى الله عليه وسلم).

إن اسم سيدي علي مبارك ما زال يقرع الآذان في القليعة، تلك المدينة الثقافية والفنية، كما أن أسماء المتحدرين من سلالته ما زالت تقرع الآذان مثل الحاج محيي الدين الصغير الذي كانت له الشجاعة في رفض العرض الذي قدمته له فرنسا سنة 1831 ومحمد بن علال مساعد الأمير عبد القادر الذي سقط في ميدان الشرف بصفة بطولية لتحيا الجزائر.

سيدي فرج وهو أحد من اصطفاهم الله، جاء من الساقية الحمراء في بداية القرن السادس عشر بعد أن قام بدراسات لامعة، ولد في الأندلس وغادر إسبانيا بعد المرسوم الثاني للطرد وهو قرار تعسفي وتعصبي خاصّة وأنه أرغم العرب – الحاملين حضارة تلك الفترة – على مغادرة ذلك الجزء من العالم الذي أعطوه كل معارفهم وكل أناقتهم سواء في مجال الانجازات الحضرية والمعمارية أم في مجال العلوم والثقافة، كان سيدي فرج من بين أولئك العرب الأندلسيين الذين صنعوا مجد إسبانيا الجنوبية سواء بعمق علومهم أم باتساع معارفهم العامة وتنوعها".

لقد استقر في شبه جزيرة غرب مدينة الجزائر – وهي اليوم تحمل اسمه – وفي خليج يكفيه ليحفظه من قساوة الفصول، جعل خلوته ليعيش فيها حياة التقوى ويتحدث فيها مع الله بحضور مخلوقه العجيب، البحر المترامي الأطراف، لم يكن سيدي فرج يطلب الكثير؛ كان يعيش فقط بما ينبت من نبات على الكثبان الرملية الساحلية ومن الأصداف التي ترميها أمواج البحر على الشاطئ حسب ما كتبه أحد المؤرخين، إن تلك الحياة الزاهدة قد جعلت له شهرة الولاية التي انتشرت في الناحية وفي ذلك الشاطئ الواسع لمدينة

الجزائر، كان الناس يأتون بكثرة ليستمعوا إلى دروسه النفيسة ويمتثلوا لأحكام القرآن، وهكذا فإن سكان تلك الناحية ارتبطوا بوليهم وقبلوا خاشعين أكبر نصائحه الجيدة التي كانت تنبثق من أخلاقه وفضائله وتقواه، فتعوّدوا عليه وأحبوه بعمق إلى درجة أن محاولة اختطافه من قبل ملاح إسباني قد أكبرته في أذهانهم.

لنحكِ لكم هذه المغامرة باختصار شديد حسب ما ذكره تروملي؛ إن ملاحاً إسبانياً أراد أن يحرم سكان الشاطئ من حبهم لذلك الرجل الصالح وذلك بخطفه، كان هدفه أن يأخذ سيدي فرج وأن يبيعه كالرقيق. وهكذا وبعد أن بحث كثيراً على الشاطئ، رأى الإسباني سيدي فرج وقد نام على عتبة خلوته، فأسرع في حمل الولي على كتفه وتوجه إلى سفينته وأقلع نحو قرطاجنة، ولكن لنتأمل في اندهاش البحار الإسباني عندما طلع الفجر لاحظ أنه أمام شبه الجزيرة التي غادرها البارحة! إن سيدي فرج وهو مبتسم عبر لحيته الرمادية قال له: "أرجعني إلى الأرض وهكذا تستطيع الابحار من جديد". فأنزل سيدي فرج، ولكن وبعد ليلة من الابحار بقيت السفينة تراوح مكانها، فإن البحار الغاضب من ذلك الشيخ الهرم الذي استهزأ به بتلك الكيفية، وجّه له توبيخاً شديد اللهجة وفي لغة خالية من الصفاء كان البحارون من كل البلدان يستعملونها:

"ليس في هذا ما يدعوك للتعجب وستفهم بسهولة عندما أقول لك بأنني نسيت خفّي على ظهر سفينتك".

وبالفعل، فإنه عندما لم يرها في رجله فإنه أسرع لإحضارها، وفي تلك الأثناء وخلال المسافة التي تفصل بين شبه الجزيرة وسفينته، فهم بأن الرجل كان ولياً صالحاً.

فبعد أن تأثر بالعناية الإلهية، ارتمى جاثياً على قدميه وتوسل إليه بأن يُبقيهُ معه بصفة خادم، فقبل سيدي فرج طلب المسيحي الذي لم يتأخر في اعتناق الإسلام وصار هو أيضاً مسلماً متحمساً بعدما كان مسيحياً سيئاً. إن هذا الرجل، سيدي الروكو، كما كان يسميه أهل مدينة الجزائر، صار لا يفارق سيدي فرج وعاش معه آخر سنوات حياته، فمات معه في اليوم نفسه والساعة نفسها.

لقد شيّدت قبة فاخرة على قبريهما ولكنها، مع الأسف، حطمت سنة 1847 أثناء بناء القلعة التي بنيت على أنقاض المعبد نفسه.

وكان هناك آخرون قد أثّروا في التاريخ الديني لبلادنا باعتبار ثقافتهم وهيبتهم، إن هؤلاء الرجال الذين كانوا متفانين في مراعاة أحكام القرآن واحترام الشريعة الإسلامية في كل كمالها، هؤلاء الرجال – نعيد هذا – الذين كانت الصلاة والأعمال الصالحة وكذلك الحياة الزاهدة والتأملية تقربهم من الله، كانوا يجسدون مثل ذلك الانسجام والتضحية والكمال في الكرم.

ومن بينهم:

– **سيدي معمر بن سليمان العالية**، وهو عالم وولي أتانا من تونس وخرج منه أولاد سيدي الشيخ.

– **سيدي الحاج بوحفص**، وهو الولد الثالث لسيدي الشيخ.

– **سيدي الناصر**، الذي توجد قبته بين قصر ستيتن وشط الشرقي، وفوق ضاية الحمراء.

– **سيدي علي بوسعيد**، وهو داعية أتى من الساقية الحمراء ليستقر في قصر الغاسول.

– **سيدي محمد بن سيدي عبد الرحمن وابنه سيدي ثامر**، وهما وليا أولاد نايل.

– **سيدي براهيم بن عالية** وهو سليل الشهير سيدي عبد القادر الجيلاني وهو مشهور في مناطق الجنوب والهضاب العليا.

– **سيدي أحمد الكبير** وهو ولي البليدة والذي كان معروفاً بكفاءاته في مجال الهندسة المعمارية.

– **سيدي عبد الكريم بن يحيى في قسنطينة**

– **سيدي والي داده وسيدي بتكه وسيدي بوقدور** الذين، بالإضافة إلى أعمالهم التي لا تحصى من أجل تعليم الكلمة الطيبة، قد كان لهم دور مهم في انهزام شارل الخامس سنة 1541م.

– **سيدي بلال** وهو ولي من مدينة الجزائر ويبجله أناس الجنوب.

– **سيدي أحمد الزواوي** الذي حارب من أجل الإسلام والحرية وكان له دور حاسم ضد الإسبان تحت قيادة الإرلندي: الكونت أورلي.

– **سيدي الخلفة بن سيدي يحيى**، وهو ولي مبجل في الطيطري.

– **سيدي علي بوتليليس** وهو ولي من فاس وقد استقر في نواحي وهران.

– **سيدي معزوز** وهو ولي جاء من مالقة ويوجد ضريحه حالياً قرب مستغانم.

– **سيدي محمد بن ميمون** جاء من أشبيلية، وهي مدينة سيدي بومدين شعيب، وضريحه يقع بين تنس ومستغانم عند أولاد بورحمة.

– **سيدي منصور** وهو كذلك أصيل من قرطبة في الأندلس وضريحه كان في باب عزون في مدينة الجزائر.

– **سيدي علي أوطالب** وهو ولي من زمان ملوك كوكو وهي جزء من منطقة القبائل الكبرى. وعاش في زمان السلطان سيدي عامر أولقاضي وولده هند أوالقاضي وهم من الساقية الحمراء.

– **سيدي علي أويحيى** جاء هو الآخر من الساقية الحمراء وكان ولياً عند قبائل إيث يني أو بني يني وكان له عليهم سلطة روحية كبيرة، إن حياة هذا الولي تظهر جلياً يقظة قبائل منطقة القبائل الذين قال أولياء تاوريرت ميمون إنهم من أبنائه.

وأخيراً فهناك المئات في بلادنا وهم معروفون تقريباً من قبل جميع الجزائريين، هناك أقطاب مثل سيدي عبد الرحمن الثعالبي وسيدي بومدين شعيب والذين باعتبار ثقافتهم الواسعة وتشربهم النظريات والممارسات الإسلامية، قد عكسوا بريق الفترات التي عاشوا فيها. وهناك آخرون لم يمارس تأثيرهم لأ ولا يمارس إلى اليوم – إلاّ محلياً، أي في المناطق التي عاشوا فيها، إن هؤلاء أيضاً محترمون ومبجلون في مكان صغير، إن أضرحتهم وحجارة قبورهم ما زالت تزار من قبل العوام الذين يعترفون بسلطتهم، وهي سلطة غالباً ما تغذيها الأساطير والمعجزات التي تنسب إليهم والتي تضعهم، بطبيعة الحال، في مرتبة الشفيع عند الله، لهذا فإنه من المعروف أن العوام والمصدقين والسذج وعلى وجه الخصوص الجهّال يدفعون الإيمان إلى غاية المبالغة.

وعلى كل حال، فإن شدّة التعلق بالأولياء ليست ممارسة خاصّة ببلدنا، أو فقط في أرض الإسلام، إذ إن شدة التعلق بالأولياء – حيث

يتداخل الواقع مع الخيال والحقيقي مع الأسطوري – موجود كذلك عند المسيحيين مع القديس بطرس والقديس بولس والقديس حنا وآخرين.

وهكذا فإن هذه الدراسة – وإن كانت متواضعة – تستطيع أن تضيء بعض المناطق المظلمة، وتبرز خاصةً للشبان أن إسلامنا كان دائماً وسيلة للانعتاق والتقدم، إن الشخصيات الشهيرة التي ذكرناها سواء عبر علمهم أو عبر تفانيهم في العبادة، قد عرّفونا على جانب من التاريخ الديني للجزائر كان من الصعوبة بمكان الوصول إليه.

خلاصة قصيرة

لننه هذا العمل...

ماذا يمكننا أن نقول في خلاصة هذين الجزئين؟ كلمتان فقط:

فالجزائر، برغم طول وقسوة مقاومتها ضد الغزاة الكثيرين، قد كانت دائماً أرض إيمان وثقافة، ولم يؤثر في طموح أبنائها نحو السمو والتقدم والحرية لا مختلف الاحتلالات التي تعرضت لها ولا الأوضاع القاسية التي عاشتها.

سيجد القارئ عبر تلك الصفحات المكتوبة بكل نزاهة وبدون أي حماسة ولا انحياز مجموعة من المعلومات التي تساعده على إعادة اعتبار موقفه تجاه الرجال والمؤسسات التي جسدت منذ قرون مثلاً أعلى للانسجام بإسماع الرسالة بموضوعية وبتنظيم الشعب، وهكذا سيعرف كيف يحترم الرجال البسطاء الذين لهم قلب صاف والذين كانوا شخصيات مرموقة في العلوم وفي الآداب؛ وأكثر من ذلك لقد كانوا علماء مشهورين.

سيفهم الشبان خاصةً أن بلدنا ليس أرضاً شرسة ولا منطقة عقيمة، سيعرفون أنه كان مسرحاً لأحداث تاريخية وملتقى لتبادلات مثمرة قد سمحت لأجيال مضت أن تبرز سياسياً وثقافياً وعلمياً في حظيرة المغرب العربي.

كان ينبغي أن يقال هذا كله في أسلوب بسيط وسهل الاستيعاب من قبل الشبان، ونعتقد أننا قد قمنا بهذه المهمة متبعين في ذلك تعاليم القرآن الكريم الذي يوصي بما معناه:

"وذكر إن نفعت الذكرى"

الفهرس

طبع بمطبعة دار هومه
34، حي لابروبيار – بوزريعة – الجزائر
الهاتف : 021.94.41.19 /021.94.19.36
الفاكس : 021.94.17.75 /021.79.91.84
www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com



الكاتب والوزير والسفير من المناضلين الذين قضوا أوقاتهم في البذل والعطاء، زاول دراسته بالجزائر ثم انتقل إلى القاهرة ...وعند رجوعه تقلّد عدة مسؤوليات في جبهة التحرير الوطني والمنظمات الجماهيرية.

له عدة مؤلفات في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية كما له مقالات ودراسات عديدة في كل الصحف والمجلات الوطنية والعربية والأجنبية.

إن الأحداث المأساوية التي عاشها شعبنا أظهرت لنا إلى أي درجة لم يفهم ديننا وثقافتنا سواء داخل البلاد أو خارجها وإلى أي حدّ يغذي عدم الفهم هذا الإشاعات والأكاذيب والافتراءات للإساءة إلينا وتذكيرنا بتلك المقولة المهينة التي كانت ترمي إلى تحريف تاريخنا وتشويه ماضينا: " إن هذا الجنس ليس له أي خصوصية إيجابية ".

إن الذين يروجون للأفكار التي أكل عليها الدهر وشرب والتي هي خطيرة جدا، مكررين بصوت عال الصيغ الاستعمارية التي كانوا يصفوننا بها على أننا " شعب قاصر وبدائي وعاجز بل صالح فقط لرعاية لطيفة وأبوية " يلتحقون بدون شك بكل الذين يواجهون الإسلام والثقافة علانية لأنهم يقومون بحرب صليبية جديدة.

فالكتاب هذا يطمح أن يشرح من ناحية أن الإسلام والثقافة كانا بالنسبة لنا نحن الجزائريين منذ القدم ورغم تدافع الأحداث، وسيلتين سمحتا لنا بإحداث حضارتنا ودعم روح الكفاح والمقاومة عندنا ومن ناحية ثانية، أن يسمح لشبابنا الوصول إلى معرفة مستنيرة لماضيهم المجيد ومعرفة أولئك الرجال الذين أعطوا للتاريخ اندفاعاً قوياً بإيمانهم الصلب وباطلاعهم الواسع وبتجربتهم وتضحياتهم.



ISBN:978-9961-65-148-3 :ردمك
9 789961 651483



www.editionshouma.com
e-mail:info@editionshouma.com

